الشهيد سيد قطب (رحمه اللّه)

في ظلال القرآن

طبعة إلكترونية منقحة و مختصرة

قام بإنجازها الفقير الى رحمة ربه محمد رباعة

الجزء الثالث (3)

دار القبس للنشر الإلكتروني

ص ب: 42 أولاد موسى 35011 / بومرداس (الجزائر)
الهاتف: 78 ـ 73 ـ 20 ـ 0662

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) البقرة {286}

الجزء الثالث (٣) الطبعة الثانية (٢) مای ٢٠٢٢

الإهداء : إلى أستاذ الجيل ، الشهيد سيد قطب الذى علمنا و نحن صغار و كبار كيف نفهم القرآن الكريم ... اللهم أرحمه و أغفر له و أسكنه دارا خير من داره فى جنة الرضوان ... آمين يا رب العالمين .

بقبة سورة الأنعام

آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{١٤٣} وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَـذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{١٤٤} قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{١٤٥} وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ{١٤٦} فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ{١٤٧} سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ{١٤٨} قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ{١٤٩} قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَـذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ{١٥٠} قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{١٥١} وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ{١٥٢} وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ{١٥٣}

وقبل أن نمضى فى مواجهة النصوص تفصيلا ، نحب أن نعيش فى ظلال السياق القرآنى بجملته . . لنرى محتوياته على وجه الإجمال . ولنرى دلالته وإيحاءاته كذلك . . إنه يبدأ بعرض مجموعة التصورات والمزاعم الجاهلية حول ما كانوا يزاولونه فى شأن الثمار والأنعام والأولاد – أى فى شأن المال والاجتماع – فى جاهليتهم . فنجد هذه التصورات والمزاعم تتمثل فى:

1 –تقسيمهم ما رزقهم الله من رزق ، وأنشأ لهم من زروع وأنعام ، إلى قسمين: قسم يجعلونه لله – زاعمين أن هذا مما شرعه الله – وقسم يجعلونه لشركائهم – وهى الآلهة المدعاة التى يشركونها فى أنفسهم وأموالهم وأولادهم من دون الله: (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . فقالوا: هذا لله – بزعمهم – وهذا لشركائنا)!

2 –أنهم بعد ذلك ، يجورون على النصيب الذى قسموه لله . فيأخذون جانبا منه ويضمونه إلى ما قسموه لشركائنا ، ولا يفعلون مثل ذلك فيما قسموه للشركاء !: (فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم)!

3 –أنهم يقتلون أولادهم بتزيين من الشركاء – وهم فى هذه الحالة إنما هم الكهان والمشترعون فيهم – ممن يصنعون التقاليد التى يخضع لها الأفراد فى المجتمع ، بحكم الضغط الاجتماعى من ناحية ، وحكم التأثر بالأساطير الدينية من ناحية – وكان هذا القتل يتناول البنات مخافة الفقر والعار . كما قد يتناول الذكور فى النذور ، كالذى نذره عبد المطلب أن لو رزقه الله عشرة أبناء يحمونه ليذبحن أحدهم للآلهة ! (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ، ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم)!

4 –أنهم كانوا يحجزون بعض الأنعام وبعض الزروع ؛ فيزعمون أنها لا تطعم إلا بإذن خاص من الله – هكذا يزعمون ! – كما كانوا يمنعون ظهور بعض الأنعام من الركوب ، ويمنعون أن يذكر اسم الله على بعضها عند الذبح أو الركوب أولا يركبونها فى الحج لأن فيه ذكر الله . مع الزعم بأن هذا كله قد أمر الله به

.: (وقالوا:هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء – بزعمهم – وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها – افتراء عليه – !).

5 –وأنهم كانوا يسمون ما فى بطون بعض الأنعام من الحمل لذكورهم ، ويجعلونه محرما على إناثهم . إلا أن ينزل الحمل ميتا فعندئذ يشترك فيه الذكور والإناث ! مع نسبة هذه الشريعة المضحكة إلى الله:(وقالوا:ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم). .

هذه هى مجموعة التصورات والمزاعم والتقاليد التى كانت تصبغ وجه المجتمع العربى فى الجاهلية ، والتى يتصدى هذا السياق القرانى الطويل – فى سورة مكية – للقضاء عليها , وتطهير النفوس والقلوب منها ، وإبطالها كذلك فى الواقع الاجتماعى .

ولقد سلك السياق القرآنى هذا المنهج فى خطواته البطيئة الطويلة الدقيقة:

لقد قرر ابتداء خسران الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله – افتراء على الله –وأعلن ضلالهم المطلق فى هذه التصورات والمزاعم التى ينسبونها إلى الله بغير علم .

ثم لفت أنظارهم إلى أن الله هو الذى أنشأ لهم هذه الأموال التى يتصرفون فيها هذه التصرفات . . هو الذى أنشأ لهم جنات معروشات وغير معروشات . وهو الذى خلق لهم هذه الأنعام . . والذى يرزق هو وحده الذى يملك ، وهو وحده الذى يشرع للناس فيما رزقهم من هذه الأموال . . وفى هذه اللفتة استخدم حشدا من المؤثرات الموحية من مشاهد الزروع والثمار والجنات المعروشات وغير المعروشات ، ومن نعمة الله عليهم فى الأنعام التى جعل بعضها حمولة لهم يركب ويحمل وبعضها فرشاً ، يؤكل لحمه ويفرش جلده وصوفه وشعره . . كما استخدم ذكرى العداء المتأصل بين بنى آدم والشيطان . فكيف يتبعون خطوات الشيطان ، وكيف يستمعون لوسوسته وهو العدو المبين ؟!

بعد ذلك استعرض فى تفصيل شديد سخافة تصوراتهم فيما يختص بالأنعام ، وخلوها من كل منطق , وألقى الأضواء على ظلمات التصورات حتى لتبدو تافهة مهلهلة متهافتة . . وفى نهاية هذا الاستعراض يسأل: علام ترتكنون فى هذه التشريعات الخالية من كل حجة ومنطق:) أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟) فكان ذلك سرا تعلمونه أنتم ووصية خاصة بكم ! ويشنع بجريمة الافتراء على الله ، وإضلال الناس بغير علم . ويجعل

(وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً . فقالوا:هذا لله – بزعمهم – وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون !). .

يقرر السياق – وهو يصف تصورات الجاهلية وتقاليدها فى الحرث والأنعام – أن الله هو الذى أنشأ لهم هذه الزروع والأنعام ؛ فما من أحد غير الله يرزق الناس من الأرض والسماء . . ثم يذكر بعد هذا التقرير ما يفعلونه بما رزقهم . إذ يجعلون له منه سبحانه جزءا ، ويجعلون لأوثانهم وأصنامهم جزءا [وطبيعى أن سدنة الأوثان هم الذين ينتهى إليهم هذا الجزء الأخير !] . ثم هم بعد ذلك يجورون على الجزء الذى جعلوه لله . على النحو الذى تقرره الآية !

عن ابن عباس قال: كانوا إذا أدخلوا الطعام فجعلوه حزما ، جعلوا منه لله سهما وسهما لآلهتهم . وكانت إذا هبت الريح من نحو الذى جعلوه لآلهتهم إلى الذى جعلوه لله ردوه إلى الذى جعلوه لآلهتم . وإذا هبت الريح من نحو الذى جعلوها لله إلى الذى جعلوه لآلهتهم ، أقروه ولم يردوه . فذلك قوله: (ساء ما يحكمون).

هذا هو ما كان شياطين الإنس والجن يوحون به إلى أوليائهم ليجادلوا به المؤمنين فى الأنعام والزروع . وظاهر فى هذه التصورات والتصرفات أثر المصلحة للشياطين فى هذا الذى يزينونه لأوليائهم . فأما مصلحة شياطين الإنس – من الكهنة والسدنة والرؤساء – فهى متمثلة أولا فى الاستيلاء على قلوب الأتباع

والأولياء ، وتحريكهم على هواهم وفق ما يزينونه لهم من تصورات باطلة وعقائد فاسدة ! ومتمثلة ثانيا فى المصالح المادية التى تتحقق لهم من وراء هذا التزيين والاستهواء لجماهير الناس ؛ وهو ما يعود عليهم مما يقسمه هؤلاء الأغرار المغفلون للآلهة ! . . وأما مصلحة شياطين الجن فتتمثل فى نجاح الإغواء والوسوسة لبنى آدم حتى يفسدوا عليهم حياتهم ، ويفسدوا عليهم دينهم ، ويقودوهم ذللا إلى الدمار فى الدنيا والنار فى الآخرة ! وهذه الصورة التى كانت تقع فى جاهلية العرب ، وكانت تقع نظائرها فى الجاهليات الأخرى:للإغريق والفرس والرومان , والتى ما تزال تقع فى الهند وإفريقية وآسيا . . . هذه الصور كلها ليست إلا صورا من التصرف فى المال لا تقتصر عليها الجاهلية ! فالجاهلية الحاضرة تتصرف كذلك فى الأموال بما لم يأذن به الله . وعندئذ تلتقى فى الشرك مع تلك الجاهليات القديمة . تلتقى فى الأصل والقاعدة . فالجاهلية هى كل وضع يتصرف فى شؤون الناس بغير شريعة من الله . ولا عبرة بعد ذلك باختلاف الأشكال التى يتمثل فيها هذا التصرف . . فإن هى إلا اشكال . .(وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله ما فعلوه . فذرهم وما يفترون).

يقول:وكما زين الشركاء والشياطين لهم ذلك التصرف فى أموالهم كذلك زينوا لهم قتل أولادهم . . وذلك ما كانوا يفعلونه من وأد البنات خشية الإملاق – أو خشية السبى والعار – ومن قتل بعض الأبناء فى النذر للآلهة كالذى روى عن عبد المطلب من نذره ذبح أحد ولده ، إن رزقه الله بعشرة منهم يحمونه ويمنعونه ! وظاهر أن هذا وذاك كان يوحى به عرف الجاهلية . العرف الذى وضعه الناس للناس . والشركاء المذكورون هنا هم شياطين الإنس والجن . . من الكهنة والسدنة والرؤساء من الإنس , ومن القرناء الموسوسين من الجن ، بالتعاون والموالاة فيما بينهم ! والنص يصرح بالهدف الكامن وراء التزيين (ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم) ليهلكوهم وليجعلوا دينهم عليهم ملتبساً غامضاً لا يقفون منه على تصور واضح . . فأما الهلاك فيتمثل ابتداء فى قتلهم لأولادهم ؛ ويتمثل أخيراً فى فساد الحياة الاجتماعية بجملتها ، وصيرورة الناس ماشية ضالة يوجهها رعاتها المفسدون حيثما شاءوا ، وفق أهوائهم ومصالحهم ! حتى ليتحكموا فى أنفسهم وأولادهم وأموالهم بالقتل والهلاك ، فلا تجد هذه الغنم الضالة لها مفرا من الخضوع . لأن التصورات المتلبسة بالدين والعقيدة –وما هى منها –بكل ثقلها وعمقها ، تتعاون مع العرف الاجتماعى المنبثق منها ، وتنشى ثقلاً ساحقاً لا تقف له جماهير الناس . ما لم تعتصم منه بدين واضح ؛ وما لم ترجع فى أمرها كله إلى ميزان ثابت . إنه فعل الشياطين . . شياطين الإنس والجن . . وإنها الجاهلية تختلف أشكالها وصورها , وتتحد جذورها ومنابعها ، وتتماثل قوائمها وقواعدها . . وإننا لنبخس القرآن قدره ، إذا نحن قرأناه وفهمناه على أنه حديث عن جاهليات كانت ! إنما هو حديث عن شتى الجاهليات فى كل أعصار الحياة . ومواجهة للواقع المنحرف دائماً ورده إلى صراط الله المستقيم . . ومع ضخامة الكيد ، وثقل الواقع ، فإن السياق القرآنى يهوّن أمر الجاهلية ، ويكشف عن الحقيقة الكبرى التى قد يخدع عنها هذا الجانب الظاهر . . إن هؤلاء الشياطين وأولياءهم لفى قبضة الله وسلطانه . وهم لا يفعلون ما يفعلونه بقدرة ذاتية فيهم . ولكن بترك الحبل ممدوداً لهم قليلاً ؛ بمشيئة الله وقدره ، تحقيقاً لحكمة الله فى ابتلاء عباده . ولو شاء ألا يفعلوه ما فعلوه . ولكنه شاء للابتلاء . فلا على النبى ﷺ ولا على المؤمنين . فليمضوا فى طريقهم وليدعوا له الشياطين وما يفترون على الله وما يكيدون (ولو شاء الله ما فعلوه . فذرهم وما يفترون) ولا بد أن نذكر أنهم ما كانوا يجرؤون على أن يقولوا:إن هذه التصورات والتصرفات من عند أنفسهم . إنما يفترون على الله ، فيزعمون أنه هو شرعها لهم . . ينسبونها بذلك إلى شريعة إبراهيم وإسماعيل – بزعمهم ! كذلك يفعل الشياطين اليوم فى الجاهليات الحديثة . . إن معظمهم لا يستطيع أن يتبجح تبجح الشيوعيين الملحدين ؛ (وقالوا:هذه أنعام وحرث حجر ، لا يطعمها إلا من نشاء – بزعمهم – وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها – افتراء عليه – سيجزيهم بما كانوا يفترون) قال أبو جعفر بن جرير الطبرى:" وهذا خبر من الله – تعالى ذكره – عن هؤلاء الجهلة من المشركين . إنهم كانوا يحرمون ويحللون من قبل أنفسهم ، من غير أن يكون الله أذن لهم بشىء من ذلك " . وهنا كذلك تبدو لنا أساليب الجاهلية ، التى تتكرر فى معظم الجاهليات ، وذلك قبل أن يبلغ التبجح بناس من البشر أن يقولوا بمادية الوجود ! وقبل أن يبلغ التبجح ببعض من لا ينكرون الله البتة ، أن يجهروا بأن "الدين" مجرد "عقيدة" وليس نظاماً اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسيا ، يهيمن على الحياة !

وإن كان ينبغى أن ندرك دائماً أن أسلوب الجاهلية التى تقيم نظاماً أرضياً ، الحاكمية فيه للبشر لا لله ، ثم تزعم أنها تحترم الدين وتستمد منه أوضاعها الجاهلية . . أن ندرك أن هذا الأسلوب هو أخبث الأساليب وأمهرها على الإطلاق ! ولقد عمدت الصليبية العالمية والصهيونية العالمية إلى هذا الأسلوب فى المنطقة التى كانت يوما دار إسلام تحكم بشريعة الله . بعدما تبين لها فشل التجربة التركية التى قام بها البطل الذى

صنعوه هناك ! . . لقد أدت لهم هذه التجربة دورا هاما فى تحطيم الخلافة كآخر مظهر للتجمع الإسلامى فى الأرض ، ولكنها بعلمانيتها السافرة قد عجزت عن أن تكون نموذجاً يؤثر فى بقية المنطقة . لقد انخلعت من الدين ، فأصبحت أجنبية عن الجميع ، الذين ما يزال الدين عاطفة غامضة فى قرارات نفوسهم . . ومن ثم عمدت الصليبية العالمية والصهيونية فى التجارب التالية ، التى تستهدف نفس الهدف , أن تتدارك غلطة التجربة الكمالية التركية . فتضع على هذه التجارب ستارا من الدين وتقيم له أجهزة دينية تضفى عليه هذه الصفة ، سواء بالدعاية المباشرة ؛ أو باستنكار جزئيات هزيلة يوهم استنكارها أن ما عداها سليم ! وكان هذا من أخبث الكيد الذى تكيده شياطين الإنس والجن لهذا الدين . . على أن الأجهزة الصليبية والصهيونية التى تعمل بكل ثقلها فى هذه الفترة ، وبكل تضامنها وتجمعها ، وبكل تجاربها وخبرتها ، تحاول أن تسترد الغلطة فى التجربة التركية ذاتها ، بأن تزعم أن هذه التجربة ذاتها كانت حركة من حركات البعث الإسلامى !وأننا يجب ألا نصدقها فيما أعلنته عن نفسها من أنها [علمانية] تنبذ الدين وتعزله عن الحياة عزلاً !

ويجهد المستشرقون [وهم الأداة الفكرية للاستعمار الصليبى الصهيونى] فى تطهير التجربة الكمالية من تهمة الإلحاد جهداً كبيراً . . ذلك أن انكشاف إلحادها جعلها تؤدى دوراً محدوداً . . وهو سحق آخر مظهر للتجمع الإسلامى فى الأرض . . ولكنها عجزت بعد ذلك أن تؤدى الدور الآخر – الذى تحاول أن تؤديه التجارب التالية فى المنطقة – من تفريغ المفهومات الدينية والحماسة الدينية فى أوضاع وأشكال جاهلية ! ومن تبديل الدين باسم الدين ! ومن إفساد الخلق والمقومات الفطرية الأصيلة باسم الدين أيضا . ومن إلباس الجاهلية ثوب الإسلام لتؤدى به دورها فى كل البقاع التى ما يزال فيها عاطفة دينية غامضة ؛ وقيادتها بهذا الخطام المزور الخادع إلى محاضن الصليبية والصهيونية . . الأمر الذى عجزت عنه الحملات الصليبية والصهيونية طوال ألف وثلاث مائة عام ، من الكيد للإسلام !(سيجزيهم بما كانوا يفترون) (وقالوا:ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم) لقد استطردوا فى أوهام التصورات والتصرفات ، النابعة من انحرافات الشرك والوثنية , ومن ترك أمر التحليل والتحريم للرجال ؛ مع الادعاء بأن ما يشرعه الرجال هو الذى شرعه الله . استطردوا فى هذه الأوهام فقالوا عن الأجنة التى فى بطون بعض الأنعام – ولعلها تلك المسماة البحيرة والسائبة والوصيلة – إنها خالصة للذكور منهم حين تنتج ، محرمة على الإناث ، إلا أن تكون ميتة فيشارك فيها الإناث الذكور . . هكذا بلا سبب ولا دليل ولا تعليل ، إلا أهواء الرجال التى يصوغون منها دينا غامضاً ملتبسا فى الأفهام . ويعقب السياق القرآنى تعقيب التهديد ؛ لمن صاغوا هذه الشرائع وكذبوا على الله فوصفوها بأنها من شرع الله (سيجزيهم وصفهم). (إنه حكيم عليم)يعلم حقائق الأحوال ، ويتصرف فيها بحكمة ، لا كما يتصرف هؤلاء المشركون الجهال . ألا إنها الخسارة الفادحة – هنا فى الدنيا قبل الآخرة – حين تنحرف البشرية عن صراط الله المستقيم ؛ وتتردى فى حمأة الجاهلية ؛ وترجع إلى العبودية الذليلة لأرباب من العبيد (قد خسر الذين قتلوا أولادهم – سفها بغير علم – وحرموا ما رزقهم الله – افتراء على الله – قد ضلوا وما كانوا مهتدين). . خسروا الخسارة المطلقة . خسروا فى الدنيا والآخرة . خسروا أنفسهم وخسروا أولادهم . خسروا عقولهم وخسروا أرواحهم . خسروا الكرامة التى جعلها الله لهم بإطلاقهم من العبودية لغيره ؛ وأسلموا أنفسهم لربوبية العبيد ؛ حين أسلموها لحاكمية العبيد ! وقبل ذلك كله خسروا الهدى بخسارة العقيدة ، خسروا الخسارة المؤكدة ، وضلوا الضلال الذى لا هداية فيه (قد ضلوا وما كانوا مهتدين) بعد ذلك يردهم السياق إلى الحقيقة الأولية التى ضلوا عنها ، والتى أشار إليها إشارة فى أول هذا الحديث بقوله: (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا). . يردهم إلى مصدر الحرث والأنعام التى يتصرفون فى شأنها هذه التصرفات ؛ ويتلقون فى شأنها من شياطين الإنس والجن الذين لم يخلقوها لهم ولم ينشئوها . . إن الله هو الذى ذرأ الحرث والأنعام ، متاعا للناس ونعمة ؛ ذرأها لهم ليشكروا له ؛ ويعبدوه – وما به سبحانه من حاجة إلى شكرهم وعبادتهم ، فهو الغنى ذو الرحمة ؛ إنما هو صلاح حالهم فى دينهم ودنياهم – فما بالهم يحكمون من لم يخلق شيئاً ، فيما ذرأ الله من الحرث والأنعام ? وما بالهم يجعلون لله نصيبا ، ولأولئك نصيبا ، ثم لا يقفون عند هذا الحد فيتلاعبون – تحت استهواء أصحاب المصلحة من الشياطين – فى النصيب الذى جعلوه لله ؟!

إن الخالق الرازق هو الرب المالك . الذى لا يجوز أن يُتصرف فى هذا المال إلا بإذنه ممثلا فى شرعه . وشرعه ممثل فيما جاء به رسوله من عنده ، لا فيما يدعى الأرباب المغتصبون لسلطان الله أنه شريعة الله ! (وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان ، متشابها وغير متشابه . كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده , ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . ومن الأنعام حمولة وفرشا . كلوا مما رزقكم الله ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين) إن

الله – سبحانه – هو الذى خلق هذه الجنات ابتداء – فهو الذى أخرج الحياة من الموات – وهذه الجنات منها الإنسيات المعروشات التى يتعهدها الإنسان بالعرائش والحوائط ; ومنها البريات التى تنبت بذاتها – بقدر الله – وتنمو بلا مساعدة من الإنسان ولا تنظيم . وإن الله هو الذى أنشأ النخل والزرع مختلف الألوان والطعوم والأشكال . وإن الله هو الذى خلق الزيتون والرمان ، منوع الصنوف متشابها وغير متشابه , وإنه – سبحانه – هو الذى خلق هذه الأنعام وجعل منها(حمولة)عالية القوائم بعيدة فى الأرض حمالة للأثقال . وجعل منها(فرشا)صغيرة الأجسام قريبة من الأرض يتخذ من أصوافها وأشعارها الفرش ، وعندما يذكر الزروع والثمار يقول (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين) والأمر بإيتاء حقه يوم حصاده هو الذى جعل بعض الروايات تقول عن هذه الآية إنها مدنية . وقد قلنا فى التقديم للسورة:إن الآية مكية ، لأن السياق فى الجزء المكى من السورة لا يتصور تتابعه بدون هذه الآية . فإن ما بعدها ينقطع عما قبلها لو كانت قد تأخرت حتى نزلت فى المدينة . وهذا الأمر بإيتاء حق الزرع يوم حصاده ، لا يتحتم أن يكون المقصود به الزكاة . وهناك روايات فى الآية أن المقصود هو الصدقة غير المحددة . . أما الزكاة بأنصبتها المحددة فقد حددتها السنة بعد ذلك فى السنة الثانية من الهجرة ، وقوله تعالى (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) ينصرف إلى العطاء ، كما ينصرف إلى الأكل . فقد روى أنهم تباروا فى العطاء حتى أسرفوا , فقال الله سبحانه: (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) وعندما يذكر الأنعام يقول (كلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين) ذلك ليذكرهم أن هذا رزق الله وخلقه ، والشيطان لم يخلق شيئا . فما بالهم يتبعونه فى رزق الله ؟ ثم ليذكرهم أن الشيطان لهم عدو مبين . فما بالهم يتبعون خطواته وهو العدو المبين ؟! ثم يأخذ السياق فى مواجهة دقيقة يتتبع بها مكامن الأوهام الجاهلية ، ليلقى عليها الضوء , ويستعرضها واحدا واحدا ، وجزئية جزئية ؛ فيكشف فيها عن السخف الذى لا يمكن تعليله ولا الدفاع عنه ؛ والذى قد يخجل منه صاحبه نفسه ، حين يكشف له فى النور ؛ وحين يرى أن لا سند له فيه من علم ولا هدى ولا كتاب منير (ثمانية أزواج:من الضأن اثنين ومن المعز اثنين . قل:آلذكرين حرم أم الأنثيين ؟ أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ نبئونى بعلم إن كنتم صادقين ! ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين . قل:آلذكرين حرم أم الأنثيين ؟ أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين) فهذه الأنعام التى يدور حولها الجدل ؛ والتى ذكر فى الآية السابقة أن الله خلقها لهم , هى ثمانية أزواج – وكل من الذكر والأنثى يطلق عليه لفظ زوج عندما يكون مع رفيقه – زوج من الضأن وزوج من المعز . فأى منها حرمه الله على أى من الناس ؟ أم إنه حرم أجنتها فى البطون ؟ (نبئونى بعلم إن كنتم صادقين) فهذه الشئون لا يفتى فيها بالظن ، ولا يقضى فيها بالحدس ، ولا يشرع فيها بغير سلطان معلوم . وبقية الأزواج ذكر وأنثى من الإبل ؛ وذكر وأنثى من البقر . فأيها كذلك حرم ؟ أم أجنتها هى التى حرمها الله على الناس ؟ ومن أين هذا التحريم (أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟). . فحضرتم وشهدتم وصية الله لكم خاصة بهذا التحريم . فما ينبغى أن يكون هناك تحريم بغير أمر من الله مستيقن ، لا يرجع فيه إلى الرجم والظنون . وبهذا يرد أمر التشريع كله إلى مصدر واحد . . وقد كانوا يزعمون أن الله هو الذى شرع هذا الذى يشرعونه . لذلك يعاجلهم بالتحذير والتهديد (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم . إن الله لا يهدى القوم الظالمين) إنه لا أحد أظلم ممن يفترى على الله شريعة لم يأذن بها ، ثم يقول:شريعة الله ! وهو يقصد أن يضل الناس بغير علم ، إنما هو يحيلهم إلى هدى أو ظن . . أولئك لن يهديهم الله ؛ فقد قطعوا ما بينهم وبين أسباب الهدى . وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا . . والله لا يهدى القوم الظالمين . .

والآن وقد كشف لهم عما فى معتقداتهم وتصوراتهم وتصرفاتهم من وهن وسخف وهزال . وقد بين لهم أنها لا تقوم على علم ولا بينة ولا أساس . وقد ردهم إلى نشأة الحرث والأنعام التى يتصرفون فيها من عند أنفسهم ، أو بوحى شياطينهم وشركائهم ، بينما هؤلاء لم يخلقوها لهم ، إنما الذى خلقها لهم هو الله ، الذى يجب أن تكون له وحده الحاكمية فيما خلق وفيما رزق ، وفيما أعطى من الأموال للعباد . .

الآن يقرر لهم ما حرمه الله عليهم من هذا كله . ما حرمه الله حقاً عن بينة ووحى , لا عن ظن ووهم . والله هو صاحب الحاكمية الشرعية ، الذى إذا حرم الشىء فهو حرام ، وإذا أحله فهو حلال ؛ بلا تدخل من البشر ولا مشاركة ولا تعقيب فى سلطان الحاكمية والتشريع . . وبالمناسبة يذكر ما حرمه الله على اليهود خاصة ، وأحله للمسلمين ، فقد كان عقوبة خاصة لليهود على ظلمهم وبعدهم عن شرع الله ! (قل:لا أجد فيما أوحى إلىّ محرماً على طاعم يطعمه ، إلا أن يكون ميتة ، أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير – فإنه رجس – أو فسقاً أهل لغير الله به . فمن اضطر – غير باغ ولا عاد – فإن ربك غفور رحيم . وعلى الذين هادوا حرمنا

كل ذى ظفر . ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما – إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم – ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون . فإن كذبوك فقل:ربكم ذو رحمة واسعة ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) قال أبو جعفر بن جرير الطبري (يقول – جل ثناؤه – لنبيه محمد ﷺ قل ، يا محمد ، لهؤلاء الذين جعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، ولشركائهم من الآلهة والأنداد مثله . والقائلين:هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء – بزعمهم – والمحرمين من أنعام آخر ظهورها ، والتاركين ذكر اسم الله على أخر منها . والمحرمين بعض ما فى بطون بعض أنعامهم على إناثهم وأزواجهم ، ومُحليه لذكورهم . المحرمين ما رزقهم الله افتراء على الله ؛ وإضافة ما يحرمون من ذلك إلى أن الله هو الذى حرمه عليهم: أجاءكم من الله رسول بتحريمه ذلك عليكم ، فأنبئونا به ، أم وصاكم الله بتحريمه مشاهدة منكم له ، فسمعتم منه تحريمه ذلك عليكم فحرمتموه ؟ فإنكم كذبة إن ادعيتم ذلك ، ولا يمكنكم دعواه , لأنكم إذا ادعيتموه علم الناس كذبكم . فإنى لا أجد فيما أوحى إلى من كتابه وآى تنزيله شيئاً محرماً على آكل يأكله ، مما تذكرون أنه حرمه من هذه الأنعام التى تصفون تحريم ما حرم عليكم منها – بزعمكم – إلا أن يكون(ميتة)، قد ماتت بغير تذكية ، أو) دماً مسفوحاً)، وهو المنصبّ ، أو إلا أن يكون لحم خنزير (فإنه رجس). (أو فسقا "(يقول:أو إلا أن يكون فسقاً ، يعنى بذلك:أو إلا أن يكون مذبوحاً ذبحه ذابح من المشركين من عبدة الأوثان لصنمه وآلهته فذكر اسم وثنه . فإن ذلك الذبح فسق ، نهى الله عنه وحرمه ، ونهى من آمن به عن أكل ما ذبح كذلك لأنه ميتة . وهذا إعلام من الله – جل ثناؤه – للمشركين الذين جادلوا نبى الله وأصحابه فى تحريم الميتة بما جادلوهم به ، أن الذى جادلوهم فيه من ذلك هو الحرام الذى حرمه الله , وأن الذى زعموا أن الله حرمه حلال أحله الله ؛ وأنهم كذبة فى إضافتهم تحريمه إلى الله" . . وقال فى تأويل قوله تعالى: (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم) (أن معناه: فمن اضطر إلى أكل ما حرم الله من أكل الميتة والدم المسفوح أو لحم الخنزير ، أو ما أهل لغير الله به ، غير باغ فى أكله إياه تلذذاً ، لا لضرورة حالة من الجوع ؛ ولا عاد فى أكله بتجاوزه ما حده الله وأباحه له من أكله ، وذلك أن يأكل منه ما يدفع عنه الخوف على نفسه بترك أكله من الهلاك . . لم يتجاوز ذلك إلى أكثر منه . . فلا حرج عليه فى أكله ما أكل من ذلك . (فإن الله غفور) فيما فعل من ذلك , فساتر عليه ، بتركه عقوبته عليه . ولو شاء عاقبة عليه .(رحيم) بإباحته إياه أكل ذلك عند حاجته إليه . ولو شاء حرمه عليه ومنعه منه" أما حد الاضطرار الذى يباح فيه الأكل من هذه المحرمات ؛ والمقدار المباح منها فحولهما خلافات فقهية . . فرأى أنه يباح ما يحفظ الحياة فقد عند خوف الهلاك لو امتنع . . ورأى أنه يباح ما يحقق الكفاية والشبع . . ورأى أنه يباح فوق ذلك ما يدخر لأكلات أخرى إذا خيف انقطاع الطعام . . ولا ندخل فى تفصيلات الفروع . . فهذا القدر منها يكفى فى هذا الموضع . فأما اليهود فقد حرم الله عليهم كل ذى ظفر من الحيوان – أى كل حيوان قدمه غير مشقوقة ; وذلك كالإبل والنعام والأوز والبط . وحرم كذلك شحم البقر والغنم – إلا شحم الظهر , أو الدهن الملتف بالأمعاء ، أو ما اختلط منه بالعظم . . وكان ذلك عقوبة لهم على بغيهم بتجاوز أوامر الله وشرائعه (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر . ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما – إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم – ذلك جزيناهم ببغيهم ، وإنا لصادقون)والنص يبين سبب هذا التحريم ، وهو سبب خاص باليهود ، ويؤكد أن هذا هو الصدق ، لا ما يقولونه هم من أن إسرائيل ، وهو يعقوب جدهم ، هو الذى حرم هذا على نفسه فهم يتبعونه فيما حرم على نفسه . . لقد كان هذا مباحا حلالاً ليعقوب . ولكنه حرم عليهم بعد ما بغوا ، فجازاهم الله بهذا الحرمان من الطيبات (فإن كذبوك فقل:ربكم ذو رحمة واسعة ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) فقل ربكم ذو رحمة واسعة بنا ، وبمن كان مؤمنا من عباده ، وبغيرهم من خلقه . فرحمته – سبحانه – تسع المحسن والمسيء ؛ وهو لا يعجل على من استحق العقاب ؛ حلما منه ورحمة . فإن بعضهم قد يتوب إلى الله . . ولكن بأسه شديد لا يرده عن المجرمين إلا حلمه ، وما قدره من إمهالهم إلى أجل مرسوم . وهذا القول فيه من الإطماع فى الرحمة بقدر ما فيه من الإرهاب بالبأس . والله الذى خلق قلوب البشر ؛ يخاطبها بهذا وذاك ؛ لعلها تهتز وتتلقى وتستجيب . وعندما يصل السياق إلى هذا الحد من تضييق الخناق عليهم ، وسد الذرائع فى وجوههم , يواجه مهربهم الأخير الذين يحيلون عليه شركهم وضلال تصوراتهم وتصرفاتهم . . إنهم يقولون:إنهم مجبرون لا مخيرون فيما اعتسفوا من شرك وضلال . فلو كان الله لا يريد منهم الشرك والضلال لمنعهم منه بقدرته التى لا يعجزها شىء:

(سيقول الذين أشركوا:لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من شىء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل:هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون . قل:فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين)وقضية الجبر والاختيار كثر فيها الجدل فى تاريخ الفكر الإسلامى بين أهل السنة والمعتزلة والمجبرة والمرجئة . . . وتدخلت الفلسفة الإغريقية والمنطق الإغريقى

واللاهوت المسيحي في هذا الجدل ، فتعقد تعقيداً لا تعرفه العقلية الإسلامية الواضحة الواقعية . . ولو أخذ الأمر بمنهج القرآن المباشر الميسر الجاد ، ما اشتد هذا الجدل , وما سار في ذلك الطريق الذى سار فيه . ونحن نواجه قول المشركين هذا والرد القرآني عليه ، فنجد قضية واضحة بسيطة محددة: (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء). فهم يحيلون شركهم هم وآباؤهم ، وتحريمهم ما حرموه مما لم يحرمه الله ، وادعاءهم أن هذا من شرع الله بغير علم ولا دليل . . يحيلون هذا كله على مشيئة الله بهم . فلو شاء الله ما أشركوا ولا حرموا . . فكيف واجه القرآن الكريم هذه المقولة ؟ لقد واجهها بأنهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم ، وقد ذاق المكذبون من قبلهم بأس الله . وبأس الله ينتظر المكذبين الجدد (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا) وهذه هي الهزة التي قد تحرك المشاعر ، وتوقظ من الغفلة ، وتوجه إلى العبرة . . واللمسة الثانية كانت بتصحيح منهج الفكر والنظر . . إن الله أمرهم بأوامر ونهاهم عن محظورات . . وهذا ما يملكون أن يعلموه علماً مستيقناً . . فأما مشيئة الله فهي غيب لا وسيلة لهم إليه ، فكيف يعلمونه ؟ وإذا لم يعلموه يقيناً فكيف يحيلون عليه (قل:هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون). . إن لله أوامر ونواهي معلومة علماً قطعياً ، فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية , ليمضوا وراء الحدس والخرص في واد لا يعلمونه ؟ هذا هو فصل القول في هذه القضية . . إن الله لا يكلف الناس أن يعلموا غيب مشيئته وقدره حتى يكيفوا أنفسهم على حسبه . إنما يكلفهم أن يعلموا أوامره ونواهيه ، ليكيفوا أنفسهم على حسبها . . وهم حين يحاولون هذا يقرر الله سبحانه أنه يهديهم إليه , ويشرح صدورهم للإسلام . . وهذا حسبهم في القضية التي تبدو عندئذ – في واقعها العملي – يسيرة واضحة ، بريئة من غموض ذلك الجدل وتحكماته ! إن الله قادر لو شاء على أن يخلق بني آدم ابتداء بطبيعة لا تعرف إلا الهدى ، أو يقهرهم على الهدى . أو يقذف بالهدى في قلوبهم فيهتدوا بلا قهر . . . ولكنه – سبحانه – شاء غير هذا ! شاء أن يبتلي بني آدم بالقدرة على الاتجاه إلى الهدى أو الضلال ، ليعين من يتجه منهم إلى الهدى على الهدى ، وليمد من يتجه منهم إلى الضلال في غيه وفي عمايته . . وجرت سنته بما شاء . . (قل: فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين). قضية واضحة ، مصوغة في أيسر صورة يدركها الإدراك البشري . فأما المعاظلة فيها والمجادلة فهي غريبة على الحس الإسلامي وعلى المنهج الإسلامي . . ولم ينته الجدل فيها في أية فلسفة أو أي لاهوت إلى نتيجة مريحة . لأنه جدل يتناول القضية بأسلوب لا يناسب طبيعتها . . وأخيراً يوجه الله – سبحانه – رسوله [ص] إلى مواجهة المشركين في موقف الإشهاد على قضية التشريع ، كما واجههم من قبل في موقف الإشهاد على قضية الألوهية في أوائل السورة :في أوائل السورة قال له (قل: أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله . شهيد بيني وبينكم ، وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل:لا أشهد . قل:إنما هو إله واحد , وإنني بريء مما تشركون). . وهنا قال له (قل:هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم . ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون). . إنها مواجهة هائلة ، ومواجهة كذلك فاصلة . ودلالتها على طبيعة هذا الدين غير خافية . . إن هذا الدين يسوي بين الشرك العلني الواضح باتخاذ آلهة أخرى مع الله ؛ وبين الشرك الآخر الذى يتمثل في مزاولة حق الحاكمية والتشريع للناس بما لم يأذن به الله – دون اعتبار لما يدعونه هم من أن ما يشرعونه هو شريعة الله ! – كما أنه يصم الذين يرتكبون هذه الفعلة بأنهم يكذبون بآيات الله ، ولا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون . . أي يجعلون له أندادا تعدله . . وهو ذات التعبير الذى جاء في أول آية في السورة وصفا للذين كفروا (الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) هذا حكم الله على الذين يغتصبون حق الحاكمية ويزاولونه بالتشريع للناس – دون اعتبار لدعواهم أن ما يشرعونه هو من شريعة الله ! – وليس بعد حكم الله رأى لأحد في هذه القضية الخطيرة . فإذا أردنا أن نفهم لماذا يقضى الله – سبحانه – بهذا الحكم ؟ ولماذا يعدهم مكذبين بآياته ؛ غير مؤمنين بالآخرة ، مشركين يعدلون بربهم غيره . . فإن لنا أن نحاول الفهم . فتدبر حكمة الله في شرعه وحكمه أمر مطلوب من المسلم . . وسنجد إلى جانب ما حرمه بعض التكاليف الإيجابية التي لها مقابل محرم . وهذه المحرمات تبدأ بالمحرم الأول . . وهو الشرك بالله . . لأن هذه هي القاعدة الأولى التي يجب أن تتقرر ، لتقوم عليها المحرمات والنواهي ، لمن استسلم لها وأسلم (قل:تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم:ألا تشركوا به شيئاً . وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم . ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ، حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط – لا نكلف نفسا إلا وسعها – وإذا قلتم فاعدلوا – ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا . . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه , ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) وننظر في هذه الوصايا – التي ترد في السياق بمناسبة الحديث عن تشريعات الأنعام والثمار

وأوهام الجاهلية وتصوراتها وتصرفاتها – فإذا هى قوام هذا الدين كله . . إنها قوام حياة الضمير بالتوحيد ، وقوام حياة الأسرة بأجيالها المتتابعة ، وقوام حياة المجتمع بالتكافل والطهارة فيما يجرى فيه من معاملات ، وقوام حياة الإنسانية وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات ، مرتبطة بعهد الله ، كما أنها بدئت بتوحيد الله . . وننظر فى ختام هذه الوصايا ، فإذا الله – سبحانه وتعالى – يقرر أن هذا صراطه المستقيم ; وكل ما عداه سبل تتفرق بالناس عن سبيله الواصل . . الوحيد . . إنه أمر هائل هذا الذى تتضمنه الآيات الثلاث . . أمر هائل يجىء فى أعقاب قضية تبدو كأنها لمحة جانبية من الجاهلية ؛ ولكنها فى الحقيقة هى قضية هذا الدين الأساسية ; بدلالة ربطها بهذه الوصايا الهائلة الكلية (قل:تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم). قل:تعالوا أقص عليكم ما حرمه عليكم ربكم – لا ما تدعون أنتم أنه حرمه بزعمكم – ! لقد حرمه عليكم(ربكم) الذى له وحده حق الربوبية – وهى القوامة والتربية والتوجيه والحاكمية – وإذن فهو اختصاصه ، وموضع سلطانه . فالذى يحرم هو "الرب" والله هو وحده الذى يجب أن يكون ربا (ألا تشركوا به شيئاً). . القاعدة التى يقوم عليها بناء العقيدة ؛ وترجع إليها التكاليف والفرائض ، وتستمد منها الحقوق والواجبات . . القاعدة التى يجب أن تقوم أولاً قبل الدخول فى الأوامر والنواهى ; وقبل الدخول فى التكاليف والفرائض ، وقبل الدخول فى النظام والأوضاع ؛ وقبل الدخول فى الشرائع والأحكام . . يجب ابتداء أن يعترف الناس بربوبية الله وحده لهم فى حياتهم كما يعترفون بألوهيته وحده فى عقيدتهم ؛ لا يشركون معه أحداً فى ألوهيته , ولا يشركون معه أحداً فى ربوبيته كذلك . يعترفون له وحده بأنه المتصرف فى شؤون هذا الكون فى عالم الأسباب والأقدار ؛ ويعترفون له وحده بأنه المتصرف فى حسابهم وجزائهم يوم الدين ؛ ويعترفون له وحده بأنه هو المتصرف فى شؤون العباد فى عالم الحكم والشريعة كلها سواء . . إنها تنقية الضمير من أوشاب الشرك ، وتنقية العقل من أوشاب الخرافة ، وتنقية المجتمع من تقاليد الجاهلية ، وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد . . إن الشرك – فى كل صوره – هو المحرم الأول لأنه يجر إلى كل محرم . وهو المنكر الأول الذى يجب حشدالإنكار كله له ؛ حتى يعترف الناس أن لا إله لهم إلا الله ، ولا رب لهم إلا الله ، ولا حاكم لهم إلا الله ، ولا مشرع لهم إلا الله . كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر لغير الله . . وإن التوحيد – على إطلاقه – لهو القاعدة الأولى التى لا يغنى غناءها شىء آخر ، من عبادة أو خلق أو عمل . . من أجل ذلك تبدأ الوصايا كلها بهذه القاعدة ألا تشركوا به شيئاً . . وينبغى أن نلتفت إلى ما قبل هذه الوصايا ، لنعلم ماذا يراد بالشرك الذى ينهى عنه فى مقدمة الوصايا – لقد كان السياق كله بصدد قضية معينة – قضية التشريع ومزاولة حق الحاكمية فى إصداره – وقبل آية واحدة كان موقف الإشهاد الذى يحسن أن نعيد نصه (قل:هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم . ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون). . يجب أن نذكر هذه الآية ، وما قلناه عنها فى الصفحات السابقة لندرك ماذا يعنى السياق القرآنى هنا بالشرك الذى ينهى عنه ابتداءً . . إنه الشرك فى الاعتقاد ، كما أنه الشرك فى الحاكمية . فالسياق حاضر ، والمناسبة فيه حاضرة . . إن الله قبل أن يوصى الناس أى وصية ، أوصاهم ألا يشركوا به شيئا . فى موضع من السياق القرآنى يحدد المعنىّ بالشرك الذى تبدأ بالنهى عنه جميع الوصايا ! إنها القاعدة التى يرتبط على أساسها الفرد بالله على بصيرة ، وترتبط بها الجماعة بالمعيار الثابت الذى ترجع إليه فى كافة الروابط ؛ وبالقيم الأساسية التى تحكم الحياة البشرية . . فلا تظل نهباً لريح الشهوات والنزوات ، واصطلاحات البشر التى تتراوح مع الشهوات والنزوات (وبالوالدين إحسانا . ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) إنها رابطة الأسرة بأجيالها المتلاحقة – تقوم بعد الرابطة فى الله ووحدة الاتجاه – ولقد علم الله – سبحانه – أنه أرحم بالناس من الآباء والأبناء . فأوصى الأبناء بالآباء , وأوصى الآباء بالأبناء ؛ وربط الوصية بمعرفة ألوهيته الواحدة ، والارتباط بربوبيته المتفردة . وقال لهم:إنه هو الذى يكفل لهم الرزق ، فلا يضيقوا بالتبعات تجاه الوالدين فى كبرتهما ؛ ولا تجاه الأولاد فى ضعفهم ، ولا يخافوا الفقر والحاجة فالله يرزقهم جميعاً (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ولما وصاهم الله بالأسرة ، وصاهم بالقاعدة التى تقوم عليها – كما يقوم عليها المجتمع كله – وهى قاعدةالنظافة والطهارة والعفة . فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيها . . فهو نهى مرتبط تماماً بالوصية السابقة عليها . . وبالوصية الأولى التى تقوم عليها كافة الوصايا . إنه لا يمكن قيام أسرة ، ولا استقامة مجتمع ، فى وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن . . إنه لا بد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة وليقوم المجتمع . والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تتزعزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع .

والفواحش:كل ما أفحش – أى تجاوز الحد – وإن كانت أحيانا تخص بنوع منها هو فاحشة الزنا . ويغلب على الظن أن يكون هذا هو المعنى المراد فى هذا الموضع . لأن المجال مجال تعديد محرمات بذاتها ، فتكون هذه واحدة منها بعينها . وإلا فقتل النفس فاحشة ، وأكل مال اليتيم فاحشة ، والشرك بالله فاحشة

الفواحش . فتخصيص(الفواحش)هنا بفواحش الزنا أولى بطبيعة السياق . وصيغة الجمع ، لأن هذه الجريمة ذات مقدمات وملابسات كلها فاحشة مثلها . فالتبرج ، والتهتك ، والاختلاط المثير ، والكلمات والإشارات والحركات والضحكات الفاجرة ، والإغراء والتزيين والاستثارة . . . كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة . وكلها فواحش منها الظاهر ومنها الباطن . منها المستسر في الضمير ومنها البادى فى الجوارح . منها المخبوء المستور ومنها المعلن المكشوف ! وكلها مما يحطم قوام الأسرة ، وينخر في جسم الجماعة ، فوق ما يلطخ ضمائر الأفراد ، ويحقر من اهتماماتهم , ومن ثم جاءت بعد الحديث عن الوالدين والأولاد . ولأن هذه الفواحش ذات إغراء وجاذبية ، كان التعبير: ولا تقربوا . . للنهى عن مجرد الاقتراب ، سداً للذرائع ، واتقاء للجاذبية التي تضعف معها الإرادة . . لذلك حرمت النظرة الثانية – بعد الأولى غير المتعمدة – ولذلك كان الاختلاط ضرورة تتاح بقدر الضرورة . ولذلك كان التبرج – حتى بالتعطر فى الطريق – حراماً ، وكانت الحركات المثيرة , والضحكات المثيرة ، والإشارات المثيرة ، ممنوعة في الحياة الإسلامية النظيفة . . فهذا الدين لا يريد أن يعرض الناس للفتنة ثم يكلف أعصابهم عنتا فى المقاومة ! فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود ، ويوقع العقوبات . وهو دين حماية للضمائر والمشاعر والحواس والجوارح . وربك أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير . . وكذلك نعلم ما الذى يريده بهذا الدين ، وبحياة المجتمع كله وبحياة الأسرة ، من يزينون للناس الشهوات ، ومن يطلقون الغرائز من عقالها بالكلمة والصورة والقصة والفيلم وبالمعسكر المختلط وبسائر أدوات التوجيه والإعلام ! (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق). . ويكثر في السياق القرآنى مجيء النهى عن هذه المنكرات الثلاثة متتابعة:الشرك ، والزنا , وقتل النفس . . ذلك أنها كلها جرائم قتل فى الحقيقة ! الجريمة الأولى جريمة قتل للفطرة ؛ والثانية جريمة قتل للجماعة ، والثالثة جريمة قتل للنفس. ولقد سبق النهى عن قتل الأولاد من إملاق . فالآن ينهى عن قتل(النفس)عامة . فيوحى بأن كل قتل فردى إنما يقع على جنس(النفس)فى عمومه . تؤيد هذا الفهم آية: (. . . أنه من قتل نفساً ، بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا). . فالاعتداء إنما يقع على حق الحياة ذاتها ، وعلى النفس البشرية فى عمومها . وعلى هذه القاعدة كفل الله حرمة النفس ابتداء . وهناك طمأنينة الجماعة المسلمة فى دار الإسلام وأمنها ، وانطلاق كل فرد فيها ليعمل وينتج آمناً على حياته ، لا يُؤذى فيها إلا بالحق . والحق الذى تؤخذ به النفس بينه الله فى شريعته , ولم يتركه للتقدير والتأويل . ولكنه لم يبينه ليصبح شريعة إلا بعد أن قامت الدولة المسلمة ، وأصبح لها من السلطان ما يكفل لها تنفيذ الشريعة ! وهذه اللفتة لها قيمتها في تعريفنا بطبيعة منهج هذا الدين فى النشأة والحركة . فحتى هذه القواعد الأساسية فى حياة المجتمع ، لم يفصلها القرآن إلا فى مناسبتها العملية . وقبل أن يمضى السياق فى بيان المحرمات والتكاليف ، يفصل بين هذا القسم والذى يليه بإبراز وصية الله وأمره وتوجيهه (ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون). وهذا التعقيب يجىء وفق المنهج القرآنى فى ربط كل أمر وكل نهى بالله . تقريرا لوحدة السلطة التى تأمر وتنهى فى الناس ، وربطاً للأوامر والنواهى بهذه السلطة التى تجعل للأمر والنهى وزنه فى ضمائر الناس ! كذلك تجىء فيه الإشارة إلى التعقل . فالعقل يقتضى أن تكون هذه السلطة وحدها هى التى تعبد الناس لشرعها . وقد سبق أنها سلطة الخالق الرازق المتصرف فى حياة الناس ! وهذا وذلك فوق ما فى الطائفة الأولى من التجانس . وما بين الطائفة الثانية كذلك من التجانس . فجعل هذه فى آية ، وتلك فى آية ، وبينهما هذا الإيقاع (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده) واليتيم ضعيف فى الجماعة ، بفقده الوالد الحامى والمربى . ومن ثم يقع ضعفه على الجماعة المسلمة – على أساس التكافل الاجتماعى الذى يجعله الإسلام قاعدة نظامه الاجتماعى – وكان اليتيم ضائعاً فى المجتمع العربى فى الجاهلية . وكثرة التوجيهات الواردة فى القرآن وتنوعها وعنفها أحيانا تشى بما كان فاشيا فى ذلك المجتمع من ضيعة اليتيم فيه ؛ حتى انتدب الله يتيما كريماً فيه ؛ فعهد إليه بأشرف مهمة فى الوجود . حين عهد إليه بالرسالة إلى الناس كافة ، وجعل من آداب هذا الدين الذى بعثه به رعاية اليتيم وكفالته على النحو الذى نرى منه هذا التوجيه (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده) فعلى من يتولى اليتيم ألا يقرب ماله إلا بالطريقة التى هى أحسن لليتيم . فيصونه وينميه , حتى يسلمه له كاملاً ناميا عند بلوغه أشده . أى اشتداد قوته الجسمية والعقلية . ليحمى ماله ، ويحسن القيام عليه . وبذلك تكون الجماعة قد أضافت إليها عضواً نافعاً ؛ وسلمته حقه كاملا . وهناك خلاف فقهى حول سن الرشد أو بلوغ الأشد . . عند عبد الرحمن بن زيد وعند مالك , بلوغ الحلم . وعند أبى حنيفة خمسة وعشرون عاما . وعند السدى ثلاثون ، وعند أهل المدينة بلوغ الحلم وظهور الرشد معاً بدون تحديد . (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط – لا نكلف نفسا إلا وسعها –).

وهذه فى المبادلات التجارية بين الناس فى حدود طاقة التحرى والإنصاف . والسياق يربطها بالعقيدة ؛ لأن المعاملات فى هذا الدين وثيقة الارتباط بالعقيدة . والذى يوصى بها ويأمر هو الله . ومن هنا ترتبط بقضية

الألوهية والعبودية ، وتذكر فى هذا المعرض الذى يبرز فيه شأن العقيدة ، وعلاقتها بكل جوانب الحياة . . ومن ثم يربط السياق القرآنى بين قواعد التعامل فى المال والتجارة والبيع والشراء ، وبين هذا المعرض الخاص بالعقيدة ، للدلالة على طبيعة هذا الدين ، وتسويته بين العقيدة والشريعة ، وبين العبادة والمعاملة ، فى أنها كلها من مقومات هذا الدين ، المرتبطة كلها فى كيانه الأصيل (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشرى – وقد ربطه بالله ابتداء – إلى مستوى سامق رفيع ، على هدى من العقيدة فى الله ومراقبته . . فهنا مزلة من مزلات الضعف البشرى . الضعف الذى يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكامل والامتداد ؛ بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل ؛ وفى قوة القرابة سند لضعفه ؛ وفى سعة رقعتها كمال لوجوده ، وفى امتدادها جيلاً بعد جيل ضمان لامتداده ! ومن ثم يجعله ضعيفاً تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم ، أو القضاء بينهم وبين الناس . . وهنا فى هذه المزلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشرى ليقول كلمة الحق والعدل ، على هدى من الاعتصام بالله وحده ، ومراقبة الله وحده ، اكتفاء به من مناصرة ذوى القربى ، وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه ؛ وهو – سبحانه – أقرب إلى المرء من حبل الوريد . . لذلك يعقب على هذا الأمر – وعلى الوصايا التى قبله – مذكراً بعهد الله (وبعهد الله أوفوا) . . ومن عهد الله قولة الحق والعدل ولو كان ذا قربى . ومن عهد الله توفية الكيل والميزان بالقسط . ومن عهد الله ألا يقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن . ومن عهد الله حرمة النفس إلا بالحق . . وقبل ذلك كله . . من عهد الله ألا يشركوا به شيئاً . فهذا هو العهد الأكبر ، المأخوذ على فطرة البشر ، بحكم خلقتها متصلة بمبدعها ، شاعرة بوجوده فى النواميس التى تحكمها من داخلها كما تحكم الكون من حولها . ثم يجىء التعقيب القرآنى فى موضعه بعد التكاليف (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) . . والذكر ضد الغفلة . والقلب الذاكر غير الغافل ، وهو يذكر عهد الله كله ، ويذكر وصاياه المرتبطة بهذا العهد ... هذه القواعد الأساسية الواضحة التى تكاد تلخص العقيدة الإسلامية وشريعتها الاجتماعية مبدوءة بتوحيد الله ومختومة بعهد الله ، وما سبقها من حديث الحاكمية والتشريع . . . هذه هى صراط الله المستقيم . . صراطه الذى ليس وراءه إلا السبل المتفرقة عن السبيل (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) . . وهكذا يختم القطاع الطويل من السورة الذى بدأ بقوله تعالى (أفغير الله أبتغى حكماً ، وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً) وانتهى هذه النهاية ، بهذا الإيقاع العريض العميق . .

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ{١٥٤} وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{١٥٥} أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ{١٥٦} أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ{١٥٧} هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ{١٥٨} إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ{١٥٩} مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ{١٦٠} قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{١٦١} قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{١٦٢} لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ{١٦٣} قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ{١٦٤} وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) {١٦٥}

لم ينقطع تدفق السياق فى الموضوع الأساسى الذى يعالجه شطر السورة الأخير – وهو موضوع الحاكمية والتشريع وعلاقتهما بالدين والعقيدة – وهذا الشوط الجديد هو امتداد فى العرض ، وامتداد فى الحشد ، لتقرير هذه الحقيقة . وهو يتحدث عن المبادىء الأساسية فى العقيدة – بصدد التشريع والحاكمية – كما كان الشطر الأول من السورة يتحدث عن هذه المبادىء فى صدد قضية الدين والعقيدة . ذلك ليقرر أن قضية التشريع والحاكمية هى كذلك قضية الدين والعقيدة . وعلى ذات المستوى الذى يعرض به المنهج القرآنى هذه الحقيقة . ومما يلاحظ أن السياق يستخدم فى شطر السورة الثانى ذات المؤثرات والموحيات والمشاهد والتعبيرات التى حشدها فى الشطر الأول منها: يتحدث عن الكتب والرسل والوحى والآيات التى يطلبونها . ويتحدث عن الدمار والهلاك الذى يعقب وقوع الآيات والتكذيب بها . ويتحدث عن الآخرة وقواعد

الدينونة والجزاء فيها . ويتحدث عن المفاصلة بين الرسول ﷺ وقومه الذين يعدلون بربهم ويتخذون من دونه أربابا يشرعون لهم . ويوجه الرسول ﷺ إلى إعلان حقيقة دينه جلية واضحة حاسمة . ويتحدث عن الربوبية الواحدة للعالمين جميعاً ، والتى لا يجوز أن يتخذ المؤمن من دونها ربوبية أخرى . ويتحدث عن ملكية رب العالمين لكل شىء ، وتصريفها لكل شىء ، وعن استخلاف الله للناس كيف شاء ، وقدرته على الذهاب بمن يشاء منهم عندما يشاء . وهذه هى ذاتها القضايا والحقائق ، والمؤثرات والموحيات التى حشدها فى أول السورة عند عرض حقيقة العقيدة فى محيطها الشامل . محيط الألوهية والعبودية وما بينهما من علائق . . ولا ريب أن لهذا دلالته التى لا تخفى على من يتعامل مع القرآن الكريم ومع المنهج القرآنى .

يبدأ هذا المقطع الأخير فى هذا الشطر من السورة بالحديث عن كتاب موسى . . وذلك تكملة للحديث السابق عن صراط الله المستقيم: (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)لإيحاء بأن هذا الصراط ممتد من قبل فى رسالات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وشرائعهم . وأقرب شريعة كانت هى شريعة موسى عليه السلام ; وقد أعطاه الله كتاباً فصل فيه كل شىء ، وجعله هدى ورحمة لعل قومه يؤمنون بلقاء الله فى الآخرة:(ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن ، وتفصيلاً لكل شىء , وهدى ورحمة ، لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون). ويستمر فيذكر الكتاب الجديد المبارك ، الملتحم بالكتاب الذى أنزل على موسى ، المتضمن للعقيدة وللشريعة المطلوب اتباعها والتقوى فيها ، رجاء أن ينال الناس - حين يتبعونها - رحمة الله فى الدنيا والآخرة:(وهذا كتاب أنزلناه مبارك ، فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون). . ولقد نزل هذا الكتاب قطعاً لحجة العرب ، كى لا يقولوا: إنه لم يتنزل علينا كتاب كالذى تنزل على اليهود والنصارى ؛ ولو قد أوتينا الكتاب مثلما أوتوا لكنا أهدى منهم , فها هو ذا كتاب يتنزل عليهم ، ويقطع هذه الحجة عليهم ، فيستحق الذين يكذبون العذاب الأليم:(أن تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا . وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا:لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم . . فقد جاءكم بينة من ربكم ، وهدى ورحمة ، فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ؟ سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون). . لقد انقطعت المحجة بنزول هذا الكتاب ؛ ولكنهم ما يزالون يشركون بالله ؛ ويشرعون من عند أنفسهم ويزعمونه شريعة الله ، بينما كتاب الله قائم وليس فيه هذا الذى يفترونه . وما يزالون يطلبون الآيات والخوارق ليصدقوا بهذا الكتاب ويتبعوه . ولو جاءتهم الآيات التى يطلبون أو بعضها لكان فيها القضاء الأخير:(هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك ؟ يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيرا . قل:انتظروا إنا منتظرون)وعند هذا الحد يفصل الله - سبحانه - بين بينه ﷺ وسائر الملل المتفرقة التى لا تقوم على توحيد الله عقيدة وشريعة . ويقرر أن أمرهم إليه - سبحانه وتعالى - وأنه هو محاسبهم ومجازيهم وفق عدله ورحمته (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون . من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها , ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون). وهنا يجىء الإيقاع الأخير فى هذا القطاع - وهو الإيقاع الأخير فى السورة - فى تسبيحة ندية رخية ، حازمة كذلك حاسمة ، تلخص أعمق أعماق الحقائق العقيدية فى هذا الدين:التوحيد المطلق ، والعبودية الخالصة ،وجدية الآخرة ، وفردية التبعة والابتلاء فى دار الدنيا . وسلطان الله المتمثل فى ربوبيته لكل شىء ؛ وفى استخلافه للعباد فى ملكه كيف شاء بلا شريك ولا معقب . . كما ترسم تلك التسبيحة المديدة صورة باهرة لحقيقة الألوهية ، وهى تتجلى فى أخلص قلب ، وأصفى قلب ، وأطهر قلب . . قلب رسول الله ﷺ . . وذلك فى مستوى من التجلى لا يصوره إلى التعبير القرآنى ذاته: قل: إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم . ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً , وما كان من المشركين . قل: إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل: أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شىء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ؛ ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم (ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن ، وتفصيلاً لكل شىء ، وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون). . هذا الكلام معطوف بثم على ما قبله . . وتأويله : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا . .) (وأن هذا صراطى مستقيماً). . معطوفة على جملة (ألا تشركوا) (ثم آتينا موسى الكتاب . .) معطوف عليهما كذلك باعتباره من القول الذى دعاهم ليقوله لهم ﷺ فالسياق مطرد كما أسلفنا . وقوله (تماماً على الذى أحسن). . تأويله - كما اختار ابن جرير آتينا موسى التوراة تماما لنعمنا عنده ، وأيادينا قبله ، تتم به كرامتنا عليه ، على إحسانه وطاعته ربه ، وقيامه بما كلفه من شرائع دينه ، وتبيينا لكل ما بقومه وأتباعه إليه الحاجة من

أمر دينهم وقوله: (وتفصيلا لكل شيء) كما قال قتادة:فيه حلاله وحرامه . وهدى ورحمة لعل قومه يهتدون ويؤمنون بلقاء ربهم فيرحمهم من عذابه . . هذا الغرض الذى من أجله آتينا موسى الكتاب ، جاء من أجله كتابكم ، لعلكم تنالون به الهدى والرحمة (وهذا كتاب أنزلناه مبارك ، فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) وإنه لكتاب مبارك حقاً – كما فسرنا ذلك من قبل عند ورود هذا النص فى السورة أول مرة وهو هنا يذكر بمناسبة الحديث عن الشريعة بنص مقارب ! ويؤمرون باتباعه ؛ وتناط رحمتهم من الله بهذا الاتباع . والكلام هنا بجملته فى معرض الشريعة ، بعد ما تناولته أوائل السورة فى معرض العقيدة .وقد بطلت حجتكم ، وسقطت معذرتكم ، بتنزيل هذا الكتاب المبارك إليكم ، تفصيلاً لكل شيء . بحيث لا تحتاجون إلى مرجع آخر وراءه ؛ وبحيث لا يبقى جانب من جوانب الحياة لم يتناوله فتحتاجون أن تشرعوا له من عند أنفسكم (أن تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا . وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا:لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم . فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة . فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ؟ سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) لقد شاء الله سبحانه أن يرسل كل رسول إلى قومه بلسانهم . . حتى إذا كانت الرسالة الأخيرة أرسل الله محمداً خاتم النبيين للناس كافة . فهو آخر رسول من الله للبشر ، فناسب أن يكون رسولاً إليهم أجمعين . والله – سبحانه – يقطع الحجة على العرب أن يقولوا:إن كلا من موسى وعيسى إنما أرسلا إلى قومهما . ونحن كنا غافلين عن دراستهم لكتابهم ، لا علم لنا به ولا اهتمام . ولو جاء إلينا كتاب بلغتنا ، يخاطبنا وينذرنا لكنا أهدى من أهل الكتاب . . فقد جاءهم هذا الكتاب وجاءهم رسول منهم – وإن كان رسولاً للناس أجمعين – وجاءهم بكتاب هو بينة فى ذاته على صدقه . وهو يحمل إليهم حقائق بينة كذلك لا لبس فيها ولا غموض . وهو هدى لما هم فيه من ضلالة ، ورحمة لهم فى الدنيا والآخرة . . فإذا كان ذلك كذلك ، فمن أشد ظلماً ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها وهى تدعوه إلى الهدى والصلاح والفلاح ؟ من أشد ظلماً لنفسه وللناس بصده لنفسه وللناس عن هذا الخير العظيم , وبإفساده فى الأرض بتصورات الجاهلية وتشريعاتها . . إن الذين يعرضون عن هذا الحق فى طبعهم آفة تميلهم عنه ؛ كالآفة التى تكون فى خف البعير فتجعله يصدف – أى يميل – بجسمه ولا يستقيم ! إنهم(يصدفون)عن الحق والاستقامة ، كما يصدف البعير المريض عن الاعتدال والاستقامة ! وهم مستحقون سوء العذاب بصدوفهم هذا وميلهم (سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) إن التعبير القرآنى يستخدم مثل هذا اللفظ ، المنقول فى اللغة من حالة حسية إلى حالة معنوية ليستصحب فى الحس أصل المعنى . . فيستخدم هنا لفظ "يصدف" وقد عرفنا أنه من صدف البعير إذا مال بخفه ولم يعتدل لمرض فيه ! كذلك يستخدم لفظ (يصعر خده)وهو مأخوذ من داء الصَّعَر الذى يصيب الإبل – كما يصيب الناس – فتعرض صفحة خدها ، اضطراراً , ولا تملك أن تحرك عنقها بيسر ، ومثله استخدام لفظ (حبطت أعمالهم). . من حبطت الناقة إذا رعت نباتا مسموماً فانتفخ بطنها ثم ماتت ! ومثلها كثير . . ويمضى فى هذا التهديد خطوة أخرى ، للرد على ما كانوا يطلبونه من الآيات والخوارق حتى يصدقوا بهذا الكتاب . . وقد مضى مثل ذلك التهديد فى أوائل السورة عند ما كانت المناسبة هناك مناسبة التكذيب بحقيقة الاعتقاد . وهو يتكرر هنا ، والمناسبة الحاضرة هى مناسبة الإعراض عن الاتباع والتقيد بشريعة الله:فقد جاء فى أول السورة):وقالوا:لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا يُنظرون). . وجاء هنا فى آخرها (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك ، أو يأتى بعض آيات ربك ؟ يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً:قل:انتظروا إنا منتظرون) إنه التهديد الواضح الحاسم . فقد مضت سنة الله بأن يكون عذاب الاستئصال حتماً إذا جاءت الخارقة ثم لم يؤمن بها المكذبون . . والله سبحانه يقول لهم:إن ما طلبوه من الخوارق لو جاءهم بعضه لقضى عليهم بعده . . وإنه يوم تأتى بعض آيات الله تكون الخاتمة التى لا ينفع بعدها إيمان ولا عمل . . لنفس لم تؤمن من قبل ، ولم تكسب عملاً صالحاً فى إيمانها . فالعمل الصالح هو دائماً قرين الإيمان وترجمته فى ميزان الإسلام . بعد ذلك يلتفت السياق إلى رسول الله ﷺ ليفرده وحده بدينه وشريعته ومنهجه وطريقه عن كل الملل والنحل والشيع القائمة فى الأرض – بما فيها ملة المشركين العرب (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء . إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون). . إنه مفرق الطريق بين الرسول ﷺ ودينه وشريعته ومنهجه كله وبين سائر الملل والنحل . . سواء من المشركين الذين كانت تمزقهم أوهام الجاهلية وتقاليدها وعاداتها وثاراتها , شيعاً وفرقاً وقبائل وعشائر وبطونا . أو من اليهود والنصارى ممن قسمتهم الخلافات المذهبية مللا ونحلا ومعسكرات ودولا . أو من غيرهم مما كان وما سيكون من مذاهب ونظريات وتصورات ومعتقدات وأوضاع وأنظمة إلى يوم الدين . إن رسول الله ﷺ ليس من هؤلاء كلهم فى شيء . . إن دينه هو الإسلام وشريعته هى التى فى كتاب الله ؛ ومنهجه هو منهجه المستقل المتفرد المتميز . . وما يمكن أن يختلط هذا الدين بغيره من المعتقدات والتصورات ؛ ولا أن تختلط شريعته ونظامه بغيره من

المذاهب والأوضاع والنظريات . . وما يمكن أن يكون هناك وصفان اثنان لأى شريعة أو أى وضع أو أى نظام . . إسلامى . . وشيء آخر . . !!! إن الإسلام إسلام فحسب . والشريعة الإسلامية شريعة إسلامية فحسب . والنظام الاجتماعى أو السياسى أو الاقتصادى الإسلامى إسلامى فحسب . . ورسول الله ﷺ ليس فى شيء على الإطلاق من هذا كله إلى آخر الزمان !

إن الوقفة الأولى للمسلم أمام أية عقيدة ليست هى الإسلام هى وقفة المفارقة والرفض منذ اللحظة الأولى . وكذلك وقفته أمام أى شرع أو نظام أو وضع ليست الحاكمية فيه لله وحده – وبالتعبير الآخر:ليست الألوهية والربوبية فيه لله وحده – إنها وقفة الرفض والتبرؤ منذ اللحظة الأولى . . قبل الدخول فى أية محاولة للبحث عن مشابهات أو مخالفات بين شيء من هذا كله وبين ما فى الإسلام ! إن الدين عند الله الإسلام . . ورسول الله ﷺ ليس فى شيء ممن فرقوا الدين فلم يلتقوا فيه على الإسلام . وإن الدين عند الله هو المنهج والشرع . . ورسول الله ﷺ ليس فى شيء ممن يتخذون غير منهج الله منهجاً ، وغير شريعة الله شرعا . . الأمر هكذا جملة . وللنظرة الأولى . بدون دخول فى التفصيلات ! وأمر هؤلاء الذين فرقوا دينهم شيعا ، وبرئ منهم رسول الله ﷺ بحكم من الله تعالى . . أمرهم بعد ذلك إلى الله ؛ وهو محاسبهم على ما كانوا يفعلون (إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) وبمناسبة الحساب والجزاء قرر الله سبحانه ما كتبه على نفسه من الرحمة فى حساب عباده . فجعل لمن جاء بالحسنة وهو مؤمن – فليس مع الكفر من حسنة ! – فله عشر أمثالها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ؛ لا يظلم ربك أحداً ولا يبخسه حقه (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها . وهم لا يظلمون وفى ختام السورة – وختام الحديث الطويل عن قضية التشريع والحاكمية – تجيء التسبيحة الندية الرخية ، فى إيقاع حبيب إلى النفس قريب ؛ وفى تقرير كذلك حاسم فاصل . . ويتكرر الإيقاع الموحى فى كل آية:(قل). .(قل). .(قل). . ويلمس فى كل آية أعماق القلب البشرى لمسات دقيقة عميقة فى مكان التوحيد . . توحيد الصراط والملة . توحيد المتجه والحركة . توحيد الإله والرب . توحيد العبودية والعبادة . . مع نظرة شاملة إلى الوجود كله وسننه ومقوماته (قل:إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين . قل: أغير الله أبغى ربا ، وهو رب كل شيء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها , ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم . إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم) هذا التعقيب كله ، الذى يؤلف مع مطلع السورة لحناً رائعاً باهراً متناسقاً ، هو تعقيب ينتهى به الحديث عن قضية الذبائح والنذور والثمار ، وما تزعمه الجاهلية بشأنها من شرائع ، تزعم أنها من شرع الله افتراء على الله . . فأية دلالة يعطيها هذا التعقيب ؟ إنها دلالة لا تحتاج بعد ما سبق من البيان إلى مزيد (قل:إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم . ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين). . إنه الإعلان الذى يوحى بالشكر ، ويشى بالثقة ، ويفيض باليقين . . اليقين فى بناء العبادة اللفظى ودلالتها المعنوية ، والثقة بالصلة الهادية . . صلة الربوبية الموجهة المهيمنة الراعية . . والشكر على الهداية إلى الصراط المستقيم ، الذى لا التواء فيه ولا عوج (ديناً قيماً). . وهو دين الله القديم منذ إبراهيم . أبى هذه الأمة المسلمة المبارك المخلص المنيب (ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين) (قل:إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له . وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين). . إنه التجرد الكامل لله ، بكل خالجة فى القلب وبكل حركة فى الحياة . بالصلاة والاعتكاف . وبالمحيا والممات . وبالشعائر التعبدية ، وبالحياة الواقعية ، وبالممات وما وراءه .إنها تسبيحة "التوحيد" المطلق ، والعبودية الكاملة ، تجمع الصلاة والاعتكاف والمحيا والممات ، وتخلصها لله وحده . لله (رب العالمين). . القوام المهيمن المتصرف المربى الموجه الحاكم للعالمين . . فى "إسلام" كامل لا يستبقى فى النفس ولا فى الحياة بقية لا يعبدها لله ، ولا يحتجز دونه شيئاً فى الضمير ولا فى الواقع . .) (وبذلك أمرت). . فسمعت وأطعت (وأنا أول المسلمين) (قل:أغير الله أبغى ربا ، وهو رب كل شيء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ؟). . كلمة تتقصى السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن ؛ وتشتمل كل مخلوق مما يعلم الإنسان ومما يجهل ؛ وتجمع كل حادث وكل كائن فى السر والعلانية . . ثم تظللها كلها بربوبية الله الشاملة لكل كائن فى هذا الكون الهائل ؛ وتعبدها كلها لحاكمية الله المطلقة عقيدة وعبادة وشريعة . ثم تعجب فى استنكار (أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء ؟) أغير الله أبغى ربا يحكمنى ويصرف أمرى ويهيمن على ويقومنى ويوجهنى ؟ وأنا مأخوذ بنيتى وعملى ، محاسب على ما أكسبه من طاعة ومعصية ؟ أغير الله أبغى ربا . وهذا الكون كله فى قبضته ؛ وأنا وأنتم فى ربوبيته ؟ أغير الله أبغى ربا وكل فرد مجزى بذنبه لا يحمله عنه غيره ؟ (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ؟). . أغير الله أبغى ربا وإليه مرجعكم جميعاً فيحاسبكم على ما

كنتم تختلفون فيه ؟ أغير الله أبغي ربا ، وهو الذي استخلف الناس في الأرض ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات فى العقل والجسم والرزق ؛ ليبتليهم أيشكرون أم يكفرون ؟ أغير الله أبغي ربا ، وهو سريع العقاب ، غفور رحيم لمن تاب ؟ أغير الله أبغي ربا ، فأجعل شرعه شرعاً ، وأمره أمراً ، وحكمه حكماً . وهذه الدلائل والموحيات كلها حاضرة ؛ وكلها شاهدة ؛ وكلها هادية إلى أن الله وحده هو الرب الواحد المتفرد ؟ ؟ إنها تسبيحة التوحيد الرخية الندية ؛ يتجلى من خلالها ذلك المشهد الباهر الرائع . مشهد الحقيقة الإيمانية ، كما هى فى قلب رسول الله ﷺ وهو مشهد لا يعبر عن روعته وبهائه إلا التعبير القرآنى الفريد . . إنه الإيقاع الأخير فى السياق الذى استهدف قضية الحاكمية والشريعة ؛ يجيء متناسقاً مع الإيقاعات الأولى فى السورة ، تلك التى استهدفت قضية العقيدة والإيمان ; من ذلك قوله تعالى:(قل:أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ? قل:إني أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل:إني أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين). . . وغيرها فى السورة كثير . .

خاتمة تفسير سورة الأنعام

ولا نحتاج أن نكرر ما قلناه مراراً من دلالة هذه المعاني التي تتردد فى المطالع والختام . فهي صور متنوعة للحقيقة الواحدة . . الحقيقة التي تبدو مرة في صورة عقيدة فى الضمير . وتبدو مرة فى صورة منهج للحياة . . وكلتا الصورتين تعنيان حقيقة واحدة فى مفهوم هذا الدين . . ولكننا نتلفت الآن – وقد انتهى سياق السورة – على المدى المتطاول ، والمساحة الشاسعة , والأغوار البعيدة . . تلك التى تتراءى فيها أبعاد السورة – ما سبق منها فى الجزء السابع وما نواجهه منها فى هذا الجزء – فإذا هو شيء هائل هائل . . وننظر إلى حجم السورة ، فإذا هي كذا صفحة ، وكذا آية ، وكذا عبارة . . ولو كان هذا في كلام البشر ما اتسعت هذه الرقعة لعشر معشار هذا الحشد من الحقائق والمشاهد والمؤثرات والموحيات ؛ في مثل هذه المساحة المحدودة !. . وذلك فضلاً على المستوى المعجز الذى تبلغه هذه الحقائق بذاتها ، والذى يبلغه التعبير عنها كذلك . . ألا إنها رحلة شاسعة الآماد ، عميقة الأغوار ، هائلة الأبعاد هذه التي قطعناها مع السورة . . رحلة مع حقائق الوجود الكبيرة . . رحلة تكفى وحدها لتحصيل "مقومات التصور الإسلامى" !

حقيقة الألوهية بروعتها وبهائها وجلالها وجمالها . .

وحقيقة الكون والحياة وما وراء الكون والحياة من غيب مكنون ، ومن قدر مجهول ، ومن مشيئة تمحو وتثبت ، وتنشئ وتعدم ، وتحيى وتميت ، وتحرك الكون والأحياء والناس كما تشاء .

وحقيقة النفس الإنسانية ، بأغوارها وأعماقها ، ودروبها ومنحنياتها ، وظاهرها وخافيها , وأهوائها وشهواتها ، وهداها وضلالها ، وما يوسوس لها من شياطين الإنس والجن . وما يقود خطواتها من هدى أو ضلال . .

ومشاهد قيامة ، ومواقف حشر ، ولحظات كربة وضيق ، ولحظات أمل واستبشار . ولقطات من تاريخ الإنسان فى الأرض ؛ ولقطات من تاريخ الكون والحياة .

وحشود وحشود من هذه المجالى التى لا نملك تلخيصها فى هذه العجالة . والتى لا تعبر عنها إلا السورة نفسها ، فى سياقها الفريد ، وفى أدائها العجيب .

إنه الكتاب "المبارك" . . وهذه – بلا شك – واحدة من بركاته الكثيرة . . والحمد لله رب العالمين . .

سورة الأعراف
مكية ، و آياتها (206)

بسورة الأعراف هذه سورة مكية – كسورة الأنعام – موضوعها الأساسى هو موضوع القرآن المكى . . العقيدة . . ولكن ما أشد اختلاف المجالين اللذين تتحرك فيهما السورتان فى معالجة هذا الموضوع الواحد ، وهذه القضية الكبيرة ! إن كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة ، وذات ملامح متميزة ، وذات منهج خاص , وذات أسلوب معين ، وذات مجال متخصص فى علاج هذا الموضوع الواحد ، وهذه القضية الكبيرة . إنها كلها تتجمع على الموضوع والغاية ، ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة ، وطرائقها المتميزة ومجالها المتخصص فى علاج هذا الموضوع ، وتحقيق هذه الغاية . إن الشأن فى سور القرآن – من هذه الوجهة – كالشأن فى نماذج البشر التى جعلها الله متميزة . . كلهم إنسان ، وكلهم له خصائص الإنسانية ، وكلهم له التكوين العضوى والوظيفى الإنسانى . . ولكنهم بعد ذلك نماذج منوعة أشد التنويع . نماذج فيها الأشباه القريبة الملامح ، وفيها الأغيار التى لا تجمعها إلا الخصائص الإنسانية العامة ! هكذا عدت أتصور سور القرآن . وهكذا عدت أحسها ، وهكذا عدت أتعامل معها . بعد طول الصحبة , وطول الألفة ، وطول التعامل مع كل منها وفق طباعه واتجاهاته ، وملامحه وسماته ! وأنا أجد فى سور القرآن – تبعا لهذا – وفرة بسبب تنوع النماذج ، وأنسا بسبب التعامل الشخصى الوثيق ؛ ومتاعا بسبب اختلاف الملامح والطباع ، والاتجاهات والمطالع ! إنها أصدقاء . . كلها صديق . . وكلها أليف . . وكلها حبيب . . وكلها ممتع . . وكلها يجد القلب عنده ألواناً من الاهتمامات طريفة ، وألواناً من المتاع جديدة ، وألواناً من الإيقاعات ، وألواناً من المؤثرات ، تجعل لها مذاقاً خاصاً ، وجواً متفرداً . ومصاحبة السورة من أولها إلى آخرها رحلة . رحلة فى عوالم ومشاهد ، ورؤى وحقائق , وتقريرات وموحيات ، وغوص فى أعماق النفوس ، واستجلاء لمشاهد الوجود . . ولكنها كذلك رحلة متميزة المعالم فى كل سورة ومع كل سورة . نجد سورة الأعراف – وهى تعالج موضوع العقيدة كذلك – تأخذ طريقاً آخر ، وتعرض موضوعها فى مجال آخر . . إنها تعرضه فى مجال التاريخ البشرى . . فى مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى , وعائدة إلى النقطة التى انطلقت منها . . وفى هذا المدى المتطاول تعرض "موكب الإيمان "من لدن آدم – عليه السلام – إلى محمد – [ص] – تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضى بها على مدار التاريخ . يواجه بها البشرية جيلاً بعد جيل ، وقبيلاً بعد قبيل . . ويرسم سياق السورة فى تتابعه:كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى ؟ كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته ؟ كيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى فى طريقه إلى الله ؟ وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين فى الدنيا وفى الآخرة . . إنها رحلة طويلة طويلة . . ولكن السورة تقطعها مرحلة مرحلة ، وتقف منها عند معظم المعالم البارزة ، فى الطريق المرسوم . ملامحه واضحة ، ومعالمه قائمة ، ومبدؤه معلوم , ونهايته مرسومة . . والبشرية تخطو فيه بجموعها الحاشدة . ثم تقطعه راجعة . . إلى حيث بدأت رحلتها فى الملأ الأعلى . . لقد انطلقت هذه البشرية من نقطة البدء ، ممثلة فى شخصين اثنين . . آدم وزوجه . . أبوى البشر . . وانطلق معهما الشيطان . مأذونا من الله فى غوايتهما وغواية ذراريهما ومأخوذاً عليهما عهد الله وعلى ذراريهما كذلك . ومبتلى كلاهما وذراريهما معهما بقدر من الاختيار ؛ ليأخذوا عهد الله بقوة أو ليركنوا إلى الشيطان عدوهم وعدو أبويهم الذى أخرجهما من الجنة ؛ وليسمعوا الآيات التى يحملها إليهم ذلك الرهط الكريم من الرسل على مدار التاريخ ، أو يسمعوا غواية الشيطان الذى لا ينى يجلب عليهم بخيله ورجله , ويأتيهم عن أيمانهم وعن شمائلهم ! انطلقت البشرية من هناك . . من عند ربها سبحانه . . انطلقت إلى الأرض . تعمل وتسعى , وتكد وتشقى ، وتصلح وتفسد ، وتعمر وتخرب ، وتتنافس وتتقاتل ، وتكدح الكدح الذى لا ينجو منه شقى ولا سعيد . . ثم ها هى ذى تؤوب ! ها هى ذى راجعة إلى ربها الذى أطلقها فى هذا المجال . . ها هى ذى تحمل ما كسبت طوال الرحلة المرسومة . . من ورد وشوك . ومن غال ورخيص ، ومن ثمين وزهيد ، ومن خير وشر ، ومن حسنات وسيئات . ها هى ذى تعود فى أصيل اليوم . . فقد انطلقت فى مطلعه ! . . وها نحن أولاء نلمحها من خلال السياق فى السورة موقورة الظهور بالأحمال – أيا كانت هذه الأحمال – ها هى ذى عائدة إلى ربها بما معها . تظلع فى الطريق ، وقد بلغ منها الجهد وأضناها المسير . حتى إذا عادت إلى نقطة المنطلق وضع كل منها حمله أمام الميزان ، ووقف يرتقب فى خشية ووجل . . إن كل فرد قد عاد بحصيلته فرداً . . وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ! وكل فرد على حدة يلاقى حسابه ، ويلقى جزاءه . . ويظل سياق السورة يتابع أفواج البشرية ، فوجاً فوجاً . إلى جنة أو إلى نار . حتى تغلق الأبواب التى فتحت لاستقبال المغتربين العائدين . فقد كانوا هنالك فى هذه الأرض (مغتربين) (كما بدأكم تعودون

. فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة , إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون). . وبين الغدو والرواح تعرض معارك الحق والباطل . معارك الهدى والضلال . معارك الرهط الكريم من الرسل والموكب الكريم من المؤمنين ، مع الملأ المستكبرين والأتباع المستخفين . ويعرض الصراع المتكرر ؛ والمصائر المتشابهة . وتتجلى صحائف الإيمان فى إشراقها ووضاءتها ؛ وصحائف الضلال في انطماسها وعتامتها . وتعرض مصارع المكذبين بين الحين والحين . حيث يقف السياق عليها للتذكير والتحذير . . وهذه الوقفات تجيء وفق نظام ملحوظ في سياق السورة . فبعد كل مرحلة هامة يبدو كما لو كان السياق يتوقف عندها ليقول كلمة ! كلمة تعقيب . للإنذار والتذكير . . ثم يمضى . إنها قصة البشرية بجملتها في رحلتها ذهاباً وإياباً . تتمثل فيها حركة هذه العقيدة في تاريخ البشرية ، ونتائج هذه الحركة فى مداها المتطاول . . حتى تنتهى إلى غايتها الأخيرة فى نقطة المنطلق الأولى . . وهى وجهة أخرى فى عرض موضوع العقيدة غير وجهة سورة الأنعام – وإن تلاقت السورتان أحيانا في عرض مشاهد المكذبين وعرض مشاهد القيامة ومشاهد الوجود – وهو مجال آخر للعرض غير مجال الأنعام ، واضح التميز ، مختلف الحدود . إن السورة لا تعرض قصة هذه العقيدة فى التاريخ البشرى ، ولا تعرض رحلة البشرية منذ نشأتها الأولى إلى عودتها الأخيرة . . مجرد عرض فى أسلوب قصصى . . إنما هى تعرضها فى صورة معركة مع الجاهلية . . ومن ثم فإنها تعرضها فى مشاهد ومواقف ؛ وتواجه بهذه المشاهد والمواقف ناساً أحياء كانوا يواجهون هذا القرآن ؛ فيواجههم هذا القرآن بتلك القصة الطويلة ؛ ويخاطبهم بما فيها من عبر ؛ مذكرا ومنذرا ؛ ويخوض معهم معركة حقيقية حية . . ومن ثم تجيء التعقيبات فى السياق عقب كل مرحلة أساسية ؛ موجهة لأولئك الأحياء الذين كان القرآن يخوض معهم المعركة ؛ وموجهة كذلك إلى أمثالهم ممن يتخذون موقفهم على مدار التاريخ . إن القرآن لا يقص قصة إلا ليواجه بها حالة . ولا يقرر حقيقة إلا ليغير بها باطلا . . إنه يتحرك حركة واقعية حية فى وسط واقعى حي . إنه لا يقرر حقائقه للنظر المجرد , ولا يقص قصصه لمجرد المتاع الفنى ! ويركز السياق على التذكير والإنذار فى وقفاته للتعقيب . كما يركز على نقطة الانطلاق , وعلى نقطة المآب . وبينهما يمر بقصص قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب . ثم يركز تركيزاً شديداً على قصة قوم موسى . وفى هذه التقدمة للسورة لا نملك إلا أن نعرض نماذج مجملة لمواضع التركيز في السورة تبدأ السورة على هذا النحو (آلمص . كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر به ، وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء . قليلا ما تذكرون) فهى منذ اللحظة الأولى خطاب لرسول الله ﷺ وخطاب لقومه الذين يجاهدهم بهذا القرآن . . وكل ما يجيء فى السورة بعد ذلك من قصص ، ومن وصف لرحلة البشرية الطويلة , وعودتها من الرحلة المرسومة ، وكل ما يعرض من مشاهد فى صفحة الكون وفى يوم القيامة . . إنما هو خطاب غير مباشر ، – وأحيانا مباشر – للنبى ﷺ وقومه للإنذار والتذكير , كما يشير هذا المطلع القصير . وقول الله – سبحانه – لرسوله ﷺ (كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه) يصور حالة واقعية لا يمكن أن يدركها اليوم إلا الذى يعيش فى جاهلية وهو يدعو إلى الإسلام ; ويعلم أنه إنما يستهدف أمراً هائلاً ثقيلاً ، دونه صعاب جسام . . يستهدف إنشاء عقيدة وتصور ، وقيم وموازين ، وأوضاع وأحوال مغايرة تمام المغايرة لما هو كائن فى دنيا الناس . ويجد من رواسب الجاهلية فى النفوس ، ومن تصورات الجاهلية فى العقول , ومن قيم الجاهلية فى الحياة ، ومن ضغوطها فى الأوضاع والأعصاب ، ما يحس معه أن كلمة الحقيقة التى يحملها ، غريبة على البيئة ، ثقيلة على النفوس ؛ مستنكرة فى القلوب . . كلمة ذات تكاليف بقدر ما تعنيه من الانقلاب الكامل لكل ما يعهده الناس في جاهليتهم من التصورات والأفكار ، ولأن الأمر كذلك من الثقل ومن الغرابة ومن النفرة ومن المقاومة لهذا التغيير الكامل الشامل الذى تستهدفه هذه العقيدة فى حياة الناس وتصوراتهم ، فإن السياق يباكر القوم بالتهديد القاصم ، ويذكرهم بمصائر المكذبين ، ويعرض عليهم مصارع الغابرين . . جملة قبل أن يأخذ فى القصص المفصل عنهم فى مواضعه من السياق (وكم من قرية أهلكناها ، فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا:إنا كنا ظالمين . فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين . والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) وبعد هذه المقدمة تبدأ القصة . . تبدأ بالحديث عن التمكين للجنس البشرى فى الأرض . . وذلك بما أودع الله هذا الكون من خصائص وموافقات تسمح بحياة هذا الجنس وتمكينه فى الأرض . وبما أودع الله هذا الجنس من خصائص وموافقات متوافقة مع الكون ؛ ومن قدرة على التعرف إلى نواميسه واستخدامها ؛والانتفاع بطاقاته ومقدراته ومدخراته وأقواته (ولقد مكناكم فى الأرض ، وجعلنا لكم فيها معايش . قليلا ما تشكرون) وليس هذا إلا التمهيد لعرض قصة النشأة الأولى ، وتصوير نقطة الانطلاق التى بدأت منها البشرية رحلتها المرسومة . والسياق يركز فى هذه السورة على هذه النقطة ؛ ويعرض قصة النشأة ، ويتخذها كذلك نقطة تعقيب للإنذار والتذكير ، المستمدين

مما في مشاهدها وأحداثها من عظات موحية ، ومؤثرات عميقة: (ولقد خلقناكم ثم صورنا كم ، ثم قلنا للملائكة:اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال:ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال:أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال:فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين ... (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوآتهما ، وقال:ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) (قال:اهبطوا بعضكم لبعض عدو ؛ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال:فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون ، وبهذا المشهد في نقطة الانطلاق يتحدد مصير الرحلة كلها ، ومصائر المرتحلين جميعا . وتلوح طلائع المعركة الكبرى التى لا تهدأ لحظة طوال الرحلة ، بين هذا العدو الجاهر بالعداوة ، وبنى آدم جميعا . كما تلوح نقط الضعف في الكائن الإنسانى جملة ، ومنافذ الشيطان إليه منها . ومن ثم يتخذ السياق من المشهد مناسبة للتعقيب الطويل ، بالإنذار والتحذير . . تحذير بنى آدم مما جرى لأبويهم من هذا العدو العنيد . . وفي ظل هذا المشهد الذى يقف فيه الشيطان وجها لوجه مع آدم وزوجه أبوى البشر . وفي ظل النتيجة التى انتهى إليها الشوط الأول في المعركة يتوجه السياق بالخطاب إلى بنى آدم ، يذكرهم وينذرهم ، ويحذرهم مصيراً كهذا المصير (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير , ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . . يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ، إنه يراكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون)

)يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). .

ولا بد أن نلحظ أن مشهد العرى بعد ارتكاب المحظور ، والخصف من ورق الجنة ؛ ثم هذا التعقيب بتذكير بنى آدم بنعمة الله فى إنزال اللباس الذى يوارى سوآتهم والرياش الذى يتزينون به ، وتحذيرهم من فتنة الشيطان لهم لينزع عنهم لباسهم وريشهم كما نزعه عن أبويهم . . لا بد أن نلحظ أن ذكر هذه الحلقة من القصة والتعقيب عليها على هذا النحو إنما يواجه حالة واقعة فى المجتمع الجاهلى العربى المشرك . حيث كانوا تحت تأثير أساطير وتقاليد معينة يطوفون بالبيت عرايا , ويحرمون أنواعاً من الثياب ، وأنواعا من الطعام في فترة الحج . ويزعمون أن هذا من شرع الله ، والآن - وقبل أن تنطلق القافلة فى طريقها ، وقبل أن يواجهها الرسل بالهدى ، وقبل أن يفصل السياق كيف تحركت العقيدة مع التاريخ البشرى بعد آدم وزوجه وتجربتهما الأولى . . الآن يبادر بتصوير مشهد النهاية ، نهاية المرحلة الكبرى ، وذلك على طريقة القرآن الغالبة في عرض الرحلة بشطريها فى دار الابتلاء وفي دار الجزاء ، كأنما هى رحلة متصلة ممدودة . وهنا نجد أطول مشهد من مشاهد القيامة ، وأكثرها تفصيلاً ، وأحفلها بالمناظر المتتابعة والحوار المتنوع . . وموقعه في السورة تعقيباً على قصة آدم وخروجه من الجنة بإغواء إبليس له ولزوجه ؛ وتحذير الله لأبنائه أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة ؛ وإخبارهم بأنه سيرسل إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته . . موقعه كذلك يجعله مصداقاً لما ينبى ء به أولئك الرسل . فإذا الذين أطاعوا الشيطان قد حرموا العودة إلى الجنة ، وفتنوا عنها كما أخرج الشيطان أبويهم منها ؛ وإذا الذين خالفوا الشيطان وأطاعوا الله قد ردوا إلى الجنة ، ونودوا: (أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون). . فعاد المغتربون إلى دار النعيم !!! والمشهد طويل لا نملك إثباته هنا في هذا التعريف المجمل وسنواجهه فيما بعد بالتفصيل . والسياق يتخذ من هذا المشهد مناسبة للتعقيب بالإنذار والتذكير ، وتحذير الذين يواجهون القرآن بالتكذيب ، ويطلبون الخوارق لتصديقه ، من سوء المصير (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله ? يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل:قد جاءت رسل ربنا بالحق . فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ؟ قد خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون). وبعد تلك الرحلة الواسعة الآماد ، من المنشأ إلى المعاد ، يقف السياق ليعقب عليها , مقرراً "حقيقة الألوهية " و"حقيقة الربوبية " في مشاهد كونية ؛ تشهد بهذه الحقيقة ; على طريقة القرآن فى جعل هذا الكون كله مجالاً تتجلى فيه هذه الحقيقة بآثارها المبدعة ، العميقة الإيحاء للقلب البشرى حين يستقبلها بالحسالمفتوح والبصيرة المستنيرة . وهدف هذه الرحلة الأساسى في مشاهد الكون وأسراره هو تجلية الحقيقة الاعتقادية الأساسية:وهي أن هذا الكون بجملته يدين بالعبودية لله وحده ، فالله هو ربه وحاكمه . فأولى بالإنسان أن لا يكون نشازاً فى لحن الوجود المؤمن ؛ والا يشذ عن العبودية لرب هذا الكون الذى له الخلق والأمر . . وهو رب العالمين (إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ،

يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر , تبارك الله رب العالمين) ويعرض السياق قصة نوح ، وقصة هود ، وقصة صالح وقصة لوط ، وقصة شعيب . . مع أقوامهم , وهم يعرضون عليهم حقيقة واحدة لا تتبدل (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره). . ويجادلهم قومهم في إفراد الله سبحانه بالألوهية ، ويستنكرون أن تكون لله وحده الربوبية . كما يجادلونهم في إرسال الله بشراً من الناس بالرسالة ! ويجادل بعضهم في أن يتعرض الدين لشؤون الحياة الدنيا ، ويتحكم في التعاملات المالية والتجارية - ! وذلك كما يحاول اليوم ناس من الجاهلية الحاضرة في هذه القضية بعينها بعد عشرات القرون ، ويسمون هذا الجدل الجاهلي القديم تحرراً "وتقدمية " ! - ويعرض السياق مصارع المكذبين في نهاية كل قصة . ويلحظ المتتبع لسياق القصص كله في السورة أن كل رسول يقول لقومه قولة واحدة (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره). ويتقدم لهم بالحقيقة التي استحفظه عليها ربه تقدم الناصح المخلص ، المشفق على قومه مما يراه من العاقبة التي تتربص بهم وهم عنها غافلون . ولكنهم لا يقدرون نصح رسولهم لهم ؛ ولا يتدبرون عاقبة أمرهم ، ولا يستشعرون عمق الإخلاص الذي يحمله قلب الرسول ، وعمق التجرد من كل مصلحة ، وعمق الإحساس بضخامة التبعة . .

ويكفي أن نثبت هنا ما ورد عن قصة نوح - أول القصص - وما ورد عن قصة شعيب ، آخر هذه الجملة من القصص ، التي يقف السياق بعدها للتعقيب:

لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، فقال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين . قال:يا قوم ليس بي ضلالة ، ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي ، وأنصح لكم ، وأعلم من الله ما لا تعلمون . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون ؟ فكذبوه ، فأنجيناه والذين معه في الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوما عمين). . . وهنا يقف السياق وقفة للتعقيب . يبين فيها سنة الله في تعامل قدر الله مع الناس حين تجيئهم الرسالة فيكذبون . إذ يأخذهم أولا بالضراء والبأساء ، لعل هذا يهز قلوبهم الغافية فتستيقظ وتستجيب . فإذا لم تهزهم يد البأس وكلهم إلى الرخاء - وهو أشد فتنة من البأس - حتى تلتبس عليهم سنة الله ، ولا ينتبهوا لها . ثم يأخذهم بعد ذلك بغتة وهم لا يشعرون ! . . وبعد بيان هذه السنة يهز قلوبهم بالخطر الذي يتهددهم في غفلاتهم . فمن يدريهم أن قدر الله يتربص بهم ، ليجري فيهم سنته تلك ؟ أفلا تهديهم مصارع الغابرين ، وهم في ديارهم يسكنون ؟ (وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا:قد مس آباءنا الضراء والسراء ! فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون . ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) بعد ذلك يعرض السياق قصة موسى مع فرعون وملئه ، ومع قومه بني إسرائيل:وتستغرق القصة أكبر مساحة استغرقتها في سورة قرآنية ؛ وتعرض منها حلقات شتى ؛ ويقف السياق عند بعض الحلقات للتعقيب ؛ كما يقف في نهايتها لتعقيب طويل حتى نهاية السورة . وفي موقف من مواقف القصة يُدخل السياق الرسالة النبوية الأخيرة ويصف طبيعتها وحقيقتها . وذلك عندما دعا موسى - عليه السلام - ربه في شأن من صعقوا من قومه ؛ واستنزل رحمته - سبحانه - على هذا النحو الذي يتداخل فيه القصص لتأدية غرض المعركة التي يخوضها القرآن فعلاً (واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة ، قال:رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ، أنت ولينا ، فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين)وفي ظل هذا النبأ الصادق من الله ، والوعد السابق برسالة النبي الأمي ، يأمر الله النبي أن يعلن طبيعة رسالته ، وحقيقة دعوته ، وحقيقة ربه الذي أرسله ، والأصل الاعتقادي الواحد الذي جاء به الرسل جميعاً من قبله: (قل:يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته , واتبعوه لعلكم تهتدون) ثم تواصل القصة سيرها بعد هذه الوقفة ، إلى موقف العهد ونتق الجبل وأخذ الميثاق . وفي ظل مشهد الميثاق والعهد على بني إسرائيل يذكر العهد المأخوذ على فطرة البشر أجمعين (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم:ألست بربكم ؟ قالوا:بلى شهدنا ! أن تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا:إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون). . ويمضي السياق بعد ذلك في تعقيبات منوعة ، يعرض في أحدها بعد مشهد العهد الفطري مباشرة , مشهد الذي آتاه الله آياته ثم انسلخ منها - كبني إسرائيل وككل من يؤتيه الله آياته ثم ينسلخ منها ! - وهو مشهد يذكرنا بصوره وحركته وإيقاعه والتعقيب عليه بمشاهد سورة الأنعام وجوها كذلك (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ

منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب:إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ! ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ؛ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون)

ثم يمضي السياق يتحدث عن مسائل العقيدة حديثاً مباشراً . ويعرض مع الحديث بعض المؤثرات من المشاهد الكونية ومن التحذير من بأس الله وأخذه ؛ ومن لمس قلوبهم ليتفكروا ويتدبروا في شأن الرسول ورسالته . . ثم يأمر الله رسوله ﷺ أن يعلمهم طبيعة الرسالة وحدود الرسول فيها . وذلك بمناسبة سؤالهم له عن تحديد موعد القيامة التي يخوفهم بها ! (يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟! قل:إنما علمها عند ربي ، لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السماوات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفي عنها ! قل:إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ثم يصور لهم كيف تنحرف النفس - التي أخذ الله عليها العهد الذي أسلفنا - عن التوحيد الذي أقرت به فطرتها ؛ ويستنكر تصورات الشرك ومعبوداته ؛ ويوجه رسوله ﷺ في نهاية هذه الفقرة إلى تحديهم وتحدي آلهتهم العاجزة (قل:ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين .والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) ومن هنا إلى ختام السورة يتجه السياق إلى خطاب رسول الله ﷺ كما كان افتتاحها خطاباً له - كيف يعامل الناس ؟ كيف يمضي بهذه الدعوة ؟ كيف يستعين على متاعب الطريق ؟ كيف يكظم غضبه وهو يعاني من نفوس الناس وكيدهم ؟ كيف يستمع هو والمؤمنون معه لهذا القرآن ؟ كيف يذكر ربه ويبقى موصولا به ؟ كما يذكره من عنده في الملأ الأعلى - سبحانه (خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين . وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم ؛ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) ولعل هذا التلخيص ، وهذه المقتطفات الكثيرة من السورة ، أن تصور ملامحها الخاصة وقد أرجأنا كل تفسير للنصوص ، وكل تفصيل للموضوع الذي تحمله ، إلى المواجهة التفصيلية. فعلى بركة الله نمضي

(المص{١} كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ{٢} اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ{٣} وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ{٤} فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ{٥} فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ{٦} فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ{٧} وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{٨} وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ{٩} وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ{١٠} وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ{١١} قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ{١٢} قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ{١٣} قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{١٤} قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ{١٥} قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ{١٦} ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ{١٧} قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ{١٨} وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ{١٩} فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ{٢٠} وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ{٢١} فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٢٢} قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ{٢٣} قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ{٢٤} قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تخرجُون){٢٥}

(آلمص). . ألف . لام . ميم . صاد . . هذا المطلع من الحروف المقطعة سبق الكلام عن نظائره في أول سورة البقرة وفي أول سورة آل عمران . وقد اخترنا في تفسيرها الرأى القائل ، بأنها حروف مقطعة يشير بها إلى أن هذا القرآن مؤلف من جنس هذه الأحرف العربية التي يستخدمها البشر ، ثم يعجزهم أن يؤلفوا منها كلاماً كهذا القرآن . وأن هذا بذاته برهان أن هذا القرآن ليس من صنع البشر , فقد كانت أمامهم الأحرف والكلمات التي صيغ منها ، فلم يستطيعوا أن يصوغوا منها قرآنا مثله . فلا بد من سر آخر وراء الأحرف

والكلمات . . وهو رأى نختاره على وجه الترجيح لا الجزم .والله أعلم بمراده (كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر به ، وذكرى للمؤمنين) كتاب أنـزل إليـك للإنـذار بـه والتـذكير . . كتـاب للصدع بما فيه من الحق ولمواجهة الناس بما لا يحبون ؛ ولمجابهة عقائد وتقاليد وارتباطات ؛ ولمعارضـة نظم وأوضاع ومجتمعات . فالحرج في طريقه كثير ، والمشقة فى الإنذار به قائمة . . لا يدرك ذلك - كما قلنا فى التعريف بالسورة - إلا من يقف بهذا الكتاب هذا الموقف ؛ وإلا من يعـانى مـن الصدع بـه هـذه المعاناة ؛ وإلا من يستهدف من التغيير الكامل الشامل في قواعد الحياة البشرية وجذورها ، وفى مظاهرهـا وفروعها ، ما كان يستهدفه حامل هذا الكتاب أول مرة ﷺ ليواجه به الجاهلية الطاغية فى الجزيرة العربيـة وفى الأرض كلها (كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر به وذكرى للمؤمنين) ويعلم -من طبيعة الواقع - من هم المؤمنون الذين لهم الذكرى ، ومن هم غيـر المـؤمنين الـذين لهـم الإنـذار ، ويعود هذا القرآن عنده كتابا حيا يتنزل اللحظة ، فى مواجهة واقع يجاهـده هـو بهـذا القـرآن جهـاداً كبيـراً والبشرية اليوم فى موقف كهذا الذى كانت فيه يوم جاءها محمد رسول الله ﷺ بهذا الكتاب , مـأموراً مـن ربه أن ينذر به ويذكر ؛ وألا يكون فى صدره حرج منه ، وهو يواجه الجاهليـة , ويسـتهدف تغييرهـا مـن الجذور والأعماق . . وفى الوقت الذى وجه الله - سبحانه - هذا التكليف إلى رسـوله ، وجـه إلـى قومـه المخاطبين بهذا القرآن أول مرة - وإلى كل قوم يواجههم الإسلام ليخرجهم من الجاهلية - الأمر باتباع مـا أنزل فى هذا الكتاب ، والنهى عن اتباع الأولياء من دون الله . ذلـك أن القضـية فـي صـميمها هـى قضـية "الاتباع" . . من يتبع البشر فى حياتهم ؟ يتبعون أمر الله فهم مسلمون . أم يتبعون أمر غيره فهم مشركون ؟ إنهما موقفان مختلفان لا يجتمعان (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء . قليلا ما تذكرون) هذه هى قضية هذا الدين الأساسية . . إنه إما اتباع لما أنزل الله فهو الإسلام لله , والاعتراف لـه بالربوبية ، وإفراده بالحاكمية التى تأمر فتطاع ، ويتبع أمرها ونهيها دون سواه . . وإما اتبـاع للأوليـاء مـن دونه فهو الشرك ، وهو رفض الاعتراف لله بالربوبية الخالصة . . وكيف والحاكمية ليست خالصة له سبحانه ؟! وفى الخطاب للرسول ﷺ كان الكتاب منزلاً إليه بشخصه (كتاب أنزل إليك) وفـى الخطـاب للبشـر كان الكتاب كذلك منزلاً إليهم من ربهم (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) (فأما الرسول ﷺ فالكتاب منزل إليه ليؤمن به ولينذر ويذكر . وأما البشر فالكتاب منزل إليهم مـن ربهـم ليؤمنـوا بـه ويتبعـوه ، ولا يتبعوا أمر أحد غيره . . والإسناد فى كلتا الحالتين للاختصاص والتكريم والتحضيض والاستجاشـة . فالـذي ينزل له ربه كتاباً ، ويختاره لهذا الأمر ، ويتفضل عليه بهذا الخير ، جدير بأن يتذكر وأن يشكر ; وأن يأخذ الأمـر بقـوة ولا يستحسـر ، ولأن المحاولـة ضـخمة . . وهـى تعنـى التغييـر الأساسـى الكامـل الشـامل للجاهلية:تصوراتها وأفكارها ، وقيمها وأخلاقها ، وعاداتها وتقاليدها ، ونظمهـا ، وأوضـاعها , واجتماعهـا واقتصادها ، وروابطها بالله ، وبالكون ، وبالناس ; لأن المحاولة ضخمة على هـذا النحـو ؛ يمضـى السـياق فيهز الضمائر هزاً عنيفاً ؛ ويوقظ الأعصاب إيقاظاً شديداً ؛ ويرج الجبلات السادرة فى الجاهلية ، المستغرقة فى تصوراتها وأوضاعها رجاً ويدفعها دفعاً . . وذلك بأن يعرض عليها مصارع الغابرين من المكذبين فـى الدنيا ، ومصائرهم كذلك فى الآخرة (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قـائلون . فمـا كـان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا:إنا كنا ظالمين . . فلنسألن الذين أرسل إلـيهم ، ولنسـألن المرسـلين . فلنقصن عليهم بعلم ، وما كنا غائبين . والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينـه فأولئـك هـم المفلحـون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون). . إن مصـارع الغـابرين خيـر مذكر ، وخير منذر . . والقرآن يستصحب هذه الحقائق ، فيجعلها مؤثرات موحية ، ومطارق موقظة ، للقلوب البشرية الغافلة . إنها كثيرة تلك القرى التى أهلكت بسبب تكذيبها . أهلكت وهى غارة غافلة . فى الليـل وفى ساعة القيلولة ، حيث يسترخى الناس للنوم ، ويستسلمون للأمن (وكم مـن قريـة أهلكناهـا ، فجاءهـا بأسنا بياتا أو هم قائلون) وكلتاهما . . البيات والقيلولة . . ساعة غرة واسترخاء وأمان ! والأخذ فيهما أشد ترويعاً وأعنف وقعا . وأدعى كذلك إلى التذكر والحذر والتوقى والاحتياط ! ثم ما الذى حدث ؟ إنـه لـم يكن لهؤلاء المأخوذين فى غرتهم إلا الاعتراف ! ولم يكن لهم دعوى يـدعونها إلا الإقـرار ! (فمـا كـان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا:إنا كنا ظالمين) والإنسان يدعى كـل شـىء إلا الاعتـراف والإقـرار ! ولكنهم فى موقف لا يملكون أن يدعوا إلا هذه الدعوى ! (إنا كنا ظـالمين). . فيالـه مـن موقـف مـذهل رعيب مخيف ، ذلك الذى يكون أقصى المحاولة فيه هو الاعتراف بالذنب والإقـرار بالشـرك ! إن الظلـم الذى يعنونه هنا هو الشرك . فهذا هو المدلول الغالب على هذا التعبير فى القرآن . . فالشـرك هـو الظلـم . والظلم هو الشرك . وهل أظلم ممن يشرك بربه وهو خلقه ؟ !بينما المشهد هكـذا معروضـاً فـى الـدنيا إذا السياق ينتقل ، وينقل معه السامعين من فوره إلى ساحة الآخرة . بلا توقف ولا فاصل . فالشريط المعروض موصول المشاهد ، والنقلة تتخطى الزمان والمكان ، وتصل الدنيا بالآخرة ، وتلحـق عـذاب الـدنيا بعـذاب الآخرة ; وإذا الموقف هناك فى لمحة خاطفة (فلنسألن الذين أرسل إلـيهم ولنسـألن المرسـلين . فلنقصـن

عليهم بعلم ، وما كنا غائبين . والوزن يومئذ الحق . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) إن التعبير على هذا النحو المصور الموحى ، خاصية من خواص القرآن . . إن الرحلة في الأرض كلها تطوى فى لمحة . وفى سطر من كتاب . لتلتحم الدنيا بالآخرة ؛ ويتصل البدء بالختام !فإذا وقف هؤلاء الذين تعرضوا لبأس الله في هذه الأرض وقفتهم هناك للسؤال والحساب والجزاء , فإنه لا يكتفى باعترافهم ذاك حين واجهوا بأس الله الذى أخذهم وهم غافلون (إنا كنا ظالمين) ولكنه السؤال الجديد ، والتشهير بهم على الملأ الحاشد فى ذلك اليوم المشهود (فلنسألن الذين أرسل إليهم ، ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم - وما كنا غائبين) يسأل الذين جاءهم الرسل فيعترفون . ويسأل الرسل فيجيبون . ثم يقص عليهم العليم الخبير كل شيء أحصاه الله ونسوه ! يقصه عليهم - سبحانه - بعلم فقد كان حاضراً كل شيء . وما كان - سبحانه - غائباً عن شيء . . وهي لمسة عميقة التأثير والتذكير والتحذير (والوزن يومئذ الحق) إنه لا مجال هنا للمغالطة فى الوزن ؛ ولا التلبيس فى الحكم ؛ ولا الجدل الذى يذهب بصحة الأحكام والموازين (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) فقد ثقلت فى ميزان الله الذى يزن بالحق . وجزاؤها إذن هو الفلاح . . وأى فلاح بعد النجاة من النار ، والعودة إلى الجنة ، فى نهاية الرحلة المديدة ، وفى ختام المطاف الطويل ؟ (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) فقد خفت في ميزان الله الذى لا يظلم ولا يخطئ . وقد خسروا أنفسهم . فماذا يكسبون بعد ؟ إن المرء ليحاول أن يجمع لنفسه . فإذا خسر ذات نفسه فما الذى يبقى له ؟ لقد خسروا أنفسهم بكفرهم بآيات الله: (بما كانوا بآياتنا يظلمون) والظلم - كما أسلفنا - يطلق فى التعبير القرآنى ويراد به الشرك أو الكفر (إن الشرك لظلم عظيم) ولا ندخل هنا فى طبيعة الوزن وحقيقة الميزان - كما دخل فيه المتجادلون بعقلية غير إسلامية فى تاريخ الفكر "الإسلامى" ! . . . . فكيفيات أفعال الله كلها خارجة عن الشيبة والمثيل . مذ كان الله سبحانه ليس كمثله شيء . . وحسبنا تقرير الحقيقة التى يقصد إليها السياق . . من أن الحساب يومئذ بالحق ، وأنه لا يظلم أحد مثقال ذرة ، وأن عملاً لا يبخس ولا يغفل ولا يضيع (ولقد مكناكم فى الأرض ، وجعلنا لكم فيها معايش ، قليلاً ما تشكرون) من هنا تبدأ الرحلة الكبرى . . تبدأ بتمهيد عن تمكين الله للجنس البشرى فى الأرض , كحقيقة مطلقة ، وذلك قبل أن تبدأ قصة البشرية تفصيلاً . إن خالق الأرض وخالق الناس ، هو الذى مكن لهذا الجنس البشرى في الأرض . هو الذى أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات الكثيرة التى تسمح بحياة هذا الجنس وتفوته وتعوله , بما فيها من أسباب الرزق والمعايش ، هو الذى جعلها مقراً صالحاً لنشأته بجوها وتركيبها وحجمها وبعدها عن الشمس والقمر , ودورتها حول الشمس ، وميلها على محورها ، وسرعة دورتها . . إلى آخر هذه الموافقات التى تسمح بحياة هذا الجنس عليها . وهو الذى أودع هذه الأرض من الأقوات والأرزاق ومن القوى والطاقات ما يسمح بنشأة هذا الجنس وحياته ، وبنمو هذه الحياة ورقيها معا . . وهو الذى جعل هذا الجنس سيد مخلوقات هذه الأرض ، قادراً على تطويعها واستخدامها ; بما أودعه الله من خصائص واستعدادات للتعرف إلى بعض نواميس هذا الكون وتسخيرها فى حاجته ، ولولا تمكين الله للإنسان فى الأرض بهذا وذلك ، ما استطاع هذا المخلوق الضعيف القوة أن "يقهر الطبيعة " كما يعبر أهل الجاهلية قديماً وحديثاً ! ولا كان بقوته الذاتية قادراً على مواجهة القوى الكونية الهائلة الساحقة !

إن التصورات الجاهلية الإغريقية والرومانية هى التي تطبع تصورات الجاهلية الحديثة ، هى التي تصور الكون عدواً للإنسان ؛ وتصور القوى الكونية مضادة لوجوده وحركته ; وتصور الإنسان فى معركة مع هذه القوى - بجهده وحده - وتصور كل تعرف إلى النواميس الكونية ، وكل تسخير لها "قهراً للطبيعة " فى المعركة بينها وبين الجنس الإنسانى ! إنها تصورات سخيفة ، فوق أنها تصورات خبيثة ! لو كانت النواميس الكونية مضادة للإنسان ، عدوة له ، تتربص به ، وتعاكس اتجاهه ، وليس وراءها إرادة مدبرة - كما يزعمون - ما نشأ هذا الإنسان أصلاً ! وإلا فكيف كان ينشأ ؟ كيف ينشأ في كون معاد بلا إرادة وراءه ؟ ولما استطاع المضى فى الحياة على فرض أنه وجد ! وإلا فكيف يمضى والقوى الكونية الهائلة تعاكس اتجاهه ؟ وهى - بزعمهم - التى تصرف نفسها ولا سلطان وراء سلطانها ؟

إن التصور الإسلامي وحده هو الذى يمضي وراء هذه الجزئيات ليربطها كلها بأصل شامل متناسق . . إن الله هو الذى خلق الكون ، وهو الذى خلق الإنسان . وقد اقتضت مشيئته وحكمته أن يجعل طبيعة هذا الكون بحيث تسمح بنشأة هذا الإنسان ، وأودع الإنسان من الاستعدادات ما يسمح له بالتعرف إلى بعض نواميس الكون واستخدامها فى حاجته . . وهذا التناسق الملحوظ هو الجدير بصنعة الله الذى أحسن كل شيء خلقه . ولم يجعل خلائقه متعاكسة متعادية متدابرة !

وفي ظل هذا التصور يعيش "الإنسان" في كون مأنوس صديق ؛ وفي رعاية قوة حكيمة مدبرة . . يعيش مطمئن القلب ، مستروح النفس ، ثابت الخطو ، ينهض بالخلافة عن الله في الأرض في اطمئنان الواثق بأنه معان على الخلافة ؛ ويتعامل مع الكون بروح المودة والصداقة ; ويشكر الله كلما اهتدى إلى سر من أسرار الوجود ؛ وكلما تعرف إلى قانون من قوانينه التي تعينه في خلافته ؛ وتيسر له قدراً جديداً من الرقي والراحة والمتاع .

إن هذا التصور لا يكفه عن الحركة لاستطلاع أسرار الوجود والتعرف إلى نواميسه . . على العكس ، هو يشجعه ويملأ قلبه ثقة وطمأنينة . . إنه يتحرك في مواجهة كون صديق لا يبخل عليه بأسراره ، ولا يمنع عنه مدده وعونه . . وليس في مواجهة كون عدو يتربص به ويعاكس اتجاهاته ويسحق أحلامه وآماله !

إن مأساة "الوجودية " الكبرى هي هذا التصور النكد الخبيث . . تصور الوجود الكوني - بل الوجود الجماعي للبشرية ذاتها - معاكساً في طبيعته للوجود الفردي الإنساني ، متجهاً بثقله الساحق إلى سحق هذا الوجود الإنساني ! إنه تصور بائس لا بد أن ينشيء حالة من الانزواء والانكماش والعدمية ! أو ينشيء حالة من الاستهتار والتمرد والفردية ! وفي كلتا الحالتين لا يكون إلا القلق المضني ! والبؤس النفسي والعقلي ، والشرود في التيه:تيه التمرد ، أو تيه العدم . . وهما سواء . .

وهي ليست مأساة "الوجودية " وحدها من مذاهب الفكر الأوربي . إنها مأساة الفكر الأوربي كله - بكل مذاهبه واتجاهاته - بل مأساة الجاهلية كلها في جميع أزمانها وبيئاتها . المأساة التي يضع الإسلام حداً لها بعقيدته الشاملة ، التي تنشيء في الإدراك البشري تصوراً صحيحاً لهذا الوجود ، وما وراءه من قوة مدبرة .

إن" الإنسان" هو ابن هذه الأرض ؛ وهو ابن هذا الكون . لقد أنشأه الله من هذه الأرض , ومكنه فيها ، وجعل له فيها أرزاقا ومعايش ، ويسر له المعرفة التي تسلمه مفاتيحها ; وجعل نواميسها موافقة لوجود هذا الإنسان ، تساعده - حين يتعرف إليها على بصيرة - وتيسر حياته . . ولكن الناس قليلاً ما يشكرون . . ذلك أنهم في جاهليتهم لا يعلمون . . وحتى الذين يعلمون لا يملكونأن يوفوا نعمة الله عليهم حقها من الشكر ، وأنى لهم الوفاء ؟ لولا أن الله يقبل منهم ما يطيقون:وهؤلاء وهؤلاء ينطبق عليهم بهذين الاعتبارين قوله تعالى (قليلاً ما تشكرون)

بعد ذلك تبدأ قصة البشرية بأحداثها المثيرة . . تبدأ بإعلان ميلاد الإنسان في احتفال مهيب ، في رحاب الملأ الأعلى . . يعلنه الملك العزيز الجليل العظيم ؛ زيادة في الحفاوة والتكريم . وتحتشد له الملائكة - وفي زمرتهم وإن لم يكن منهم إبليس - وتشهده السماوات والأرض ؛ وما خلق الله من شيء . . إنه أمر هائل وحدث عظيم في تاريخ هذا الوجود (ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة :اسجدوا لآدم . فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال:ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال:أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين . قال:فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين . قال:أنظرني إلى يوم يبعثون . قال:إنك من المنظرين . قال:فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذؤوماً مدحوراً ، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) هذا هو المشهد الأول وهو مشهد مثير ومشهد خطير ونحن نؤثر استعراض مشاهد هذه القصة ابتداء ؛ ونرجيء التعليق عليها ، واستلهام إيحاءاتها إلى أن نفرغ من استعراضها (ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة:اسجدوا لآدم . فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين) إن الخلق قد يكون معناه: الإنشاء . والتصوير قد يكون معناه: إعطاء الصورة والخصائص . . وهما مرتبتان في النشأة لا مرحلتان . . فإن (ثم) قد لا تكون للترتيب الزمني ، ولكن للترقي المعنوي . والتصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود . فالوجود يكون للمادة الخامة ; ولكن التصوير - بمعنى إعطاء الصورة الإنسانية والخصائص - يكون درجة أرقى من درجات الوجود . فكأنه قال:إننا لم نمنحكم مجرد الوجود ولكن جعلناه وجوداً ذا خصائص راقية . فإن كان شيء أعطى خصائصه ووظائفه وهُدى إلى أدائها عند خلقه . ولم تكن هناك فترة زمنية بين الخلق وإعطاء الخصائص والوظائف والهداية إلى أدائها . والمعنى لا يختلف إذا كان معنى(هَدى) هداه إلى ربه . فإنه هُدى إلى ربه عند خلقه . وكذلك آدم صور وأعطى خصائصه الإنسانية عند خلقه (وثم) للترقي في الرتبة ، لا للتراخي في الزمن . كما نرجح . على أية حال لقد أعلن الله بذاته العلية الجليلة ميلاد هذا الكائن الإنساني ؛ في حفل حافل من الملأ الأعلى (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . فسجدوا . إلا إبليس لم يكن من

الساجدين) والملائكة خلق آخر من خلق الله لهم خصائصهم ووظائفهم ؛ لا نعلم عنهم إلا ما أنبأنا الله من أمرهم – وقد أجملنا ما علمنا الله من أمرهم فى موضع سابق من هذه الظلال – وكذلك إبليس فهو خلق غير الملائكة . لقوله تعالى: إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه . . والجن خلق غير الملائكة ، لا نعلم عنه كذلك إلا ما نبأنا الله من أمره – وقد أجملنا ما أنبأنا الله به من أمرهم فى موضع من هذا الجزء أيضاً – وسيأتي فى هذه السورة أن إبليس خلق من نار . فهو من غير الملائكة قطعاً . وإن كان قد أمر بالسجود لآدم فى زمرة الملائكة . فى ذلك الحفل العظيم الذى أعلن فيه الملك الجليل , ميلاد هذا الكائن الفريد ، فأما الملائكة – وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون – فقد سجدوا مطيعين منفذين لأمر الله ، لا يترددون ولا يستكبرون ولا يفكرون فى معصية لأى سبب ولأى تصور ولأى تفكير . . هذه طبيعتهم ، وهذه خصائصهم:وهذه وظيفتهم . . وإلى هنا تتمثل كرامة هذا الكائن الإنسانى على الله ، كما تتمثل الطاعة المطلقة فى ذلك الخلق المسمى بالملائكة من عباد الله . وأما إبليس فقد امتنع عن تنفيذ أمر الله – سبحانه – وعصاه . وسنعلم:ما الذى حاك فى صدره ، وما التصور الذى سيطر عليه فمنعه من طاعة ربه . وهو يعرف أنه ربه وخالقه ، ومالك أمره وأمر الوجود كله ؛ لا يشك فى شىء من هذا كله ! وكذلك نجد فى المشهد ثلاثة نماذج من خلق الله:نموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق . ونموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت . . وطبيعة ثالثة هى الطبيعة البشرية . وسنعلم خصائصها وصفاتها المزدوجة فيما سيجىء . فأما الطبيعة الأولى فهى خالصة لله ، وقد انتهى دورها فى هذا الموقف بهذا التسليم المطلق . وأما الطبيعتان الأخريان , فسنعرف كيف تتجهان (قال:ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال:أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين) لقد جعل إبليس له رأيا مع النص . وجعل لنفسه حقا فى أن يحكم نفسه وفق ما يرى هو من سبب وعلة مع وجود الأمر . . وحين يوجد النص القاطع والأمر الجازم ينقطع النظر ، ويبطل التفكر ؛ وتتعين الطاعة ، ويتحتم التنفيذ . . وهذا إبليس – لعنه الله – لم يكن ينقصه أن يعلم أن الله هو الخالق المالك الرازق المدبر الذى لا يقع فى هذا الوجود شىء إلا بإذنه وقدره . . ولكنه لم يطع الأمر كما صدر إليه ولم ينفذه . . بمنطق من عند نفسه (قال:أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) فكان الجزاء العاجل الذى تلقاه لتوه (قال:فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين) لقد طرد من الجنة ، وطرد من رحمة الله ، وحقت عليه اللعنة ، وكتب عليه الصغار . ولكن الشرير العنيد لا ينسى أن آدم هو سبب الطرد والغضب ؛ ولا يستسلم لمصيره البائس دون أن ينتقم . ثم ليؤدى وظيفته وفق طبيعة الشر التى تمحضت فيه (قال:أنظرنى إلى يوم يبعثون . قال:إنك من المنظرين . قال:فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم , ولا تجد أكثرهم شاكرين). . فهو الإصرار المطلق على الشر ، والتصميم المطلق على الغواية . . وبذلك تتكشف هذه الطبيعة عن خصائصها الأولى . . شر ليس عارضاً ولا وقتياً . إنما هو الشر الأصيل العامد القاصد العنيد . . ثم هو التصوير المشخص للمعانى العقلية والحركات النفسية ، فى مشاهد شاخصة حية: لقد سأل إبليس ربه أن ينظره إلى يوم البعث . وهو يعلم أن هذا الذى يطلبه لا يقع إلاّ بإرادة الله وقدره . ولقد أجابه الله إلى طلبه فى الإنظار ، ولكن إلى (يوم الوقت المعلوم)كما جاء فى السورة الأخرى . وقد وردت الروايات:أنه يوم النفخة الأولى التى يصعق فيها من فى السماوات والأرض – إلا من شاء الله – لا يوم يبعثون . وهنا يعلن إبليس فى تبجح خبيث – وقد حصل على قضاء بالبقاء الطويل – أنه سيرد على تقدير الله له الغواية وإنزالها به ، بسبب معصيته وتبجحه ؛ بأن يغوى ذلك المخلوق الذى كرمه الله , والذى بسببه كانت مأساة إبليس ولعنه وطرده ! ويجسم هذا الإغواء بقوله الذى حكاه القرآن عنه (لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم) إنه سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم ، يصد عنه كل من يهم منهم باجتيازه – والطريق إلى الله لا يمكن أن يكون حساً ، فالله سبحانه جل عن التحيز ، فهو إذن طريق الإيمان والطاعات المؤدى إلى رضى الله – وإنه سيأتي البشر من كل جهة من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم . . للحيلولة بينهم وبين الإيمان والطاعة . . وهو مشهد حى شاخص متحرك لإطباق إبليس على البشر فى محاولته الدائبة لإغوائهم , فلا يعرفون الله ولا يشكرونه ، اللهم إلا القليل الذى يفلت ويستجيب (ولا تجد أكثرهم شاكرين) ويجىء ذكر الشكر ، تنسيقا مع ما سبق فى مطلع السورة لبيان السبب فى قلة الشكر ؛ وكشف الدافع الحقيقى الخفى ، من حيلولة إبليس دونه ، وقعوده على الطريق إليه ! ليستيقظ البشر للعدو الكامن الذى يدفعهم عن الهدى ؛ وليأخذوا حذرهم حين يعرفون من أين هذه الآفة التى لا تجعل أكثرهم شاكرين ! لقد أجيب إبليس إلى ملتمسه . لأن مشيئة الله – سبحانه – اقتضت أن يترك الكائن البشرى يشق طريقه ؛ بما ركب فى فطرته من استعداد للخير والشر ؛ وبما وهبه من عقل مرجح ; وبما أمده من التذكير والتحذير على أيدى الرسل ؛ ومن الضبط والتقويم بهذا الدين . كما اقتضت أن يتلقى الهداية والغواية ؛ وأن

يصطرع فى كيانه الخير والشر ؛ وأن ينتهى إلى إحدى النهايتين ، فتحق عليه سنة الله وتتحقق مشيئته بالابتلاء ، سواء اهتدى أو ضل ، فعلى سنة الله الجارية وفق مشيئته الطليقة ، تحقق الهدى أو الضلال .

ولكن السياق هنا لا يصرح بترخيص الله – سبحانه – لإبليس – عليه اللعنة – فى إيعاده هذا الأخير ، كما صرح بإجابته فى إنظاره . إنما يسكت عنه ، ويعلن طرد إبليس طرداً لا معقب عليه . طرده مذموماً مقهوراً ، وإبعاده بملء جهنم منه وممن يتبعه من البشر ويضل معه (قال:اخرج منها مذؤوماً مدحوراً . لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) ومن يتبعه من البشر قد يتبعه فى معرفته بالله واعتقاده بألوهيته ، ثم فى رفض حاكمية الله وقضائه ، وادعاء أن له الحق فى إعادة النظر فى أوامر الله ، وفى تحكيم منطقه هو فى تنفيذها أو عدم تنفيذها . . كما أنه قد يتبعه ليضله عن الاهتداء إلى الله أصلا . . وهذا وذلك كلاهما اتباع للشيطان ؛ جزاؤه جهنم مع الشيطان ! لقد جعل الله – سبحانه – لإبليس وقبيله فرصة الإغواء . وجعل لآدم وذريته فرصة الاختيار تحقيقاً للابتلاء ، الذى قضت مشيئته أن تأخذ به هذا الكائن ؛ وتجعله به خلقاً متفرداً فى خصائصه ، لا هو ملك ولا هو شيطان . لأن له دورا آخر فى هذا الكون , ليس هو دور الملك ولا هو دور الشيطان . وينتهى هذا المشهد ، ليتلوه مشهد آخر فى السياق ينظر الله – سبحانه – بعد طرد إبليس من الجنة هذه الطردة – إلى آدم وزوجه . . وهنا فقط نعرف أن له زوجا من جنسه ، لاندرى كيف جاءت . فالنص الذى معنا وأمثاله فى القرآن الكريم لا تتحدث عن هذا الغيب بشيء . وكل الروايات التى جاءت عن خلقها من ضلعه مشوبة بالإسرائيليات لا نملك أن نعتمد عليها ، والذى يمكن الجزم به هو فحسب أن الله خلق له زوجاً من جنسه ، فصارا زوجين اثنين ؛ والسنة التى نعلمها عن كل خلق الله هى الزوجية (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) فهى سنة جارية وهى قاعدة فى كل خلق الله أصيلة . وإذا سرنا مع هذه السنة فإن لنا أن نرجح أن خلق حواء لم يمكث طويلاً بعد خلق آدم ، وأنه تم على نفس الطريقة التى تم بها خلق آدم . . على أية حال يتجه الخطاب إلى آدم وزوجه ، ليعهد إليهما ربهما بأمره فى حياتهما ؛ ولتبدأ تربيته لهما وإعدادهما لدورهما الأساسى ، الذى خلق الله له هذا الكائن . وهو دور الخلافة فى الأرض – كما صرح بذلك فى آية البقرة: (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين) ويسكت القرآن عن تحديد (هذه الشجرة). لأن تحديد جنسها لا يريد شيئاً فى حكمة حظرها . مما يرجح أن الحظر فى ذاته هو المقصود . . لقد أذن الله لهما بالمتاع الحلال , ووصاهما بالامتناع عن المحظور . ولا بد من محظور يتعلم منه هذا الجنس أن يقف عند حد ؛ وأن يدرب المركوز فى طبعه من الإرادة التى يضبط بها رغباته وشهواته ؛ ويستعلى بها على هذه الرغبات والشهوات ، فيظل حاكماً لها لا محكوماً بها كالحيوان ، فهذه هى خاصية "الانسان" التى يفترق بها عن الحيوان ، ويتحقق بها فيه معنى " الإنسان" . والآن يبدأ إبليس يؤدى دوره الذى تمحض له إن هذا الكائن المتفرد ؛ الذى كرمه الله كل هذا التكريم ؛ والذى أعلن ميلاده فى الملأ الأعلى فى ذلك الحفل المهيب ؛ والذى أسجد له الملائكة فسجدوا ؛ والذى أخرج بسببه إبليس من الجنة وطرده من الملأ الأعلى . . إن هذا الكائن مزدوج الطبيعة ؛ مستعد للاتجاهين على السواء . وفيه نقط ضعف معينة يقاد منها – ما لم يلتزم بأمر الله فيها – ومن هذه النقط تمكن إصابته ، ويمكن الدخول إليه . . إن له شهوات معينة . . ومن شهواته يمكن أن يقاد ! وراح إبليس يداعب هذه الشهوات (فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوآتهما ؛ وقال:ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين) ووسوسة الشيطان لا ندرى نحن كيف تتم ؛ لأننا لا ندرى كنه الشيطان حتى ندرك كيفيات أفعاله ، وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية إغوائه . ولكننا نعلم – بالخبر الصادق وهو وحده المصدر المعتمد عندنا عن هذا الغيب – أن إغواء على الشر يقع فى صورة من الصور ; وإيحاء بارتكاب المحظور يتم فى هيئة من الهيئات . وأن هذا الإيحاء وذلك الإغواء يعتمدان على نقط الضعف الفطرية فى الإنسان . وأن هذا الضعف يمكن إتقاؤه بالإيمان والذكر ؛ حتى ما يكون للشيطان سلطان على المؤمن الذاكر ؛ وما يكون لكيده الضعيف حينئذ من تأثير . . وهكذا وسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوآتهما . . فهذا كان هدفه . . لقد كانت لهما سوآت ، ولكنها كانت مواراة عنهما لا يريانها – وسنعلم من السياق أنها سوآت حسية جسدية تحتاج إلى تغطية مادية ، فكأنها عوراتهما – ولكنه لم يكشف لهما هدفه بطبيعة الحال ! إنما جاءهما من ناحية رغائبهما العميقة (وقال:ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) بذلك داعب رغائب "الإنسان" الكامنة . . إنه يحب أن يكون خالداً لا يموت أو معمرا أجلا طويلاً كالخلود ! ويحب أن يكون له ملك غير محدد بالعمر القصير المحدد . . وفى قراءة:(ملكين)بكسر اللام . وهذه القراءة يعضدها النص الآخر فى سورة طه (هل أدلكما على شجرة الخلد وملك لا يبلى) وعلى هذه القراءة يكون الإغراء بالملك الخالد والعمر الخالد وهما أقوى شهوتين فى الإنسان بحيث يمكن أن يقال:إن

الشهوة الجنسية ذاتها إن هى إلا وسيلة لتحقيق شهوة الخلود بالامتداد فى النسل جيلاً بعد جيل - وعلى قراءة(ملكين)بفتح اللام يكون الإغراء بالخلاص من قيود الجسد كالملائكة مع الخلود . . ولكن القراءة الأولى - وإن لم تكن هى المشهورة - أكثر اتفاقاً مع النص القرآنى الآخر ، ومع اتجاه الكيد الشيطانى وفق شهوات الإنسان الأصيلة .

ولما كان اللعين يعلم أن الله قد نهاهما عن هذه الشجرة ؛ وأن هذا النهي له ثقله فى نفوسهما وقوته ؛ فقد استعان على زعزعته - إلى جانب مداعبة شهواتهما - بتأمينهما من هذه الناحية ؛ فحلف لهما بالله إنه لهما ناصح ، وفى نصحه صادق (وقاسمهما:إنى لكما لمن الناصحين) ونسى آدم وزوجه - تحت تأثير الشهوة الدافعة والقسم المخدر - أنه عدوهما الذى لا يمكن أن يدلهما على خير ! وأن الله أمرهما أمراً عليهما طاعته سواء عرفا علته أم لم يعرفاها ! وأنه لا يكون شيء إلا بقدر من الله ، فإذا كان لم يقدر لهما الخلود والملك الذى لا يبلى فلن ينالاه ! نسيا هذا كله ، واندفعا يستجيبان للإغراء ! (فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ؛ وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟). . لقد تمت الخدعة وآتت ثمرتها المرة . لقد أنزلهما الشيطان بهذا الغرور من طاعة الله إلى معصيته ، فأنزلهما إلى مرتبة دنيا (فدلاهما بغرور)! ولقد شعرا الآن أن لهما سوآت ، تكشفت لهما بعد أن كانت مواراة عنهما . فراحا يجمعان من ورق الجنة ويشبكانه بعضه فى بعض(يخصفان)ويضعان هذا الورق المشبك على سوآتهما - مما يوحى بأنها العورات الجسدية التى يخجل الإنسان فطرة من تعريها ، ولا يتعرى ويتكشف إلا بفساد فى هذه الفطرة من صنع الجاهلية ! (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما:إن الشيطان لكما عدو مبين) وسمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية وعلى إغفال النصيحة . . أما كيف كان النداء وكيف سمعاه ، فهو كما خاطبهما أول مرة . وكما خاطب الملائكة . وكما خاطب إبليس . كلها غيب لا ندرى عنه إلا أنه وقع . وأن الله يفعل ما يشاء . وأمام النداء العلوى يتكشف الجانب الآخر فى طبيعة هذا الكائن المتفرد . . إنه ينسى ويخطئ . إن فيه ضعفاً يدخل منه الشيطان . إنه لا يلتزم دائماً ولا يستقيم دائماً . . ولكنه يدرك خطأه ؛ ويعرف زلته ؛ ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة . . إنه يثوب ويتوب ؛ ولا يلح كالشيطان فى المعصية ، ولا يكون طلبه من ربه هو العون على المعصية ! (قالا:ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) إنها خصيصة "الإنسان" التى تصله بربه ، وتفتح له الأبواب إليه . . الاعتراف ، والندم ، والاستغفار ، والشعور بالضعف ، والاستعانة به ، وطلب رحمته . مع اليقين بأنه لا حول له ولا قوة إلا بعون الله ورحمته . . وإلا كان من الخاسرين . . وهنا تكون التجربة الأولى قد تمت . وتكشف خصائص الإنسان الكبرى . وعرفها هو وذاقها . واستعد - بهذا التنبيه لخصائصه الكامنة - لمزاولة اختصاصه فى الخلافة ؛ وللدخول فى المعركة التى لا تهدأ أبداً مع عدوه (قال:اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال:فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون) وهبطوا جميعا . . هبطوا إلى هذه الأرض . . ولكن أين كانوا ؟ أين هى الجنة ؟ . . هذا من الغيب الذى ليس عندنا من نبأ عنه إلا ما أخبرنا به من عنده مفاتح الغيب وحده . . وكل محاولة لمعرفة هذا الغيب بعد انقطاع الوحى هى محاولة فاشلة . وكل تكذيب كذلك يعتمد على مألوفات البشر اليوم و(علمهم)الظنى هو تبجح . فهذا "العلم" يتجاوز مجاله حين يحاول الخوض فى هذا الغيب بغير أداة عنده ولا وسيلة . ويتبجح حين ينفى الغيب كله ، والغيب محيط به فى كل جانب ، والمجهول فى "المادة" التى هى مجاله أكثر كثيراً من المعلومات ! لقد هبطوا جميعاً إلى الأرض . . آدم وزوجه ، وإبليس وقبيله . هبطوا ليصارع بعضهم بعضاً ، وليعادى بعضهم بعضاً ؛ ولتدور المعركة بين طبيعتين وخليقتين: إحداهما ممحضة للشر ، والأخرى مزدوجة الاستعداد للخير والشر ؛ وليتم الابتلاء ويجرى قدر الله بما شاء . وكتب على آدم وذريته أن يستقروا فى الأرض ؛ ويمكنوا فيها ، ويستمتعوا بما فيها إلى حين . وكتب عليهم أن يحيوا فيها ويموتوا ؛ ثم يخرجوا منها فيبعثوا . . ليعودوا إلى ربهم فيدخلهم جنته أو ناره ، فى نهاية الرحلة الكبرى . .

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ {٢٦} يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ {٢٧} وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ {٢٨} قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ {٢٩} فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُواْ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ {٣٠} يَا بَنِيَ آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ

يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ{٣١} قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{٣٢} قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ{٣٣} وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ){٣٤}

هذه وقفة من وقفات التعقيب في سياق السورة . وهى وقفة طويلة بعد المشهد الأول فى قصة البشرية الكبرى . وفى سياق السورة وقفات كهذه عند كل مرحلة . كأنما ليقال:قفوا هنا نتدبر ما فى هذه المرحلة من عبرة قبل أن نمضي قدماً فى الرحلة الكبرى ! وهى وقفة فى مواجهة المعركة التي بانت طلائعها بين الشيطان والبشرية . وقفة للتحذير من أساليب الشيطان ومداخله ؛ ولكشف خطته ما كان منها وما يكون متمثلاً فى صور وأشكال شتى ، ولكن المنهج القرآنى لا يعرض توجيهاً إلا لمواجهة حالة قائمة ؛ ولا يقص قصصاً إلا لأن له موقعاً فى واقع الحركة الإسلامية . . إنه كما قلنا لا يعرض قصصاً لمجرد المتاع الفنى ! ولا يقرر حقيقة لمجرد عرضها النظرى . . إن واقعية الإسلام وجديته تجعلان توجيهاته وتقريراته ، لمواجهة حالات واقعة بالفعل فى مواجهة الحركة الإسلامية . وقد كان واقع الجاهلية العربية هو الذى يواجهه التعقيب هنا عقب المرحلة الأولى من قصة البشرية الكبرى . . كانت قريش قد ابتدعت لنفسها حقوقاً على بقية مشركى العرب الذين يفدون لحج بيت الله – الذى جعلوه بيتاً للأصنام وسدنتها ! – وأقامت هذه الحقوق على تصورات اعتقادية زعمت أنها من دين الله ؛ وصاغتها فى شرائع ، زعمت أنها من شرع الله ! وذلك لتخضع لها أعناق المشركين ؛ كما يصنع السدنة والكهنة والرؤساء فى كل جاهلية على وجه التقريب . . وكانت قريش سمت نفسها اسماً خاصاً وهو "الحُمس" وجعلوا لأنفسهم حقوقاً ليست لسائر العرب . ومن هذه الحقوق – فيما يختص بالطواف بالبيت – أنهم هم وحدهم لهم حق الطواف فى ثيابهم . فأما بقية العرب فلا تطوف فى ثياب لبستها من قبل . فلا بد أن تستعير من ثياب الحمس للطواف أو تستجد ثياباً لم تلبسها من قبل وإلا طافوا عراياً وفيهم النساء ! ففى مواجهة هذا الواقع الجاهلى فى شؤون التشريع للعبادة والطواف واللباس – مضافاً إليه ما يختص بتقاليد كهذه فى الطعام يزعمون أنها من شرع الله وليست من شرع الله – فى مواجهة هذا الواقع جاءت تلك التعقيبات على قصة البشرية الأولى . وجاء ذكر الأكل من ثمر الجنة – إلا ما حرم الله – وجاء ذكر اللباس خاصة ، ونزع الشيطان له عن آدم وزوجه بإغوائه لهما بتناول المحظور ؛ وجاء ذكر حيائهما الفطرى من كشف السوآت ، وخصفهما على سوآتهما من ورق الجنة . . فما ذكر من أحداث القصة ، وما جاء فى التعقيب الأول عليها ، هو مواجهة واقعية لواقع معين فى الجاهلية (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا . ولباس التقوى ، ذلك خير , ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) هذا النداء يجيء فى ظل المشهد الذى سبق عرضه من القصة . . مشهد العرى وتكشف السوآت والخصف من ورق الجنة . . لقد كان هذا ثمرة للخطيئة . . والخطيئة كانت فى معصية أمر الله ، وتناول المحظور الذى نهى عنه الله . . وليست هي الخطيئة التى تتحدث عنها أساطير [الكتاب المقدس !] والتى تعج بها التصورات الفنية الغربية المستقاة من تلك الأساطير ومن إيحاءات "فرويد" المسمومة . . لم تكن هي الأكل من " شجرة المعرفة " – كما تقول أساطير العهد القديم . وغيرة الله – سبحانه وتعالى – من " الإنسان" وخوفه – تعالى عن وصفهم علواً كبيراً – من أن يأكل من شجرة الحياة أيضاً فيصبح كواحد من الآلهة ! كما تزعم تلك الأساطير . ولم تكن كذلك هي المباشرة الجنسية كما تطوف خيالات الفن الأوربى دائماً حول مستنقع الوحل الجنسي ، لتفسر به كل نشاط الحياة كما علمهم فرويد اليهودى ! .وفى مواجهة مشهد العرى الذى أعقب الخطيئة ومواجهة العرى الذى كان يزاوله المشركون فى الجاهلية يذكر السياق فى هذا النداء نعمة الله على البشر وقد علمهم ويسر لهم ، وشرع لهم كذلك ، اللباس الذى يستر العورات المكشوفة ، ثم يكون زينة – بهذا الستر – وجمالاً ، بدل قبح العرى وشناعته – ولذلك يقول (أنزلنا) أى:شرعنا لكم فى التنزيل . واللباس قد يطلق على ما يوارى السوآة وهو اللباس الداخلى ، والرياش قد يطلق على ما يستر الجسم كله ويتجمل به ، وهو ظاهر الثياب . كما قد يطلق الرياش على العيش الرغد والنعمة والمال . . وهى كلها معان متداخلة ومتلازمة (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً) كذلك يذكر هنا (لباس التقوى) ويصفه بأنه(خير) (ولباس التقوى ذلك خير . ذلك من آيات الله .). . إن ستر الجسد حياء ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئى – كما تزعم الأبواق المسلطة على حياء الناس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم ، وفق الخطة اليهودية البشعة التى تتضمنها مقررات حكماء صهيون – إنما هي فطرة خلقها الله فى الإنسان ؛ ثم هي شريعة أنزلها الله للبشر ؛ وأقدرهم على تنفيذها بما سخر لهم فى الأرض من مقدرات وأرزاق . والله يذكر بنى آدم بنعمته عليهم فى تشريع اللباس والستر ، صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم ! وفى تمكينهم منه بما يسر لهم من الوسائل (لعلهم يذكرون) ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الحملة الضخمة الموجهة إلى حياء

الناس وأخلاقهم ; والدعوة السافرة لهم إلى العرى الجسدى – باسم الزينة والحضارة والمودة ! – وبين الخطة الصهيونية لتدمير إنسانيتهم ، والتعجيل بانحلالهم ، ليسهل تعبيدهم لملك صهيون ! ثم يربط بين هذا كله والخطة الموجهة للإجهاز على الجذور الباقية لهذا الدين فى صورة عواطف غامضة فى أعماق النفوس ! فحتى هذه توجه لها معاول السحق ، بتلك الحملة الفاجرة الداعرة إلى العرى النفسى والبدنى الذى تدعو إليه أقلام وأجهزة تعمل لشياطين اليهود في كل مكان ! والزينة "الإنسانية" هى زينة الستر ، بينما الزينة "الحيوانية" هى زينة العرى . . ولكن "الادميين" فى هذا الزمان يرتدون إلى رجعية جاهلية تردهم إلى عالم البهيمة . فلا يتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها !!! (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . وإذا فعلوا فاحشة قالوا:وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل:إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ قل:أمر ربى بالقسط , وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله , ويحسبون أنهم مهتدون). إنه النداء الثانى لبنى آدم ، فى وقفة التعقيب على قصة أبويهم ، وما جرى لهما مع الشيطان ; وعلى مشهد العرى الذى أوقفهما فيه عدوهما ، بسبب نسيانهما أمر ربهما والاستماع إلى وسوسة عدوهما . وهذا النداء يصبح مفهوماً بما قدمناه من الحديث عن تقاليد الجاهلية العربية فى حكاية العرى عند الطواف بالبيت ؛ وزعمهم أن ما وجدوا عليه آباءهم هو من أمر الله وشرعه ! لقد كان النداء الأول تذكيراً لبنى آدم بذلك المشهد الذى عاناه أبواهم ؛ وبنعمة الله فى إنزال اللباس الذى يستر العورة والرياش الذى يتجمل به . . أما هذا النداء الثانى فهو التحذير لبنى آدم عامة وللمشركين الذين يواجههم الإسلام فى الطليعة . أن يستسلموا للشيطان ، فيما يتخذونه لأنفسهم من مناهج وشرائع وتقاليد ؛ فيسلمهم إلى الفتنة – كما فعل مع أبويهم من قبل إذ أخرجهما من الجنة ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما – – فالعرى والتكشف الذى يزاولونه – والذى هو طابع كل جاهلية قديماً وحديثاً – هو عمل من أعمال الفتنة الشيطانية ، وتنفيذ لخطة عدوهم العنيدة فى إغواء آدم وبنيه ؛ وهوطرف من المعركة التى لا تهدأ بين الإنسان وعدوه . فلا يدع بنو آدم لعدوهم أن يفتنهم ؛ وأن ينتصر فى هذه المعركة ، وأن يملأ منهم جهنم فى نهاية المطاف ! (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما). وزيادة فى التحذير ، واستثارة للحذر ، ينبئهم ربهم أن الشيطان يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونهم . وإذن فهو أقدر على فتنتهم بوسائله الخفية ؛ وهم محتاجون إلى شدة الاحتياط , وإلى مضاعفة اليقظة ، وإلى دوام الحذر ، كى لا يأخذهم على غرة (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) ثم الإيقاع المؤثر الموحى بالتوقى . . إن الله قدر أن يجعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . . ويا ويل من كان عدوه وليه ! إنه إذن يسيطر عليه ويستهويه ويقوده حيث شاء ، بلا عون ولا نصير ، ولا ولاية من الله (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) وإنها لحقيقة . . أن الشيطان ولي الذين لا يؤمنون ، كما أن الله هو ولى المؤمنين . . وهى حقيقة رهيبة ، ولها نتائجها الخطيرة . . وهى تذكر هكذا مطلقة ؛ ثم يواجه بها المشركون كحالة واقعة ؛ فنرى كيف تكون ولاية الشيطان ؛ وكيف تفعل فى تصورات الناس وحياتهم . . وهذا نموذج منها (وإذا فعلوا فاحشة قالوا:وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) وذلك ما كان يفعله ويقول به مشركو العرب ؛ وهم يزاولون فاحشة التعرى فى الطواف ببيت الله الحرام – وفيهم النساء ! – ثم يزعمون أن الله أمرهم بها . فقد كان أمر آباءهم بها ففعلوها ، ثم هم ورثوها عن آبائهم ففعلوها ! والله – سبحانه – يأمر نبيه ﷺ أن يواجههم بالتكذيب لهذا الافتراء على الله ؛ وبتقرير طبيعة شرع الله وكراهته للفاحشة ، فليس من شأنه سبحانه أن يأمر بها (قل:إن الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟) إن الله لا يأمر بالفحشاء إطلاقاً – والفاحشة:كل ما يفحش أى يتجاوز الحد – والعرى من هذه الفاحشة ، فالله لا يأمر به . وكيف يأمر الله بالاعتداء على حدوده ؟ والمخالفة عن أمره بالستر والحياء والتقوى ؟ ومن الذى أعلمهم بأمر الله ذاك ؟ إن أوامر الله وشرائعه ليست بالادعاء . إن أوامره وشرائعه واردة فى كتبه على رسله . وليس هناك مصدر آخر يعلم منه قول الله وشرعه . وليس لإنسان أن يزعم عن أمر أنه من شريعة الله ، إلا أن يستند إلى كتاب الله وإلى تبليغ رسول الله . فالعلم المستيقن بكلام الله هو الذى يستند إليه من يقول فى دين الله . . وإلا فأى فوضى يمكن أن تكون إذا قدم كل إنسان هواه ، وهو يزعم أنه دين الله !! إن الجاهلية هى الجاهلية . وهى دائماً تحتفظ بخصائصها الأصيلة . وفى كل مرة يرتد الناس إلى الجاهلية يقولون كلاماً متشابهاً ؛ وتسود فيهم تصورات متشابهة ، على تباعد الزمان والمكان . . وفى هذه الجاهلية التى نعيش فيها اليوم لا يفتأ يطلع علينا كاذب مفتر يقول ما يمليه عليه هواه ثم يقول:شريعة الله ! ولا يفتأ يطلع علينا متبجح وقح ينكر أوامر الدين ونواهيه المنصوص عليها ، وهو يقول:إن الدين لا يمكن أن يكون كذلك ! إن الدين لا يمكن أن يأمر بهذا ! إن الدين لا يمكن أن ينهى عن ذاك ، . . وحجته هى هواه !!! أتقولون على الله ما لا تعلمون

؟ . . وبعد أن ينكر عليهم دعواهم في أن الله أمرهم بهذه الفاحشة ، يبين لهم أن أمر الله يجرى فى اتجاه مضاد . . لقد أمر الله بالعدل والاعتدال فى الأمور كلها لا بالفحش والتجاوز . وأمر بالاستقامة على منهج الله فى العبادة والشعائر ، والاستمداد مما جاء في كتابه على رسوله ﷺ ولم يجعل المسألة فوضى ، يقول فيها كل إنسان بهواه , ثم يزعم أنه من الله . وأمر بأن تكون الدينونة خالصة له ، والعبودية كاملة ; فلا يدين أحد لأحد لذاته ولا يخضع أحد لأمر أحد لذاته (قل أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين) هذا ما أمر الله به ، وهو يضاد ما هم عليه . . يضاد اتباعهم لآبائهم وللشرائع التي وضعها لهم عباد مثلهم ، مع دعواهم أن الله أمرهم بها . . ويضاد العرى والتكشف وقد امتن الله على بنى آدم بأنه أنزل عليهم لباساً يوارى سوآتهم وريشاً يتجملون به كذلك . . ويضاد هذا الشرك الذي يزاولونه ، بازدواج مصادر التشريع لحياتهم ولعبادتهم ، وعند هذا المقطع من البيان يجيء التذكير والإنذار ؛ ويلوّح لهم بالمعاد إلى الله بعد انتهاء ما هم فيه من أجل مرسوم للابتلاء ؛ وبمشهدهم فى العودة وهم فريقان:الفريق الذى اتبع أمر الله ، والفريق الذي اتبع أمر الشيطان (كما بدأكم تعودون:فريقا هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون) إنها لقطة واحدة عجيبة تجمع نقطة البدء في الرحلة الكبرى ونقطة النهاية . نقطة الانطلاق في البدء ونقطة المآب فى الانتهاء (كما بدأكم تعودون) وقد بدأوا الرحلة فريقين:آدم وزوجه . والشيطان وقبيله . . وكذلك سيعودون . . الطائعون سيعودون فريقاً مع أبيهم آدم وأمهم حواء المسلمين المؤمنين بالله المتبعين لأمر الله . والعصاة سيعودون مع إبليس وقبيله ، يملأ الله منهم جهنم ، بولائهم لإبليس وولايته لهم . وهم يحسبون أنهم مهتدون . لقد هدى الله من جعل ولايته لله . وأضل من جعل ولايته للشيطان . . وهاهم أولاء عائدين فريقين (فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة . إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) ها هم أولاء عائدين . فى لمحة تضم طرفى الرحلة ! على طريقة القرآن ، التى يتعذر أن تتحقق فى غير أسلوب القرآن ! ثم يتكرر النداء إلى (بنى آدم)فى هذه الوقفة كذلك ؛ قبل أن يتابع السياق الرحلة المديدة ; فى الطريق المرسوم (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين . قل:من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل:هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة . كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل:إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ؛ والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) إنه التوكيد بعد التوكيد على الحقائق الأساسية للعقيدة ، فى مواجهة ما عليه المشركون العرب فى الجاهلية ؛ وذلك في سياق النداء إلى بنى آدم كافة ، وفى مواجهة قصة البشرية الكبرى . .وأظهر هذه الحقائق هو الربط بين ما يحرمونه من الطيبات التى أخرجها الله لعباده دون إذن منه ولا شرع ؛ وبين الشرك الذى هو الوصف المباشر لمن يزاول هذا التحريم ، ويقول على الله ما لا يعلم ، ويزعم من ذلك ما يزعم . إنه يناديهم أن يأخذوا زينتهم من اللباس الذى أنزله الله عليهم . وهو الرياش . عند كل عبادة ؛ ومنها الطواف الذى يزاولونه عرايا ، ويحرمون اللباس الذي لم يحرمه الله , بل أنعم به على العباد . فأولى أن يعبدوه بطاعته فيما أنزل لهم ، لا بخلعه ولا بالفحش الذى يزاولونه (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) ويناديهم كذلك ليتمتعوا بالطيبات من الطعام والشراب دون إسراف (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا . إنه لا يحب المسرفين) ولا يكتفى السياق بالدعوة إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد ، وإلى الاستمتاع بالطيب من الطعام والشراب . بل يستنكر تحريم هذه الزينة التي أخرجها الله لعباده ، وتحريم الطيبات من الرزق . فمن المستنكر أن يحرم أحد – برأيه – ما أخرجه الله للناس من الزينة أو من الطيبات . فتحريم شيء أو تحليله لا يكون إلا بشرع من الله (قل: من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) ويتبع الاستنكار بتقرير أن هذه الزينة من اللباس ، وهذه الطيبات من الرزق ، هى حق للذين آمنوا – بحكم إيمانهم بربهم الذى أخرجها لهم – ولئن كان سواهم يشاركهم فيها فى هذه الدنيا ، فهى خالصة لهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها الذين كفروا (قل:هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة) ولن يكون الشأن كذلك ، ثم تكون محرمة عليهم ؛ فما يخصهم الله في الآخرة بشيء هو حرام ! (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) والذين (يعلمون) حقيقة هذا الدين هم الذين ينتفعون بهذا البيان . فأما الذى حرمه الله حقاً ، فليس هو الزينة المعتدلة من اللباس ، وليس هو الطيب من الطعام والشراب – فى غير سرف ولا مخيلة – إنما الذى حرمه الله حقاً هو الذى يزاولونه فعلاً ! (قل :إنما حرم ربى الفواحش – ما ظهر منها وما بطن – والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون). . هذا هو الذى حرمه الله . الفواحش من الأعمال المتجاوزة لحدود الله . ظاهرة للناس أوخافية . والإثم . وهو كل معصية لله على وجه الإجمال . والبغى بغير الحق . وهو الظلم الذى يخالف الحق والعدل – كما بينهما الله أيضاً – وإشراك ما لم يجعل الله به قوة ولا سلطاناً مع الله – سبحانه – فى خصائصه . ومنه هذا الذى كان واقعاً فى الجاهلية , وهو الواقع فى كل جاهلية . من إشراك غير الله ليشرع للناس ؛ ويزاول

خصائص الألوهية . وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون . كالذى كانوا يقولونه من التحليل والتحريم . ومن نسبتهم هذا إلى أمر الله بغير علم ولا يقين . .

ومن عجيب ما روى من حال المشركين الذين خوطبوا بهذه الآيات أول مرة ؛ ووجه إليهم هذا الإستنكار الوارد فى قوله تعالى: (قل:من حرم زينة الله التى أخرج لعباده . .) ما رواه الكلبى لما لبس المسلمون الثياب ، وطافوا بالبيت عيرهم المشركون بها . . فنزلت الآية " . . فانظر كيف تصنع الجاهلية بأهلها ! ناس يطوفون ببيت الله عرايا ؛ فسدت فطرتهم وانحرفت عن الفطرة السليمة التى يحكيها القرآن الكريم عن آدم وحواء فى الجنة: (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة). فإذا رأوا المسلمين يطوفون بالبيت مكسوين ، فى زينة الله التى أنعم بها على البشر ؛ لإرادته بهم الكرامة والستر ، ولتنمو فيهم خصائص فطرتهم الإنسانية فى سلامتها وجمالها الفطرى , وليتميزوا عن العرى الحيوانى . . الجسمى والنفسى . . إذا رأوا المسلمين يطوفون ببيت الله فى زينة الله وفق فطرة الله "عيروهم"! إنه هكذا تصنع الجاهلية بالناس . . هكذا تمسخ فطرهم وأذواقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم ! وماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس فى هذا الأمر غير الذى فعلته بالناس فى جاهلية المشركين العرب ؟ وجاهلية المشركين الإغريق ؟ وجاهلية المشركين الرومان ? وجاهلية المشركين الفرس ؟ وجاهلية المشركين فى كل زمان وكل مكان ؟! ماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس إلا أن تعريهم من اللباس ، وتعريهم من التقوى والحياء ? ثم تدعو هذا رقياً وحضارة وتجديداً ؛ ثم تعير الكاسيات من الحرائر العفيفات المسلمات ، بأنهن "رجعيات" . "تقليديات" . "ريفيات" ! المسخ هو المسخ . والانتكاس عن الفطرة هو الانتكاس . وانقلاب الموازين هو انقلاب الموازين . والتبجح بعد ذلك هو التبجح . .(أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون !) وما الفرق كذلك فى علاقة هذا العرى ، وهذا الانتكاس ، وهذه البهيمية ، وهذا التبجح , بالشرك ، وبالأرباب التى تشرع للناس من دون الله ؟ لئن كان مشركو العرب قد تلقوا فى شأن ذلك التعرى من الأرباب الأرضية التى كانت تستغل جهالتهم وتستخف بعقولهم ، لضمان السيادة لها فى الجزيرة . . ومثلهم بقية الجاهليات القديمة التى تلقت من الكهنة والسدنة والرؤساء . . فإن مشركى اليوم ومشركاته يتلقون فى هذا عن الأرباب الأرضية كذلك . . ولا يملكون لأمرهم رداً . . إن بيوت الأزياء ومصمميها ، وأساتذة التجميل ودكاكينها ، لهى الأرباب التى تكمن وراء هذا الخبل الذى لا تفيق منه نساء الجاهلية الحاضرة ولا رجالها كذلك ! إن هذه الأرباب تصدر أوامرها ، فتطيعها القطعان والبهائم العارية فى أرجاء الأرض طاعة مزرية ! وسواء كان الزى الجديد لهذا العام يناسب قوام أية امرأة أو لا يناسبه ، وسواء كانت مراسم التجميل تصلح لها أو لا تصلح ، فهى تطيع صاغرة . . تطيع تلك الأرباب . وإلا "عيرت" من بقية البهائم المغلوبة على أمرها ! ومن ذا الذى يقبع وراء بيوت الأزياء ؟ ووراء دكاكين التجميل ؟ ووراء سعار العرى والتكشف ؟ ووراء الأفلام والصور والروايات والقصص ، والمجلات والصحف ، التى تقود هذه الحملة المسعورة . . وبعضها يبلغ فى هذا إلى حد أن تصبح المجلة أو القصة ماخوراً متنقلاً للدعارة ؟! من الذى يقبع وراء هذا كله ؟ الذى يقبع وراء هذه الأجهزة كلها ، فى العالم كله . . يهود . . يهود يقومون بخصائص الربوبية على البهائم المغلوبة على أمرها ! ويبلغون أهدافهم كلها من إطلاق هذه الموجات المسعورة فى كل مكان . . أهدافهم من تلهية العالم كله بهذا السعار ؛ وإشاعة الانحلال النفسى والخلقى من ورائه ، وإفساد الفطرة البشرية ، وجعلها ألعوبة فى أيدى مصممى الأزياء والتجميل ! ثم تحقيق الأهداف الاقتصادية من وراء الإسراف فى استهلاك الأقمشة وأدوات الزينة والتجميل وسائر الصناعات الكثيرة التى تقوم على هذا السعار وتغذيه ! إن قضية اللباس والأزياء ليست منفصلة عن شرع الله ومنهجه للحياة . . ومن ثم ذلك الربط بينها وبين قضية الإيمان والشرك فى السياق . أنها ترتبط بالعقيدة والشريعة بأسباب شتى:

إنها تتعلق قبل كل شىء بالربوبية ، وتحديد الجهة التى تشرع للناس فى هذه الأمور , ذات التأثير العميق فى الأخلاق والاقتصاد وشتى جوانب الحياة .

كذلك تتعلق بإبراز خصائص "الإنسان" فى الجنس البشرى ، وتغليب الطابع "الإنسانى" فى هذا الجنس على الطابع الحيوانى .

والجاهلية تمسخ التصورات والأذواق والقيم والأخلاق . وتجعل العرى – الحيوانى – تقدماً ورقياً . والستر – الإنسانى – تأخراً ورجعية ! وليس بعد ذلك مسخ لفطرة الإنسان وخصائص الإنسان .

وبعد ذلك عندنا جاهليون يقولون:ما للدين والزى ؟ ما للدين وملابس النساء ؟ ما للدين والتجميل ؟ . . إنه المسخ الذى يصيب الناس فى الجاهلية فى كل زمان وفى كل مكان !!!

ولأن هذه القضية التى تبدو فرعية ، لها كل هذه الأهمية فى ميزان الله وفى حساب الإسلام , لارتباطها أولا بقضية التوحيد والشرك ؛ ولارتباطها ثانياً بصلاح فطرة الإنسان وخلقه ومجتمعه وحياته ، أو بفساد هذا كله . . فإن السياق يعقب عليها بإيقاع قوى مؤثر ؛ يوقع به عادة فى مواقف العقيدة الكبيرة . . إنه يعقب بتنبيه بنى آدم , إلى أن بقاءهم فى هذه الأرض محدود مرسوم ؛ وأنه إذا جاء الأجل فلا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون (ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) إنها حقيقة أساسية من حقائق هذه العقيدة ، يوقع بها السياق على أوتار القلوب الغافلة - غير الذاكرة ولا الشاكرة - لتستيقظ ، فلا يغرها امتداد الحياة ! والأجل المضروب إما أجل كل جيل من الناس بالموت المعروف الذى يقطع الحياة . وإما أجل كل أمة من الأمم بمعنى الأمد المقدر لقوتها فى الأرض واستخلافها . . وسواء هذا الأجل أو ذاك فإنه مرسوم لا يتقدمون عنه ولا يستأخرون .

(يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٣٥} وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{٣٦} فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ{٣٧} قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ{٣٨} وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ{٣٩} إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ{٤٠} لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ{٤١} وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{٤٢} وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٤٣} وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ{٤٤} الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ{٤٥} وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ{٤٦} وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{٤٧} وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ{٤٨} أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ{٤٩} وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ{٥٠} الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ{٥١} وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{٥٢} هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ){٥٣}

الآن يبدأ نداء جديد لبنى آدم . . نداء بشأن القضية الكلية التى ربطت بها قضية اللباس فى الوقفة السابقة . قضية التلقى والاتباع فى شعائر الدين وفى شرائعه ، وفى أمر الحياة كلها وأوضاعها . وذلك لتحديد الجهة التى يتلقون منها . . إنها جهة الرسل المبلغين عن ربهم . وعلى أساس الاستجابة أو عدم الاستجابة للرسل يكون الحساب والجزاء , فى نهاية الرحلة التى يعرضها السياق فى هذه الجولة (يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) هذا هو عهد الله لآدم وبنيه ، وهذا هو شرطه فى الخلافة عنه - سبحانه - فى أرضه التى خلقها وقدر فيها أقواتها ، واستخلف فيها هذا الجنس ، ومكنه فيها ، ليؤدى دوره وفق هذا الشرط وذلك العهد ؛ وإلا فإن عمله رد فى الدنيا لا يقبله ولا يمضيه مسلم لله ; وهو فى الآخرة وزر جزاؤه جهنم لا يقبل الله من أصحابه صرفاً ولا عدلاً (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) لأن التقوى تنأى بهم عن الآثام والفواحش - وأفحش الفواحش الشرك بالله

واغتصاب سلطانه وادعاء خصائص ألوهيته – وتقودهم إلى الطيبات والطاعات ؛ وتنتهى بهم إلى الأمن من الخوف والرضى عن المصير (والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). . لأن التكذيب والاستكبار عن الاستسلام لعهد الله وشرطه يلحق المستكبرين بوليهم إبليس فى النار ؛ حيث يحق وعد الله: (لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) ومن هنا يأخذ السياق فى عرض مشهد الاحتضار – عند نهاية الأجل المشار إليه فى نهاية الجولة الماضية:(ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) ثم مشهد الحشر والحساب . ومشهد الفصل والجزاء . . كأنها تفصيل لذلك الإجمال عن شأن المتقين والمستكبرين ؛ وتصوير لحال المتقين وحال المستكبرين ؛ بعد الأجل المعلوم . تصوير على طريقة القرآن الفريدة التى تستحضر المشهد حياً متحركاً يراه قارىء القرآن وسامعه ؛ ويشهده ، بكل كينونته . لقد عنى المنهج القرآنى بمشاهد القيامة . . البعث والحساب ، والنعيم والعذاب . . عناية واضحة . فلم يعد ذلك العالم الذى وعده الله الناس ، بعد هذا العالم الحاضر ، موصوفاً فحسب ، بل عاد مصوراً محسوساً ، وخفقت قلوبهم تارة ، واقشعرت جلودهم تارة ، وسرى فى نفوسهم الفزع مرة ، وعاودهم الاطمئنان أخرى ، ولاح لهم من بعيد لفح النار ، ورفت إليهم من الجنة أنسام ! ومن ثم باتوا يعرفون ذلك العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود . . والذى يراجع كلماتهم ومشاعرهم عن ذلك العالم يحس أنهم كانوا يعيشون فيه عيشة أعمق وأصدق من حياتهم فى هذه الدار الدنيا ؛ وكانوا ينتقلون بحسهم كله إليه ، كما ينتقل الإنسان من دار إلى دار ، ومن أرض إلى أرض، فى هذه الحياة المشهودة المحسوسة . . ولم يكن ذلك العالم مستقبلاً موعوداً فى حسهم ، وإنما كان واقعاً مشهوداً . . ها نحن أولاء أمام مشهد الاحتضار . احتضار الذين افتروا على الله الكذب ، فزعموا أن ما ورثوه عن آبائهم من التصورات والشعائر ، وما شرعوه هم لأنفسهم من التقاليد والأحكام , أمرهم به الله ، والذين كذبوا بآيات الله التى جاءهم بها الرسل – وهى شرع الله المستيقن – وآثروا الظن والحرص على اليقين والعلم . وقد نالوا نصيبهم من متاع الدنيا الذى كتب لهم ، ومن فترة الابتلاء التى قدرها الله ، كما نالوا نصيبهم من آيات الله التى أرسل بها رسله وأبلغهم الرسل نصيبهم من الكتاب (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياتنا ؟ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب , حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ، قالوا:أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا:ضلوا عنا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) ها نحن أولاء أمام مشهد هؤلاء الذين افتروا على الله كذباً أو كذبوا بآياته ؛ وقد جاءتهم رسل ربهم من الملائكة يتوفونهم ، ويقبضون أرواحهم . فدار بين هؤلاء وهؤلاء حوار (قالوا:أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟). . أين دعاويكم التى افتريتم على الله ؟ وأين الهتكم التى توليتم فى الدنيا ، وفتنتم بها عما جاءكم من الله على لسان الرسل ؟ أين هى الآن فى اللحظة الحاسمة التى تسلب منكم فيها الحياة ؛ فلا تجدون لكم عاصماً من الموت يؤخركم ساعة عن الميقات الذى أجله الله ؟ ويكون الجواب هو الجواب الوحيد ، الذى لا معدى عنه ، ولا مغالطة فيه (قالوا:ضلوا عنا)! غابوا عنا وتاهوا ! فلا نحن نعرف لهم مقراً ، ولا هم يسلكون إلينا طريقاً ! . . فما أضيع عباداً لا تهتدى إليهم آلهتهم ، ولا تسعفهم فى مثل هذه اللحظة الحاسمة ! وما أخيب آلهة لا تهتدى إلى عبادها . فى مثل هذا الأوان ! (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) فإذا انتهى مشهد الاحتضار ، فنحن أمام المشهد التالى ، وهؤلاء المحتضرون فى النار . . ! ويسكت السياق عما بينهما ، ويسقط الفترة بين الموت والبعث والحشر . وكأنما يؤخذ هؤلاء المحتضرون من الدار إلى النار (ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار) انضموا إلى زملائكم وأوليائكم من الجن والإنس . . هنا فى النار . . أليس إبليس هو الذى عصى ربه ؟ وهو الذى أخرج آدم من الجنة وزوجه ؟ وهو الذى أغوى من أغوى من أبنائه ؟ وهو الذى أوعده الله أن يكون هو ومن أغواهم فى النار ؟ . . فادخلوا إذن جميعاً . . ادخلوا سابقين ولاحقين . . فكلكم أولياء . . وكلكم سواء ! ولقد كانت هذه الأمم والجماعات والفرق فى الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها ، ويملى متبوعها لتابعها . . فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها ، وكيف يكون التنابز فيها (كلما دخلت أمة لعنت أختها)! فما أبأسها نهاية تلك التى يلعن فيها الابن أباه ؛ ويتنكر فيها الولى لمولاه ! (حتى إذا اداركوا فيها جميعاً) وتلاحق آخرهم وأولهم ، واجتمع قاصيهم بدانيهم ، بدأ الخصام والجدال (قالت أخراهم لأولاهم ، ربنا هؤلاء أضلونا ، فآتهم عذاباً ضعفاً من النار) وهكذا تبدأ مهزلتهم أو مأساتهم ! ويكشف المشهد عن الأصفياء والأولياء ، وهم متناكرون أعداء ؛ يتهم بعضهم بعضا ، ويلعن بعضهم بعضا ، ويطلب له من (ربنا)شر الجزاء . . من(ربنا)الذى كانوا يفترون عليه ويكذبون بآياته ؛ وهم اليوم ينيبون إليه وحده ويتوجهون إليه بالدعاء ! فيكون الجواب استجابة للدعاء . ولكن أية استجابة ؟! (قال:لكل ضعف ، ولكن لا تعلمون) لكم ولهم جميعاً ما طلبتم من مضاعفة العذاب ! وكأنما شمت المدعو عليهم بالداعين ، حينما سمعوا جواب الدعاء ، فإذا هم يتوجهون إليهم بالشماتة . . كلنا سواء . . فى هذا الجزاء (وقالت أولاهم لأخراهم:فما كان لكم علينا من فضل . فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) وبهذا ينتهى ذلك المشهد الساخر الأليم ، ليتبعه تقرير وتوكيد لهذا المصير الذى لن يتبدل – وذلك قبل

عرض المشهد المقابل للمؤمنين في دار النعيم (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ، وكذلك نجزي المجرمين . لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ، وكذلك نجزي الظالمين) ودونك فقف بتصورك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب . . مشهد الجمل تجاه ثقب الإبرة . فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير ، فانتظر حينئذ - وحينئذ فقط - أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين ، فتقبل دعاءهم أو توبتهم - وقد فات الأوان - وأن يدخلوا إلى جنات النعيم ! أما الآن ، وإلى أن يلج الجمل في سم الخياط , فهم هنا في النار ، التي تداركوا فيها جميعاً وتلاحقوا ؛ وتلاوموا فيها وتلاعنوا , وطلب بعضهم لبعض سوء الجزاء ، ونالوا جميعاً ما طلبه الأولياء للأولياء ! (وكذلك نجزي المجرمين) ثم إليك هيئتهم في النار (لهم من جهنم مهادٌ ، ومن فوقهم غواش) فلهم من نار جهنم من تحتهم فراش ، يدعوه - للسخرية - مهاداً ، وما هو مهد ولا لين ولا مريح ! - ولهم من نار جهنم أغطية تغشاهم من فوقهم ! (وكذلك نجزي الظالمين) والظالمون هم المجرمون . والظالمون هم المشركون المكذبون بآيات الله ، المفترون الكذب على الله . . كلها أوصاف مترادفة في تعبير القرآن . والآن فلننظر إلى المشهد المقابل: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات - لا نكلف نفساً إلا وسعها - أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . ونزعنا ما في صدورهم من غل ، تجري من تحتهم الأنهار ، وقالوا:الحمد لله الذي هدانا لهذا - وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله - لقد جاءت رسل ربنا بالحق . ونودوا:أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) هؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات قدر استطاعتهم ، لا يكلفون إلا طاقتهم . . هؤلاء هم يعودون إلى جنتهم ! إنهم أصحابها - بإذن الله وفضله - ورثها لهم - برحمته - بعملهم الصالح مع الإيمان . . جزاء ما اتبعوا رسل الله وعصوا الشيطان . وجزاء ما أطاعوا أمر الله العظيم الرحيم ، وعصوا وسوسة العدو اللئيم القديم ! ولولا رحمة الله ما كفى عملهم - في حدود طاقتهم - وقد قال رسول الله ﷺ " لن يدخل أحداً منكم الجنة عمله " . قالوا:ولا أنت يا رسول الله ؟ قال:" ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل " . وليس هنالك تناقض ولا اختلاف بين قول الله سبحانه في هذا الشأن , وقول رسوله ﷺ وهو لا ينطق عن الهوى . . وكل ما ثار من الجدل حول هذه القضية بين الفرق الإسلامية لم يقم على الفهم الصحيح لهذا الدين ، إنما ثار عن الهوى ! فلقد علم الله من بني آدم ضعفهم وعجزهم وقصورهم عن أن تفي أعمالهم بحق الجنة . ولا بحق نعمة واحدة من نعمه عليهم في الدنيا . فكتب على نفسه الرحمة ؛ وقبل منهم جهد المقل القاصر الضعيف ؛ وكتب لهم به الجنة ، فضلاً منه ورحمة ، فاستحقوها بعملهم ولكن بهذه الرحمة . . وبعد , فإذا كان أولئك المفترون المكذبون المجرمون الظالمون الكافرون المشركون يتلاعنون في النار ويتخاصمون , وتغلي صدورهم بالسخائم والأحقاد ، بعد أن كانوا أصفياء أولياء ، فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة إخوان متحابون متصافون متوادون , يرف عليهم السلام والولاء (ونزعنا ما في صدورهم من غل) فهم بشر . وهم عاشوا بشراً . وقد يثور بينهم في الحياة الدنيا غيظ يكظمونه ، وغل يغالبونه ويغلبونه . . ولكن تبقى في القلب منه آثار . وإذا كان أهل النار يصطلون النار من تحتهم ومن فوقهم . فأهل الجنة تجري من تحتهم الأنهار ; فترف على الجو كله أنسام (تجري من تحتهم الأنهار) وإذا كان أولئك يشتغلون بالتنابز والخصام ، فهؤلاء يشتغلون بالحمد والاعتراف (وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق) وإذا كان أولئك ينادون بالتحقير والتأنيب (ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار) فإن هؤلاء ينادون بالتأهيل والتكريم (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) إنه التقابل التام بين أصحاب الجنة وأصحاب النار . ثم يستمر العرض ، فإذا نحن أمام مشهد لاحق للمشهد السابق . . لقد اطمأن أصحاب الجنة إلى دارهم ؛ واستيقن أصحاب النار من مصيرهم . وإذا الأولون ينادون الآخرين ، يسألونهم عما وجدوه من وعد الله القديم (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار:أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا:نعم) وفي هذا السؤال من السخرية المرة ما فيه . . إن المؤمنين على ثقة من تحقق وعيد الله كثقتهم من تحقق وعده . ولكنهم يسألون ! ويجيء الجواب في كلمة واحدة . . نعم . . ! وعندئذ ينتهي الجواب ، ويقطع الحوار(فأذن مؤذن بينهم:أن لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة كافرون) فيتحدد معنى(الظالمين) المقصود . وهو مرادف لمعنى (الكافرين). فهم الذين يصدون عن سبيل الله ، ويريدون الطريق عوجاً لا استقامة فيه ، وهم بالآخرة كافرون . وفي هذا الوصف: (ويبغونها عوجا). . إيحاء بحقيقة ما يريده الذين يصدون عن سبيل الله . ثم يتوجه النظر إلى المشهد من ظاهره . فإذا هنالك حاجز يفصل بين الجنة والنار ؛ عليه رجال يعرفون أصحاب الجنة وأصحاب النار بسيماهم وعلاماتهم . . فلننظر من هؤلاء , وما شأنهم مع أصحاب الجنة وأصحاب النار ؟ (وبينهما حجاب ، وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم . ونادوا أصحاب الجنة:أن سلام عليكم . . لم يدخلوها وهم يطمعون . وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا:ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم

بسيماهم , قالوا:ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون)

روى أن هؤلاء الرجال الذين يقفون على الأعراف – و هو الحجاب الحاجز بين الجنة والنار - جماعة من البشر ، تعادلت حسناتهم وسيئاتهم ، فلم تصل بهم تلك إلى الجنة مع أصحاب الجنة , ولم تؤد بهم هذه إلى النار مع أصحاب النار . . وهم بين بين ، ينتظرون فضل الله ويرجون رحمته . . وهم يعرفون أهل الجنة بسيماهم – ربما ببياض الوجوه ونضرتها أو بالنور الذى يسعى بين أيديهم وبأيمانهم – ويعرفون أهل النار بسيماهم – ربما بسواد الوجوه وقترتها ، أو بالوسم الذى على أنوفهم التى كانوا يشمخون بها فى الدنيا , كالذى جاء فى سورة القلم (سنسمه على الخرطوم)! وها هم أولاء يتوجهون إلى أهل الجنة بالسلام . . يقولونها وهم يطمعون أن يدخلهم الله الجنة معهم ! . . . فإذا وقعت أبصارهم على أصحاب النار – وكأنما يصرفون إليهم صرفاً لا عن إرادة منهم – استعاذوا بالله أن يكون مصيرهم معهم ! (وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم . ونادوا أصحاب الجنة:أن سلام عليكم . . لم يدخلوها وهم يطمعون . . وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) ثم يبصرون برجال من كبار المجرمين معروفين لهم بسيماهم . فيتجهون إليهم بالتبكيت والتأنيب (ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم ، قالوا:ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون)! فها أنتم هؤلاء فى النار ، لا جمعكم نفعكم ، ولا استكباركم أغنى عنكم ! ثم يذكرونهم بما كانوا يقولونه عن المؤمنين فى الدنيا من أنهم ضالون ، لا ينالهم الله برحمة (أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة !)! انظروا الآن أين هم ؟ وماذا قيل لهم (ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وأخيراً . ها نحن أولاء نسمع صوتاً آتياً من قبل النار ، ملؤه الرجاء والاستجداء(ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة:أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله)! وها نحن أولاء نلتفت إلى الجانب الآخر نسمع الجواب ملؤه التذكير الأليم المرير (قالوا:إن الله حرمهما على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا) ثم إذا صوت البشر عامة يتوارى ، لينطق رب العزة والجلالة ، وصاحب الملك والحكم (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا . وما كانوا بآياتنا يجحدون . ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله ؟ يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل:قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل . قد خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون). وهكذا تتوالى صفحات المشهد جيئة وذهوباً . . لمحة فى الآخرة ولمحة فى الدنيا . لمحة مع المعذبين فى النار ، المنسيين كما نسوا لقاء يومهم هذا وكما جحدوا بآيات الله , وقد جاءهم بها كتاب مفصل مبين . فصله الله – سبحانه – على علم – فتركوه واتبعوا الأهواء والأوهام والظنون . .ولمحة معهم – وهم بعد فى الدنيا – ينتظرون مآل هذا الكتاب وعاقبة ما جاءهم فيه من النذير ؛ وهم يُحذرون أن يجيئهم هذا المآل . فالمآل هو مايرون فى هذا المشهد من واقع الحال ! إنها خفقات عجيبة فى صفحات المشهد المعروض ؛ لا يجليها هكذا إلا هذا الكتاب العجيب ! وهكذا ينتهى ذلك الاستعراض الكبير ؛ ويجىء التعقيب عليه متناسقاً مع الابتداء . تذكيراً بهذا اليوم ومشاهده ، وتحذيراً من التكذيب بآيات الله ورسله ، ومن انتظار تأويل هذا الكتاب فهذا هو تأويله ، حيث لا فسحة لتوبة ، ولا شفاعة فى الشدة ، ولا رجعة للعمل مرة أخرى . نعم . . هكذا ينتهى الاستعراض العجيب . فنفيق منه كما نفيق من مشهد أخاذ كنا نراه . ونعود منه إلى هذه الدنيا التى فيها نحن ! وقد قطعنا رحلة طويلة فى الذهاب والمجيء ! إنها رحلة الحياة كلها ، ورحلة الحشر والحساب والجزاء بعدها . . ومن قبل كنا مع البشرية فى نشأتها الأولى ، وفى هبوطها إلى الأرض وسيرها فيها ! وهكذا يرتاد القرآن الكريم بقلوب البشر هذه الآماد والأكوان والأزمان . يريها ما كان وما هو كائن وما سيكون . . كله فى لمحات . .

(نَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{٥٤} ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ{٥٥} وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ{٥٦} وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ{٥٧} وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ){٥٨}

بعد تلك الرحلة الواسعة الآماد ، من المنشأ إلى المعاد ، يأخذ السياق بأيدى البشر إلى رحلة أخرى فى ضمير الكون ، وفى صفحته المعروضة للأنظار . فيعرض قصة خلق السماوات والأرض بعد قصة خلق الإنسان . ويوجه الأبصار والبصائر إلى مكنونات هذا الكون وأسراره ، وإلى ظواهره وأحواله – إلى الليل الذى يطلب النهار فى ذلك الفلك الدوار . وإلى الشمس والقمر والنجوم وهن مسخرات بأمر الله . وإلى الرياح الدائرة فى الجواء , نقل السحاب إلى البلد الميت – بإذن الله – فإذا هو حى ، وإذا الموات يؤتى من كل الثمرات . إنه الإيقاع القوى العميق بعبودية الوجود كلها لبارئه ، والذى يبدو استكبار الإنسان فيه عن هذه العبودية نشازاً فى الوجود ، يجعل الناشز غريباً شائهاً فى الوجود . وفى ظل تلك المشاهد ؛ وفى مواجهة هذا الإيقاع يدعوهم (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ، إنه لا يحب المعتدين ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها , وادعوه خوفاً وطمعاً ، إن رحمة الله قريب من المحسنين) إن إخلاص الدين لله ، وتقرير عبودية البشر له ، إن هى إلا فرع من إسلام الوجود كله , وعبودية الوجود كلة لسلطانه . . وهذا هو الإيحاء الذى يستهدف المنهج القرآنى تقريره وتعميقه فى القلب البشرى ، ومن ثم يتخذ المنهج القرآنى من هذا الوجود مجاله الأول لتجلية حقيقة الألوهية ؛ وتعبيد البشر لربهم وحده ، وإشعار قلوبهم وكيانهم كله حقيقة العبودية ، وتذوق طعمها الحقيقى فى استسلام الواثق المطمئن ؛ الذى يستشعر أن كل ما حوله وكل من حوله من خلق الله , يتجاوب وإياه ! إنه ليس البرهان العقلى وحده هو الذى يستهدفه المنهج القرآنى باستعراض عبودية الوجود لله ، وتسخيره بأمره ، واستسلام هذا الوجود فى طواعية ويسر ودقة وعمق لأمره وحكمه . . إنما هو مذاق آخر – وراءالبرهان العقلى ومع هذا البرهان العقلى – مذاق المشاركة مع الوجود والتجاوب . ومذاق الطمأنينة واليسر ؛ والانسياق مع موكب الايمان الشامل . إنه مذاق العبودية الراضية ، التى لا يسوقها القسر ، ولا يحركها القهر . . إنما تحركها – قبل الأمر والتكليف – عاطفة الود والطمأنينة والتناسق مع الوجود كله . . فلا تفكر فى التهرب من الأمر ، ولا التفلت من القهر ؛ لأنها إنما تلبى حاجتها الفطرية فى الاستسلام الجميل المريح (إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين) إن عقيدة التوحيد الإسلامية ، لا تدع مجالاً لأى تصور بشرى عن ذات الله سبحانه ؛ ولا عن كيفيات أفعاله . . فالله سبحانه ليس كمثله شىء . . ومن ثم لا مجال للتصور البشرى لينشىء صورة عن ذات الله . فكل التصورات البشرية إنما تنشأ فى حدود المحيط الذى يستخلصه العقل البشرى مما حوله من أشياء . فإذا كان الله – سبحانه – ليس كمثله شىء , توقف التصور البشرى إطلاقاً عن إنشاء صورة معينة لذاته تعالى . ومتى توقف عن إنشاء صورة معينة لذاته العلية فإنه يتوقف تبعاً لذلك عن تصور كيفيات أفعاله جميعاً . ولم يبق أمامه إلا مجال تدبر آثار هذه الأفعال فى الوجود من حوله . . وهذا هو مجاله . . ومن ثم تصبح أسئلة كهذه :كيف خلق الله السماوات والأرض ؟ كيف استوى على العرش ؟ كيف هذا العرش الذى استوى عليه الله سبحانه ؟! . . . تصبح هذه الأسئلة وأمثالها لغوا يخالف توجيهها قاعدة الاعتقاد الإسلامى . أما الإجابة عليها فهى اللغو الأشد الذى لا يزاوله من يدرك تلك القاعدة ابتداء ! ولقد خاضت الطوائف – مع الأسف – فى هذه المسائل خوضاً شديداً فى تاريخ الفكر الإسلامى ، بالعدوى الوافدة على هذا الفكر من الفلسفة الإغريقية ! فأما الأيام الستة التى خلق الله فيها السماوات والأرض ، فهى كذلك غيب لم يشهده أحد من البشر ولا من خلق الله جميعاً: ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم . . وكل ما يقال عنها لا يستند إلى أصل مستيقن . إنها قد تكون ست مراحل . وقد تكون ستة أطوار . وقد تكون ستة أيام من أيام الله التى لا تقاس بمقاييس زماننا الناشئ من قياس حركة الأجرام – إذ لم تكن قبل الخلق هذه الأجرام التى نقيس نحن بحركتها الزمان ! . . وقد تكون شيئاً آخر . . فلا يجزم أحد ماذا يعنى هذا العدد على وجه التحديد . . وكل حمل لهذا النص ومثله على "تخمينات" البشرية التى لا تتجاوز مرتبة الفرض والظن – باسم "العلم ! " – هو محاولة تحكمية ، منشؤها الهزيمة الروحية أمام "العلم" الذى لا يتجاوز فى هذا المجال درجة الظنون والفروض ! ونخلص نحن من هذه المباحث التى لا تضيف شيئاً إلى هدف النص ووجهته . لنرتاد مع النصوص الجميلة تلك الرحلة الموحية فى أقطار الكون المنظور ، وفى أسراره المكنونة (إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين) إن الله الذى خلق هذا الكون المشهود فى ضخامته وفخامته . والذى استعلى على هذا الكون يدبره بأمره ويصرفه بقدره . يُغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً . . فى هذه الدوره الدائبة: دورة الليل يطلب النهار فى هذا الفلك الدوار . والذى جعل الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . . إن الله الخالق المهيمن المصرف المدبر ، هو(ربكم). . هو الذى يستحق أن يكون رباً لكم . يربيكم بمنهجه ، ويجمعكم بنظامه ، ويشرع لكم بإذنه , ويقضى بينكم بحكمه . . إن الألفة التى تقتل الكون ومشاهده فى الحس ؛ وتطبع النظرة إليه بطابع البلادة والغفلة . . إن هذه الألفة لتتوارى ،

ليحل محلها وقع المشهد الجديد الرائع الذى يطالع الفطرة كأنما لأول وهلة ! . . إن الليل والنهار فى هذا التعبير ليسا مجرد ظاهرتين طبيعيتين مكرورتين . وإنما هما حيان ذوا حس وروح وقصد واتجاه . يعاطفان البشر ويشاركانهم حركة الحياة ؛ وحركة الصراع والمنافسة والسباق التى تطبع الحياة ! كذلك هذه الشمس والقمر والنجوم . . إنها كائنات حية ذات روح ! إنها تتلقى أمر الله وتنفذه ، وتخضع له وتسير وفقه . إنها مسخرة ، تتلقى وتستجيب ، وتمضى حيث أمرت كما يمضى الأحياء فى طاعة الله ! وعندما يصل السياق إلى هذا المقطع ، وقد ارتعش الوجدان البشرى لمشاهد الكون الحية , التى كان يمر عليها فى بلادةٍ وغفلة . وقد تجلى له خضوع هذه الخلائق الهائلة وعبوديتها لسلطان الخالق وأمره . . عندئذ يتوجه البشر إلى ربهم – الذى لا رب غيره – ليدعوه فى إنابة وخشوع ؛ وليلتزموا بربوبيته لهم ، فيلتزموا حدود عبوديتهم له ؛ لا يعتدون على سلطانه ؛ ولا يفسدون فى الأرض بترك شرعه إلى هواهم ، بعد أن أصلحها الله بمنهجه (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ، إنه لا يحب المعتدين ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها . وادعوه خوفاً وطمعاً ، إن رحمة الله قريب من المحسنين) إنه التوجيه فى أنسب حالة نفسية صالحة ، إلى الدعاء والإنابة . . تضرعاً وتذللاً ; وخفية لا صياحاً وتصدية ! فالتضرع الخفى أنسب وأليق بجلال الله وبقرب الصلة بين العبد ومولاه . أخرج مسلم – بإسناده عن أبى موسى – قال:كنا مع رسول الله ﷺفى سفر – وفى رواية غزاة – فجعل الناس يجهرون بالتكبير ، فقال رسول الله ﷺأيها الناس أربعوا [أى ارفقوا وهونوا] على أنفسكم . إنكم لستم تدعون أصم ولا غائباً . إنكم تدعون سميعاً قريباً . وهو معكم " . . فهذا الحس الإيمانى بجلال الله وقربه معاً ، هو الذى يؤكده المنهج القرآنى هنا ويقرره فى صورته الحركية الواقعية عند الدعاء . ذلك أن الذى يستشعر جلاله فعلاً يستحيى من الصياح فى دعائه ؛ والذى يستشعر قرب الله حقاً لا يجد ما يدعو إلى هذا الصياح ! وفى ظل مشهد التضرع فى الدعاء ، وهيئة الخشوع والانكسار فيه لله ، ينهى عن الاعتداء على سلطان الله ، فيما يدعونه لأنفسهم – فى الجاهلية – من الحاكمية التى لا تكون إلا لله . كما ينهى عن الفساد فى الأرض بالهوى ، وقد أصلحها الله بالشريعة . . والنفس التى تتضرع وتخشع خفية للقريب المجيب ، لا تعتدى كذلك ولا تفسد فى الأرض بعد إصلاحها . فبين الانفعالين اتصال داخلى وثيق فى تكوين النفس والمشاعر . والمنهج القرآنى يتبع خلجات القلوب وانفعالات النفوس . وهو منهج من خلق الذى يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (وادعوه خوفاً وطمعاً) خوفاً من غضبه وعقابه . وطمعاً فى رضوانه وثوابه (إن رحمة الله قريب) (من المحسنين) الذين يعبدون الله كأنهم يرونه ، فإن لم يكونوا يرونه فهو يراهم . . كما جاء فى الوصف النبوى للإحسان . ومرة أخرى يفتح السياق للقلب البشرى صفحة من صفحات الكون المعروضة للأنظار ؛ ولكن القلوب تمر بها غافلة بليدة ؛ لا تسمع نطقها ، ولا تستشعر إيقاعها . . إنها صفحة يفتحها على ذكر رحمة الله فى الآية السابقة ؛ نموذجاً لرحمة الله فى صورة الماء الهاطل ، والزرع النامى ، والحياة النابضة بعد الموت والخمود (وهو الذى يرسل الرياح ، بشراً بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات . . كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) إنها آثار الربوبية فى الكون . آثار الفاعلية والسلطان والتدبير والتقدير . وكلها من صنع الله ؛ الذى لا ينبغى أن يكون للناس رب سواه . وهو الخالق الرازق بهذه الأسباب التى ينشئها برحمته للعباد . وفى كل لحظة تهب ريح . وفى كل وقت تحمل الريح سحاباً . وفى كل فترة ينزل من السحاب ماء . ولكن ربط هذا كله بفعل الله – كما هو فى الحقيقة – هو الجديد الذى يعرضه القرآن هذا العرض المرتسم فى المشاهد المتحركة ، كأن العين تراه . وحمل الرياح للسحاب يجرى وفق نواميس الله فى الكون أيضاً . ولكنه يقع بقدر خاص . ثم يسوق الله السحاب – بقدر خاص منه – إلى (بلد ميت). . صحراء أو جدباء . . فينزل منه الماء – بقدر كذلك خاص – فيخرج من كل الثمرات – بقدر منه خاص – يجرى كل أولئك وفق النواميس التى أودعها طبيعة الكون وطبيعة الحياة . كذلك يربط السياق القرآنى بين حقيقة الحياة الناشئة بإرادة الله وقدره فى هذه الأرض , وبين النشأة الآخرة ، التى تتحقق كذلك بمشيئة الله وقدره ؛ على المنهج الذى يراه الأحياء فى نشأة هذه الحياة (كذلك نخرج الموتى ، لعلكم تذكرون) إن معجزة الحياة ذات طبيعة واحدة ، من وراء أشكالها وصورها وملابساتها . . هذا ما يوحى به هذا التعقيب . . وكما يخرج الله الحياة من الموات فى هذه الأرض ، فكذلك يخرج الحياة من الموتى فى نهاية المطاف . . إن المشيئة التى تبث الحياة فى صور الحياة وأشكالها فى هذه الأرض ، هى المشيئة التى ترد الحياة (لعلكم تذكرون) فالناس ينسون هذه الحقيقة المنظورة ؛ ويغرقون فى الضلالات والأوهام ! ويختم السياق هذه الرحلة فى أقطار الكون وأسرار الوجود ، بمثل يضربه للطيب وللخبيث من القلوب . ينتزعه من جو المشهد المعروض ، مراعاة للتناسق فى المرائى والمشاهد , وفى الطبائع والحقائق (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذى خبث لا يخرج إلا نكداً . كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون) والقلب الطيب يشبه فى القرآن الكريم وفى حديث رسول الله ﷺ بالأرض الطيبة ، وبالتربة الطيبة . والقلب الخبيث يشبه بالأرض الخبيثة وبالتربة الخبيثة . فكلاهما . . القلب

والتربة . منبت زرع ، ومأتى ثمر . القلب ينبت نوايا ومشاعر ، وانفعالات واستجابات ، واتجاهات وعزائم ، وأعمالاً بعد ذلك وآثاراً فى واقع الحياة . والأرض تنبت زرعاً وثمراً مختلفاً أكله وألوانه ومذاقاته وأنواعه (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه) طيباً خيراً ، سهلاً ميسراً (والذى خبث لا يخرج إلا نكداً) فى إيذاء وجفوة ، وفى عسر ومشقة والهدى والآيات والموعظة والنصيحة تنزل على القلب كما ينزل الماء على التربة . فإن كان القلب طيباً كالبلد الطيب ، تفتح واستقبل ، وزكا وفاض بالخير . وإن كان فاسداً شريراً – كالذى خبث من البلاد والأماكن – استغلق وقسا ، وفاض بالشر والنكر والفساد والضر . وأخرج الشوك والأذى ، كما تخرج الأرض النكدة ! (كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون) والشكر ينبع من القلب الطيب ، ويدل على الاستقبال الطيب ، والانفعال الطيب . ولهؤلاء الشاكرين الذين يحسنون التلقى والاستجابة تصرف الآيات . فهم الذين ينتفعون بها , ويصلحون لها ، ويصلحون بها . .

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّـيَ أَخَـافُ عَلَـيْكُمْ عَـذَابَ يَـوْمٍ عَظِيمٍ{٥٩} قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٦٠} قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{٦١} أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{٦٢} أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{٦٣} فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ{٦٤} وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ{٦٥} قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ{٦٦} قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{٦٧} أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ{٦٨} أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{٦٩} قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{٧٠} قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ{٧١} فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ{٧٢} وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{٧٣} وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ{٧٤} قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ{٧٥} قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ{٧٦} فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ{٧٧} فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ{٧٨} فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ{٧٩} وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ{٨٠} إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ{٨١} وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ{٨٢} فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ{٨٣} وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ{٨٤} وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٨٥} وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ{٨٦} وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ{٨٧} قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ{٨٨} قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ{٨٩} وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ{٩٠} فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ{٩١} الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ{٩٢} فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ){٩٣}

نحن مع موكب الإيمان . . هذه أعلامه . . وهذه علائمه . . وهذه هى معالم طريقه . . وهو يواجه البشرية فى رحلتها الطويلة على هذا الكوكب الأرضى . . يواجهها كلما التوت بها الطريق ؛ وكلما انحرفت عن

صراط الله المستقيم ؛ وكلما تفرقت بها السبل . تحت ضغط الشهوات ، التى يقودها الشيطان من خطامها ، محاولاً أن يرضى حقده ؛ وأن ينفذ وعيده ، وأن يمضى ببنى آدم من خطام هذه الشهوات إلى جهنم ؛ فإذا الموكب الكريم يواجه البشرية بالهدى ، ويلوّح لها بالنور ، ويستروح بها ريح الجنة ، ويحذرها لفحات السموم ، ونزغات الشيطان الرجيم ، عدوها المبين .إنه مشهد رائع . . مشهد الصراع العميق ، فى خضم الحياة ، على طول الطريق ، إن التاريخ البشري يمضي فى تشابك معقد كل التعقيد . . إن هذا الكائن المزدوج الطبيعة , المعقد التركيب . . الذى يتألف كيانه من أبعد عنصرين تؤلف بينهما قدرة الله وقدره . . عنصر الطين الذى نشأ منه ، وعنصر النفخة من روح الله ، التى جعلت من هذا الطين إنساناً . . إن هذا الكائن ليمضي فى تاريخه مع عوامل متشابكة كل التشابك , معقدة كل التعقيد . . يمضى بطبيعته هذه يتعامل مع تلك الأفاق والعوالم التى أسلفنا فى قصة آدم الحديث عنها . . يتعامل مع الحقيقة الإلهية:مشيئتها وقدرها ، وقدرتها وجبروتها ، ورحمتها وفضلها . . الخ . . . ويتعامل مع الملأ الأعلى وملائكته . . ويتعامل مع إبليس وقبيله . . ويتعامل مع هذا الكون المشهود ونواميسه وسنن الله فيه . . ويتعامل مع الأحياء فى هذه الأرض . . ويتعامل مع بعضه البعض . . يتعامل مع هذه الآفاق وهذه العوالم بطبيعته تلك ، وباستعداداته المتوافقة والمتعارضة مع هذه الآفاق والعوالم . . وفى هذا الخضم المتشابك من العلاقات والروابط ، يجرى تاريخه . . ومن القوة فى كيانه والضعف . ومن التقوى والهدى . ومن الالتقاء بعالم الغيب وعالم الشهود . ومن التعامل مع العناصر المادية فى الكون والقوى الروحية ، ومن التعامل مع قدر الله فى النهاية . . من هذا كله يتكون تاريخه . . وفى ضوء هذا التعقيد الشديد يفسر تاريخه . والذين يفسرون التاريخ الإنسانى تفسيراً "اقتصادياً" أو "سياسياً" . والذين يفسرونه تفسيراً "بيولوجياً" . والذين يفسرونه تفسيراً "روحياً" أو "نفسياً" . والذين يفسرونه تفسيراً "عقلياً" . . . كل أولئك ينظرون نظرة ساذجة إلى جانب واحد من جوانب العوامل المتشابكة ، والعوالم المتباعدة ، التى يتعامل معها الإنسان ؛ ويتألف من تعامله معها تاريخه . . والتفسير الإسلامى للتاريخ هو وحده الذى يلم بهذا الخضم الواسع ، ويحيط به ؛ وينظر إلى التاريخ الإنسانى من خلاله . ونحن هنا أمام مشاهد صادقة من هذا الخضم . . لقد شهدنا مشهد النشأة البشرية ؛ وقد تجمعت فى المشهد كل العوالم والآفاق والعناصر – الظاهرة والخفية – التى يتعامل معها هذا الكائن منذ اللحظة الأولى . . ولقد شهدنا هذا الكائن باستعداداته الأساسية . . شهدنا تكريمه فى الملأ الأعلى وإسجاد الملائكة له ؛ والبارىء العظيم يعلن ميلاده وشهدنا ضعفه بعد ذلك وكيف قاده منه عدوه . . وشهدنا مهبطه إلى الأرض . . وانطلاقه فى التعامل مع عناصرها ونواميسها الكونية . . وها نحن أولاء فى هذه السورة نلتقى بموكب الإيمان ، يرفع أعلامه رسل الله الكرام:نوح . وهود . وصالح . ولوط . وشعيب . وموسى . ومحمد – صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً . . ونشهد كيف يحاول هذا الرهط الكريم – بتوجيه الله وتعليمه – إنقاذ الركب البشرى من الهاوية التى يقوده إليها الشيطان ، وأعوانه من شياطين الإنس المستكبرين عن الحق فى كل زمان . كما نشهد مواقف الصراع بين الهدى والضلال . وبين الحق والباطل ، وبين الرسل الكرام وشياطين الجن والإنس . . ثم نشهد مصارع المكذبين فى نهاية كل مرحلة ، ونجاة المؤمنين ، بعد الإنذار والتذكير . . والقصص فى القرآن لا يتبع دائماً ذلك الخط التاريخى . ولكنه فى هذه السورة يتبع هذا الخط . ذلك أنه يعرض سير الركب البشرى منذ النشأة الأولى ، ويعرض موكب الإيمان وهو يحاول هداية هذا الركب واستنقاذه كلما ضل تماماً عن معالم الطريق ، وقاده الشيطان كلية إلى المهلكة ليسلمه فى نهايتها إلى الجحيم !

إن البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة موحدة . . ثم تنحرف إلى جاهلية ضالة مشركة – بفعل العوامل المتشابكة المعقدة فى تركيب الإنسان ذاته ، وفى العوالم والعناصر التى يتعامل معها . . وهنا يأتيها رسول بذات الحقيقة التى كانت عليها قبل أن تضل وتشرك . فيهلك من يهلك ، ويحيا من يحيا . والذين يحيون هم الذين آبوا إلى الحقيقة الإيمانية الواحدة . هم الذين علموا أن لهم إلهاً واحداً ، واستسلموا بكليتهم إلى هذا الإله الواحد . هم الذين سمعوا قول رسولهم لهم (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) فهى حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله ، ويتعاقب بها الرسل جميعا على مدار التاريخ فكل رسول يجيء إنما يقول هذه الكلمة لقومه الذين اجتالهم الشيطان عنها ، فنسوها وضلوا عنها ، وأشركوا مع الله آلهة أخرى – على اختلاف هذه الآلهة فى الجاهليات المختلفة – وعلى أساسها تدور المعركة بين الحق والباطل ، وعلى أساسها يأخذ الله المكذبين بها وينجى المؤمنين ، والسياق القرآني يوحد الألفاظ التى عبر بها جميع الرسل – صلوات الله عليهم – مع اختلاف لغاتهم . . يوحد حكاية ما قالوه ، ويوحد ترجمته فى نص واحد (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وذلك لتحقيق معنى وحدة العقيدة السماوية – على مدار التاريخ – حتى فى صورتها اللفظية ! لأن هذه العبارة دقيقة فى التعبير عن حقيقة العقيدة ، ولأن عرضها فى السياق بذاتها يصور وحدة العقيدة تصويراً حسياً . . ولهذا كله دلالته فى تقرير المنهج القرآنى عن تاريخ العقيدة ،

وفي ضوء هذا التقرير يتبين مدى مفارقة منهج "الأديان المقارنة " مع المنهج القرآنى ، يتبين أنه لم يكن هناك تدرج ولا "تطور" فى مفهوم العقيدة الأساسى ، الذى جاءت به الرسل كلها من عند الله ، وأن الذين يتحدثون عن "تطور" المعتقدات وتدرجها ; ويدمجون العقيدة الربانية فى هذا التدرج "والتطور" يقولون غير ما يقوله الله سبحانه ! فهذه العقيدة – كما نرى فى القرآن الكريم – جاءت دائماً بحقيقة واحدة . وحكيت العبارة عنها فى ألفاظ بعينها (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وهذا الإله الذى دعا الرسل كلهم إليه هو (رب العالمين). الذى يحاسب الناس فى يوم عظيم . . فلم يكن هنالك رسول من عند الله دعا إلى رب قبيلة ، أو رب أمة ، أو رب جنس . . كما أنه لم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى إلهين اثنين أو آلهة متعددة . . وكذلك لم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى عبادة طوطمية ، أو نجمية ، أو "أرواحية ! " أو صنمية ! ولم يكن هناك دين من عند الله ليس فيه عالم آخر . . كما يزعم من يسمونهم "علماء الأديان" وهم يستعرضون الجاهليات المختلفة ، ثم يزعمون أن معتقداتها كانت هى الديانات التى عرفتها البشرية فى هذه الأزمان ، دون غيرها ! لقد جاءت الرسل – رسولاً بعد رسول – بالتوحيد الخالص ، وبربوبية رب العالمين ! وبالحساب فى يوم الدين . . ولكن الانحرافات فى خط الاعتقاد ، مع الجاهليات الطارئة بعد كل رسالة ، بفعل العوامل المعقدة المتشابكة فى تكوين الإنسان ذاته وفى العوالم التى يتعامل معها . . هذه الانحرافات تمثلت فى صور شتى من المعتقدات الجاهلية . . هى هذه التى يدرسها "علماء الأديان ! " ثم يزعمون أنها الخط الصاعد فى تدرج الديانات وتطورها ! وعلى أية حال فهذا هو قول الله – سبحانه – وهو أحق أن يتبع ، وبخاصة ممن يكتبون عن هذا الموضوع فى صدد عرض العقيدة الإسلامية ، أو صدد الدفاع عنها ! أما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن ، فهم وما هم فيه . . والله يقص الحق وهو خير الفاصلين . . إن كل رسول من الرسل – صلوات الله عليهم جميعاً – قد جاء إلى قومه ، بعد انحرافهم عن التوحيد الذى تركهم عليه رسولهم الذى سبقه . . فبنو آدم الأوائل نشأوا موحدين لرب العالمين – كما كانت عقيدة آدم وزوجه – ثم انحرفوا بفعل العوامل التى أسلفنا – حتى إذا جاء نوح – عليه السلام – دعاهم إلى توحيد رب العالمين مرة أخرى . ثم جاء الطوفان فهلك المكذبون ونجا المؤمنون . وعمرت الأرض بهؤلاء الموحدين لرب العالمين – كما علمهم نوح – وبذراريهم . حتى إذا طال عليهم الأمد انحرفوا إلى الجاهلية كما انحرف من كان قبلهم . . حتى إذا جاء هود أهلك المكذبون بالريح العقيم . .ثم تكررت القصة . . وهكذا . . ولقد أرسل كل رسول من هؤلاء إلى قومه . فقال: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وقال كل رسول لقومه: إنى لكم ناصح أمين ، معبراً عن ثقل التبعة ؛ وخطورة ما يعلمه من عاقبة ما هم فيه من الجاهلية فى الدنيا والآخرة ؛ ورغبته فى هداية قومه , وهو منهم وهم منه . . وفى كل مرة وقف "الملأ" من عليه القوم وكبرائهم فى وجه كلمة الحق هذه ؛ ورفضوا الاستسلام لله رب العالمين . وأبوا أن تكون العبودية والدينونة لله وحده – وهى القضية التى قامت عليها الرسالات كلها وقام عليها دين الله كله – وهنا يصدع كل رسول بالحق فى وجه الطاغوت . . ثم ينقسم قومه إلى أمتين متفاصلتين على أساس العقيدة . وتنبتُ وشيجة القومية ووشيجة القرابة العائلية ؛ لتقوم وشيجة العقيدة وحدها . وإذا "القوم" الواحد ، أمتان متفاصلتان لا قربى بينهما ولا علاقة ! . . وعندئذ يجىء الفتح . . ويفصل الله بين الأمة المهتدية والأمة الضالة ، إن التركيز فى كل رسالة كان على أمر واحد:هو تعبيد الناس كلهم لربهم وحده – رب العالمين – ذلك أن هذه العبودية لله الواحد ، ونزع السلطان كله من الطواغيت التى تدعيه , هو القاعدة التى لا يقوم كل شىء صالح (قد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، فقال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه:إنا لنراك فى ضلال مبين . قال:يا قوم ليس بى ضلالة ، ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى ، وأنصح لكم ، وأعلم من الله ما لا تعلمون . أو عجبتم أن جاءكم ذكر منربكم على رجل منكم لينذركم , ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون ؟ فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوماً عمين). . تعرض القصة هنا باختصار ، ليست فيها التفصيلات التى ترد فى مواضع أخرى من القرآن فى سياق يتطلب تلك التفصيلات ، كالذى جاء فى سورة هود ، وفى سورة نوح . . إن الهدف هنا هو تصوير تلك المعالم التى تحدثنا عنها آنفاً . . طبيعة العقيدة . طريقة التبليغ . طبيعة استقبال القوم لها . حقيقة مشاعر الرسول . تحقق النذير . . لذلك تذكر من القصة فحسب تلك الحلقات المحققة لتلك المعالم ، على منهج القصص القرآنى (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) على سنة الله فى إرسال كل رسول من قومه ، وبلسانهم ، تأليفاً لقلوب الذين لم تفسد فطرتهم ، وتيسيراً على البشر فى التفاهم والتعارف . وإن كان الذين فسدت فطرتهم يعجبون من هذه السنة ، ولا يستجيبون ، ويستكبرون أن يؤمنوا لبشر مثلهم ، ويطلبون أن تبلغهم الملائكة ! وإن هى إلا تعلة . وما كانوا ليستجيبوا إلى الهدى ، مهما جاءهم من أى طريق ! لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، فخاطبهم بتلك الجملة الواحدة التى جاء بها كل رسول (فقال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) فهى الكلمات التى لا تتبدل ، وهى قاعدة هذه العقيدة التى لا توجد إلا بها ، وهى عماد الحياة الإنسانية

الذى لا تقوم علي غيره ، وهي ضمان وحدة الوجهة ووحدة الهدف ووحدة الرباط . وهي الكفيل بتحرر البشر من العبودية للهوى ، والعبودية لأمثالهم من العبيد , وبالاستعلاء على الشهوات كلها وعلى الوعد والوعيد . ولقد قال نوح لقومه هذه القولة الواحدة ، وأنذرهم عاقبة التكذيب بها في إشفاق الأخ الناصح لإخوانه ، وفى صدق الرائد الناصح لأهله (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وهنا نرى أن ديانة نوح . . أقدم الديانات . . كانت فيها عقيدة الآخرة . عقيدة الحساب والجزاء فى يوم عظيم ، يخاف نوح علي قومه ما ينتظرهم فيه من عذاب . . وهكذا تتبين مفارقة منهج الله وتقريره فى شأن العقيدة ، ومناهج الخابطين فى الظلام من" علماء الأديان" وأتباعهم الغافلين عن منهج القرآن . فكيف كان استقبال المنحرفين الضالين من قوم نوح لهذه الدعوة الخالصة الواضحة المستقيمة(قال الملأ من قومه:إنا لنراك فى ضلال مبين)! كما قال مشركو العرب لمحمد ﷺ إنه صبأ ، ورجع عن دين إبراهيم ! وهكذا يبلغ الضال من الضلال أن يحسب من يدعوه إلى الهدى هو الضال ! بل هكذا يبلغ التبجح الوقح بعدما يبلغ المسخ فى الفطر ! . . هكذا تنقلب الموازين , وتبطل الضوابط ، ويحكم الهوى ؟ ما دام أن الميزان ليس هو ميزان الله الذى لا ينحرف ولا يميل . وينفى نوح عن نفسه الضلال ، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها ، فهو لم يبتدعها من أوهامه وأهوائه . إنما هو رسول من رب العالمين . يحمل لهم الرسالة . ومعها النصح والأمانة . ويعلم من الله ما لا يعلمون . فهو يجده فى نفسه ، وهو موصول به ، وهم عنه محجوبون (قال:يا قوم ليس بى ضلالة ، ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى ، وأنصح لكم ، وأعلم من الله ما لا تعلمون) ونلمح هنا فجوة فى السياق . . فكأنما عجبوا أن يختار الله رسولاً من البشر من بينهم , يحمله رسالة إلى قومه ، وأن يجد هذا الرسول فى نفسه علماً عن ربه لا يجده الآخرون , الذين لم يختاروا هذا الاختيار . . هذه الفجوة فى السياق يدل عليها ما بعده (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون) ويكشف لهم نوح عن هدف الرسالة (لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون) فهو الإنذار لتحريك القلوب بمشاعر التقوى ، ليظفروا فى النهاية برحمة الله . . ولا شيء وراء ذلك لنوح ، ولا مصلحة ، ولا هدف ، إلا هذا الهدف السامى النبيل . ولكن الفطرة حين تبلغ حداً معيناً من الفساد ، لاتتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر ، ولا ينفع معها الإنذار ولا التذكير (فكذبوه ، فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوماً عمين) ولقد رأينا من عماهم عن الهدى والنصح المخلص والنذير . . فبعماهم هذا كذبوا . . وبعماهم لاقوا هذا المصير ! وتمضى عجلة التاريخ ، ويمضى معها السياق ، فإذا نحن أمام عاد قوم هود: (وإلى عاد أخاهم هودا ، قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه:إنا لنراك فى سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين . قال:يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى ، وأنا لكم ناصح أمين . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا:أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال:قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا ، إنى معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين) إنها نفس الرسالة ، ونفس الحوار ، ونفس العاقبة . . إنها السنة الماضية ، والناموس الجارى ، والقانون الواحد إن قوم عاد هؤلاء من ذرارى نوح والذين نجوا معه فى السفينة ، وقيل:كان عددهم ثلاثة عشر . . وما من شك أن أبناء هؤلاء المؤمنين الناجين فى السفينة كانوا على دين نوح عليه السلام – وهو الإسلام – كانوا يعبدون الله وحده ، ما لهم من إله غيره ، وكانوا يعتقدون أنه رب العالمين ، فهكذا قال لهم نوح (ولكنى رسول من رب العالمين) فلما طال عليهم الأمد ، وتفرقوا فى الأرض ، ولعب معهم الشيطان لعبة الغواية ، وقادهم من شهواتهم – وفى أولها شهوة الملك وشهوات المتاع – وفق الهوى لا وفق شريعة الله , عاد قوم هود يستنكرون أن يدعوهم نبيهم إلى عبادة الله وحده من جديد (وإلى عاد أخاهم هودا ، قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . أفلا تتقون) القولة التى قالها نوح من قبله ، والتى كذب بها قومه ، فأصابهم ما أصابهم ، واستخلف الله عادا من بعدهم – ولا يذكر هنا أين كان موطنهم ، وفى سورة أخرى نعلم أنهم كانوا بالأحقاف ، وهى الكثبان المرتفعة على حدود اليمن ما بين اليمامة وحضرموت – وقد ساروا فى الطريق الذى سار فيه من قبل قوم نوح ، فلم يتذكروا ولم يتدبروا ما حل بمن ساروا فى هذا الطريق ، لذلك يضيف هود فى خطابه لهم قوله (أفلا تتقون ؟) استنكاراً لقلة خوفهم من الله ومن ذلك المصير المرهوب . وكأنما كبر على الملأ الكبراء من قومه أن يدعوهم واحد من قومهم إلى الهدى ، وأن يستنكر منهم قلة التقوى ؛ ورأوا فيه سفاهة وحماقة ، وتجاوزا للحد ، وسوء تقدير للمقام ! فانطلقوا يتهمون نبيهم بالسفاهة وبالكذب جميعاً فى غير تحرج ولا حياء (قال الملأ الذين كفروا من قومه:إنا لنراك فى سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين) هكذا جزافاً بلا تروّ ولا تدبر ولا دليل ! (قال:يا قوم ليس بى سفاهة ، ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات

ربى وأنا لكم ناصح أمين) لقد نفى عن نفسه السفاهة فى بساطة وصدق – كما نفى عن نفسه الضلالة – وقد كشف لهم – كما كشف نوح من قبل – عن مصدر رسالته وهدفها ؛ وعن نصحه لهم فيها وأمانته فى تبليغها . وقال لهم ذلك كله فى مودة الناصح وفى صدق الأمين . ولا بد أن يكون القوم قد عجبوا – كما عجب قوم نوح من قبل – من هذا الاختيار ، ومن تلك الرسالة ، فإذا هود يكرر لهم ما قاله نوح من قبل ، كأنما كلاهما روح واحدة فى شخصين (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟) ثم يزيد عليه ما يمليه واقعهم . . واقع استخلافهم فى الأرض من بعد قوم نوح ، وإعطائهم قوة فى الأجسام وضخامة بحكم نشأتهم الجبلية ، وإعطائهم كذلك السلطان والسيطرة (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة . فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) فلقد كان من حق هذا الاستخلاف ، وهذه القوة والبسطة ، أن تستوجب شكر النعمة ، والحذر من البطر ، واتقاء مصير الغابرين . وهم لم يأخذوا على الله عهداً:أن تتوقف سنته التي لا تتبدل ، والتى تجرى وفق الناموس المرسوم ، بقدر معلوم . وذكر النعم يوحي بشكرها ؛ وشكر النعمة تتبعه المحافظة على أسبابها ؛ ومن ثم يكون الفلاح فى الدنيا والآخرة . ولكن الفطرة حين تنحرف لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر . . وهكذا أخذت الملأ العزة بالإثم , واختصروا الجدل ، واستعجلوا العذاب استعجال من يستثقل النصح ، ويهزأ بالإنذار (قالوا: أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) لكأنما كان يدعوهم إلى أمر منكر لا يطيقون الاستماع إليه ، ولا يصبرون على النظر فيه (أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟) إنه مشهد بائس لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول . هذا الاستعباد الذى يسلب الإنسان خصائص الإنسان الأصيلة:حرية التدبر والنظر ، وحرية التفكير والاعتقاد . ويدعه عبداً للعادة والتقليد ، وعبداً للعرف والمألوف ، وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيد من أمثاله ، ويغلق عليه كل باب للمعرفة وكل نافذة للنور . وهكذا استعجل القوم العذاب فراراً من مواجهة الحق ، بل فراراً من تدبر تفاهة الباطل الذى هم له عبيد ؛ وقالوا لنبيهم الناصح الأمين (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) ومن ثم كان الجواب حاسماً وسريعاً فى رد الرسول (قال:قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب . أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا ، إنى معكم من المنتظرين) لقد أبلغهم العاقبة التى أنبأه بها ربه ، والتى قد حقت عليهم فلم يعد عنها محيص إنه العذاب الذى لا دافع له ، وغضب الله المصاحب له . . ثم جعل بعد هذا التعجيل لهم بالعذاب الذى استعجلوه ؛ يكشف لهم عن سخافة معتقداتهم وتصوراتهم (أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟) إن ما تعبدون مع الله ليس شيئاً ذا حقيقة ! إنها مجرد أسماء أطلقتموها أنتم وآباؤكم ; من عند أنفسكم ، لم يشرعها الله ولم يأذن بها ، فما لها إذن من سلطان ولا لكم عليها من برهان . والتعبير المتكرر فى القرآن: (ما نزل الله بها من سلطان). . هو تعبير موح عن حقيقة أصيلة . . إن كل كلمة أو شرع أو عرف أو تصور لم ينزله الله ، خفيف الوزن ، قليل الأثر ، سريع الزوال . . إن الفطرة تتلقى هذا كله فى استخفاف ، فإذا جاءت الكلمة من الله ثقلت واستقرت ونفذت إلى الأعماق ، بما فيها من سلطان الله الذى يودعها إياه . وفى ثقة المطمئن ، وقوة المتمكن ، يواجه هود قومه بالتحدي (فانتظروا ، إنى معكم من المنتظرين) إن هذه الثقة هى مناط القوة التى يستشعرها صاحب الدعوة إلى الله . . إنه على يقين من هزال الباطل وضعفه وخفة وزنه مهما انتفش ومهما استطال . كما أنه على يقين من سلطان الحق الذى معه وقوته بما فيه من سلطان الله . ولا يطول الإنتظار فى السياق (فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين) فهو المحق الكامل الذى لا يتخلف منه أحد . وهو ما عبر عنه بقطع الدابر . والدابر هو آخر واحد فى الركب يتبع أدبار القوم ! (وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض , تتخذون من سهولها قصوراً ، وتنحتون الجبال بيوتاً ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا – لمن آمن منهم –:أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا:إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا:إنا بالذى آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا:يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . فتولى عنهم وقال:يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين) وهذه صفحة أخرى من صحائف قصة البشرية ؛ وهى تمضى فى خضم التاريخ . وها هى ذى نكسة أخرى إلى الجاهلية ؛ ومشهد من مشاهد اللقاء بين الحق والباطل ، ومصرع جديد من مصارع المكذبين (وإلى ثمود أخاهم صالحاً . قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) نفس الكلمات التى بها بدأ هذا الخلق وإليها يعود . وذات المنهج الواحد فى الاعتقاد والاتجاه والمواجهة والتبليغ . ويزيد هنا تلك المعجزة التى صاحبت دعوة صالح ، حين طلبها قومه للتصديق: قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية) والسياق هنا ، لأنه

يستهدف الاستعراض السريع للدعوة الواحدة ، ولعاقبة الإيمان بها وعاقبة التكذيب ، لا يذكر تفصيل طلبهم للخارقة ، بل يعلن وجودها عقب الدعوة . وكذلك لا يذكر تفصيلاً عن الناقة أكثر من أنها بينة من ربهم ، وأنها ناقة الله وفيها آية منه ، ومن هذا الإسناد نستلهم أنها كانت ناقة غير عادية ، أو أنها أخرجت لهم إخراجاً غير عادى . مما يجعلها بينة من ربهم ، ومما يجعل نسبتها إلى الله ذات معنى , ويجعلها آية على صدق نبوته . . ولا نزيد على هذا شيئاً مما لم يرد ذكره من أمرها فى هذا المصدر المستيقن – وفيما جاء فى هذه الإشارة كفاية عن كل تفصيل آخر – فنمضى نحن مع النصوص ونعيش فى ظلالها (فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) إنها ناقة الله ، فذروها تأكل فى أرض الله ، وإلا فهو النذير بسوء المصير . . وبعد عرض الآية والإنذار بالعاقبة ، يأخذ صالح فى النصح لقومه بالتدبر والتذكر ، والنظر فى مصائر الغابرين ، والشكر على نعمة الاستخلاف بعد هؤلاء الغابرين (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض ، تتخذون من سهولها قصوراً , وتنحتون الجبال بيوتاً . فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) ولا يذكر السياق هنا أين كان موطن ثمود ، ولكنه يذكر فى سورة أخرى أنهم كانوا فى الحجر – وهى بين الحجاز والشام . . ونلمح من تذكير صالح لهم ، أثر النعمة والتمكين فى الأرض لثمود ، كما نلمح طبيعة المكان الذى كانوا يعيشون فيه . فهو سهل وجبل ، وقد كانوا يتخذون فى السهل القصور ، وينحتون فى الجبال البيوت . فهى حضارة عمرانية واضحة المعالم فى هذا النص القصير . . وصالح يذكرهم استخلاف الله لهم من بعد عاد ، وإن لم يكونوا فى أرضهم ذاتها ، ولكن يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية فى التاريخ لحضارة عاد ، وأن سلطانهم امتد خارج الحجر أيضا . وبذلك صاروا خلفاء ممكنين فى الأرض ، محكمين فيها . وهو ينهاهم عن الانطلاق فى الأرض بالفساد ، اغتراراً بالقوة والتمكين ، وأمامهم العبرة ماثلة فى عاد الغابرين ! وهنا كذلك نلمح فجوة فى السياق على سبيل الإيجاز والاختصار . فقد آمنت طائفة من قوم صالح ، واستكبرت طائفة . والملأ هم آخر من يؤمن بدعوة تجردهم من السلطان فى الأرض وهكذا نرى الملأ المستكبرين من قوم صالح يتجهون إلى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد (قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا – لمن آمن منهم –:أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه) وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف ، ولاستنكار إيمانهم به ، وللسخرية من تصديقهم له فى دعواه الرسالة من ربه . إنهم على يقين من أمرهم ، فماذا يجدى التهديد والتخويف ؟ وماذا تجدى السخرية والاستنكار . . من الملأ المستكبرين ؟ (قالوا:إنا بما أرسل به مؤمنون) ومن ثم يعلن الملأ عن موقفهم فى صراحة تحمل طابع التهديد (إنا بالذى آمنتم به كافرون) على الرغم من البينة التى جاءهم بها صالح . والتى لا تدع ريبة لمستريب . . إنه ليست البينة هى التى تنقص الملأ للتصديق . . إنه السلطان المهدد بالدينونة للرب الواحد . . إنها عقدة الحاكمية والسلطان ، إنها شهوة الملك العميقة فى الإنسان ! إنه الشيطان الذى يقود الضالين من هذا الخطام ! وأتبعوا القول بالعمل ، فاعتدوا على ناقة الله التى جاءتهم آية من عنده على صدق نبيه فى دعواه ؛ والتى حذرهم نبيهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم (فعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ؛ وقالوا:يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) إنه التبجح الذى يصاحب المعصية . ويعبر عن عصيانهم بقوله (عتوا) لإبراز سمة التبجح فيها ، وليصور الشعور النفسى المصاحب لها . والذى يعبر عنه كذلك بالتحدى باستعجال العذاب والاستهتار بالنذير ولا يستأنى السياق فى إعلان الخاتمة ، ولا يفصل كذلك (فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين) والرجفة والجثوم ، جزاء مقابل للعتو والتبجح . فالرجفة يصاحبها الفزع ، والجثوم مشهد للعجز عن الحراك . وما أجدر العاتى أن يرتجف ، وما أجدر المعتدى أن يعجز . جزاء وفاقاً فى المصير . وفى التعبير عن هذا المصير بالتصوير . ويدعهم السياق على هيئتهم (جاثمين) ليرسم لنا مشهد صالح الذى كذبوه وتحدوه (فتولى عنهم ، وقال:يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين، إنه الإشهاد على أمانة التبليغ والنصح ؛ والبراءة من المصير الذى جلبوه لأنفسهم بالعتو والتكذيب . وهكذا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين . ويحق النذير بعد التذكير على المستهزئين . . وتمضى عجلة التاريخ ، فيظلنا عهد إبراهيم – عليه السلام – ولكن السياق لا يتعرض هنا لقصة إبراهيم . ذلك أن السياق يتحرى مصارع المكذبين ؛ متناسقاً مع ما جاء فى أول السورة (وكم من قرية أهلكناها ، فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون) وهذا القصص إنما هو تفصيل لهذا الإجمال فى إهلاك القرى التى كذبت بالنذير . . وقوم إبراهيم لم يهلكوا لأن إبراهيم – عليه السلام – لم يطلب من ربه هلاكهم . بل اعتزلهم وما يدعون من دون الله . . إنما تجىء هنا قصة قوم لوط – ابن أخى إبراهيم – ومعاصره , بما فيها من إنذار وتكذيب وإهلاك . يتمشى مع ظلال السياق ، على طريقة القرآن (ولوطا إذ قال لقومه:أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ؟ إنكم لتأتون الرجال – شهوة – من دون النساء . بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا:أخرجوهم من قريتكم ، إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطراً ، فانظر كيف كان عاقبة

المجرمين) وتكشف لنا قصة قوم لوط عن لون خاص من انحراف الفطرة ؛ وعن قضية أخرى غير قضية الألوهية والتوحيد التى كانت مدار القصص السابق . ولكنها فى الواقع ليست بعيدة عن قضية الألوهية والتوحيد . . إن الإعتقاد فى الله الواحد يقود إلى الإسلام لسننه وشرعه . وقد شاءت سنة الله أن يخلق البشر ذكراً وأنثى ، وأن يجعلهما شقين للنفس الواحدة تتكامل بهما ، وأن يتم الامتداد فى هذا الجنس عن طريق النسل ؛ وأن يكون النسل من التقاء ذكر وأنثى . . ومن ثم ركبهما وفق هذه السنة صالحين للالتقاء ، صالحين للنسل عن طريق هذا الإلتقاء ، مجهزين عضوياً ونفسياً لهذا الالتقاء . . وجعل اللذة التى ينالانها عندئذ عميقة ، والرغبة فى إتيانها أصيلة ، وذلك لضمان أن يتلاقيا فيحققا مشيئة الله فى امتداد الحياة ؛ ثم لتكون هذه الرغبة الأصيلة وتلك اللذة العميقة دافعاً فى مقابل المتاعب التى يلقيانها بعد ذلك فى الذرية . من حمل ووضع ورضاعة . ومن نفقة وتربية وكفالة ، ويبدو انحراف الفطرة واضحاً فى قصة قوم لوط ، حتى أن لوطا ليجبههم بأنهم بدع دون خلق الله فيها ، وأنهم فى هذا الانحراف الشنيع غير مسبوقين (ولوطاً إذ قال لقومه:أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ؟ إنكم لتأتون الرجال – شهوة – من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون) والإسراف الذى يدفعهم به لوط هو الإسراف فى تجاوز منهج الله الممثل فى الفطرة السوية . والإسراف فى الطاقة التى وهبهم الله إياها ، لأداء دورهم فى امتداد البشرية ونمو الحياة ، فإذا هم يريقونها ويبعثرونها فى غير موضع الإخصاب . فهى مجرد (شهوة) شاذة . لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة فى تحقيق سنة الله الطبيعية . فإذا وجدت نفس لذتها فى نقيض هذه السنة ، فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطرى , قبل أن يكون فساد الأخلاق . . ولا فرق فى الحقيقة . فالأخلاق الإسلامية هى الأخلاق الفطرية ، بلا انحراف ولا فساد . ويتجلى لنا الانحراف مرة أخرى فى جوابهم لنبيهم (وما كان جواب قومه إلا أن قالوا:أخرجوهم من قريتكم ، إنهم أناس يتطهرون)! يا عجباً ! أو من يتطهر يخرج من القرية إخراجاً ، ليبقى فيها الملوثون المدنسون !؟ ولكن لماذا العجب ؟ وماذا تصنع الجاهلية الحديثة ؟ أليست تطارد الذين يتطهرون ، فلا ينغمسون فى الوحل الذى تنغمس فيه مجتمعات الجاهلية – وتسميه تقدمية وتحطيماً للأغلال عن المرأة وغير المرأة – أليست تطاردهم فى أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم كذلك ؛ ولا تطيق أن تراهم يتطهرون ؛ لأنها لا تتسع ولا ترحب إلا بالملوثين الدنسين القذرين ؟! إنه منطق الجاهلية فى كل حين !! وتعرض الخاتمة سريعاً بلا تفصيل ولا تطويل كالذى يجىء فى السياقات الأخرى (فأنجيناه وأهله – إلا امرأته كانت من الغابرين – وأمطرنا عليهم مطراً ، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) إنها النجاة لمن تهددهم العصاة . كما أنها هى الفصل بين القوم على أساس العقيدة والمنهج . فامرأته – وهى ألصق الناس به – لم تنج من الهلاك . لأن صلتها كانت بالغابرين المهلكين من قومه فى المنهج والاعتقاد . وقد أمطروا مطراً مهلكاً مع ما صاحبه من عواصف . . ترى كان هذا المطر المغرق ، والماء الدافق ، لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذى كانوا فيه ، والوحل الذى عاشوا وماتوا فيه ؟! ونأتى للصفحة الأخيرة من صحائف الأقوام المكذبة فى تلك الحقبة من التاريخ . . صفحة مدين وأخيهم شعيب (وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً ، واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم , وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين . . قال الملأ الذين استكبروا من قومه:لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا . قال:أو لو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها – إلا أن يشاء الله ربنا , وسع ربنا كل شىء علماً – على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق , وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه:لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ، فتولى عنهم وقال:يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ؟). . إننا نجد شيئاً من الإطالة فى هذه القصة ، بالقياس إلى نظائرها فى هذا الموضع ، ذلك أنها تتضمن غير قضية العقيدة شيئاً عن المعاملات ، وإن كانت القصة سائرة على منهج الاستعراض الإجمالى فى هذا السياق (وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) فهى قاعدة الدعوة التى لا تغيير فيها ولا تبديل . . ثم تبدأ بعدها بعض التفصيلات فى رسالة النبى الجديد (قد جاءتكم بينة من ربكم) ولا يذكر السياق نوع هذه البينة – كما ذكرها فى قصة صالح – ولا نعرف لها تحديداً من مواضع القصة فى السور الأخرى . ولكن النص يشير إلى أنه كانت هناك بينة جاءهم بها , تثبت دعواه أنه مرسل من عند الله . ويرتب على هذه البينة ما يأمرهم به نبيهم من توفية الكيل والميزان ، والنهى عن الإفساد فى الأرض ، والكف عن قطع الطريق على الناس , وعن فتنة المؤمنين عن دينهم الذى

ارتضوه (فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها , ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ، وتصدون عن سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجاً ، واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) وندرك من هذا النهى أن قوم شعيب ، كانوا قوماً مشركين لا يعبدون الله وحده ، إنما يشركون معه عباده فى سلطانه ؛ وأنهم ما كانوا يرجعون فى معاملاتهم إلى شرع الله العادل ؛ إنما كانوا يتخذون لأنفسهم من عند أنفسهم قواعد للتعامل – ولعل شركهم إنما كان فى هذه الخصلة – وأنهم – لذلك – كانوا سيئى المعاملة فى البيع والشراء ; كما كانوا مفسدين فى الأرض ، يقطعون الطريق على سواهم . ظلمة يفتنون الذين يهتدون ويؤمنون عن دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله المستقيم ؛ ويكرهون الاستقامة التى فى سبيل الله ؛ ويريدون أن تكون الطريق عوجاء منحرفة ، لا تمضى على استقامتها كما هى فى منهج الله . ويبدأ شعيب – عليه السلام – بدعوتهم إلى عبادة الله وحده وإفراده سبحانه بالألوهية , وإلى الدينونة له وحده وإفراده من ثم بالسلطان فى أمر الحياة كله . يبدأ شعيب – عليه السلام – فى دعوتهم من هذه القاعدة ؛ التى يعلم أنه منها تنبثق كل مناهج الحياة وكل أوضاعها ؛ كما أن منها تنبثق قواعد السلوك والخلق والتعامل . ولا تستقيم كلها إلا إذا استقامت هذه القاعدة . ويستصحب فى دعوتهم إلى الدينونة لله وحده ، وإقامة حياتهم على منهجه المستقيم ، وترك الإفساد فى الأرض بالهوى بعدما أصلحها الله بالشريعة . . يستصحب فى دعوتهم إلى هذا كله بعض المؤثرات الموحية . . يذكرهم نعمة الله عليهم (واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم) ويخوفهم عاقبة المفسدين من قبلهم (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) كذلك يريد منهم أن يأخذوا أنفسهم بشىء من العدل وسعة الصدر ؛ فلا يفتنوا المؤمنين الذين هداهم الله إليه عن دينهم ، ولا يقعدوا لهم بكل صراط ، ولا يأخذوا عليهم كل سبيل ، مهددين لهم موعدين . وأن ينتظروا حكم الله بين الفريقين . إن كانوا هم لا يريدون أن يكونوا مؤمنين (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين) لقد دعاهم إلى أعدل خطة . ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة . . نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى ، وترك كل ما اعتنق من دين ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان فى الأرض وجود ممثل فى جماعة من الناس لا تدين للطاغوت . . إن وجود جماعة مسلمة فى الأرض ، لا تدين إلا لله ، ولا تعترف بسلطان إلا سلطانه ، ولا تحكم فى حياتها شرعاً إلا شرعه ، ولا تتبع فى حياتها منهجاً إلا منهجه . . إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت – حتى لو انعزلت هذه الجماعة فى نفسها ، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتى موعده . إن الطاغوت يفرض المعركة فرضاً على الجماعة المسلمة – حتى لو آثرت هى ألا تخوض معه المعركة – إن وجود الحق فى ذاته يزعج الباطل . وهذا الوجود ذاته هو الذى يفرض عليه المعركة مع الباطل . . إنها سنة الله لا بد أن تجرى (قال الملأ الذين استكبروا من قومه:لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا , أو لتعودن فى ملتنا) هكذا فى تبجح سافر ، وفى إصرار على المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش ! إلا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد . . لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التى لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة . . نقطة المسالمة والتعايش – على أن يترك لمن شاء أن يدخل فى العقيدة التى يشاء ؛ وأن يدين للسلطان الذى يشاء:فى انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين – وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة ، تحت أى ضغط أو أى تهديد من الطواغيت . . وإلا تنازل كلية عن الحق الذى يمثله وخانه . . فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة فى ملتهم ، صدع شعيب بالحق ، مستمسكاً بملته , كارهاً أن يعود فى الملة الخاسرة التى أنجاه الله منها ، واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله (قال:أو لو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها . وما يكون لنا أن نعود فيها – إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علماً – على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين) وفى هذه الكلمات القلائل تتجلى طبيعة الإيمان ، ومذاقه فى نفوس أهله ، كما تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه . كذلك نشهد فى قلب الرسول ذلك المشهد الرائع . . مشهد الحقيقة الإلهية فى ذلك القلب وكيف تتجلى فيه (قال:أو لو كنا كارهين ؟)يستنكر تلك القولة الفاجرة: (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا). . يقول لهم:أتجبروننا على ما نكره من ملتكم التى نجانا الله منها !؟(قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) وكذلك يستنكر شعيب – عليه السلام – ما يتهدده به الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه إلى الملة التى أنجاهم الله منها (وما يكون لنا أن نعود فيها) وما من شأننا أصلاً ؛ وما ينبغى لنا قطعاً أن نعود فيها . . يقولها وأمامه التهديد الذى يزاوله الطاغوت فى كل أرض مع الجماعة المسلمة ، التى تعلن خروجها عن سلطانه , ودينونتها لله وحده بلا شريك معه أو من دونه .

إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة للّه وحده – مهما عظمت وشقت – أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت ! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة – مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق ! – إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة ! تكاليف فى إنسانية الإنسان ذاته فهذه "الإنسانية" لا توجد ، والإنسان عبد للإنسان – وأى عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان ؟! . . وأى عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به ، ورضاه أو غضبه عليه ؟! وأى عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته ؟! وأى عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان ؟! لذلك قالها شعيب عليه السلام مدوية حاسمة (قد افترينا على اللّه كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا اللّه منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها . .) ولكن شعيباً بقدر ما يرفع رأسه ، وبقدر ما يرفع صوته ، فى مواجهة طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه . . بقدر ما يخفض هامته ، ويسلم وجهه فى مواجهة ربه الجليل ، الذى وسع كل شىء علماً . فهو فى مواجهة ربه ، لا يتألى عليه ولا يجزم بشىء أمام قدره ، ويدع له قياده وزمامه ، ويعلن خضوعه واستسلامه (إلا أن يشاء اللّه ربنا ، وسع ربنا كل شىء علماً) إنه يفوض الأمر للّه ربه ، فى مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه . . إنه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت ، من العودة فى ملتهم ؛ ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة ؛ ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته . . ولكنه لا يجزم بشىء عن مشيئة اللّه به وبهم . . فالأمر موكول إلى هذه المشيئة ، وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون ، وربهم وسع كل شىء علماً . فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم . إنه أدب ولى اللّه مع اللّه . الأدب الذى يلتزم به أمره ، ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره . ولا يتأبى على شىء يريده به ويقدره عليه . وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق ، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين) وهنا نشهد ذلك المشهد الباهر:مشهد تجلى حقيقة "الألوهية" فى نفس ولى اللّه ونبيه . . إنه يعرف مصدر القوة ، وملجأ الأمان . ويعلم أن ربه هو الذى يفصل بالحق بين الإيمان والطغيان . ويتوكل على ربه وحده فى خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه ، والتى ليس منها مفر . إلا بفتح من ربه ونصر . عندئذ يتوجه الملأ الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم ويهددونهم . ليفتنوهم عن دينهم:(وقال الملأ الذين كفروا من قومه:لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون) إنه من سنة اللّه الجارية أنه عندما يتمحض الحق والباطل ، ويقفان وجهاً لوجه فى مفاصلة كاملة تجرى سنة اللّه التى لا تتخلف . . وهكذا كان (فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين) الرجفة والجثوم ، جزاء التهديد والاستطالة ، وبسط الأيدى بالأذى والفتنة ، ويرد السياق على قولتهم (لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون) وهى التى قالوها مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة ! فيقرر – فى تهكم واضح – أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيباً ، إنما كان من نصيب قوم آخرين (الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين) ففى ومضة ها نحن أولاء نراهم فى دارهم جاثمين . لا حياة ولا حراك . كأن لم يعمروا هذه الدار ، وكأن لم يكن لهم فيها آثار ! ويطوى صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال ، والمفارقة والانفصال ، من رسولهم الذى كان أخاهم ، ثم افترق طريقه عن طريقهم ، فافترق مصيره عن مصيرهم ، حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم ، وعلى ضيعتهم فى الغابرين (فتولى عنهم ، وقال:يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ؟) إنه من ملة وهم من ملة . فهو أمة وهم أمة . أما صلة الأنساب والأقوام ، فلا اعتبار لها فى هذا الدين ، ولا وزن لها فى ميزان اللّه . . فالوشيجة الباقية هى وشيجة هذا الدين ، والارتباط بين الناس إنما يكون فى حبل اللّه المتين . .

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ{٩٤} ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاءَ وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ{٩٥} وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{٩٦} أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ{٩٧} أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ{٩٨} أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ{٩٩} أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ{١٠٠} تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ{١٠١} وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ){١٠٢}

مضى فى الجزء الثامن – فى الشطر الذى استعرضناه هناك من سورة الأعراف – قصص الرسل والرسالات والأقوام بعد آدم عليه السلام . وعرضنا من موكب الإيمان هناك قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب – عليهم السلام – ومصارع المكذبين من أقوامهم ونجاة المؤمنين . فالآن يبدأ هذا الجزء بتكملة لقصة شعيب – عليه السلام – وقد اخترنا أن نضمها إلى نهاية الجزء الثامن تكملة للقصة هناك . . ثم يقف سياق السورة وقفة للتعقيب على ذلك القصص – وفق منهج السورة – فيكشف فى هذا التعقيب عن خطوات قدر الله بالمكذبين . . كيف يأخذهم بالبأساء والضراء لعل قلوبهم تصحو وترق ، وتلجأ إلى الله وتتضرع إليه ، فإذا لم تستيقظ هذه القلوب ولم تتفتح ولم تنتفع بالابتلاء ، أخذهم الله بالسراء – وهى أشد فى الابتلاء – حتى يزدادوا عن قدر اللهغفلة ، ويظنوا الحياة لهواً ولعباً . وعندئذ يأخذهم الله بغتة على حين غفلة (وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عَفوا ، وقالوا:قد مس آباءنا الضراء والسراء ! فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) وهنا يكشف السياق كذلك عن العلاقة بين القيم الإيمانية وسنن الله فى أخذ الناس ، حيث لا انفصال فى خطوات قدر الله بين هذه السنن وتلك القيم . هذه العلاقة التى تخفى على الغافلين ، لأن آثارها قد لا تبدو فى المدى القريب ؛ ولكنها لا بد واقعة فى المدى الطويل: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ; ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) ويعقب الكشف عن خطوات قدر الله بالمكذبين ؛ وسنته وعلاقتها بالقيم الإيمانية فى حياة البشر ؛ لمسات من التهديد تهز القلوب ؛ ولفتات إلى مصارع المكذبين توقظ الغافلين (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) (أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لونشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون) وينتهى هذا التعقيب بلفتة إلى رسول الله ﷺ عن هذا القصص ؛ وتلخيص لأمر الأقوام التى كذبت من قبل ؛ ووصف لحقيقة حالهم ونسيانهم لعهد الله معهم على الاعتراف بألوهيته ووحدانيته ؛ وعدم جدوى الآيات والبينات والخوارق التى جاءهم بها رسلهم , بسبب تعطل فطرتهم وغفلة قلوبهم (تلك القرى نقص عليك من أنبائها . ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل . كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) وبعد هذه الوقفة للتعقيب على مصارع قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب . . تجىء قصة موسى – عليه السلام – مع فرعون وملئه أولاً ؛ ثم مع قومه بنى إسرائيل أخيراً . . وتشغل قصة موسى فى هذه السورة أوسع مساحة وأكبر قدر شغلته فى سورة واحدة من سور القرآن كلها . . وقد وردت حلقات من قصة بنى إسرائيل فى مواضع كثيرة ; وذلك عدا الإشارات القصيرة إليها فى مواضع من القرآن أخرى . . وكانت أكثر القصص وروداً فى القرآن كله ، ولقد وردت القصة فى أكثر من ثلاثين موضعاً فى القرآن كله – مكية ومدنية – ولكن ورودها مفصلة اقتصر على عشرة مواضع فى عشر سور منها ستة مواضع هى أكثرها تفصيلاً . والذى ورد منها فى سورة الأعراف كان أول تفصيل . . كما أنه هو أوسع مساحة . وإن تكن الحلقات التى وردت فى هذه المساحة أقل مما ورد منها فى سورة طه . وهى تبدأ هنا من حلقة مواجهة فرعون وملئه بالرسالة . بينما تبدأ فى سورة طه من حلقة النداء لموسى – عليه السلام – فى جانب الطور . وتبدأ فى سورة القصص من حلقة مولد موسى فى فترة اضطهاد بنى إسرائيل . . ويبدأ عرضها – متناسقاً مع جو السورة وأهدافها على طريقة القرآن فى سياقة القصص كله – بالتوجيه إلى عاقبة تكذيب فرعون وملئه .وذلك منذ اللحظة الأولى فى عرضها (ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فظلموا بها . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) ثم تمضى حلقات القصة ومشاهدها . . أولاً . . فى مواجهة فرعون وملئه . . وأخيراً فى مواجهة بنى إسرائيل ، والتوائهم وزيغهم وانحرافهم ! إن موسى – عليه السلام – يواجه فرعون وملأه بأنه رسول من رب العالمين (وقال موسى:يا فرعون إنى رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل) . كذلك حين تقع المباراة بينه وبين سحرة فرعون فيغلبون ويؤمنون ، فإنهم يؤمنون برب العالمى (وألقى السحرة ساجدين . قالوا:آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون . . وحين يهددهم فرعون بالعذاب الرعيب:فإنهم يتجهون إلى ربهم ، ويعلنون أنهم عائدون إليه فى حياتهم ومماتهم وبعثهم وفى أمرهم كله :قالوا:إنا إلى ربنا منقلبون . تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) ثم إن موسى – عليه السلام – وهو يعلم قومه فى مواضع كثيرة يعرفهم بربهم الحق . . فعندما أعلن فرعون أنه سيعيد اضطهاد بنى إسرائيل بقتل ذكورهم واستحياء إناثهم قال موسى لقومه (استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) (قالوا:أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعدما جئتنا . قال:عسى ربكم أن يهلك عدوكم ، ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون). . وعندما جاوز بهم البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم وطلبوا إلى موسى أن يجعل لهم إلهاً كما لهؤلاء القوم آلهة ! (قال:إنكم

قوم تجهلون . إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال:أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ؟) فهذه النصوص القرآنية فى القصة تثبت حقيقة الدين الذى جاء به موسى عليه السلام ؛ وحقيقة التصور الاعتقادى الذى تنشئه هذه الحقيقة . . وهو التصور الصحيح الذى جاء به الإسلام ; وتضمنه دين الله فى جميع الرسالات . كما أنها تثبت زيف النظريات والتكهنات التى يدلى بها الباحثون فى تاريخ الأديان من الغربيين ومن يأخذ بمنهجهم وتقريراتهم ممن يكتبون عن تطور العقيدة ! كذلك تثبت هذه النصوص ألوان الانحراف التى صاحبت تاريخ بنى إسرائيل وجبلتهم الملتوية - حتى بعد بعثة موسى عليه السلام . ذلك من مثل قولهم: (يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة). . ومثل اتخاذهم العجل فى غيبة موسى على الجبل لميقاته مع ربه ! ومثل طلبهم رؤية الله جهرة وإلا فإنهم لا يؤمنون ! ولكن هذه الانحرافات لا تمثل حقيقة العقيدة التى جاء بها موسى من ربه . إنما هى انحرافات عن هذه العقيدة . فكيف تحسب الانحرافات إذن على العقيدة ذاتها ؟ ويقال:إنها "تطورت" إلى التوحيد ؟! كذلك تكشف مواجهة موسى لفرعون وملئه عن حقيقة المعركة بين دين الله كله وبين الجاهلية كلها . وتبين كيف ينظر الطاغوت إلى هذا الدين ؛ وكيف يحس فيه الخطر على وجوده ; كما تبين كيف يدرك المؤمنون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت ! إنه بمجرد أن قال موسى عليه السلام لفرعون (يا فرعون إنى رسول من رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ، . . . قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل) تبين مدلول هذه الدعوة إلى (رب العالمين). . إنه رد السلطان كله إلى الله برد عبودية العالمين كلها إلى رب العالمين ! وبناء على هذا المدلول طلب موسى إطلاق سراح بنى إسرائيل . فإنه إذ كان الله رب العالمين ، فما يكون لعبد من عبيده - وهو فرعون المتجبر الطاغى - أن يعبدهم لنفسه . فهم ليسوا عبيداً إلا لرب العالمين . . إن رد الربوبية كلها لله سبحانه معناه رد الحاكمية كلها له . فالحاكمية هى مظهر ربوبية الله للناس ، ولقد أدرك فرعون وملؤه خطر الدعوة إلى (رب العالمين) وأحسوا أن توحيد الربوبية معناه سلب سلطان فرعون - وسلطانهم المستمد منه - فعبروا عن هذا الخطر بأن موسى يريد أن يخرجهم من أرضهم (قال الملأ من قوم فرعون:إنّ هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم . فماذا تأمرون ؟). . (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ؟). . وما أرادوا إلا أن هذه الدعوة إلى رب العالمين لا تحمل إلا مدلولاً واحداً هو انتزاع السلطان من يد العبيد - الطواغيت - ورده إلى صاحبه - سبحانه - وهذا معناه - من وجهة نظرهم - الإفساد فى الأرض ! أو كما يقال اليوم فى قوانين الجاهلية لمثل هذه الدعوة بذاتها:إنها محاولة لقلب نظام الحكم ! ومن وجهة نظر الطواغيت الجاهلية التى تغتصب سلطان الله - أى تغتصب ربوبيته وتزاول اختصاصاتها ولو لم تقل هذا باللسان - يكون هذا "قلباً" لنظام الحكم . لأن نظام الحكم فى الجاهليات يقوم على ربوبية عبد من العبيد لبقية العبيد . بينما الدعوة إلى رب العالمين تعنى أن تكون الربوبية على العبيد لخالق العبيد ! وكذلك قال فرعون للسحرة الذين بهرهم الحق فآمنوا برب العالمين ؛ وخلعوا ربقة العبودية له بهذا الإعلان:إنهم يمكرون لإخراج أهل المدينة من مدينتهم . وهددهم بأبشع العذاب والنكال(قال فرعون:آمنتم به قبل أن آذن لكم ! إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لأصلبنكم أجمعين) ومن الجانب الآخر كان هؤلاء السحرة الذين آمنوا برب العالمين ؛ وأسلموا لله وحده ; وأعلنوا الخروج من العبودية الزائفة للطاغوت المغتصب للربوبية واختصاصاتها . . كانوا يعلمون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت . إنها المعركة على العقيدة . لأن هذه العقيدة تهدد سلطان الطواغيت بمجرد إعلان أصحابها أن عبوديتهم خالصة لرب العالمين . بل بمجرد إعلان أن الله رب العالمين ! ومن ثم قالوا لفرعون رداً على اتهامه لهم بأن هذا مكر مكروه فى المدينة ليخرجوا منها أهلها - وهو مرادف للاتهام فى الجاهليات الحديثة لكل من يعلن ربوبية الله للعالمين بمعناها الجاد بأنه يعمل على قلب نظام الحكم ! (وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) . . ثم لجأوا إلى ربهم الذى آمنوا به فتمردوا على العبودية لغيره قائلين: (ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين). . فكان هذا فرقاناً جعله الله فى قلوبهم حين استقرت حقيقة الإسلام لله فيها . ومن خلال عرض الآيات التى جاء بها موسى لفرعون وملئه ؛ وما أخذهم الله به من السنين ونقص الثمرات ، وما أرسله عليهم من الآفات . ومواجهتهم لهذا كله بالعناد والمراوغة والإصرار فى النهاية على ما هم فيه حتى أهلكهم الله كما يقول تعالى (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا:لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه - ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون - وقالوا:مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا:يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك . لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز - إلى أجل هم بالغوه - إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) من خلال عرض هذا كله يتبين مدى إصرار

الطاغوت على الباطل في وجه الحق . ومدى مقاومته للدعوة إلى (رب العالمين). ذلك أنه يعلم علم اليقين أن هذه الدعوة بذاتها هي حرب عليه ، بإنكار شرعية قيامه من أساسه ! وما يمكن أن يسمح الطاغوت بإعلان أن لا إله إلا الله . أو أن الله هو رب العالمين . إلا حين تفقد هذه الكلمات مدلولها الحقيقى ، وتصبح مجرد كلمات لا مدلول .كذلك تتجلى من خلال عرض هذه الآيات خطوات قدر الله بالمكذبين . . من أخذهم بالبأساء والضراء . ثم أخذهم بالرخاء والسراء . ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر فى نهاية المطاف ! والتمكين للمؤمنين الذين كانوا يستضعفون (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون) ولكن بنى إسرائيل غلبت عليهم جبلتهم الملتوية الخبيثة . ففسقوا عن أمر الله – كما يجلو السياق القرآني ذلك – وراوغوا موسى نبيهم وزعيمهم ومنقذهم مراوغة مؤذية ؛ وعصوا وبطروا النعمة ولم يستقيموا ولم يشكروا ؛ وتكرر منهم ذلك كله بعد مغفرة الله لهم وقبولهم مرة بعد مرة ، إلى أن حقت عليهم كلمة الله فى النهاية (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . إن ربك لسريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم) ولقد صدق وعيد الله . . ولا بد أن يصدق فى مقبل الأيام . . وإنما هي دورات لهم فى التاريخ . حتى إذا عتوا وأفسدوا وتجبروا واشتد أذاهم ، بعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ! وأخيراً فإن هذه السورة مكية . وقد ورد فيها عن التواء بنى إسرائيل ومعصيتهم وسوء جبلتهم الكثير . . بينما يزعم المستشرقون – اليهود والصليبيون سواء – أن محمداً ﷺ لم يهاجم اليهود – بزعمهم – بهذا القرآن إلا بعد أن يئس فى المدينة من استجابتهم له . وأنه كان يحاسنهم فى مكة ، وفى أول عهده بالمدينة . فيقول – بزعمهم – قرآناً لا يهاجمهم فيه ؛ إنما يحدثهم عن التقاء العرب بهم فى النسب إلى جدهم إبراهيم ! طمعاً فى إسلامهم له ! فلما يئس منهم هاجمهم هذا الهجوم . . وكذبوا . فهذه سورة مكية تصف الحق فى شأنهم ، لا فرق بين ما جاء فيها وما جاء فى سورة البقرة المدنية فى هذا الحق الذى لا يتبدل ،وإذا كانت القصة بطولها مسوقة فى هذه السورة – فى استعراض موكب الإيمان – لتدل على خطوات قدر الله مع المكذبين ، ولتصور العلاقة بين القيم الإيمانية وسنة الله فى الحياة البشرية ، فإنها مسوقة كذلك لبيان طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر ؛ ممثلتين فى شخوص القصة وأطرافها . وقد ختمت بمشهد أخذ الميثاق على بنى إسرائيل ، تحت المعاينة الكاملة لبأس الله الشديد (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم, خذوا ما آتيناكم بقوة , واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) لذلك أعقب هذا المشهد مشهد أخذ الميثاق على فطرة البشر كافة:(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم:ألست بربكم ؟ قالوا:بلى ! شهدنا . . أن تقولوا يوم القيامة:إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا:إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟) وأعقب هذا المشهد مشهد الذى ينسلخ من هذا العهد ، كما ينسلخ من العلم بآيات الله بعد إذ أراه إياها . . وهو مشهد مثير . . وفيه لمسات قوية للتنفير من هذا الانسلاخ , والتحذير من مآله المنظور (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض ، واتبع هواه . فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا . فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا , وأنفسهم كانوا يظلمون) ثم بيان لطبيعة الهدى وطبيعة الكفر . يكشف عن أن الكفر تعطل فى أجهزة الفطرة يحول دون تلقى هدى الله ، وينتهى بالخسارة المطلقة (من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون . ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون) تعقب هذا البيان لفتة إلى المشركين الذين كانوا يواجهون دعوة الإسلام فى مكة بالتكذيب , ويلحدون فى أسماء الله فيشتقون منها أسماء الآلهة المفتراة . وتهديد لهم باستدراج الله . ودعوة لهم كذلك أن يتفكروا تفكراً عميقاً بعيداً عن الهوى فى أمر صاحبهم الذى يدعوهم إلى الهدى ﷺ فينبزونه بأن به جنة ! وإلى أن ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما فى صفحات الوجود من موحيات الهدى ؛ ولمسة لهم بالموت الذى يترقبهم وهم عنه غافلون(ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه . سيجزون ما كانوا يعملون . وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . . وأملى لهم إن كيدى متين . . أولم يتفكروا ? ما بصاحبهم من جنة . إن هو إلا نذير مبين . أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض ، وما خلق الله من شيء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ؟ فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ من يضلل الله فلا هادى له ، ويذرهم فى طغيانهم يعمهون) ومواجهة كذلك لهؤلاء المشركين فى تكذيبهم بالساعة ، وسؤالهم عن موعدها . . مواجهة بضخامة هذا الشأن الذى يسألون عنه مستهينين ، وهول هذا الأمر الذى يتناولونه مستخفين . وجلاء كذلك لطبيعة الرسالة وحقيقة الرسول ؛ وتقرير لحقيقة الألوهية وتفرد الله سبحانه بكل خصائصها . ومنها علم الغيب ؛ وتجلية الساعة (يسألونك

عن الساعة أيان مرساها ؟ قل:إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السماوات والأرض ,لا تأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفيٌّ عنها ! قل:إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . قل:لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً – إلا ما شاء الله – ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وفى سياق مواجهة المشركين يجىء بيان عن طبيعة الشرك وقصة الانحراف عن عهد الفطرة بتوحيد الله ، وكيف يقع فى النفس هذا الانحراف . . وكأنما هو تصوير لانحراف جيل المشركين بعد أن كان أسلافهم الأولون على دين إبراهيم الحنيف (هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به . فلما أثقلت دعوا الله ربهما:لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين . فلماآتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما . فتعالى الله عما يشركون . أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ؟) إنه تمثيل للأجيال المتلاحقة بصورة الحالات المتتابعة فى النفس الواحدة . . وهو تصوير ذو دلالات عجيبة فى صدقها وفى جمالها جميعاً . . ولأن المقصود هو تمثيل حالة المشركين الذين كان هذا القرآن يواجههم فإن السياق ينتقل مباشرة من المثل إلى مخاطبتهم مواجهة ، ويوجه الرسول ﷺ إلى تحديهم هم وآلهتهم : وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها ؟ أم لهم أيد يبطشون بها ؟ أم لهم أعين يبصرون بها ؟ أم لهم آذان يسمعون بها ؟ قل:ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا . وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون . . وفى نهاية السورة يتجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ وإلى الأمة المسلمة . يوجهه إلى اليسر فى أخذ الناس فى هذه الدعوة ؛ ونهنهة النفس عن الغضب مما يبدر منهم من تقاعس واعتراض ؛ والاستعاذة من الشيطان الذى يثير الغضب ويحنق الصدر(خذ العفو . وأمر بالعرف ؛ وأعرض عن الجاهلين . وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم . إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون . وإذا لم تأتهم بآية قالوا:لولا اجتبيتها ! قل:إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى ، هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) يشى بثقل هذا العبء – عبء دعوة الناس ، ومواجهة ما فى نفوسهم من رواسب وركام وعقابيل ، والتواءات وأغراض وشهوات ، وغفلة وثقلة وتقاعس . . وضرورة الصبر . . وضرورة اليسر . . وضرورة السير أيضاً فى الطريق ! ثم توجيه إلى الزاد المعين على مشاق الطريق . . الاستماع والإنصات إلى القرآن . . وذكر الله فى كل آن وفى كل حال . والحذر من الغفلة . والاقتداء بالمقربين من الملائكة فى الذكر والعبادة: وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون . واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ، ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ، ولا تكن من الغافلين . إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ، إنه زاد الطريق . وأدب العبادة . ومنهج المقربين الموصولين . .

(وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا:قد مس آباءنا الضراء والسراء . فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون . ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ؛ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) إن السياق القرآنى هنا لا يروى حادثة ، إنما يكشف عن سنة . ولا يعرض سيرة قوم إنما يعلن عن خطوات قدر . . ومن ثم يتكشف أن هناك ناموساً تجرى عليه الأمور ؛ وتتم وفقه الأحداث ؛ ويتحرك به تاريخ "الإنسان" فى هذه الأرض . وأن الرسالة ذاتها – على عظم قدرها – هى وسيلة من وسائل تحقيق الناموس – وهو أكبر من الرسالة وأشمل – وأن الأمور لا تمضى جزافا ؛ وأن الإنسان لا يقوم وحده فى هذه الأرض – كما يزعم الملحدون بالله فى هذا الزمان ! – وأن كل ما يقع فى هذا الكون إنما يقع عن تدبير ، ويصدر عن حكمة , ويتجه إلى غاية . وأن هنالك فى النهاية سنة ماضية وفق المشيئة الطليقة ؛ التى وضعت السنة ، وارتضت الناموس . . ووفقاً لسنة الله الجارية وفق مشيئته الطليقة كان من أمر تلك القرى ما كان ، مما حكاه السياق . ويكون من أمر غيرها ما يكون ! (وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون) فليس للعبث – تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا – يأخذ الله عباده بالشدة فى أنفسهم وأبدانهم وأرزاقهم وأموالهم . وليس لإرواء غلة ولا شفاء إحنة – كما كانت أساطير الوثنيات تقول عن آلهتها العابثة الحاقدة ! إنما يأخذ الله المكذبين برسله بالبأساء والضراء , لأن من طبيعة الابتلاء بالشدة أن يوقظ الفطرة التى ما يزال فيها خير يرجى , وأن يرقق القلوب التى طال عليها الأمد متى كانت فيها بقية ؛ وأن يتجه بالبشر الضعاف إلى خالقهم القهار ؛ يتضرعون إليه ؛ ويطلبون رحمته وعفوه ؛ ويعلنون بهذا التضرع عن عبوديتهم له –والعبودية لله غاية الوجود الإنسانى ، لذلك اقتضت مشيئة الله أن

يأخذ أهل كل قرية يرسل إليها نبياً فتكذبه ، بالبأساء في أنفسهم وأرواحهم ، وبالضراء في أبدانهم وأموالهم ، استحياء لقلوبهم بالألم . والألم خير مهذب ، وخير مفجر لينابيع الخير المستكنة ، وخير مرهف للحساسية في الضمائر الحية ، وخير موجه إلى ظلال الرحمة التي تنسم على الضعاف المكروبين نسمات الراحة والعافية في ساعات العسرة والضيق (لعلهم يضرعون) (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) فإذا الرخاء مكان الشدة ، واليسر مكان العسر ، والنعمة مكان الشظف ، والعافية مكان الضر ، والذرية مكان العقر ، والكثرة مكان القلة ، والأمن مكان الخوف . وإذا هو متاع ورخاء ، وهينة ونعماء ، وكثرة وامتلاء . وإنما هو في الحقيقة اختبار وابتلاء . والابتلاء بالشدة قد يصبر عليه الكثيرون ، ويحتمل مشقاته الكثيرون . فالشدة تستثير عناصر المقاومة . وقد تذكر صاحبها بالله – إن كان فيه خير – فيتجه إليه ويتضرع بين يديه ، ويجد في ظله طمأنينة ، وفي رحابه فسحة ، وفي فرجه أملاً ، وفي وعده بشرى . . فأما الابتلاء بالرخاء فالذين يصبرون عليه قليلون . فالرخاء ينسي ، والمتاع يلهي ، والثراء يطغي . فلا يصبر عليه إلا الأقلون من عباد الله (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا:قد مس آباءنا الضراء والسراء) أي حتى كثروا وانتشروا ، واستسهلوا العيش ، واستيسروا الحياة:ولم يعودوا يجدون في أنفسهم تحرجاً من شيء يعملونه ، ولا تخوفاً من أمر يصنعونه . . والتعبير (عفوا) إلى جانب دلالته على الكثرة – يوحي بحالة نفسية خاصة:حالة قلة المبالاة . حالة الاستخفاف والاستهتار . حالة استسهال كل أمر ، واتباع عفو الخاطر في الشعور والسلوك سواء . . وهي حالة مشاهدة في أهل الرخاء واليسار والنعمة ، حين يطول بهم العهد في اليسار والنعمة والرخاء – أفراداً وأمماً – كأن حساسية نفوسهم قد ترهلت فلم تعد تحفل شيئاً ، أو تحسب حساباً لشيء . فهم ينفقون في يسر ويلتذون في يسر ، ويلهون في يسر , ويبطشون كذلك في استهتار ! ويقترفون كل كبيرة تقشعر لها الأبدان ويرتعش لها الوجدان , في يسر واطمئنان ! وهم لا يتقون غضب الله ، ولا لوم الناس ، فكل شيء يصدر منهم عفواً بلا تحرج ولا مبالاة . وهم لا يفطنون لسنة الله في الكون ، ولا يتدبرون اختباراته وابتلاءاته للناس . ومن ثم يحسبونها تمضي هكذا جزافاً ، بلا سبب معلوم ، وبلا قصد مرسوم (وقالوا:قد مس آباءنا الضراء والسراء) وقد أخذنا دورنا في الضراء وجاء دورنا في السراء ! وها هي ذي ماضية بلا عاقبة ، فهي تمضي هكذا خبط عشواء ! عندئذ وفي ساعة الغفلة السادرة ، وثمرة للنسيان واللهو والطغيان ، تجيء العاقبة وفق السنة الجارية: (فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون). جزاء بما نسوا واغتروا وبعدوا عن الله ؛ وأطلقوا لشهواتهم العنان ، فما عادوا يتحرجون من فعل ، وما عادت التقوى تخطر لهم ببال ! (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فاخذناهم بما كانوا يكسبون) فذلك هو الطرف الآخر لسنة الله الجارية . فلو أن أهل القرى آمنوا بدل التكذيب ، واتقوا بدل الاستهتار ؛ لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض . . هكذا (بركات من السماء والأرض) مفتوحة بلا حساب . من فوقهم ومن تحت أرجلهم . والتعبير القرآني بعمومه وشموله يلقي ظلال الفيض الغامر ، الذي لا يتخصص بما يعهده البشر من الأرزاق والأقوات . . والذين يتصورون الإيمان بالله وتقواه مسألة تعبدية بحتة ، لا صلة لها بواقع الناس في الأرض ، لا يعرفون الإيمان ولا يعرفون الحياة ! وما أجدرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها الله – سبحانه – وكفى بالله شهيداً . ويحققها النظر بأسبابها التي يعرفها الناس ولقد ينظر بعض الناس فيرى أمماً – يقولون:إنهم مسلمون – مضيقاً عليهم في الرزق ، لا يجدون إلا الجدب والمحق ! . . ويرى أمماً لا يؤمنون ولا يتقون ، مفتوحاً عليهم في الرزق والقوة والنفوذ . . فيتساءل:وأين إذن هي السنة التي لا تتخلف ؟ ولكن هذا وذلك وهم تخيله ظواهر الأحوال ! إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى ، بركات في الأشياء ، وبركات في النفوس ، وبركات في المشاعر ،وبركات في طيبات الحياة . . بركات تنمي الحياة وترفعها في آن . وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال

وبعد أن يقرر السياق القرآني تلك السنة الجارية . التي يشهد بها تاريخ القرى الخالية . وفي اللحظة التي تنتفض فيها المشاعر ، ويرتعش فيها الوجدان ، على مصارع المكذبين الذين لم يؤمنوا ولم يتقوا ؛ وغرهم ما كانوا فيه من رخاء ونعماء ، فغفلوا عن حكمة الله في الابتلاء . . في هذه اللحظة يتجه إلى الغافلين السادرين ، يوقظ فيهم مشاعر الترقب أن يأتيهم بأس الله في أية لحظة من ليل أو نهار ، وهم سادرون في النوم واللهو والمتاع (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ؟ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون) (أفأمن أهل القرى) وتلك سنة الله في الابتلاء بالضراء والسراء ، والبأساء والنعماء . وتلك مصارع المكذبين السادرين ، الذين كانوا قبلهم يعمرون هذه القرى ثم تركوها فخلفوهم فيها – أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله في غفلة من غفلاتهم ، وغرة من غراتهم ، أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله بالهلاك والدمار . . بياتاً وهم نائمون . .

والإنسان في نومه مسلوب الإرادة ، مسلوب القوة ، لا يملك أن يحتاط ولا يملك أن يدفع عادية من حشرة صغيرة . . فكيف ببأس الله الجبار ؟ الذى لا يقف له الإنسان فى أشد ساعات صحوه واحتياطه وقوته ؟ أفأمنوا أن ياتيهم بأس الله . . ضحى وهم يلعبون . . واللعب يستغرق اليقظة والتحفز ، ويلهى عن الأهبة والاحتياط:فلا يملك الإنسان ، وهو غار فى لعبه ، أن يدفع عن نفسه مغيراً . فكيف بغارة الله التى لا يقف لها الإنسان وهو فى اشد ساعات جده وتأهبه للدفاع ؟ وإن بأس الله لأشد من أن يقفوا له نائمين أم صاحين . لاعبين أم جادين . ولكن السياق القرآنى يعرض لحظات الضعف الإنسانى ، ليلمس الوجدان البشرى بقوة ، ويثير حذره وانتباهه ، حين يترقب الغارة الطامة الغامرة ، فى لحظة من لحظات الضعف والغرة والفجاءة . وما هو بناج فى يقظة أو غرة . فهذه كتلك أمام بأس الله سواء ! (أفأمنوا مكر الله ؟) وتدبيره الخفى المغيب على البشر . . ليتقوه ويحذروه (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) فما وراء الأمن والغفلة والاستهتار إلا الخسار . وما يغفل عن مكر الله هكذا إلا الذين يستحقون هذا الخسار ! أفأمنوا مكر الله ؛ وهم يرثون الأرض من بعد أهلها الذاهبين ، الذين هلكوا بذنوبهم ، وجنت عليهم غفلتهم ؟ أما كانت مصارع الغابرين تهديهم وتنير لهم طريقهم ؟ (أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون) إن سنة الله لا تتخلف ؛ ومشيئة الله لا تتوقف . فما الذى يؤمنهم أن يأخذهم الله بذنوبهم كما أخذ من قبلهم ؟ وأن يطبع على قلوبهم فلا يهتدوا بعد ذلك ، بل لا يستمعوا إلى دلائل الهدى ، ثم ينالهم جزاء الضلال فى الدنيا والآخرة . والآن - وقد انتهى السياق من بيان السنة الجارية ، ولمس بها الوجدان البشرى تلك اللمسات الموحية - يتجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ يطلعه على العاقبة الشاملة لابتلاء تلك القرى ، وما تكشف عنه من حقائق عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان ، ثم عن طبيعة البشر الغالبة كما تجلت فى هذه الأقوام (تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل . كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) فهو قصص من عند الله ، ما كان للرسول ﷺ به من علم ، إنما هو وحى الله وتعليمه (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) فلم تنفعهم البينات . وظلوا يكذبون بعدها ، كما كذبوا قبلها . ولم يؤمنوا بما كانوا قد كذبوا به من قبل أن تأتيهم البينة عليه . فالبينات لا تؤدى بالمكذبين الى الإيمان . وليس البينة هى ما كان ينقصهم ليؤمنوا . إنما كان ينقصهم القلب المفتوح ، والحس المرهف والتوجه إلى الهدى . كان ينقصهم الفطرة الحية التى تستقبل وتنفعل وتستجيب . فلما لم يوجهوا قلوبهم إلى موحيات الهدى ودلائل الإيمان طبع الله على قلوبهم وأغلقها ، فما عادت تتلقى ولا تنفعل ولا تستجيب (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) ولقد تكشفت تلك التجارب عن طبيعة غالبة (وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) والعهد الذى يشار إليه هنا قد يكون هو عهد الله على فطرة البشر ، وقد يكون هو عهد الإيمان الذى أعطاه أسلافهم الذين آمنوا بالرسل . ثم انحرفت الخلائف . كما يقع فى كل جاهلية ، وأياً كان العهد فقد تبين أن أهل هذه القرى لا عهد لأكثرهم يستمسكون به ، ويثبتون عليه . إنما هو الهوى المتقلب ، والطبيعة التى لا تصبر على تكاليف العهد ولا تستقيم (وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) منحرفين عن دين الله وعهده القديم . . وهذه ثمرة التقلب ، ونقض العهد ، واتباع الهوى . . ومن لم يمسك نفسه على عهده مع الله ، مستقيماً على طريقته ، مسترشداً بهداه . فلا بد أن تتفرق به السبل ، ولا بد أن ينحرف ، ولا بد أن يفسق . . وكذلك كان أهل تلك القرى . وكذلك انتهى بهم المطاف . .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ{١٠٣} وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{١٠٤} حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ{١٠٥} قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{١٠٦} فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ{١٠٧} وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ{١٠٨} قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ{١٠٩} يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ{١١٠} قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ{١١١} يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ{١١٢} وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ{١١٣} قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ{١١٤} قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ{١١٥} قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ{١١٦} وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ{١١٧} فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{١١٨} فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ{١١٩} وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ{١٢٠} قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ{١٢١} رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ{١٢٢} قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ{١٢٣} لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ{١٢٤} قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ{١٢٥} وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ

آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ {١٢٦} وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىَ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِـي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ {١٢٧} قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُواْ بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ {١٢٨} قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ {١٢٩} وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ {١٣٠} فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ {١٣١} وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ {١٣٢} فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ {١٣٣} وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ {١٣٤} فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ {١٣٥} فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ {١٣٦} وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ {١٣٧}

يتضمن هذا الدرس قصة موسى – عليه السلام – مع فرعون وملئه . من حلقة مواجهتهم بربوبية الله للعالمين ، إلى حلقة إغراقهم أجمعين . وما بين هذه وتلك من المباراة مع السحرة . وغلبة الحق على الباطل . وإيمان السحرة برب العالمين رب موسى وهارون . وتوعد فرعون لهم بالعذاب والتقتيل والتنكيل . واستعلان الحق في نفوسهم على هذا التوعد وانتصار العقيدة في قلوبهم على حب الحياة . ثم ما تلا ذلك من التنكيل ببنى إسرائيل . وأخذ الله لفرعون وملئه بالسنين ونقص من الثمرات . ثم أخذهم بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . وهم يستغيثون بموسى في كل مرة أن يدعو ربه ليرفع عنهم العذاب . حتى إذا رفع عنهم عادوا لما كانوا فيه ؛ وأعلنوا أنهم لن يؤمنوا مهما جاءهم من الآيات . حتى حقت عليهم كلمة الله في النهاية فأغرقوا في اليم بتكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عن حكمة ابتلائه – وفق السنة الجارية في أخذ المكذبين بالضراء والسراء قبل أخذهم بالدمار والهلاك – ثم إعطاء الخلافة في الأرض لقوم موسى جزاء على صبرهم واجتيازهم ابتلاء الشدة . . لتعقبها فتنة الرخاء . . والقصة تبدأ هنا بمجمل عن بدئها ونهايتها ، يوحي بالغرض الذي جاءت من أجله في سياق هذه السورة (ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فظلموا بها ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) فيصرح النص بالغرض من سياقة القصة في هذا الموضع إنه النظر إلى عاقبة المفسدين . . وبعد ذلك الإجمال الموحى بالغاية ، تعرض الحلقات التي تفي بهذه الغاية , وتصورها تفصيلاً . والقصة تقطع إلى مشاهد حية ، تموج بالحركة وبالحوار ، وتزخر بالانفعالات والسمات وتتخللها التوجيهات إلى مواضع العبرة في السياق ، وتكشف عن طبيعة المعركة بين الدعوة إلى (رب العالمين)وبين الطواغيت المتسلطة على عباد الله ، المدعية للربوبية من دون الله ، كما تتجلى روعة العقيدة حين تستعلن ، فلا تخشى سلطان الطواغيت ، ولا تحفل التهديد والوعيد الشديد (ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فظلموا بها ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) بعد تلك القرى وما حل بها وبالمكذبين من أهلها ، كانت بعثة موسى . . والسياق يعرض القصة من حلقة مواجهة فرعون وملئه بالرسالة ، ثم يعجل بالكشف عن خلاصة استقبالهم لها . كما يعجل بالإشارة إلى العاقبة التي انتهوا إليها . لقد ظلموا بهذه الآيات – أي كفروا وجحدوا – والتعبير القرآني يكثر من ذكر كلمة "الظلم" وكلمة" الفسق" في موضع كلمة "الكفر" أو كلمة "الشرك" . وهذه من تلك المواضع التي يكثرو رودها في التعبير القرآني . ذلك أن الشرك أو الكفر هو أقبح الظلم ، كما أنه كذلك هو أشنع الفسق ، ولقد ظلم فرعون وملؤه بآيات الله:أي كفروا بها وجحدوا (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) إنهم مفسدون لأنهم (ظلموا)– أي "كفروا وجحدوا" . . ذلك أن الكفر هو أشنع الفساد . وأشنع الإفساد . . إن الحياة لا تستقيم ولا تصلح إلا على أساس الإيمان بالله الواحد , والعبودية لإله واحد . . وإن الأرض لتفسد حين لا تتمحض العبودية لله في حياة الناس ، وما تحرر "الإنسان" قط إلا في ظلال الربوبية الواحدة . . ومن ثم يقول الله سبحانه عن فرعون وملئه (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وكل طاغوت يخضع العباد لشريعة من عنده ، وينبذ شريعة الله ، هو من (المفسدين)الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ! وافتتاح القصة على ذلك النحو هو طريقة من طرق العرض القرآنية للقصص . وهذه الطريقة هي المناسبة هنا لسياق السورة ، وللمحور الذي تدور حوله . لأنها تعجل بالعاقبة منذ اللحظة الأولى – تحقيقاً للهدف من سياقتها – ثم تأخذ في التفصيل بعد الإجمال , فنرى كيف سارت الأحداث إلى نهايتها . فما الذي كان بين موسى وفرعون وملئه ؟ هنا يبدأ المشهد الأول بينهما (وقال موسى:يا فرعون إني

رسول من رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق . قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل . قال:إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون:إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم ، فماذا تأمرون ؟ قالوا:أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم) إنه مشهد اللقاء الأول بين الحق والباطل ، وبين الإيمان والكفر . . مشهد اللقاء الأول بين الدعوة إلى (رب العالمين) وبين الطاغوت الذى يدعى ويزاول الربوبية من دون رب العالمين ! (وقال موسى:يا فرعون ، إنى رسول من رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق . قد جئتكم ببينة من ربكم ، فأرسل معى بنى إسرائيل) (يا فرعون). . لم يقل له:يا مولاى ! كما يقول الذين لا يعرفون من هو المولى الحق ! ولكن ناداه بلقبه فى أدب واعتزاز . . ناداه ليقرر له حقيقة أمره ، كما يقرر له أضخم حقائق الوجود (إنى رسول من رب العالمين)

لقد جاء موسى – عليه السلام – بهذه الحقيقة التى جاء بها كل رسول قبله . حقيقة ربوبية الله الواحد للعالمين جميعاً . . ألوهية واحدة وعبودية شاملة . . لا كما يقول الخابطون فى الظلام من "علماء الأديان" ومن يتبعهم فى زعمهم عن "تطور العقيدة " إطلاقاً ، وبدون استثناء لما جاء به الرسل من ربهم أجمعين ! . . إن العقيدة التى جاء بها الرسل جميعا عقيدة واحدة ثابتة ؛ تقرر ألوهية واحدة للعوالم جميعها . ولا تتطور من الآلهة المتعددة ، إلى التثنية ، إلى الوحدانية فى نهاية المطاف . . فأما جاهليات البشر – حين ينحرفون عن العقيدة الربانية – فلا حد لتخبطها بين الطواطم والأرواح والآلهة المتعددة والعبادات الشمسية والتثنية والتوحيد المشوب برواسب الوثنية . . وسائر أنواع العقائد الجاهلية . . ولا يجوز الخلط بين العقائد السماوية التى جاءت كلها بالتوحيد الصحيح ، الذى يقرر إلهاً واحداً للعالمين ؛ وتلك التخبطات المنحرفة عن دين الله الصحيح . ولقد واجه موسى – عليه السلام – فرعون وملأه بهذه الحقيقة الواحدة ، التى واجه بها كل نبى – قبله أو بعده – عقائد الجاهلية الفاسدة . . واجهه بها وهو يعلم أنها تعنى الثورة على فرعون وملئه ودولته ونظام حكمه . . إن ربوبية الله للعالمين تعنى – أول ما تعنى – إبطال شرعية كل حكم يزاول السلطان على الناس بغير شريعة الله وأمره ؛ وتنحية كل طاغوت عن تعبيد الناس له – من دون الله – بإخضاعهم لشرعه هو وأمره . . واجهه بهذه الحقيقة الهائلة بوصفه رسولاً من رب العالمين . . ملزماً ومأخوذاً بقول الحق على ربه الذى أرسله (حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق) فما كان الرسول الذى يعلم حقيقة الله ، ليقول عليه إلا الحق ، وهو يعلم قدره ؛ ويجد حقيقته – سبحانه – فى نفسه (قد جئتكم ببينة من ربكم) تدلكم على صدق قولى:إنى رسول من رب العالمين . وباسم تلك الحقيقة الكبيرة . . حقيقة الربوبية الشاملة للعالمين . . طلب موسى من فرعون أن يطلق معه بإسرائيل ، إن بنى إسرائيل عبيد لله وحده ؛ فما ينبغى أن يعبدهم فرعون لنفسه ! إن الإنسان لا يخدم سيدين ، ولا يعبد إلهين . فمن كان عبداً لله ، فما يمكن أن يكون عبداً لسواه . وإذ كان فرعون إنما يعبد بنى إسرائيل لهواه ؛ فقد أعلن له موسى أن رب العالمين هو الله . وإعلان هذه الحقيقة ينهى شرعية ما يزاوله فرعون من تعبيد بنى إسرائيل ! إن إعلان ربوبية الله للعالمين هى بذاتها إعلان تحرير الإنسان . تحريره من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله . تحريره من شرع البشر ، ومن هوى البشر , ومن تقاليد البشر ، ومن حكم البشر . وعلى هذه الحقيقة أمر موسى – عليه السلام – أن يبنى طلبه من فرعون إطلاق بنى إسرائيل(يا فرعون إنى رسول من رب العالمين). . . (فأرسل معى بنى إسرائيل) مقدمة ونتيجة . . تتلازمان ولا تفترقان . . ولم تغب على فرعون وملئه دلالة هذا الإعلان . إعلان ربوبية الله للعالمين . . لم يغب عنهم أن هذا الإعلان يحمل فى طياته هدم ملك فرعون . وقلب نظام حكمه ، وإنكار شرعيته , وكشف عدوانه وطغيانه . . ولكن كان أمام فرعون وملئه فرصة أن يظهروا موسى بمظهر الكاذب الذى يزعم أنه رسول من رب العالمين بلا بينة ولا دليل (قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين)ذلك أنه إذا اتضح أن هذا الداعية إلى ربوبية رب العالمين كاذب فى دعواه ؛ سقطت دعوته , وهان أمره ؛ ولم يعد لهذه الدعوة الخطيرة من خطر – وصاحبها دعى لا بينة عنده ولا دليل !ولكن موسى يجيب: (فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين) إنها المفاجأة ! إن العصا تنقلب ثعباناً لا شك فى ثعبانيته . .(مبين). . وكما قيل فى سورة أخرى (فإذا هى حية تسعى) ثم إن يده السمراء – وقد كان موسى عليه السلام " آدم" أى مائلاً إلى السمرة – يخرجها من جيبه فإذا هى بيضاء من غير سوء ، بيضاء ليست عن مرض ، ولكنها المعجزة ، فإذا أعادها إلى جيبه عادت سمراء ! هذه هى البينة والآية على الدعوى التى جاء بها موسى . . إنى رسول من رب العالمين . ولكن هل يستسلم فرعون وملؤه لهذه الدعوى الخطيرة ؟ هل يستسلمون لربوبية رب العالمين ؟ وعلام إذن يقوم عرش فرعون وتاجه وملكه وحكمه ؟ وعلام يقوم الملأ من قومه ومراكزهم التى هى من عطاء فرعون ورسمه وحكمه ؟ علام يقوم هذا كله إن كان الله هو (رب

العالمين) إنه إن كان الله هو (رب العالمين)فلا حكم إلا لشريعة الله ، ولا طاعة إلا لأمر الله . . فأين يذهب شرع فرعون وأمره إذن ، وهو لا يقوم على شريعة الله ولا يرتكن إلى أمره ؟ . . كلا ! إن الطاغوت لا يستسلم هكذا من قريب . ولا يسلم ببطلان حكمه وعدم شرعية سلطانه بمثل هذه السهولة ! وفرعون وملؤه يخطئون فهم مدلول هذه الحقيقة الهائلة التى يعلنها موسى . بل إنهم ليعلنونها صريحة . ولكن مع تحويل الأنظار عن دلالتها الخطيرة ، باتهام موسى بأنه ساحر عليم (قال الملأ من قوم فرعون:إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم . فماذا تأمرون ؟) إنهم يصرحون بالنتيجة الهائلة التى تتقرر من إعلان تلك الحقيقة . إنها الخروج من الأرض . . إنها ذهاب السلطان . . إنها إبطال شرعية الحكم . . أو . . محاولة قلب نظام الحكم ! . . بالتعبير العصرى الحديث ! إن الأرض لله . والعباد لله . فإذا ردت الحاكمية فى أرض لله ، فقد خرج منها الطغاة , الحاكمون بغير شرع الله ! أو خرج منها الأرباب المتألهون الذين يزاولون خصائص الألوهية بتعبيد الناس لشريعتهم وأمرهم . وخرج منها الملأ الذين يوليهم الأرباب المناصب والوظائف الكبرى ، فيعبدون الناس لهذه الأرباب !

هكذا أدرك فرعون وملؤه خطورة هذه الدعوة . . وكذلك يدركها الطواغيت فى كل مرة . . لقد قال الرجل العربى – بفطرته وسليقته – حين سمع رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله:" هذا أمر تكرهه الملوك ! " . وقال له رجل آخر من العرب بفطرته وسليقته:" إذن تحاربك العرب والعجم " . . لقد كان هذا العربى وذاك يفهم مدلولات لغته . كان يفهم أن شهادة أن لا إله إلا الله ثورة على الحاكمين بغير شرع الله عرباً كانوا أم عجماً ! كانت لشهادة أن لا إله إلا الله جديتها فى حس هؤلاء العرب ، لأنهم كانوا يفهمون مدلول لغتهم جيداً . فما كان أحد منهم يفهم أنه يمكن أن تجتمع فى قلب واحد ، ولا فى أرض واحدة . شهادة أن لا إله إلا الله , مع الحكم بغير شرع الله ! فيكون هناك آلهة مع الله ! ما كان أحد منهم يفهم شهادة أن لا إله إلا الله كما يفهمها اليوم من يدعون أنفسهم "مسلمين" . . ذلك الفهم الباهت التافه الهزيل ! وهكذا قال الملأ من قوم فرعون ، يتشاورون مع فرعون (إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم . فماذا تأمرون ؟) واستقر رأيهم على أمر (قالوا:أرجه وأخاه ، وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم) وكانت أرض مصر تموج بالكهنة فى شتى المعابد . وكان الكهنة هم الذين يزاولون أعمال السحر . ففى الوثنيات كلها تقريباً يقترن الدين بالسحر ؛ ويزاول السحر كهنة الديانات وسدنة الآلهة ! وهذه الظاهرة هى التى يلتقطها "علماء الأديان ! " فيتحدث بعضهم عن السحر كمرحلة من مراحل تطور العقيدة ! ويقول الملحدون منهم:إن الدين سيبطل كما بطل السحر ! وإن العلم سينهى عهد الدين كما أنهى عهد السحر ! . . إلى آخر هذا الخبط الذى يسمونه:"العلم" ! وقد استقر رأى الملأ من قوم فرعون ، على أن يرجىء فرعون موسى إلى موعد . وأن يرسل فى أنحاء البلاد من يجمع له كبار السحرة . ذلك ليواجهوا "سحر موسى" – بزعمهم – بسحر مثله . وعلى كل ما عرف من طغيان فرعون ، فقد كان فى تصرفه هذا أقل طغياناً من طواغيت كثيرة فى القرن العشرين ؛ فى مواجهة دعوة الدعاة إلى ربوبية رب العالمين ! وتهديد السلطان الباطل بهذه الدعوة الخطيرة ! ويطوى السياق القرآنى إجراء فرعون وملئه فى جمع السحرة من المدائن ؛ ويسدل الستار على المشهد الأول (وجاء السحرة فرعون ، قالوا:إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ قال:نعم ، وإنكم لمن المقربين) إنهم محترفون . . يحترفون السحر كما يحترفون الكهانة ! والأجر هو هدف الاحتراف فى هذا وذاك ! وخدمة السلطان الباطل والطاغوت الغالب هى وظيفة المحترفين من رجال الدين ! وكلما انحرفت الأوضاع عن إخلاص العبودية لله ، وإفراده – سبحانه – بالحاكمية ; وقام سلطان الطاغوت مقام شريعة الله ، احتاج الطاغوت إلى هؤلاء المحترفين , وكافأهم على الاحتراف , وتبادل وإياهم الصفقة:هم يقرون سلطانه باسم الدين ! وهو يعطيهم المال ويجعلهم من المقربين ! ولقد أكد لهم فرعون أنهم مأجورون على حرفتهم ، ووعدهم مع الأجر القربى منه ، زيادة فى الإغراء ، وتشجيعاً على بذل غاية الجهد . . وهو وهم لا يعلمون أن الموقف ليس موقف الاحتراف والبراعة والتضليل ؛ إنما هو موقف المعجزة والرسالة والاتصال بالقوة القاهرة ، التى لا يقف لها الساحرون ولا المتجبرون ! ولقد اطمأن السحرة على الأجر ، واشرأبت أعناقهم إلى القربى من فرعون ، واستعدوا للحلبة . . ثم ها هم أولاء يتوجهون إلى موسى – عليه السلام – بالتحدى . . ثم يكون من أمرهم ما قسم الله لهم من الخير الذى لم يكونوا يحتسبون ، ومن الأجر الذى لم يكونوا يتوقعون (قالوا:يا موسى ، إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . . قال:ألقوا) ويبدو التحدى واضحاً فى تخييرهم لموسى . وتبدو كذلك ثقتهم بسحرهم وقدرتهم على الغلبة . . وفى الجانب الآخر تتجلى ثقة موسى – عليه السلام – واستهانته بالتحدى: قال ألقوا . . فهذه الكلمة الواحدة تبدو فيها قلة المبالاة ، وتلقى ظل الثقة الكامنة وراءها فى نفس موسى . على طريقة القرآن الكريم فى إلقاء الظلال ، بالكلمة المفردة فى كثير من الأحايين . ولكن السياق يفاجئنا بما فوجىء به موسى – عليه السلام – وبينما نحن فى ظلال الاستهانة

وعدم المبالاة ، إذا بنا أمام مظهر السحر البارع ، الذى يرهب ويخيف (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم وحسبنا أن يقرر القرآن أنه سحر عظيم ، لندرك أى سحر كان . وحسبنا أن نعلم أنهم (سحر أعين الناس) وأثاروا الرهبة فى قلوبهم: (واسترهبوهم) لنتصور أى سحر كان ، ولفظ " استرهب " ذاته لفظ مصور . فهم استجاشوا إحساس الرهبة فى الناس وقسروهم عليه قسراً . ثم حسبنا أن نعلم من النص القرآنى الآخر فى سورة طه ، أن موسى عليه السلام قد أوجس فى نفسه خيفة لنتصور حقيقة ما كان ! ولكن مفاجأة أخرى تطالع فرعون وملأه ، وتطالع السحرة الكهنة ، وتطالع جماهير الناس فى الساحة الكبرى التى شهدت ذلك السحر العظيم ، إنه الباطل ينتفش ، ويسحر العيون ، ويسترهب القلوب ، ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب , وأنه جارف ، وأنه مُحيق ! وما هو إلا أن يواجه الحق الهادىء الواثق حتى ينفشىء كالفقاعة ، وينكمش كالقنفذ ، وينطفئ كشعلة الهشيم ! وإذا الحق راجح الوزن ، ثابت القواعد ، عميق الجذور ، والتعبير القرآنى هنا يلقى هذه الظلال ، وهو يصور الحق واقعاً ذا ثقل (فوقع الحق) وثبت ، واستقر وذهب ما عداه فلم يعد له وجود(وبطل ما كانوا يعملون). وغلب الباطل والمبطلون وذلوا وصغروا وانكمشوا بعد الزهو الذى كان يبهر العيون (فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) ولكن المفاجأة لم تختم بعد . والمشهد ما يزال يحمل مفاجأة أخرى . . مفاجأة كبرى (وألقى السحرة ساجدين . قالوا:آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون) إنها صولة الحق فى الضمائر . ونور الحق فى المشاعر ، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقى الحق والنور واليقين . . إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنهم ، ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه . وهم أعرف الناس بالذى جاء به موسى إن كان من السحر والبشر ، أم من القدرة التى وراء مقدور البشر والسحر . والعالم فى فنه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة فيه حين تتكشف له ، لأنه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة ، ممن لا يعرفون فى هذا الفن إلا القشور ، ومن هنا تحول السحرة من التحدى السافر إلى التسليم المطلق ، الذى يجدون برهانه فى أنفسهم عن يقين ، ولكن الطواغيت المتجبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر ؛ ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان ؛ ولا كيف تلمسها حرارة اليقين . فهم لطول ما استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب – وهى بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء – . . ومن ثم فوجىء فرعون بهذا الإيمان المفاجىء الذى لم يدرك دبيبه فى القلوب ولم يتابع خطاه فى النفوس ؛ ولم يفطن إلى مداخله فى شعاب الضمائر . . ثم هزته المفاجأة الخطيرة التى تزلزل العرش من تحته:مفاجأة استسلام السحرة – وهم من كهنة المعابد – لرب العالمين . رب موسى وهارون . بعد أن كانوا مجموعين لإبطال دعوة موسى وهارون إلى رب العالمين ! . . والعرش والسلطان هما كل شىء فى حياة الطواغيت . . وكل جريمة يمكن أن يرتكبوها بلا تحرج في سبيل المحافظة على الطاغوت (قال فرعون:آمنتم به قبل أن آذن لكم ! إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها . فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لأصلبنكم أجمعين) هكذا . . (آمنتم به قبل أن آذن لكم !). كأنما كان عليهم أن يستأذنوه فى أن تنتفض قلوبهم للحق – وهم أنفسهم لا سلطان لهم عليها – أو يستأذنوه فى أن ترتعش وجداناتهم – وهم أنفسهم لا يملكون من أمرها شيئاً – أو يستأذنوه فى أن تشرق أرواحهم – وهم أنفسهم لا يمسكون مداخلها . أو كأنما كان عليهم أن يدفعوا اليقين وهو ينبت من الأعماق . أو أن يطمسوا الإيمان وهو يترقرق من الأغوار . أو أن يحجبوا النور وهو ينبعث من شعاب اليقين ! ولكنه الطاغوت جاهل غبى مطموس ؛ وهو فى الوقت ذاته متعجرف متكبر مغرور ! ثم إنه الفزع على العرش المهدد والسلطان المهزوز (إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها) والمسألة واضحة المعالم . . إنها دعوة موسى إلى (رب العالمين). . هى التى تزعج وتخيف . . إنه لا بقاء ولا قرار لحكم الطواغيت مع الدعوة إلى رب العالمين . وهم إنما يقوم ملكهم على تنحية ربوبية الله للبشر بتنحية شريعته . وإقامة أنفسهم أرباباً من دون الله يشرعون للناس ما يشاءون ، ويعبدون الناس لما يشرعون ! . . إنهما منهجان لا يجتمعان . . وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعد الوحشى الفظيع (فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لأصلبنكم أجمعين) إنه التعذيب والتشوية والتنكيل . . وسيلة الطواغيت فى مواجهة الحق ، الذى لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان . . وعدة الباطل فى وجه الحق الصريح . . ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان ؛ تستعلى على قوة الأرض ، وتستهين ببأس الطغاة ؛ وتنتصر فيها العقيدة على الحياة ، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم ، إنه الإيمان الذى لا يفزع ولا يتزعزع . كما أنه لا يخضع أو يخنع . الإيمان الذى يطمئن إلى النهاية فيرضاها ، ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره (قالوا:إنا إلى ربنا منقلبون) والذى يدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت . . وأنها معركة العقيدة فى الصميم . . لا يداهن ولا يناور . . ولا يرجو الصفح والعفو من عدو لن يقبل منه إلا ترك العقيدة , لأنه إنما يحاربه ويطارده على العقيدة (وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) والذى يعرف أين يتجه فى المعركة ، وإلى من يتجه ؛ لا يطلب من خصمه السلامة والعافية , إنما يطلب من ربه الصبر على الفتنة

والوفاة على الإسلام (ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) ويقف الطغيان عاجزاً أمام الإيمان ، وأمام الوعى ، وأمام الاطمئنان . . يقف الطغيان عاجزاً أمام القلوب التى خيل إليه أنه يملك الولاية عليها كما يملك الولاية على الرقاب ! ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف فى الأجسام . فإذا هى مستعصية عليه , لأنها من أمر الله ، لا يملك أمرها إلا الله . . وماذا يملك الطغيان إذارغبت القلوب فى جوار الله ؟ وماذا يملك الجبروت إذا اعتصمت القلوب بالله ؟ وماذا يملك السلطان إذا رغبت القلوب عما يملك السلطان ! إنه موقف من المواقف الحاسمة فى تاريخ البشرية . هذا الذى كان بين فرعون وملئه ، والمؤمنين من السحرة . . السابقين . . ويذهب التهديد . . ويتلاشى الوعيد . . ويمضى الإيمان فى طريقه . لا يتلفت ، ولا يتردد , ولا يحيد ! ويسدل السياق القرآنى الستار على المشهد عند هذا الحد ولا يزيد ، إن روعة الموقف تبلغ ذروتها ؛ وتنتهى إلى غايتها . وعندئذ يتلاقى الجمال الفنى فى العرض ؛ مع الهدف النفسى للقصة ، على طريقة القرآن فى مخاطبة الوجدان الإيمانى بلغة الجمال الفنى ، فى تناسق لا يبلغه إلا القرآن .

ثم نعود إلى سياق القصة القرآنى . . حيث يرفع الستار عن مشهد رابع جديد . . إنه مشهد التآمر والتناجى بالإثم والتحريض . بعد الهزيمة والخذلان فى معركة الإيمان والطغيان . مشهد الملأ من قوم فرعون يكبر عليهم أن يذهب موسى ناجياً والذين آمنوا معه - وما آمن له إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم . كما جاء فى موضع آخر من القرآن - فإذا الملأ يتناجون بالشر والإثم ، وهم يهيجون فرعون على موسى ومن معه ؛ ويخوفونه عاقبة التهاون فى أمرهم ؛ من ضياع الهيبة والسلطان ؛ باستشراء العقيدة الجديدة ، فى ربوبية الله للعالمين . فإذا هو هائج مائج ، مهدد متوعد ، مستعز بالقوة الغاشمة التى بين يديه ، وبالسلطان المادى الذى يرتكن إليه ! (وقال الملأ من قوم فرعون:أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ؟ قال:سنقتل أبناءهم ، ونستحيى نساءهم ، وإنا فوقهم قاهرون) إن فرعون لم يكن يدعى الألوهية بمعنى أنه هو خالق هذا الكون ومدبره ؛ أو أن له سلطاناً فى عالم الأسباب الكونية . إنما كان يدعى الألوهية على شعبه المستذل ! بمعنى أنه هو حاكم هذا الشعب بشريعته وقانونه ؛ وأنه بإرادته وأمره تمضى الشئون وتقضى الأمور . وهذا ما يدعيه كل حاكم يحكم بشريعته وقانونه ، وتمضى الشؤون وتقضى الأمور بإرادته وأمره - وهذه هى الربوبية بمعناها اللغوى والواقعى - كذلك لم يكن الناس فى مصر يعبدون فرعون بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له - فقد كانت لهم آلهتهم وكان لفرعون آلهته التى يعبدها كذلك ، كما هو ظاهر من قول الملأ له (ويذرك وآلهتك) وكما يثبت المعروف من تاريخ مصر الفرعونية . إنما هم كانوا يعبدونه بمعنى أنهم خاضعون لما يريده بهم ، لا يعصون له أمراً ، ولا ينقضون له شرعاً . . وهذا هو المعنى اللغوى والواقعى والاصطلاحى للعبادة . . فأيما ناس تلقوا التشريع من بشر وأطاعوه فقد عبدوه ، وذلك هو تفسير رسول الله ﷺ لقوله تعالى عن اليهود والنصارى :اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله . . . الآية عندما سمعها منه عدى بن حاتم - وكان نصرانياً جاء ليسلم - فقال:يا رسول الله ماعبدوهم . فقال له رسول الله ﷺ:" بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ؛ فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم " . . . [أخرجه الترمذى] أما قول فرعون لقومه: (ما علمت لكم من إله غيرى) . فيفسره قوله الذى حكاه القرآن عنه (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين . ولا يكاد يبين ؟ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ؟) وظاهر أنه كان يوازن بين ما هو فيه من ملك ومن أسورة الذهب التى يحلى بها الملوك ، وبين ما فيه موسى من تجرد من السلطان والزينة ! . وما قصد بقوله (ما علمت لكم من إله غيرى) إلا أنه هو الحاكم المسيطر الذى يسيرهم كما يشاء ؛ والذى يتبعون كلمته بلا معارض ! والحاكمية على هذا النحو ألوهية كما يفيد المدلول اللغوى ! وهى فى الواقع الوهية . فالإله هو الذى يشرع للناس وينفذ حكمه فيهم ! سواء قالها أم لم يقلها ! وعلى ضوء هذا البيان نملك أن نفهم مدلول قول ملأ فرعون (أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ، ويذرك وآلهتك ؟) فالإفساد فى الأرض - من وجهة نظرهم - هو الدعوة إلى ربوبية الله وحده ؛ حيث يترتب عليها تلقائياً بطلان شرعية حكم فرعون ونظامه كله . إذ أن هذا النظام قائم على أساس حاكمية فرعون بأمره - أو بتعبير مرادف على أساس ربوبية فرعون لقومه - وإذن فهو - بزعمهم - الإفساد فى الأرض ، بقلب نظام الحكم ، وتغيير الأوضاع القائمة على ربوبية البشر للبشر ، وإنشاء وضع آخر مخالف تماماً لهذه الأوضاع ، الربوبية فيه لله لا للبشر . ومن ثم قرنوا الإفساد فى الأرض بترك موسى وقومه لفرعون ولآلهته التى يعبدها هو وقومه . . ولقد كان فرعون إنما يستمد هيبته وسلطانه من الديانة التى تعبد فيها هذه الآلهة . . بزعم أنه الابن الحبيب لهذه الآلهة ! وهى بنوة ليست حسية ! فلقد كان الناس يعرفون جيداً أن الفرعون مولود من أب وأم بشريين . إنما كانت بنوة رمزية يستمد منها سلطانه وحاكميته . فإذا عبد موسى وقومه رب العالمين . وتركوا هذه الآلهة التى يعبدها

المصريون ، فمعنى هذا هو تحطيم الأساس الذى يستمد منه فرعون سلطانه الروحى على شعبه المستخف ؛ الذى إنما يطيعه لأنه هو كذلك فاسق عن دين الله الصحيح . . وذلك كما يقول الله سبحانه (فاستخف قومه فأطاعوه . . إنهم كانوا قوماً فاسقين) فهذا هو التفسير الصحيح للتاريخ . . وما كان فرعون بقادر على أن يستخف قومه فيطيعوه ، لو لم يكونوا فاسقين عن دين الله . . فالمؤمن بالله لا يستخفه الطاغوت ، ولا يمكن أن يطيع له أمراً ، وهو يعلم أن هذا الأمر ليس من شرع الله . . ومن هنا كان يجىء التهديد لنظام حكم فرعون كله بدعوة موسى – عليه السلام – إلى (رب العالمين) وإيمان السحرة بهذا الدين ، وإيمان طائفة من قوم موسى كذلك وعبادتهم لرب العالمين . . ومن هنا يجىء التهديد لكل وضع يقوم على ربوبية البشر للبشر من الدعوة إلى ربوبية الله وحده . . أو من شهادة أن لا إله إلا الله . . حين تؤخذ بمدلولها الجدى الذى كان الناس يدخلون به فى الإسلام . لا بمدلولها الباهت الهزيل الذى صار لها فى هذه الأيام ! ومن هنا كذلك استثارت هذه الكلمات فرعون ، وأشعرته بالخطر الحقيقى على نظامه كله فانطلق يعلن عزمه الوحشى البشع (قال:سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون) ويدع السياق فرعون وملأه يتآمرون ، ويسدل الستار على مشهد التآمر والوعيد ، ليرفعه على مشهد خامس من مشاهد القصة ندرك منه أن فرعون قد مضى ينفذ الوعيد . . إنه مشهد النبى موسى – عليه السلام – مع قومه ، يحدثهم بقلب النبى ولغته ، ومعرفته بحقيقة ربه ؛ وبسنته وقدره ، فيوصيهم باحتمال الفتنة ، والصبر على البلية ، والاستعانة بالله عليها . ويعرفهم بحقيقة الواقع الكونى . فالأرض لله يورثها من يشاء من عباده . والعاقبة لمن يتقون الله ولا يخشون أحداً سواه . . فإذا شكوا إليه أن هذا العذاب الذى يحل بهم قد حل بهم من قبل أن يأتيهم ، وهو يحل بهم كذلك بعدما جاءهم ، حيث لا تبدو له نهاية ، ولا يلوح له آخر ! أعلن لهم رجاءه فى ربه أن يهلك عدوهم ، ويستخلفهم فى الأرض ليبتليهم فى أمانة الخلافة (قال موسى لقومه:استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين . قالوا:أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . قال:عسى ربكم أن يهلك عدوكم ، ويستخلفكم فى الأرض ، فينظر كيف تعملون) إنها رؤية "النبى" لحقيقة الألوهية وإشراقها فى قلبه . ولحقيقة الواقع الكونى والقوى التى تعمل فيه . ولحقيقة السنة الإلهية وما يرجوه منها الصابرون ، إنه ليس لأصحاب الدعوة إلى رب العالمين إلا ملاذ واحد ، وهو الملاذ الحصين الأمين ، وإلا ولى واحد وهو الولى القوى المتين . وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولى بالنصرة فى الوقت الذى يقدره بحكمته وعلمه . وألا يعجلوا ، فهم لا يطلعون الغيب ، ولا يعلمون الخير . . وإن الأرض لله . وما فرعون وقومه إلا نزلاء فيها . والله يورثها من يشاء من عباده – وفق سنته وحكمته – فلا ينظر الداعون إلى رب العالمين ، إلى شىء من ظواهر الأمور التى تخيل للناظرين أن الطاغوت مكين فى الأرض غير مزحزح عنها . . فصاحب الأرض ومالكها هو الذى يقرر متى يطردهم منها ! وإن العاقبة للمتقين . . طال الزمن أم قصر . . فلا يخالج قلوب الداعين إلى رب العالمين قلق على المصير . ولا يخايل لهم تقلب الذين كفروا فى البلاد ، فيحسبونهم باقين . . إنها رؤية "النبى" لحقائق الوجود الكبير . . ولكن إسرائيل هى إسرائيل ! (قالوا:أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) إنها كلمات ذات ظل ! وإنها لتشى بما وراءها من تبرم ! أوذينا قبل مجيئك وما تغير شىء بمجيئك . وطال هذا الأذى حتى ما تبدو له نهاية ! ويمضى النبى الكريم على نهجه . يذكرهم بالله ، ويعلق رجاءهم به ، ويلوح لهم بالأمل فى هلاك عدوهم . واستخلافهم فى الأرض . مع التحذير من فتنة الاستخلاف (قال:عسى ربكم أن يهلك عدوكم ، ويستخلفكم فى الأرض ، فينظر كيف تعملون). إنه ينظر بقلب النبى فيرى سنة الله ، تجرى وفق وعده ، للصابرين ، وللجاحدين ! ويرى من خلال سنة الله هلاك الطاغوت وأهله ، واستخلاف الصابرين المستعينين بالله وحده . فيدفع قومه دفعاً إلى الطريق لتجرى بهم سنة الله إلى ما يريد . . وهو يعلمهم – منذ البدء – أن استخلاف الله لهم إنما هو ابتلاء لهم . ليس أنهم أبناء الله وأحباؤه – كما زعموا – فلا يعذبهم بذنوبهم ! وليس جزافاً بلا غاية . وليس خلوداً بلا توقيت . إنه استخلاف للامتحان: (فينظر كيف تعملون) وهو سبحانه يعلم ماذا سيكون قبل أن يكون . ولكنها سنة الله وعدله ألا يحاسب البشر حتى يقع منهم فى العيان ، ما هو مكشوف من الغيب لعلمه القديم . و يرتفع الستار من الجانب الآخر على مشهد سادس:مشهد فرعون وآله ، يأخذهم الله بعاقبة الظلم والطغيان ؛ ويحقق وعد موسى لقومه ، ورجاءه فى ربه ؛ ويصدق النذير الذى يظلل جو السورة ، وتساق القصة كلها لتصديقه . لقد مضى فرعون وملؤه إذن فى جبروتهم ؛ ونفذ فرعون وعيده وتهديده ، فقتل الرجال واستحيا النساء . ولقد مضى موسى وقومه يحتملون العذاب ، ويرجون فرج الله ، ويصبرون على الابتلاء . . وعندئذ . . عندما نمحص الموقف:إيمان يقابله الكفر . وطغيان يقابله الصبر . وقوة أرضية تتحدى الله . . عندئذ أخذت القوة الكبرى تتدخل سافرة بين المتجبرين والصابرين (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) إنها إشارة التحذير الأولى . . الجدب ونقص الثمرات . . و(السنين) تطلق فى اللغة على سنى الجدب والشدة والقحط . وهى فى أرض مصر ، المخصبة المثمرة المعطاء ، تبدو ظاهرة تلفت النظر ، وتهز القلب ، وتثير القلق ، وتدعو إلى

اليقظة والتفكر ؛ لولا أن الطاغوت والذين يستخفهم الطاغوت – بفسقهم عن دين الله – فيطيعونه ، لا يريدون أن يتدبروا ولا أن يتفكروا ؛ ولا يريدون أن يروا يد الله في جدب الأرض ونقص الثمرات ؛ ولا يريدون أن يتذكروا سنن الله ووعده ووعيده ؛ ولا يريدون أن يعترفوا بأن هناك علاقة وثيقة بين القيم الإيمانية وواقعيات الحياة العملية . . لأن هذه العلاقة من عالم الغيب . . وهم أغلظ حساً وأجهل قلباً من أن يروا وراء الواقع المحسوس – الذى تراه البهائم وتحسه ولا ترى غيره ولا تحسه – شيئاً ! وإذا رأوا شيئاً من عالم الغيب لم يتفطنوا إلى سنة الله الجارية وفق المشيئة الطليقة ؛ وإنما نسبوه إلى المصادفات العابرة ، التى لا علاقة لها بنواميس الوجود الدائرة .

وكذلك لم ينتبه آل فرعون إلى اللمسة الموقظة الدالة على رحمة الله بعباده – حتى وهم يكفرون ويفجرون . كانت الوثنية وخرافاتها قد أفسدت فطرتهم ؛ وقطعت ما بينهم وبين إدراك النواميس الدقيقة الصحيحة التى تصرف هذا الكون ، كما تصرف حياة الناس ؛ والتى لا يراها ولا يدركها على حقيقتها إلا المؤمنون بالله إيماناً صحيحاً . . الذين يدركون أن هذا الوجود لم يخلق سدى ، ولا يمضى عبثاً ، إنما تحكمه قوانين صارمة صادقة . . وهذه هى "العقلية العلمية" الحقيقية . وهى عقلية لا تنكر "غيب الله" لأنه لا تعارض بين "العلمية" الحقيقية و"الغيبية" ؛ ولا تنكر العلاقة بين القيم الإيمانية وواقعيات الحياة ، لأن وراءها الله الفعال لما يريد ؛ الذى يريد من عباده الإيمان وهو يريد منهم الخلافة فى الأرض ، والذى يسن لهم من شريعته ما يتناسق مع القوانين الكونية ليقع التناسق بين حركة قلوبهم وحركتهم فى الأرض ، لم ينتبهوا لهذه الظاهرة التى شاءت رحمة الله بعباده أن تبرزها لأعينهم . ولكنهم كانوا إذا أصابتهم الحسنة والرخاء حسبوها حقاً طبيعياً لهم ! وإذا أصابتهم السيئة والجدب نسبوا هذا إلى شؤم موسى ومن معه عليهم (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا:لنا هذه ! وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) وهكذا مضى فرعون وآله يعللون الأحداث . الحسنة التى تصيبهم هى من حسن حظهم وهم يستحقونها . والسيئة التى تصيبهم هى بشؤم موسى ومن معه عليهم ، ومن تحت رأسهم ! وأصل "التطير" فى لغة العرب ما كان الجاهليون فى وثنيتهم وشركهم وبعدهم عن إدراك سنن الله وقدره يزاولونه . . فقد كان الرجل منهم إذا أراد أمراً ، جاء إلى عش طائر فهيجه عنه ، فإذا طار عن يمينه – وهو السانح – استبشر بذلك ومضى فى الأمر الذى يريده . وإذا طار الطائر عن شماله – وهو البارح – تشاءم به ورجع عما عزم عليه ! فأبطل الإسلام هذا التفكير الخرافى ؛ وأحل محله التفكير "العلمى" – العلمى الصحيح – وأرجع الأمور إلى سنن الله الثابتة فى الوجود ؛ وإلى قدر الله الذى يحقق هذه السنن فى كل مرة تتحقق فيها ؛وأقام الأمور على أسس "علمية" يحسب فيها نية الإنسان وعمله وحركته وجهده ؛ وتوضع فى موضعها الصحيح ، فى إطار المشيئة الإلهية الطليقة , وقدره النافذ المحيط (ألا إنما طائرهم عند الله ؛ ولكن أكثرهم لا يعلمون) إن ما يقع لهم مصدره كله واحد إنه من أمر الله ومن هذا المصدر تصيبهم الحسنة للابتلاء ، وتصيبهم السيئة للابتلاء (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) ويصيبهم النكال للجزاء ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ، كالذين ينكرون غيب الله وقدره فى هذه الأيام باسم "العقلية العلمية" ! وكالذين ينسبون إلى الطبيعة المعاكسة باسم "الاشتراكية العلمية" كذلك !!! وكلهم جهال . وكلهم لا يعلمون ! ويمضى آل فرعون فى عتوهم ، تأخذهم العزة بالإثم ؛ ويزيدهم الابتلاء شماساً وعناداً (وقالوا:مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) فهو الجموح الذى لا تروضه تذكرة ؛ ولا يردعه برهان ؛ ولا يريد أن ينظر ولا أن يتدبر , لأنه يعلن الإصرار على التكذيب قبل أن يواجه البرهان – قطعاً للطريق على البرهان – ! وهى حالة نفسية تصيب المتجبرين حين يدمغهم الحق ؛ وتجبههم البينة ، ويطاردهم الدليل . . بينما هواهم ومصلحتهم وملكهم وسلطانهم . . كله فى جانب آخر غير جانب الحق والبينة والدليل ! عندئذ تتدخل القوة الكبرى سافرة بوسائلها الجبارة (فأرسلنا عليهم الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع والدم . . آيات مفصلات) للإنذار والابتلاء . . آيات مفصلات . . واضحة الدلالة ، منسقة الخطوات ، تتبع الواحدة منها الأخرى ، وتصدق اللاحقة منها السابقة . ولقد جمع السياق هنا تلك الآيات المفصلة ، التى جاءتهم مفرقة . واحدة واحدة . وهم فى كل مرة يطلبون إلى موسى تحت ضغط البلية أن يدعو لهم ربه لينقذهم منها ؛ ويعدونه أن يرسلوا معه بنى إسرائيل إذا أنجاهم منها ، وإذا رفع عنهم هذا(الرجز) أى العذاب , الذى لا قبل لهم بدفعه (ولما وقع عليهم الرجز قالوا:يا موسى ادع لنا ربك – بما عهد عندك – لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل) وفى كل مرة ينقضون عهدهم ، ويعودون إلى ما كانوا فيه قبل رفع العذاب عنهم وفق قدر الله فى تأجيلهم إلى أجلهم المقدور لهم (فلما كشفنا عنهم الرجز – إلى أجل هم بالغوه – إذا هم ينكثون) جمع السياق الآيات كلها ، كأنما جاءتهم مرة واحدة . وكأنما وقع النكث منهم مرة واحدة . ذلك أن التجارب كلها كانت واحدة ، وكانت نهايتها واحدة كذلك . وهى طريقة من طرق العرض القرآنى للقصص يجمع فيها البدايات لتماثلها ؛ ويجمع فيه النهايات لتماثلها كذلك . .

ذلك أن القلب المغلق المطموس يتلقى التجارب المنوعة وكأنها واحدة ; لايفيد منها شيئاً ، ولا يجد فيها عبرة . . فأما كيف وقعت هذه الآيات ، فليس لنا وراء النص القرآني شيء . ولم نجد في الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله ﷺ عنها شيئاً . ثم تجيء الخاتمة – وفق سنة الله في أخذ المكذبين بعد الابتلاء بالضراء والسراء – وتقع الواقعة . ويدمر الله على فرعون وملئه – بعد إذ أمهلهم وأجلهم إلى أجل هم بالغوه – ويحقق وعده للمستضعفين الصابرين ، بعد إهلاك الطغاة المتجبرين (فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم ، بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين . وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها " . . . " وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه , وما كانوا يعرشون) والسياق يختصر هنا في حادث الإغراق ، ولا يفصل أحداثه كما يفصلها في مواضع أخرى من السور . ذلك أن الجو هنا هو جو الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطويل ؛ فلا يعرض لشيء من التفصيل . . إن الحسم السريع هنا أوقع في النفس وأرهب للحس ! (فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم) ضربة واحدة ، فإذا هم هالكون . ومن التعالي والتطاول والاستكبار ، إلى الهويّ في الأعماق والأغوار ، جزاء وفاقاً (بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) فيربط بين التكذيب بالآيات والغفلة عنها ، وبين هذا المصير المقدور . ويقرر أن الأحداث لا تجري مصادفة ، ولا تمضي فلتات عابرة ، كما يظن الغافلون ! وتنسيقاً للجو الحاسم يعجل السياق كذلك بعرض الصفحة الأخرى – صفحة استخلاف المستضعفين – ذلك أن استخلاف بني إسرائيل – في الفترة التي كانوا أقرب ما يكونون فيها إلى الصلاح وقبل أن يزيغوا فيكتب عليهم الذل والتشرد – لم يكن في مصر ، ولم يكن في مكان فرعون وآله . إنما كان في أرض الشام ، وبعد عشرات السنوات من حادث إغراق فرعون – بعد وفاة موسى عليه السلام وبعد التيه أربعين سنة كما جاء في السورة الأخرى – ولكن السياق يطوي الزمان والأحداث ، ويعجل بعرض الاستخلاف هنا تنسيقاً لصفحتي المشهد المتقابلتين (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها " . . " . . وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه , وما كانوا يعرشون) على أننا نحن البشر – الفانين المقيدين بالزمان – إنما نقول "قبل" و"بعد" لأننا نؤرخ للأحداث بوقت مرورها بنا وإدراكنا لها ! لذلك نقول:إن استخلاف القوم الذين كانوا يستضعفون ، كان متأخراً عن حادث الإغراق . . ذلك إدراكنا البشري . . فأما الوجود المطلق والعلم المطلق فما "قبل" عنده وما "بعد" ؟!والصفحة كلها معروضة له سواء ، مكشوفة لا يحجبها زمان ولا مكان . . ولله المثل الأعلى . وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ، وهكذا يسدل الستار على مشهد الهلاك والدمار في جانب ؛ وعلى مشهد الاستخلاف والعمار في الجانب الآخر ، وإذا فرعون الطاغية المتجبر وقومه مغرقون ، وإذا كل ما كانوا يصنعون للحياة ، وما كانوا يقيمون من عمائر فخمة قائمة على عمد وأركان ، وما كانوا يعرشون من كروم وثمار . . إذا هذا كله حطام ، في ومضة عين ، أو في بضع كلمات قصار ! مثل يضربه الله للقلة المؤمنة في مكة ، المطاردة من الشرك وأهله ؛ ورؤيا في الأفق لكل عصبة مسلمة تلقى من مثل فرعون وطاغوته ، ما لقيه الذين كانوا يستضعفون في الأرض , فأورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها المباركة – بما صبروا – لينظر كيف يعملون !

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ{١٣٨} إِنَّ هَـؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{١٣٩} قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ{١٤٠} وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ{١٤١} وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ{١٤٢} وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ{١٤٣} قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ{١٤٤} وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ{١٤٥} سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ{١٤٦} وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{١٤٧} وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ{١٤٨} وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ{١٤٩} وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ

رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{١٥٠} قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ{١٥١} إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ{١٥٢} وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{١٥٣} وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ{١٥٤} وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ{١٥٥} وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ{١٥٦} الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{١٥٧} قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{١٥٨} وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ{١٥٩} وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{١٦٠} وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ{١٦١} فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ{١٦٢} وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ{١٦٣} وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ{١٦٤} فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ{١٦٥} فَلَمَّا عَتَوْاْ عَنْ مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ{١٦٦} وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{١٦٧} وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{١٦٨} فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{١٦٩} وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ{١٧٠} وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) {١٧١}

في هذا الدرس تمضى قصة موسى – عليه السلام – فى حلقة أخرى . . مع قومه بنى إسرائيل ; بعد إذ أنجاهم الله من عدوهم ؛ وأغرق فرعون وملأه ؛ ودمر ما كانوا يصنعون وما كانوا يعرشون . . إن موسى – عليه السلام – لا يواجه اليوم طاغوت فرعون وملئه ؛ فقد انتهت المعركة مع الطاغوت . . ولكنه يواجه معركة أخرى – لعلها أشد وأقسى وأطول أمداً – إنه يواجه المعركة مع "النفس البشرية ! " يواجهها مع رواسب الجاهلية فى هذه النفس ; ويواجهها مع رواسب الذل الذى أفسد طبيعة بنى إسرائيل ؛ وملأها بالالتواء من ناحية ; وبالقسوة من ناحية ؛ وبالجبن من ناحية ؛ وبالضعف عن حمل التبعات من ناحية . وتركها مهلهلة بين هذه النزعات جميعاً . . فليس أفسد للنفس البشرية من الذل والخضوع للطغيان طويلاً ؛ ومن الحياة فى ظل الإرهاب والخوف والتخفى والالتواء لتفادى الأخطار والعذاب ، والحركة فى الظلام ، مع الذعر الدائم والتوقع الدائم للبلاء ! ولقد عاش بنو إسرائيل فى هذا العذاب طويلاً ؛ عاشوا فى ظل الإرهاب ؛ وفى ظل الوثنية الفرعونية كذلك . عاشوا يقتل فرعون أبناءهم ويستحيى نساءهم . فإذا فتر هذا النوع البشع من الإرهاب الوحشى ، عاشوا حياة الذل والسخرة والمطاردة على كل حال . وفسدت نفوسهم ؛ وفسدت طبيعتهم ؛ والتوت فطرتهم ؛ وانحرفت تصوراتهم ؛ وامتلأت نفوسهم بالجبن والذل من جانب ، وبالحقد والقسوة من الجانب الآخر . . وهما جانبان متلازمان فى النفس البشرية حيثما تعرضت طويلاً للإرهاب والطغيان . . وسنرى من خلال متاعب موسى – عليه السلام – متاعب كل صاحب دعوة ، يواجه نفوساً طال عليها الأمد ، وهى تستمرئ حياة الذل تحت قهر الطاغوت – وبخاصة إذا كانت هذه النفوس قد عرفت العقيدة التى يدعوها إليها ، ثم طال عليها الأمد ، فبهتت صورتها ، وعادت شكلا لا روح فيه ! إن

جهد صاحب الدعوة – فى مثل هذه الحال – لهو جهد مضاعف . ومن ثم يجب أن يكون صبره مضاعفاً كذلك . . يجب أن يصبر على الالتواءات والانحرافات ، وثقلة الطبائع وتفاهة الاهتمامات ؛ ويجب أن يصبر على الانتكاس الذى يفاجئه فى هذه النفوس بعد كل مرحلة , والاندفاع إلى الجاهلية عند أول بادرة ! ولعل هذا جانب من حكمة الله فى عرض قصة بنى إسرائيل على الأمة المسلمة ، فى هذه الصورة المفصلة المكررة . لترى فيها هذه التجربة . كما قلنا من قبل . ولعل فيها زاداً لأصحاب الدعوة إلى الله فى كل جيل (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم . قالوا:يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال:إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال:أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ؟ وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب:يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) إنه المشهد السابع فى القصة – مشهد بنى إسرائيل بعد تجاوز البحر – ونحن فيه وجهاً لوجه أمام طبيعة القوم المنحرفة المستعصية على التقويم ؛ بما ترسب فيها من ذلك التاريخ القديم . . إن العهد لم يطل بهم منذ أن كانوا يسامون الخسف فى ظل الوثنية الجاهلية عند فرعون وملئه ؛ ومنذ أن أنقذهم نبيهم وزعيمهم موسى – عليه السلام – باسم الله الواحد – رب العالمين – الذى أهلك عدوهم ؛ وشق لهم البحر ؛ وأنجاهم من العذاب الوحشى الفظيع الذى كانوا يسامون . . إنهم خارجون للتو واللحظة من مصر ووثنيتها ؛ ولكن ها هم أولاء ما إن يجاوزوا البحر حتى تقع أبصارهم على قوم وثنيين , عاكفين على أصنام لهم ، مستغرقين فى طقوسهم الوثنية ؛ وإذا هم يطلبون إلى موسى – رسول رب العالمين – الذى أخرجهم من مصر باسم الإسلام والتوحيد ، أن يتخذ لهم وثناً يعبدونه من جديد ! (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم . قالوا:يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة)! إنها العدوى تصيب الأرواح كما تصيب الأجسام ! ولكنها لا تصيبها حتى يكون لديها الاستعداد والتهيؤ والقابلية . وطبيعة بنى إسرائيل – كما عرضها القرآن الكريم عرضاً صادقاً دقيقاً أميناً فى شتى المناسبات – طبيعة مخلخلة العزيمة ، ضعيفة الروح ، ما تكاد تهتدى حتى تضل ، وما تكاد ترتفع حتى تنحط ، وما تكاد تمضى فى الطريق المستقيم حتى ترتكس وتنتكس . . ذلك إلى غلظ فى الكبد ، وتصلب عن الحق ، وقساوة فى الحس والشعور ! وها هم أولاء على طبيعتهم تلك ، ها هم أولاء ما يكادون يمرون بقوم يعكفون على أصنام لهم حتى ينسوا تعليم أكثر من عشرين عاماً منذ أن جاءهم موسى – عليه السلام – بالتوحيد – فقد ذكرت بعض الروايات أنه أمضى فى مصر ثلاثة وعشرين عاماً منذ أن واجه فرعون وملأه برسالته إلى يوم الخروج من مصر مجتازاً ببنى إسرائيل البحر – بل حتى ينسوا معجزة اللحظة التى أنقذتهم من فرعون وملئه وأهلكت هؤلاء أجمعين ! وهؤلاء كانوا وثنيين ، وباسم هذه الوثنية استذلوهم – حتى إن الملأ من قوم فرعون ليهيجونه على موسى ومن معه بقولهم (أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك) ينسون هذا كله ليطلبوا إلى نبيهم رسول رب العالمين أن يتخذ لهم بنفسه . . آلهة ! ولو أنهم هم اتخذوا لهم آلهة لكان الأمر أقل غرابة من أن يطلبوا إلى رسول رب العالمين أن يتخذ لهم آلهة . . ولكنما هى إسرائيل ! . . ويغضب موسى – عليه السلام – غضبة رسول رب العالمين ، لرب العالمين – يغضب لربه – سبحانه – ويغار على ألوهيته أن يشرك بها قومه ! فيقول قولته التى تليق بهذا الطلب العجيب (قال:إنكم قوم تجهلون) ولم يقل تجهلون ماذا ؟ ليكون فى إطلاق اللفظ ما يعنى الجهل الكامل الشامل . . الجهل من الجهالة ضد المعرفة ، والجهل من الحماقة ضد العقل ! فما ينبعث مثل هذا القول إلا من الجهالة والحمق إلى أبعد الحدود ! ثم ليشير إلى أن الانحراف عن التوحيد إلى الشرك إنما ينشأ من الجهل والحماقة ؛ وأن العلم والتعقل يقود كلاهما إلى الله الواحد ؛ وأنه ما من علم ولا عقل يقود إلى غير هذا الطريق . . ويمضى موسى – عليه السلام – يكشف لقومه عن سوء المغبة فيما يطلبون ، بالكشف عن سوء عقبى القوم الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم ، فأرادوا أن يقلدوهم (إن هؤلاء متبر ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون) ثم ترتفع نغمة الغيرة فى كلمات موسى – عليه السلام – على ربه والغضب له – سبحانه – والتعجب من نسيان قومه لنعمة الله عليهم – وهى حاضرة ظاهرة (قال: أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ؟) والتفضيل على العالمين – فى زمانهم يتجلى فى اختيارهم لرسالة التوحيد من بين المشركين . وليس وراء ذلك فضل ولا منة . فهذا ما لا يعدله فضل ولا منة . كما أنه اختارهم ليورثهم الأرض المقدسة – التى كانت إذ ذاك فى أيد مشركة – فكيف بعد هذا كله يطلبون إلى نبيهم أن يطلب لهم إلهاً غير الله ؛ وهم فى نعمته وفضله يتقلبون ؟! ويستطرد السياق بخطاب من الله تعالى موصول بكلام موسى – عليه السلام – موجه كذلك لقومه (وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم . وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) وفى مثل هذا الوصل فى القرآن الكريم ، بين كلام الله – سبحانه – وما يحكيه من كلام أوليائه ، تكريم أى تكريم لهؤلاء الأولياء لا ريب فيه ! وهذه المنة التى يمتنها الله على بنى إسرائيل – فى هذا الموضع – كانت حاضرة فى أذهانهم وأعصابهم . ولقد كانت هذه المنة وحدها كفيلة بأن تذكر وتشكر . .

والله سبحانه وتعالى يوجه قلوبهم لما فى ذلك الابتلاء من عبرة . . ابتلاء العذاب وابتلاء النجاة . الابتلاء بالشدة والابتلاء بالرخاء (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) فما كان شيء من ذلك كله جزافا بلا تقدير . ولكنه الابتلاء للموعظة وللتذكير . وللتمحيص والتدريب . وللإعذار قبل الأخذ الشديد . إن لم يفلح الابتلاء فى استصلاح القلوب ! وينتهى هذا المشهد بين موسى وقومه ، ليبدأ المشهد الثامن الذى يليه . . مشهد تهيؤ موسى – عليه السلام – للقاء ربه العظيم ؛ واستعداده للموقف الهائل بين يديه فى هذه الحياة الدنيا ؛ ووصيته لأخيه هارون – عليه السلام – قبل ذهابه لهذا اللقاء العظيم (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ، وأتممناها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة . . وقال موسى لأخيه هارون:اخلفنى فى قومى ، وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) لقد انتهت المرحلة الأولى من مهمة موسى التى أرسل لها . انتهت مرحلة تخليص بنى إسرائيل من حياة الذل والهوان والنكال والتعذيب بين فرعون وملئه ؛ وإنقاذهم من أرض الذل والقهر إلى الصحراء الطليقة ، فى طريقهم إلى الأرض المقدسة ، ولكن القوم لم يكونوا بعد على استعداد لهذه المهمة الكبرى . . مهمة الخلافة فى الأرض بدين الله ، ولقد رأينا كيف اشرأبت نفوسهم إلى الوثنية والشرك بمجرد أن رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم ؛ وتخلخلت عقيدة التوحيد التى جاءهم بها موسى – عليه السلام – ولم يمض إلا القليل ! فلم يكن بد من رسالة مفصلة لتربية هؤلاء القوم ؛ وإعدادهم لما هم مقبلون عليه من الأمر العظيم . . ومن أجل هذه الرسالة المفصلة كانت مواعدة الله لعبده موسى ليلقاه ويتلقى عنه . وكانت هذه المواعدة إعداداً لموسى لنفسه ، كى يتهيأ فى هذه الليالى للموقف الهائل العظيم ، ويستعد لتلقيه . وكانت فترة الإعداد ثلاثين ليلة ، أضيفت إليها عشر ، فبلغت عدتها أربعين ليلة ، يروض موسى فيها نفسه على اللقاء الموعود ؛ وينعزل فيها عن شواغل الأرض ليستغرق فى هواتف السماء ؛ ويعتكف فيها عن الخلق ليستغرق فيها فى الخالق الجليل ؛ وتصفو روحه وتشف وتستضىء ؛ وتتقوى عزيمته على مواجهة الموقف المرتقب وحمل الرسالة الموعودة . . وألقى موسى إلى أخيه هارون – قبل مغادرته لقومه واعتزاله واعتكافه – بوصيته تلك: (وقال موسى لأخيه هارون:اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) ذلك وموسى يعلم أن هارون نبى مرسل من ربه معه . ولكن المسلم للمسلم ناصح . والنصيحة حق وواجب للمسلم على المسلم . . ثم إن موسى يقدر ثقل التبعة ، وهو يعرف طبيعة قومه بنى إسرائيل ! وقد تلقى هارون النصيحة . لم تثقل على نفسه ! فالنصيحة إنما تثقل على نفوس الأشرار لأنها تقيدهم بما يريدون أن ينطلقوا منه ؛ وتثقل على نفوس المتكبرين الصغار ، الذين يحسون فى النصيحة تنقصاً لأقدارهم ! إن الصغير هو الذى يبعد عنه يدك التى تمتد لتسانده ؛ ليظهر أنه كبير !!! ثم يأتى السياق للمشهد التاسع . المشهد الفذ الذى اختص الله به نبيه موسى – عليه السلام – مشهد الخطاب المباشر بين الجليل – سبحانه – وعبد من عباده . المشهد الذى تتصل فيه الذرة المحدودة الفانية بالوجود الأزلى الأبدى بلا وساطة ؛ ويطيق الكائن البشرى أن يتلقى عن الخالق الأبدى ، وهو بعد على هذه الأرض . . ولا ندرى نحن كيف . . لا ندرى كيف كان كلام الله – سبحانه – لعبده موسى . ولا ندرى بأية حاسة أو جارحة أو أداة تلقى موسى كلمات الله . فتصوير هذا على وجه الحقيقة متعذر علينا نحن البشر المحكومين فى تصوراتنا بنصيبنا المحدود من الطاقة المدركة ؛ وبرصيدنا المحدود من التجارب الواقعة . ولكننا نملك بالسر اللطيف المستمد من روح الله الذى فى كياننا أن نستروح وأن نستشرف هذا الأفق السامق الوضىء . ثم نقف عند هذا الاستشراف لا نحاول أن نفسده بسؤالنا عن الكيفية ، نريد أن نتصورها بإدراكنا القريب المحدود ! (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال:رب أرنى أنظر إليك . قال:لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً , وخر موسى صعقاً . فلما أفاق قال:سبحانك ! تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال:يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى . فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ، فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها . سأريكم دار الفاسقين . سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟) إننا لفى حاجة إلى استحضار ذلك الموقف الفريد فى خيالنا وفى أعصابنا وفى كياننا كله . . فى حاجة إلى استحضاره لنستشرف ونحاول الاقتراب من تصوره ؛ ولنشعر بشيء من مشاعر موسى عليه السلام فيه (ولما جاء موسى لميقاتنا ، وكلمه ربه ، قال:رب أرنى أنظر إليك) إنها الوهلة المذهلة وموسى يتلقى كلمات ربه ؛ وروحه تتشوف وتستشرف وتشتاق إلى ما يشوق ! فينسى من هو ، وينسى ما هو ، ويطلب ما لا يكون لبشر فى هذه الأرض ، وما لا يطيقه بشر فى هذه الأرض . . يطلب الرؤية الكبرى وهو مدفوع فى زحمة الشوق ودفعة الرجاء ولهفة الحب ورغبة الشهود . . حتى تنبهه الكلمة الحاسمة الجازمة (قال:لن ترانى) ثم يترفق به الرب العظيم الجليل ، فيعلمه لماذا لن يراه . . إنه لا يطيق (ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه

فسوف ترانى) والجبل أمكن وأثبت . والجبل مع تمكنه وثباته أقل تأثراً واستجابة من الكيان البشرى . . ومع ذلك فماذا ؟ (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً) فكيف كان هذا التجلى ؟ نحن لا نملك أن نصفه ، ولا نملك أن ندركه . ولا نملك أن نستشرفه إلا بتلك اللطيفة التى تصلنا بالله ، حين تشف أرواحنا وتصفو ، وتتجه بكليتها إلى مصدرها . فأما الألفاظ المجردة فلا تملك أن تنقل شيئاً . . لذلك لا نحاول بالألفاظ أن نصور هذا التجلى . . ونحن أميل إلى اطراح كل الروايات التى وردت فى تفسيره ؛ وليس منها رواية عن المعصوم [ص] والقرآن الكريم لم يقل عن ذلك شيئاً (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً) وقد ساخت نتوءاته فبدا مسوّى بالأرض مدكوكاً . . وأدركت موسى رهبة الموقف ، وسرت فى كيانه البشرى الضعيف (وخر موسى صعقاً) مغشياً عليه ، غائباً عن وعيه (فلما أفاق) وثاب إلى نفسه ، وأدرك مدى طاقته ، واستشعر أنه تجاوز المدى فى سؤاله (قال:سبحانك !) تنزهت وتعاليت عن أن ترى بالأبصار وتدرك (تبت إليك) عن تجاوزى للمدى فى سؤالك ! (وأنا أول المؤمنين) والرسل دائماً هم أول المؤمنين بعظمة ربهم و جلاله ، وبما ينزله عليهم من كلماته . . وربهم يأمرهم أن يعلنوا هذا ، والقرآن الكريم يحكى عنهم هذا الإعلان فى مواضع منه شتى . وأدركت موسى رحمة الله مرة أخرى ؛ فإذا هو يتلقى منه البشرى . . بشرى الاصطفاء ، مع التوجيه له بالرسالة إلى قومه بعد الخلاص . . وكانت رسالته إلى فرعون وملئه من أجل هذا الخلاص (قال:يا موسى ، إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) ونفهم من قول الله سبحانه لموسى – عليه السلام – (انى اصطفيتك على الناس برسالاتى) أن المقصود بالناس الذين اصطفاه عليهم هم أهل زمانه – فالرسل كانوا قبل موسى وبعده – فهو الاصطفاء على جيل من الناس بحكم هذه القرينة . أما الكلام فهو الذى تفرد به موسى – عليه السلام – أما أمر الله تعالى لموسى بأخذ ما آتاه ، والشكر على الاصطفاء والعطاء ، فهو أمر التعليم والتوجيه لما ينبغى أن تقابل به نعمة الله . والرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – قدوة للناس ؛ وللناس فيهم أسوة ؛ وعلى الناس أن يأخذوا ما آتاهم الله بالقبول والشكر استزادة من النعمة ؛ وإصلاحاً للقلب ؛ وتحرزا من البطر ؛ واتصالاً بالله . . ثم يبين السياق ماذا كان مضمون الرسالة ، وكيف أوتيها موسى (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلاً لكل شىء) وتختلف الروايات والمفسرون فى شأن هذه الألواح ؛ ويصفها بعضهم أوصافاً مفصلة – نحسب أنها منقولة عن الإسرائيليات التى تسربت إلى التفسير – ولا نجد فى هذا كله شيئاً عن رسول الله ﷺ فنكتفى بالوقوف عند النص القرآنى الصادق لا نتعداه . وما تزيد تلك الأوصاف شيئاً أو تنقص من حقيقة هذه الألواح . أما ما هى وكيف كتبت فلا يعنينا هذا فى شىء بما أنه لم يرد عنها من النصوص الصحيحة شىء . والمهم هو ما فى هذه الألواح . إن فيها من كل شىء يختص بموضوع الرسالة وغايتها من بيان الله وشريعته والتوجيهات المطلوبة لإصلاح حال هذه الأمة وطبيعتها التى أفسدها الذل وطول الأمد سواء ! (فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) والأمر الإلهى الجليل لموسى – عليه السلام – أن يأخذ الألواح بقوة وعزم وأن يأمر قومة أن يأخذوا بما فيها من التكاليف الشاقة بوصفه الأحسن لهم والأصلح لحالهم . . هذا الأمر على هذا النحو فضلاً على أنه يشى بضرورة هذا الأسلوب فى أخذ هذه الطبيعة الإسرائيلية , التى أفسدها الذل وطول الأمد , بالعزم والجد ، لتحمل تكاليف الرسالة والخلافة , فإنه – كذلك – يوحى بالمنهج الواجب فى أخذ كل أمة لكل عقيدة تأتيها . . وأمر له هذه الخطورة عند الله ، وفى حساب الكون ، وفى طبيعة الحياة وفى تاريخ" الإنسان" . . يجب أن يؤخذ بقوة ، وأن تكون له جديته فى النفس ، وصراحته وحسمه . ولا ينبغى أن يؤخذ فى رخاوة ، ولا فى تميع ، و لا فى ترخص ، ذلك أنه أمر هائل فى ذاته , فضلاً على أن تكاليفه باهظة لا يصبر عليها من طبيعته الرخاوة والتميع والترخص , أو من يأخذ الأمر بمثل هذه المشاعر . . وليس معنى هذا – بطبيعة الحال – هو التشدد والتعنت والتعقيد والتقبض ! فهذا ليس من طبيعة دين الله . . ولكن معناه الجد والهمة والحسم والصراحة . . وهى صفات أخرى ومشاعر أخرى غير مشاعر التشدد والتعنت والتعقيد والتقبض ! وفى مقابل أخذ هذا الأمر بقوة يعد الله موسى وقومه أن يمكن لهم فى الأرض ، ويورثهم دار الفاسقين عن دينه (سأريكم دار الفاسقين) والأقرب أنها إشارة إلى الأرض المقدسة التى كانت – فى ذلك الزمان – فى قبضة الوثنيين , وأنها بشارة لهم بدخولها . . وإن كان بنو إسرائيل لم يدخلوها فى عهد موسى – عليه السلام – لأن تربيتهم لم تكن قد استكملت ، وطبيعتهم تلك لم تكن قد قوّمت , فوقفوا أمام الأرض المقدسة يقولون لنبيهم (يا موسى إن فيها قوماً جبارين . وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون !) وفى نهاية المشهد والتكليم يجىء بيان لعاقبة الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، ويعرضون عن آيات الله وتوجيهاته ، يتضمن تصويراً دقيقاً لطبيعة هذا الصنف من الناس , فى نصاعة وجمال التصوير القرآنى الفريد لأنماط الطبائع ونماذج النفوس (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها , وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلاً . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة

حبطت أعمالهم . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟) إن الله تعالى يعلن عن مشيئته فى شأن أولئك الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلاً . . إنه سيصرفهم عن آياته فلا ينتفعون بها ولا يستجيبون لها . . آياته فى كتاب الكون المنظور ، وآياته فى كتبه المنزلة على رسله . . ذلك بسبب أنهم كذبوا بآياته سبحانه وكانوا عنها غافلين (الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) وما يتكبر عبد من عبيد الله فى أرضه بالحق أبداً . فالكبرياء صفة الله وحده . لا يقبل فيها شريكاً . وحيثما تكبر إنسان فى الأرض كان ذلك تكبراً بغير الحق ! ومن هذا التكبر تنشأ سائر ألوان التكبر . فهو أساس الشر كله ومنه ينبعث . ومن ثم تجىء بقية الملامح (وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلاً) فهى جبلة تجنح عن سبيل الرشد حيثما رأته ، وتجنح الى سبيل الغى حيثما لاح لها ، كأنما بآلية فى تركيبها لا تتخلف ! وهذه هى السمة التى يرسمها التعبير ، ويطبع بها هذا النموذج المتكبر , الذى قضت مشيئة الله أن يجازيه على التكذيب بآيات الله والغفلة عنها بصرفه عن هذه الآيات أبداً ! وما يظلم الله هذا الصنف من الخلق بهذا الجزاء المردى المؤدى الى الهلاك فى الدنيا والآخرة . . إنما هو الجزاء الحق لمن يكذب بآيات الله ويغفل عنها ، ويتكبر فى الأرض بغير الحق ، ويتجنب سبيل الرشد حيثما رآه ، ويهرع الى سبيل الغى حيثما لاح له !فإنما بعمله جوزى ؛ وبسلوكه أورد موارد الهلاك (ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) وإنه لجزاء كذلك حق أن تحبط وتهلك أعمال الذين كذبوا بآيات الله ولقاء الآخرة (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) وحبوط الأعمال مأخوذ من قولهم:حبطت الناقة . إذا رعت نباتاً ساماً ، فانتفخ بطنها ثم نفقت . . وهو وصف ملحوظ فيه طبيعة الباطل الذى يصدر من المكذبين بآيات الله ولقاء الآخرة . فهو ينتفخ حتى يظنه الناس من عظمة وقوة ! ثم ينفق كما تنفق الناقة التى رعت ذلك النبات السام ! ... وبينما كان موسى – عليه السلام – فى حضرة ربه ، فى ذلك الموقف الفريد ، الذى تستشرفه البصائر وتقصر عنه الأبصار ؛ وتدركه الأرواح وتحار فيه الأفكار . . كان قوم موسى من بعده يرتكسون وينتكسون ، ويتخذون لهم عجلاً جسداً له خوار – لا حياة فيه – يعبدونه من دون الله ! ويفاجئنا السياق القرآنى بنقلة بعيدة من المشهد التاسع الى المشهد العاشر . نقلة هائلة من الجو العلوى السامق المشرق بسبحاته وأشواقه وابتهالاته وكلماته الى الجو الهابط المتردى بانحرافاته وخرافاته وارتكاساته وانتكاساته (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار . ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ؟ اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا:لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين) إنها طبيعة إسرائيل التى ما تكاد تستقيم خطوة حتى تلتوى عن الطريق ؛ والتى ما تكاد ترتفع عن مدى الرؤية الحسية فى التصور والاعتقاد ؛ والتى يسهل انتكاسها كلما فتر عنها التوجيه والتسديد ، ولقد راودوا نبيهم من قبل أن يجعل لهم إلهاً يعكفون عليه بمجرد رؤيتهم لقوم وثنيين يعكفون على أصنام لهم ! فصدهم نبيهم عن ذلك الخاطر وردهم رداً شديداً . فلما خلوا الى أنفسهم ، ورأوا عجلاً جسداً من الذهب – لا حياة فيه كما تفيد كلمة جسد – صنعه لهم السامرى – رجل من السامرة كما يجىء تفصيل قصته فى سورة طه – واستطاع أن يجعله بهيئة بحيث يخرج صوتاً كصوت خوار الثيران . . لما رأوا ذلك العجل الجسد طاروا إليه , وتهافتوا عليه حين قال لهم السامرى:" هذا إلهكم وإله موسى " الذى خرج موسى لميقاته معه ؛ فنسى موسى موعده معه – ربما لزيادة الليالى العشر الأخيرة فى الميقات التى لم يكن القوم يعلمونها ، فلما زاد عن الثلاثين ولم يرجع قال لهم السامرى:لقد نسى موسى موعده مع إلهه فهذا إلهه – ولم يتذكروا وصية نبيهم لهم من قبل بعبادة ربهم الذى لا تراه الأبصار – رب العالمين – ولم يتدبروا حقيقة هذا العجل الذى صنعه لهم واحد منهم ! . . وإنها لصورة زرية للبشرية تلك التى كان يمثلها القوم . صورة يعجب منها القرآن الكريم ؛ وهو يعرضها على المشركين فى مكة وهم يعبدون الأصنام ! (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ؟ اتخذوه وكانوا ظالمين !) وهل أظلم ممن يعبد خلقاً من صنع أيدى البشر . والله خلقهم وما يصنعون ؟! وكان فيهم هارون – عليه السلام – فلم يملك لهم رداً عن هذا الضلال السخيف . وكان فيهم بعض عقلائهم فلم يملكوا زمام الجماهير الضالة المتدافعة على العجل الجسد – وبخاصة أنه من الذهب معبود إسرائيل الأصيل ! وأخيراً هدأت الهيجة ، وانكشفت الحقيقة ، وتبين السخف ، ووضح الضلال ، وجاءت نوبة الندم والإقرار (ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا:لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين) يقال سقط فى يده إذا عدم الحيلة فى دفع ما هو بصدده من أمر . . ولما رأى بنو إسرائيل أنهم صاروا – بهذه النكسة – الى موقف لا يملكون دفعه فقد وقع منهم وانتهى ! قالوا قولتهم هذه (لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين) وهذه القولة تدل على أنه كان فيهم – إلى ذلك الحين – بقية من استعداد صالح . فلم تكن قلوبهم قد قست كما قست من بعد – فهى كالحجارة أو أشد قسوة كما يصفهم من هو أعلم بهم – ! فلما أن تبين لهم ضلالهم ندموا وعرفوا أنه لا ينقذهم من عاقبة ما أتوا إلا أن

تدركهم رحمة ربهم ومغفرته . . وهذه علامة طيبة على بقية من استعداد فى الفطرة للصلاح . كل ذلك وموسى – عليه السلام – بين يدى ربه ، فى مناجاة وكلام ، لا يدرى ما أحدث القوم بعده . إلا أن ينبئه ربه . . وهنا يرفع الستار عن المشهد الحادى عشر (ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً . قال:بئسما خلفتمونى من بعدى ! أعجلتم أمر ربكم ؟ وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه . قال:ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى . فلا تشمت بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال:رب اغفر لى ولأخى ، وأدخلنا فى رحمتك ، وأنت أرحم الراحمين) و لما عاد موسى الى قومه و رآهم على تلك الحال شعر بالغضب الشديد ، و ظهرت شدة الغضب فى ملامحه و تصرفاته و كلامه . يبدو انفعال الغضب فى قوله وفعله يبدو فى قوله لقومه (بئسما خلفتمونى من بعدى ! أعجلتم أمر ربكم ؟) ويبدو فى فعله إذ يأخذ برأس أخيه يجره إليه ويعنفه (وأخذ برأس أخيه يجره إليه !). . وحق لموسى عليه السلام أن يغضب فالمفاجأة قاسية . والنقلة بعيدة (بئسما خلفتمونى من بعدى) تركتكم على الهدى فخلفتمونى بالضلال ، وتركتكم على عبادة الله فخلفتمونى بعبادة عجل جسد له خوار ! (أعجلتم أمر ربكم ؟). . أى استعجلتم قضاءه وعقابه ! أو ربما كان يعني:استعجلتم موعده وميقاته ! (وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه) وهى حركة تدل على شدة الانفعال . فهذه الألواح هى التى كانت تحمل كلمات ربه . وهو لا يلقيها إلا وقد أفقده الغضب زمام نفسه . وكذلك أخذه برأس أخيه يجره إليه . وأخوه هو هارون العبد الصالح الطيب ! فأما هارون فيستجيش فى نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة ، ليسكن من غضبه ، ويكشف له عن طبيعة موقفه ، وأنه لم يقصر فى نصح القوم ومحاولة هدايتهم (قال:ابن أم ، إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى !). . ابن أم . . بهذا النداء الرقيق وبهذه الوشيجة الرحيمة (إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى). . بهذا البيان المصور حقيقة موقفه (فلا تشمت بى الأعداء). . وهذه أخرى يستجيش بها هارون وجدان الأخوة الناصرة المعينة , حين يكون هناك الأعداء الذين يشمتون ! (ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) القوم الذين ضلوا وكفروا بربهم الحق ، فأنا لم أضل ولم أكفر معهم ، وأنا برىء منهم ! عندئذ تهدأ ثائرة موسى أمام هذه الوداعة وأمام هذا البيان . وعندئذ يتوجه الى ربه , يطلب المغفرة له ولأخيه ، ويطلب الرحمة من أرحم الراحمين: (قال:رب اغفر لى ولأخى ، وأدخلنا فى رحمتك ، وأنت أرحم الراحمين) وهنا يجىء الحكم الفاصل ممن يملكه سبحانه ! ويتصل كلام الله سبحانه بما يحكيه القرآن الكريم من كلام عبده موسى ، على النسق الذى يتكرر فى السياق القرآنى (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا . وكذلك نجزى المفترين . والذين عملوا السيئات ، ثم تابوا من بعدها وآمنوا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم) إنه حكم ووعد . . إن القوم الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا . . ذلك مع قيام القاعدة الدائمة:إن الذين يعملون السيئات ثم يتوبون يغفر الله لهم برحمته . . وإذن فقد علم الله أن الذين اتخذوا العجل لن يتوبوا توبة موصولة ; وأنهم سيرتكبون ما يخرجهم من تلك القاعدة . . وهكذا كان . فقد ظل بنو إسرائيل يرتكبون الخطيئة بعد الخطيئة ؛ ويسامحهم الله المرة بعد المرة . حتى انتهوا الى الغضب الدائم واللعنة الأخيرة (وكذلك نجزى المفترين) كل المفترين الى يوم الدين . . فهو جزاء متكرر كلما تكررت جريمة الافتراء على الله , من بنى إسرائيل ، ومن غير بنى إسرائيل . . وكانت هذه وقفة للتعقيب على مصير الذين اتخذوا العجل وافتروا على الله ، تتوسط المشهد ثم يمضى السياق يكمل المشهد (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح ، وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) والتعبير القرآنى يشخص الغضب ، فكأنما هو حى ، وكأنما هو مسلط على موسى ، يدفعه ويحركه ، حتى إذا(سكت) عنه ، وتركه لشأنه ! عاد موسى إلى نفسه ، فأخذ الألواح التى كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه . . ثم يقرر السياق مرة أخرى أن فى هذه الألواح هدى ، وأن فيها رحمة ، لمن يخشون ربهم ويرهبونه ؛ فتتفتح قلوبهم للهدى , وينالون به الرحمة . . والهدى ذاته رحمة . فليس أشقى من القلب الضال ، الذى لا يجد النور . وليس أشقى من الروح الشارد الحائر الذى لا يجد الهدى ولا يجد اليقين ، ورهبة الله وخشيته هى التى تفتح القلوب للهدى ؛ وتوقظها من الغفلة ، وتهيئها للاستجابة والاستقامة ، إن الله خالق هذه القلوب هو الذى يقرر هذه الحقيقة . ومن أعلم بالقلوب من رب القلوب ؟ ويمضى السياق بالقصة ، فإذا نحن أمام مشهد جديد . المشهد الثانى عشر . مشهد موسى وسبعين من قومه مختارين للقاء ربه: (واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا . فلما أخذتهم الرجفة قال:رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى . أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء . أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ، إنا هدنا إليك . قال:عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل , يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر , ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى

أنزل معه أولئك هم المفلحون) وتختلف الروايات فى سبب هذا الميقات . وربما كان لإعلان التوبة ، وطلب المغفرة لبنى إسرائيل مما وقعوا فيه من الكفر والخطيئة – وفى سورة البقرة أن التكفير الذى فرض على بنى إسرائيل هو:أن يقتلوا أنفسهم ، فيقتل المطيع منهم من عصى ؛ وقد فعلوا حتى أذن لهم الله بالكف عن ذلك ؛ وقيل كفارتهم – وهؤلاء السبعون كانوا من شيوخهم ومن خيرتهم . أو كانوا هم خلاصتهم التى تمثلهم ، فصيغة العبارة (واختار موسى قومه سبعين رجلا . . لميقاتنا) تجعلهم بدلاً من القوم جميعاً فى الاختيار . . ومع هذا فما الذى كان من هؤلاء المختارين ؟ لقد أخذتهم الرجفة فصعقوا . ذلك أنهم – كما ورد فى السورة الأخرى طلبوا إلى موسى أن يروا الله جهرة ، ليصدقوه فيما جاءهم به من الفرائض فى الألواح . . وهى شاهدة بطبيعة بنى إسرائيل ، التى تشمل خيارهم وشرارهم ، ولا يتفاوتون فيها إلا بمقدار . وأعجب شىء أن يقولوها وهم فى مقام التوبة والاستغفار ! فأما موسى – عليه السلام – فقد توجه الى ربه ، يتوسل اليه ، ويطلب المغفرة والرحمة , ويعلن الخضوع والاعتراف بالقدرة (فلما أخذتهم الرجفة قال:رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى) فهو التسليم المطلق للقدرة المطلقة من قبل ومن بعد ، يقدمه موسى بين يدى دعائه لربه أن يكشف عن القوم غضبه ؛ وأن يرد عنهم فتنته ، وألا يهلكهم بفعلة السفهاء منهم (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟) وقد جاء الرجاء بصيغة الاستفهام . زيادة فى طلب استبعاد الهلاك . . أى:رب إنه لمستبعد على رحمتك أن تهلكنا بما فعل السفهاء منا (إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) يعلن موسى – عليه السلام – إدراكه لطبيعة ما يقع ؛ ومعرفته أنها الفتنة والابتلاء ; فما هو بغافل عن مشيئة ربه وفعله كالغافلين ! . وهذا هو الشأن فى كل فتنة:أن يهدى الله بها من يدركون طبيعتها ويأخذونها على أنها ابتلاء من ربهم وامتحان يجتازونه صاحين عارفين . وأن يضل بها من لا يدركون هذه الحقيقة ومن يمرون بها غافلين ، ويخرجون منها ضالين . . وموسى – عليه السلام – يقرر هذا الأصل تمهيداً لطلب العون من الله على اجتياز الابتلاء (أنت ولينا) فامنحنا عونك ومددك لاجتياز فتنتك ، ونيل مغفرتك ورحمتك (فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين) (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ، إنا هدنا إليك) رجعنا إليك ، والتجأنا إلى حماك ، وطلبنا نصرتك . فكان دعاؤه نموذجاً لأدب العبد الصالح فى حق الرب الكريم ؛ ونموذجاً لأدب الدعاء فى البدء والختام . ثم يجيئه الجواب (قال:عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء) تقريراً لطلاقة المشيئة ، التى تضع الناموس اختياراً ، وتجريه اختياراً وإن كانت لا تجريه إلا بالعدل والحق على سبيل الاختيار أيضاً ، لأن العدل صفة من صفاته تعالى لا تتخلف فى كل ما تجرى به مشيئته ، لأنه هكذا أراد . . فالعذاب يصيب به من يستحق عنده العذاب . . وبذلك تجرى مشيئته . . أما رحمته فقد وسعت كل شىء ؛ وهى تنال من يستحقها عنده كذلك . . وبذلك تجرى مشيئته ، ولا تجرى مشيئته – سبحانه – بالعذاب أو بالرحمة جزافاً أو مصادفة . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وبعد تقرير القاعدة يطلع الله نبيه موسى على طرف من الغيب المقبل ، إذ يطلعه على نبأ الملة الأخيرة التى سيكتب الله لها رحمته التى وسعت كل شىء . . بهذا التعبير الذى يجعل رحمة الله أوسع من ذلك الكون الهائل الذى خلقه ، والذى لا يدرك البشر مداه . . فيالها من رحمة لا يدرك مداها إلا الله ! (فسأكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ؛ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) وإنه لنبأ عظيم ، يشهد بأن بنى إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبى الأمى ، على يدى نبيهم موسى ونبيهم عيسى – عليهما السلام – منذ أمد بعيد . جاءهم الخبر اليقين ببعثه ، وبصفاته ، وبمنهج رسالته ، وبخصائص ملته . فهو (النبى الأمى) وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وهو يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث , وهو يضع عمن يؤمنون به من بنى إسرائيل الأثقال والأغلال التى علم الله أنها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم ، فيرفعها عنهم النبى الأمى حين يؤمنون به . وأتباع هذا النبى يتقون ربهم ، ويخرجون زكاة أموالهم ، ويؤمنون بآيات الله . . وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبى الأمى ؛ ويعظمونه ويوقرونه ، وينصرونه ويؤيدونه ، ويتبعون النور الهادى الذى معه (أولئك هم المفلحون) وبذلك البلاغ المبكر لبنى إسرائيل – على يد نبيهم موسى عليه السلام – كشف الله سبحانه عن مستقبل دينه ، وعن حامل رايته ، وعن طريق أتباعه ، وعن مستقر رحمته . . فلم يبق عذر لأتباع سائر الديانات السابقة ، بعد ذلك البلاغ المبكر بالخبر اليقين . وهذا الخبر اليقين من رب العالمين لموسى عليه السلام – وهو والسبعون المختارون من قومه فى ميقات ربه – يكشف كذلك عن مدى جريمة بنى إسرائيل فى استقبالهم لهذا النبى الأمى وللدين الذى جاء به . وفيه التخفيف عنهم والتيسير ، إلى جانب ما فيه من البشارة بالفلاح للمؤمنين ! إنها الجريمة عن علم وعن بينة ! والجريمة التى لم يألوا فيها جهداً . . فقد سجل التاريخ أن بنى إسرائيل كانوا هم الألم خلق وقف لهذا النبى وللدين الذى جاء به . . اليهود أولاً والصليبيون أخيراً . . وأن الحرب

التى شنوها على هذا النبى ودينه وأهل دينه كانت حرباً خبيثة ماكرة لئيمة قاسية ؛ وأنهم أصروا عليها ودأبوا ؛ وما يزالون يصرون ويدأبون ! والذى يراجع – فقط – ما حكاه القرآن الكريم من حرب أهل الكتاب للإسلام والمسلمين – وقد سبق منه فى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ما سبق – يطلع على المدى الواسع المتطاول الذى أداروا فيه المعركة مع هذا الدين فى عناد لئيم ! والذى يراجع التاريخ بعد ذلك – منذ اليوم الذى استعلن فيه الإسلام بالمدينة ، وقامت له دولة – إلى اللحظة الحاضرة ، يدرك كذلك مدى الإصرار العنيد على الوقوف لهذا الدين وإرادة محوه من الوجود ! ولقد استخدمت الصهيونية والصليبية فى العصر الحديث من ألوان الحرب والكيد والمكر أضعاف ما استخدمته طوال القرون الماضية . . وهى فى هذه الفترة بالذات تعالج إزالة هذا الدين بجملته ؛ وتحسب أنها تدخل معه فى المعركة الأخيرة الفاصلة . . لذلك تستخدم جميع الأساليب التى جربتها فى القرون الماضية كلها – بالإضافة إلى ما استحدثته منها – جملة واحدة ! ذلك فى الوقت الذى يقوم ممن ينتسبون إلى الإسلام ناس يدعون فى غرارة ساذجة إلى التعاون بين أهل الإسلام وأهل بقية الأديان للوقوف فى وجه تيار المادية والإلحاد ! أهل بقية الأديان الذين يذبحون من ينتسبون إلى الإسلام فى كل مكان ؛ ويشنون عليهم حرباً تتسم بكل بشاعة الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش فى الأندلس – سواء عن طريق أجهزتهم المباشرة فى المستعمرات فى آسيا وإفريقية أو عن طريق الأوضاع التى يقيمونها ويسندونها فى البلاد [المستقلة !] لتحل محل الإسلام عقائد ومذاهب علمانية ! تنكر " الغيبية " لأنها "علمية ! " و "تطوّر" الأخلاق لتصبح هى أخلاق البهائم التى ينزو بعضها على بعض فى "حرية ! " ، و "تطوّر" كذلك الفقه الإسلامى ، وتقيم له مؤتمرات المستشرقين لتطويره . كيما يحل الربا والاختلاط الجنسى وسائر المحرمات الإسلامية !! إنها المعركة الوحشية الضارية يخوضها أهل الكتاب مع هذا الدين ، الذى بشروا به وبنبيه منذ ذلك الأمد البعيد . ولكنهم تلقوه هذا التلقى اللئيم الخبيث العنيد ! ... وقبل أن يمضى السياق ، يقف عند هذا البلاغ المبكر ، يوجه الخطاب إلى النبى الأمى ﷺ يأمره بإعلان الدعوة إلى الناس جميعاً ، تصديقاً لوعد الله القديم (قل:يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ، الذى له ملك السماوات والأرض ، لا إله إلا هو يحيى ويميت . فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته , واتبعوه لعلكم تهتدون) إنها الرسالة الأخيرة ، فهى الرسالة الشاملة ، التى لا تختص بقوم ولا أرض ولاجيل . . ولقد كانت الرسالات قبلها رسالات محلية قومية محدودة بفترة من الزمان – ما بين عهدى رسولين – وكانت البشرية تخطو على هدى هذه الرسالات خطوات محدودة ، تأهيلاً لها للرسالة الأخيرة . وكانت كل رسالة تتضمن تعديلاً وتحويراً فى الشريعة يناسب تدرج البشرية . حتى إذا جاءت الرسالة الأخيرة جاءت كاملة فى أصولها ، قابلة للتطبيق المتجدد فى فروعها ، وجاءت للبشر جميعاً ، لأنه ليست هنالك رسالات بعدها للأقوام والأجيال فى كل مكان . وجاءت وفق الفطرة الإنسانية التى يلتقى عندها الناس جميعاً . ومن ثم حملها النبى الأمى الذى لم يدخل على فطرته الصافية – كما خرجت من يد الله – إلا تعليم الله . فلم تشب هذه الفطرة شائبة من تعليم الأرض ومن أفكار الناس ! ليحمل رسالة الفطرة إلى فطرة الناس جميعاً (قل:يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً) وهذه الآية التى يؤمر فيها رسول الله ﷺ أن يواجه برسالته الناس جميعاً ، هى آية مكية فى سورة مكية . . وهى تجبه المزورين من أهل الكتاب ، الذين يزعمون أن محمداً [ص] لم يكن يدور فى خلده وهو فى مكة أن يمد بصره برسالته إلى غير أهلها ، وأنه إنما بدأ يفكر فى أن يتجاوز بها قريشاً ، ثم يجاوز بها العرب إلى دعوة أهل الكتاب , ثم يجاوز بها الجزيرة العربية إلى ما وراءها . . كل أولئك بعد أن أغراه النجاح الذى ساقته إليه الظروف ! وإن هى إلا فرية من ذيول الحرب التى شنوها قديماً على هذا الدين وأهله . وما يزالون ماضين فيها ! وليست البلية فى أن يرصد أهل الكتاب كيدهم كله لهذا الدين وأهله . وأن يكون " المستشرقون " الذين يكتبون مثل هذا الكذب هم طليعة الهجوم على هذا الدين وأهله . . إنما البلية الكبرى أن كثيراً من السذج الأغرار ممن يسمون أنفسهم بالمسلمين يتخذون من هؤلاء المزوّرين على نبيهم ودينهم ، المحاربين لهم ولعقيدتهم , أساتذة لهم ، يتلقون عنهم فى هذا الدين نفسه ، ويستشهدون بما يكتبونه عن تاريخ هذا الدين وحقائقه ، ثم يزعم هؤلاء السذج الأغرار لأنفسهم أنهم "مثقفون ! " (الذى له ملك السماوات والأرض ، لا إله إلا هو . يحيى ويميت) إنه ﷺ رسول للناس جميعاً من ربهم الذى يملك هذا الوجود كله – وهم من هذا الوجود – والذى يتفرد بالألوهية وحده ، فالكل له عبيد . والذى تتجلى قدرته وألوهيته فى أنه الذى يحيى ويميت . . والذى يملك الوجود كله ، والذى له الألوهية على الخلائق وحده ، والذى يملك الحياة والموت للناس جميعاً . هو الذى يستحق أن يدين الناس بدينه ، الذى يبلغه إليهم رسوله . . فهو تعريف للناس بحقيقة ربهم ، لتقوم على هذا التعريف عبوديتهم له , وطاعتهم لرسوله (فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون) ثم تمضى القصة فى سياقها بعد الرجفة التى أخذت رجالات بنى إسرائيل . . ولا يذكر السياق هنا ماذا كان من أمرهم بعد دعوات موسى – عليه السلام – وابتهالاته . ولكنا نعرف من سياق القصة فى سور

أخرى أن الله أحياهم بعد الرجفة ، فعادوا إلى قومهم مؤمنين . وقبل أن يمضى السياق هنا فى حلقة جديدة ، يقرر حقيقة عن قوم موسى . . أنهم لم يكونوا جميعاً ضالين (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) هكذا كانوا على عهد موسى ؛ وهكذا كانت منهم طائفة تهدى بالحق وتحكم بالعدل من بعد موسى . . ومن هؤلاء من استقبلوا رسالة النبى الأمى فى آخر الزمان بالقبول والاستسلام , لما يعرفونه عنها فى التوراة التى كانت بين أيديهم على مبعث رسول الله] ص [وفى أولهم الصحابى الجليل عبدالله بن سلام رضى الله عنه . الذى كان يواجه يهود زمانه بما عندهم فى التوراة عن النبى الأمى ، وما عندهم كذلك من شرائع تصدقها شرائع الإسلام . وبعد تقرير تلك الحقيقة تمضى القصة فى أحداثها بعد الرجفة (وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ؛ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه:أن اضرب بعصاك الحجر ، فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً . قد علم كل أناس مشربهم . وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم . وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) إنها رعاية الله ما زالت تظلل موسى وقومه – بعد أن كفروا فعبدوا العجل ، ثم كفروا عن الخطيئة كما أمرهم الله ، فتاب عليهم . وبعد أن طلبوا رؤية الله جهرة ، فأخذتهم الرجفة ، ثم استجاب الله لدعاء موسى فأحياهم . . تتجلى هذه الرعاية فى تنظيمهم حسب فروعهم فى اثنتى عشرة أمة – أى جماعة كبيرة – ترجع كل جماعة منها إلى حفيد من حفداء جدهم يعقوب – وهو إسرائيل – وقد كانوا محتفظين بأنسابهم على الطريقة القبلية (وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً) وتبدو فى تخصيص عين تشرب منها كل جماعة وتعيينها لهم ، فلا يعتدى بعضهم على بعض (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه:أن اضرب بعصاك الحجر ، فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً . قد علم كل أناس مشربهم . .) وتبدو فى تظليل الغمام لهم من شمس هذه الصحراء المحرقة ؛ وإنزال المن – وهو نوع من العسل البرى – والسلوى ، وهو طائر السمانى ؛ وتيسيره لهم ضماناً لطعامهم بعد ضمان شرابهم (وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى) وتبدو فى إباحة كل هذه الطيبات لهم ، حيث لم يكن قد حرم عليهم بعد شىء بسبب عصيانهم (كلوا من طيبات ما رزقناكم)

والرعاية واضحة فى هذا كله ؛ ولكن هذه الجبلة ما تزال بعد عصية على الهدى والإستقامة كما يبدو من ختام هذه الآية التى تذكر كل هذه النعم وكل هذه الخوارق:من تفجير العيون لهم من الصخر بضربة من عصا موسى . ومن تظليل الغمام لهم فى الصحراء الجافة . ومن تيسير الطعام الفاخر من المن والسلوى (وما ظلمونا ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) والآن فلننظر كيف تلقى بنو إسرائيل رعاية الله لهم ؛ وكيف سارت خطواتهم الملتوية على طول الطريق (وإذ قيل لهم:اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا:حطة ، وأدخلوا الباب سجداً , نغفر لكم خطيئاتكم ، سنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذى قيل لهم ، فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون) لقد عفا الله عنهم بعد اتخاذهم العجل ؛ وعفا عنهم بعد الرجفة على الجبل . ولقد أنعم عليهم بكل تلك النعم . . ثم ها هم أولاء تلتوى بهم طبيعتهم عن استقامة الطريق ! ها هم أولاء يعصون الأمر ، ويبدلون القول ! ها هم أولاء يؤمرون بدخول قرية بعينها – أى مدينة كبيرة – لا يعين القرآن اسمها – لأنه لايزيد فى مغزى القصة شيئاً – وتباح لهم خيراتها جميعاً ، على أن يقولوا دعاء بعينه وهم يدخلونها ؛ وعلى أن يدخلوا بابها سجداً ، إعلان للخضوع لله فى ساعة النصر والاستعلاء – وذلك كما دخل رسول الله ﷺ مكة فى عام الفتح ساجداً على ظهر دابته – وفى مقابل طاعة الأمر يعدهم الله أن يغفر لهم خطيئاتهم وأن يزيد للمحسنين فى حسناتهم . . فإذا فريق منهم يبدلون صيغة الدعاء التى أمروا بها ، ويبدلون الهيئة التى كلفوا أن يدخلوا عليها . . لماذا ؟ تلبية للانحراف الذى يلوى نفوسهم عن الاستقامة (فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذى قيل لهم) عندئذ يرسل الله عليهم من السماء عذاباً . . السماء التى تنزل عليهم منها المن والسلوى وظللهم فيها الغمام ! (فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون) وهكذا كان ظلم فريق منهم – أى كفرهم – ظلماً لأنفسهم بما أصابهم من عذاب الله . ولا يفصل القرآن نوع العذاب الذى أصابهم فى هذه المرة . لأن غرض القصة يتم بدون تعيينه . فالغرض هو بيان عاقبة المعصية عن أمر الله ، وتحقيق النذر ، ووقوع الجزاء العادل الذى لا يفلت منه العصاة .

ومرة أخرى يقع القوم فى المعصية والخطيئة . . وهم فى هذه المرة لا يخالفون الأمر جهرة ولكنهم يحتالون على النصوص ليفلتوا منها ! ويأتيهم الابتلاء فلا يصبرون عليه ، لأن الصبر على الابتلاء يحتاج إلى طبيعة متماسكة فى تملك الارتفاع عن الأهواء والأطماع :(واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ، إذ يعدون فى السبت ، إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم . كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . وإذ قالت أمة منهم:لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ؟ قالوا:معذرة إلى ربكم ، ولعلهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما

كانوا يفسقون . فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم:كونوا قردة خاسئين . وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلي يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، إن ربك لسريع العقاب) يعدل السياق هنا عن أسلوب الحكاية عن ماضي بنى إسرائيل ، إلى أسلوب المواجهة لذراريهم التى كانت تواجه رسول الله ﷺ فى المدينة . . والآيات من هنا إلى قوله تعالى :(وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) آيات مدنية . نزلت فى المدينة لمواجهة اليهود فيها ؛ وضمت إلى هذه السورة المكية فى هذا الموضع ، تكملة للحديث عما ورد فيها من قصة بنى إسرائيل مع نبيهم موسى . . يأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يسأل اليهود عن هذه الواقعة المعلومة لهم فى تاريخ أسلافهم . وهو يواجههم بهذا التاريخ بوصفهم أمة متصلة الأجيال ؛ ويذكرهم بعصيانهم القديم ، وما جره على فريق منهم من المسخ فى الدنيا ؛ وما جره عليهم جميعاً من كتابة الذل عليهم والغضب أبداً . . اللهم إلا الذين يتبعون الرسول النبى , فيرفع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم . ولا يذكر اسم القرية التى كانت حاضرة البحر ؛ فهى معروفة للمخاطبين ! فأما الواقعة ذاتها فقد كان أبطالها جماعة من بنى إسرائيل يسكنون مدينة ساحلية . . وكان بنو إسرائيل قد طلبوا أن يجعل لهم يوم راحة يتخذونه عيداً للعبادة ؛ ولا يشتغلون فيه بشؤون المعاش ، فجعل لهم السبت . . ثم كان الابتلاء ليربيهم الله ويعلمهم كيف تقوى إرادتهم على المغريات والأطماع ؛ وكيف ينهضون بعهودهم حين تصطدم بهذه المغريات والأطماع . . وكان ذلك ضرورياً لبنى إسرائيل الذين تخلخلت شخصياتهم وطباعهم بسبب الذل الذى عاشوا فيه طويلاً ؛ ولا بد من تحرير الإرادة بعد الذل والعبودية ، لتعتاد الصمود والثبات . فضلاً على أن هذا ضرورى لكل من يحملون دعوة الله ؛ ويؤهلون لأمانة الخلافة فى الأرض . . وقد كان اختبار الإرادة والاستعلاء على الإغراء هو أول اختبار وجه من قبل إلى آدم وحواء . . فلم يصمدا له واستمعا لإغراء الشيطان بشجرة الخلد وملك لا يبلى ! ثم ظل هو الاختبار الذى لا بد أن تجتازه كل جماعة قبل أن يأذن الله لها بأمانة الاستخلاف فى الأرض . . إنما يختلف شكل الابتلاء ، ولا تتغير فحواه ! ولم يصمد فريق من بنى إسرائيل – فى هذه المرة – للابتلاء الذى كتبه الله عليهم بسبب ما تكرر قبل ذلك من فسوقهم وانحرافهم . . لقد جعلت الحيتان فى يوم السبت تتراءى لهم على الساحل ، قريبة المأخذ ، سهلة الصيد . فتفوتهم وتفلت من أيديهم بسبب حرمة السبت التى قطعوها على أنفسهم ! فإذا مضى السبت ، وجاءتهم أيام الحل . لم يجدوا الحيتان قريبة ظاهرة ، كما كانوا يجدونها يوم الحرم ! . . وهذا ما أمر رسول الله ﷺ أن يذكرهم به ؛ ويذكرهم ماذا فعلوا وماذا لاقوا (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر . إذ يعدون فى السبت . إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم . كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) فأما كيف وقع لهم هذا ، وكيف جعلت الأسماك تحاورهم هذه المحاورة ، وتداورهم هذه المداورة . . فهى الخارقة التى تقع بإذن الله عندما يشاء الله . . والذين لا يعلمون ينكرون أن تجرى مشيئة الله بغير ما يسمونه هم "قوانين الطبيعة" ! والأمر فى التصور الإسلامى – وفى الواقع – ليس على هذا النحو . . إن الله سبحانه هو الذى خلق هذا الكون , وأودعه القوانين التى يسير عليها بمشيئته الطليقة . ولكن هذه المشيئة لم تعد حبيسة هذه القوانين لا تملك أن تجرى إلا بها . . لقد ظلت طليقة بعد هذه القوانين كما كانت طليقة . . وهذا ما يغفل عنه الذين لا يعلمون . . وإذا كانت حكمة الله ورحمته بعباده المخاليق قد اقتضت ثبات هذه القوانين ؛ فإنه لم يكن معنى هذا تقيد هذه المشيئة وانحباسها داخل هذه القوانين . . فحيثما اقتضت الحكمة جريان أمر من الأمور مخالفاً لهذه القوانين الثابتة جرت المشيئة طليقة بهذا الأمر . . ثم إن جريان هذه القوانين الثابتة فى كل مرة تجريفيها إنما يقع بقدر من الله خاص بهذه المرة . فهى لا تجرى جرياناً آلياً لا تدخل لقدر الله فيه . . وهذا مع ثباتها فى طريقها ما لم يشأ الله أن تجرى بغير ذلك . . وعلى أساس أن كل ما يقع – سواء من جريان القوانين الثابتة أو جريان غيرها – إنما يقع بقدر من الله خاص ، فإنه تستوى الخارقة والقانون الثابت فى جريانه بهذا القدر . . ولا آلية فى نظام الكون فى مرة واحدة – كما يظن الذين لا يعلمون ! – ولقد بدأوا يدركون هذا فى ربع القرن الأخير ! على أية حال ، لقد وقع ذلك لأهل القرية التى كانت حاضرة البحر من بنى إسرائيل . . فإذا جماعة منهم تهيج مطامعهم أمام هذا الإغراء ، فتتهاوى عزائمهم ، وينسون عهدهم مع ربهم وميثاقهم ، فيحتالون الحيل – على طريقة اليهود – للصيد فى يوم السبت ! وما أكثر الحيل عندما يلتوى القلب ، وتقل التقوى ، ويصبح التعامل مع مجرد النصوص ، ويراد التفلت من ظاهر النصوص ! . . إن القانون لا تحرسه نصوصه ، ولا يحميه حراسه . إنما تحرسه القلوب التقية التى تستقر تقوى الله فيها وخشيته ، فتحرس هى القانون وتحميه . وما من قانون تمكن حمايته أن يحتال الناس عليه ! ما من قانون تحرسه القوة المادية والحراسة الظاهرية ! ولن تستطيع الدولة – كائناً ما كان الإرهاب فيها – أن تضع على رأس كل فرد حارساً يلاحقه لتنفيذ القانون وصيانته ؛ ما لم تكن خشية الله فى قلوب الناس ، ومراقبتهم له فى السر والعلن . . من أجل ذلك تفشل الأنظمة والأوضاع التى لا تقوم على حراسة القلوب التقية . وتفشل النظريات والمذاهب التى يضعها البشر للبشر ولا سلطان فيها من الله . . ومن أجل ذلك تعجز الأجهزة البشرية التى تقيمها الدول لحراسة القوانين

وتنفيذها . وتعجز الملاحقة والمراقبة التى تتابع الأمور من سطوحها ! وهكذا راح فريق من سكان القرية التى كانت حاضرة البحر يحتالون على السبت ، الذى حرم عليهم الصيد فيه . . وروى أنهم كانوا يقيمون الحواجيز على السمك ويحوّطون عليه فى يوم السبت ؛ حتى إذا جاء الأحد سارعوا إليه فجمعوه ؛ وقالوا:إنهم لم يصطادوه فى السبت , فقد كان فى الماء – وراء الحواجيز – غير مصيد ! بينما مضى فريق ثالث يقول للآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر:ما فائدة ما تزاولونه مع هؤلاء العصاة ، وهم لا يرجعون عما هم آخذون فيه ؟ وقد كتب الله عليهم الهلاك والعذاب ؟ (وإذ قالت أمة منهم:لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ؟). فلم تعد هناك جدوى من الوعظ لهم ، ولم تعد هناك جدوى لتحذيرهم . بعدما كتب الله عليهم الهلاك أو العذاب الشديد ؛ بما اقترفوه من انتهاك لحرمات الله (قالوا:معذرة إلى ربكم ، ولعلهم يتقون) فهو واجب لله نؤديه:واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتخويف من انتهاك الحرمات , لنبلغإلى الله عذرنا ، ويعلم أن قد أدينا واجبنا . ثم لعل النصح يؤثر فى تلك القلوب العاصية فيثير فيها وجدان التقوى . وقد انقسم سكان القرية الواحدة إلى ثلاث أمم:أمة عاصية محتالة . وأمة تقف في وجه المعصية والاحتيال وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة . وأمة تدع المنكر وأهله ,وتقف موقف الإنكار السلبى ولا تدفعه بعمل إيجابى . . وهي طرائق متعددة من التصور والحركة ، تجعل الفرق الثلاث أمماً ثلاثاً ! فلما لم يجد النصح ، ولم تنفع العظة ، وسدر السادرون فى غيهم ، حقت كلمة الله ، وتحققت نذره . فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء فى نجوة من السوء . وإذا الأمة العاصية يحل بها العذاب الشديد الذى سيأتى بيانه . فأما الفرقة الثالثة – أوالأمة الثالثة – فقد سكت النص عنها . . ربما تهوينا لشأنها – وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب – إذ أنها قعدت عن الإنكار الإيجابى ، ووقفت عند حدود الإنكار السلبى . فاستحقت الإهمال وإن لم تستحق العذاب (فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم:كونوا قردة خاسئين) لقد كان العذاب البئيس – أى الشديد – الذى حل بالعصاة المحتالين ، جزاء إمعانهم فى المعصية – أما كيف صاروا قردة ؟ وكيف حدث لهم بعد أن صاروا قردة ؟ هل انقرضوا كما ينقرض كل ممسوخ يخرج عن جنسه ؟ أم تناسلوا وهم قردة ؟ . . . إلى آخر هذه المسائل التى تتعدد فيها روايات التفسير . . . فهذا كله مسكوت عنه فى القرآن الكريم ؛ وليس وراءه عن رسول الله ﷺ شىء . . فلا حاجة بنا نحن إلى الخوض فيه . لقد جرت كلمة الله التى يجرى بها الخلق والتكوين ابتداء ؛ كما يجرى بها التحوير والتغيير . .كلمة "كن" (قلنا لهم:كونوا قردة خاسئين) فكانوا قردة مهينين . كما جرى القول الذى لا راد له ؛ ولا يعجز قائله عن شىء سبحانه ! ثم كانت اللعنة الأبدية على الجميع – إلا الذين يؤمنون بالنبى الأمى ويتبعونه – بما انتهى إليه أمرهم بعد فترة من المعصية التى لا تنتهى ؛ وصدرت المشيئة الإلهية بالحكم الذى لا راد له ولا معقب عليه (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . إن ربك لسريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم) فهو إذن الأبد الذى تحقق منذ صدوره ؛ فبعث الله على اليهود فى فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب . والذى سيظل نافذاً فى عمومه ، فيبعث الله عليهم بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب . وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا فى الأرض وبغوا ، جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة ، الناكثة العاصية , التى لا تخرج من معصية إلا لتقع فى معصية ؛ ولا تثوب من انحراف حتى تجنح إلى انحراف معقباً على هذا الأمر بتقرير صفة الله سبحانه فى العذاب والرحمة (إن ربك لسريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم) فهو بسرعة عقابه يأخذ الذين حقت عليهم كلمته بالعذاب – كما أخذ القرية التى كانت حاضرة البحر – وهو بمغفرته ورحمته يقبل التوبة ممن يثوب من بنى إسرائيل. إنما هو الجزاء العادل لمن يستحقونه ، ووراءه المغفرة والرحمة . ثم تمضى خطوات القصة مع خطوات التاريخ ، من بعد موسى وخلفائه ، مع الأجيال التالية فى بنى إسرائيل إلى الجيل الذى كان يواجه الرسول ﷺ والجماعة المسلمة فى المدينة (وقطعناهم فى الأرض أمماً . . منهم الصالحون ومنهم دون ذلك . . وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون . فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون:سيغفر لنا . وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فيه ، والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ! والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ، إنا لا نضيع أجر المصلحين . وهذه بقية الآيات المدنية الواردة فى هذا السياق تكملة لقصة بنى إسرائيل من بعد موسى . . ذلك حين تفرق اليهود فى الأرض ؛ جماعات مختلفة المذاهب والتصورات ، مختلفة المشارب والمسالك . فكان منهم الصالحون وكان منهم من هم دون الصلاح (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) والمتابعة بالابتلاء رحمة من الله بالعباد ، وتذكير دائم لهم ، ووقاية من النسيان المؤدى إلى الاغترار والبوار (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون:سيغفر لنا . وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) وصفة هذا الخلف الذى جاء بعد ذلك السلف من قوم موسى:أنهم ورثوا الكتاب ودرسوه . . ولكنهم لم يتكيفوا به ولم تتأثر به قلوبهم ولا

سلوكهم . . شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تدرس وعلم يحفظ . . وكلما رأوا عرضاً من أعراض الحياة الدنيا تهافتوا عليه , ثم تأولوا وقالوا (سيغفر لنا) ويسأل سؤال استنكار (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ؟ ودرسوا ما فيه ؟) ألم يؤخذ عليهم ميثاق الله في الكتاب ألا يتأولوا ولا يحتالوا على النصوص ، وألا يخبروا عن الله إلا بالحق . . فما بالهم يقولون (سيغفر لنا) ويتهافتون على أعراض الحياة الدنيا ؟ ويبررون لأنفسهم هذا بالتقول على الله وتأكيد غفرانه لهم ، وهم يعلمون أن الله إنما يغفر لمن يتوبون حقاً ؛ ويقلعون عن المعصية فعلاً ؛ وليس هذا حالهم , فهم يعودون كلما رأوا عرضاً من أعراض الحياة الدنيا ! وهم درسوا هذا الكتاب وعرفوا ما فيه ! بلى ! ولكن الدراسة لا تجدى مالم تخالط القلوب . وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيد . إنما يدرسونه ليتأولوا ويحتالوا ، ويحرفوا الكلم عن مواضعه , ويجدوا المخارج للفتاوى المغرضة التى تنيلهم عرض الحياة الدنيا . . وهل آفة الدين إلا الذين يدرسونه دراسة ؛ ولا يأخذونه عقيدة يتقون الله ولا يرهبونه ؟! (والدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون ؟) نعم ! إنها الدار الآخرة ! إن وزنها فى قلوب الذين يتقون هو وحده الذى يرجح الكفة , وهو وحده الذى يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا . . نعم إنها هى التى لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها ؛ ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها . وهذه الدار الآخرة غيب من الغيب الذى يريد دعاة "الاشتراكية العلمية" أن يلغوه من قلوبنا ومن عقيدتنا ومن حياتنا ؛ ويحلوا محله تصوراً كافراً جاهلاً مطموساً يسمونه":العلمية" . . إن" العلمية" التى تناقض "الغيبية" جهالة من جهالات القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر . جهالة يرجع عنها "العلم البشرى" ذاته ، ولا يبقى يرددها فى القرن العشرين إلا الجهال ! جهالة تناقض فطرة "الإنسان" ومن ثم تفسد "الحياة" ذلك الإفساد الذى يهدد البشرية بالدمار ! ولكنه المخطط الصهيونى الرهيب الذى يريد أن يسلب البشرية كلها قوام حياتها وصلاحها ، ليسهل تطويعها لملك صهيون فى نهاية المطاف ! والذى تردده الببغاوات هنا وهناك ، بينما الأوضاع التي أقامتها الصهيونية وكفلتها فى أنحاء الأرض تمضى عن علم فى تنفيذ المخطط الرهيب هنا وهناك ! ولأن قضية الآخرة ، وقضية التقوى قضيتان أساسيتان في العقيدة وفى الحياة , يحيل السياق القرآني المخاطبين الذين يتهافتون على عرض هذا الأدنى . . عرض الحياة الدنيا . . إلى العقل (والدار الآخرة خير للذين يتقون . . أفلا تعقلون ؟) ولو كان العقل هو الذى يحكم لا الهوى . . ولو كان العلم الحق لا الجهالة التي تسمى العلم هوالذى يقضى . . لكانت الدار الآخرة خيراً من عرض هذا الأدنى . ولكانت التقوى زاداً للدين والدنيا جميعاً (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ، إنا لا نضيع أجر المصلحين) وهو تعريض بالذين أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه ؛ ثم هم لا يتمسكون بالكتاب الذى درسوه ، ولا يعملون به ، ولا يحكمونه في تصوراتهم وحركاتهم ؛ ولا فى سلوكهم وحياتهم . . غير أن الآية تبقى – من وراء ذلك التعريض – مطلقة ، تعطى مدلولها كاملاً ، لكل جيل ولكل حالة . إن الصيغة اللفظية (يمسكون) تصور مدلولاً يكاد يحس ويرى . . إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجد وصرامة . . الصورة التي يحب الله أن يؤخذ بها كتابه وما فيه . . فى غير تعنت ولا تنطع ولا تزمت . . فالجد والقوة والصرامة شيء والتعنت والتنطع والتزمت شيء آخر . . إن الجد والقوة والصرامة لا تنافي اليسر ولكنها تنافى التميع ! ولا تنافى سعة الأفق ولكنها تنافى الاستهتار ! ولا تنافى مراعاة الواقع ولكنها تنافى أن يكون "الواقع" هو الحكم في شريعة الله ! فهو الذى يجب أن يظل محكوماً بشريعة الله ! والتمسك بالكتاب فى جد وقوة وصرامة ؛ وإقامة الصلاة – أى شعائر العبادة – هما طرفا المنهج الربانى لصلاح الحياة . . والتمسك بالكتاب فى هذه العبارة مقروناً إلى الشعائر يعني مدلولاً معيناً . إذ يعنى تحكيم هذا الكتاب فى حياة الناس لإصلاح هذه الحياة , مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس . فهما طرفان للمنهج الذى تصلح به الحياة والنفوس ، ولا تصلح بسواه . . والإشارة إلى الإصلاح فى الآية (إنا لا نضيع أجر المصلحين) يشير إلى هذه الحقيقة . . حقيقة أن الاستمساك الجاد بالكتاب عملاً ، وإقامة الشعائر عبادة هما أداة الإصلاح الذى لا يضيع الله أجره على المصلحين . وما تفسد الحياة كلها إلا بترك طرفى هذا المنهج الربانى . . ترك الاستمساك الجاد بالكتاب وتحكيمه فى حياة الناس ؛ وترك العبادة التى تصلح القلوب ، إنه منهج متكامل . يقيم الحكم على أساس الكتاب ؛ ويقيم القلب على أساس العبادة . . ومن ثم تتوافى القلوب مع الكتاب ؛ فتصلح القلوب ، وتصلح الحياة . وفى ختام حلقات القصة فى هذه السورة يذكر كيف أخذ الله على بنى إسرائيل الميثاق (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم . خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون). إنه ميثاق لا ينسى . . فقد أخذ فى ظرف لاينسى ! أخذ وقد نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم ! ولقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق ؛ فأعطوه فى ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس . ولقد أمروا فى ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية ، وأن يستمسكوا به فى شدة وصرامة , وألا يتخاذلوا ولا يتهاونوا ولا يتراجعوا فى ميثاقهم الوثيق . وأن يظلوا ذاكرين لما فيه ، لعل قلوبهم تخشع وتتقى . وتظل

موصولة بالله لا تنساه ! ولكن إسرائيل هي إسرائيل ! نقضت الميثاق ، ونسيت الله ، ولجت في المعصية ، حتى استحقت غضب الله ولعنته . وحق عليها القول ، بعدما اختارها الله على العالمين في زمانها , وأفاء عليها من عطاياه . فلم تشكر النعمة ، ولم ترع العهد ، ولم تذكر الميثاق

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ{١٧٢} أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ{١٧٣} وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{١٧٤} وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ{١٧٥} وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ{١٧٦} سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ{١٧٧} مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{١٧٨} وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ{١٧٩} وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{١٨٠} وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ{١٨١} وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ{١٨٢} وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ{١٨٣} أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ{١٨٤} أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ{١٨٥} مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{١٨٦} يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ{٢٨٧} قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَراًّ إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{١٨٨} هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{١٨٩} فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ{١٩٠} أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ{١٩١} وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ{١٩٢} وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ{١٩٣} إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{١٩٤} أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ{١٩٥} إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ{١٩٦} وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ{١٩٧} وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ{١٩٨}

في هذا الدرس تعرض قضية التوحيد من زاوية جديدة ، وزاوية عميقة . . تعرض من زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر ؛ وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم , وذات تكوينهم ؛ وهم بعد في عالم الذر ! . . إن الأعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري . فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته ، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة . أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى ؛ فيحتاجون إلى التذكير والتحذير . ومن هذه الزاوية ، التي تعرض منها قضية التوحيد في هذا الدرس ، يتخذ السياق خطوطا شتى حول هذه القضية الكبرى . منها خط قصصي عن حالة ترد بعض الروايات بأنها وقعت في تاريخ بني إسرائيل . . ولكن الأرجح أنها نموذج غير مقيد بزمان ولا مكان ، إنما هو تصوير لحالة مكرورة في النفوس والتاريخ . كلما أوتي بعض الناس نصيباً من العلم كان خليقاً أن يقوده إلى الحق والهدى ، فإذا هو ينسلخ مما أوتي من العلم ، فلا ينتفع به شيئاً ، ويسير في طريق الضلالة كمن لم يؤتوا من العلم شيئاً . بل يصير أنكد وأضل وأشقى بهذا العلم الذي لم تخالطه بشاشة الإيمان ، الذي يحول هذا العلم إلى مشكاة هادية في ظلام الطريق ! ومنها خط قصصي آخر عن حالة تصويرية لخطوات انحراف الفطرة من التوحيد إلى الشرك . . ممثلة في زوجين من البشر ، يرجوان الخير في الجنين القادم لهما ؟ وتتجه فطرتهما إلى الله ربهما ، ويقطعان لله العهود لئن آتاهما خلقا صالحا ليكونن من الشاكرين . . ثم تزيغ قلوبهما بعد أن يستجيب الله لهما ، فإذا هما يجعلان لله شركاء فيما آتاهما ! ومنها خط تصويري لتعطل أجهزة الاستقبال الفطرية في الكينونة البشرية ، حتى تنتهي إلى الضلال الذي يهبط بالبشر عن مرتبة الأنعام ، ويجعلهم وقوداً لجهنم عن جدارة واستحقاق . . فتكون لهم قلوب لا يفقهون بها ، وتكون لهم أعين لا يبصرون بها ، وتكون لهم آذان لا يسمعون بها . . ويكون وراء

ذلك الضلال الذى لا رجعة منه ولا مآب ! ومنها خط إيحائى لاستجاشة هذه الأجهزة المعطلة ، وإيقاظها للتدبر والتفكر ، وتوجيهها إلى ملكوتالسماوات والأرض وما خلق الله من شيء ، ولمسها بالأجل المغيب الذى يكمن وراءه الموت ، ودعوتها إلى النظر فى حال هذا الرسول الكريم الذى يدعو إلى الهدى ، فيرميه الضالون بالجنون ! ومنها خط جدلى حول آلهتهم المدعاة ، وهى مجردة من خصائص الألوهية ، بل من خصائص الحياة ! وينتهى هذا كله بتوجيه الرسول ﷺ إلى تحديهم وتحدى آلهتهم ، وإعلان مفاصلته ومفارقته لهم ولمعبوداتهم وعبادتهم ، والالتجاء إلى الولى الذى لا ولى غيره (الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) (وإذ أخذ ربك من بني آدم – من ظهورهم – ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم:ألست بربكم ? قالوا:بلى شهدنا ! أن تقولوا يوم القيامة:إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا:إنما أشرك آباؤنا من قبل . وكنا ذرية من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون ? . . وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) إنها قضية الفطرة والعقيدة يعرضها السياق القرآنى فى صورة مشهد وإنه لمشهد فريد . . مشهد الذرية المكنونة فى عالم الغيب السحيق ، المستكنة فى ظهور بنى آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود ، تؤخذ فى قبضة الخالق المربى , فيسألها (ألست بربكم ?). . فتعترف له – سبحانه – بالربوبية ؛ وتقر له – سبحانه – بالعبودية ؛ وتشهد له – سبحانه – بالوحدانية ؛ وهى منثورة كالذر ؛ مجموعة فى قبضة الخالق العظيم ! إنه مشهد كونى رائع باهر ، لا تعرف اللغة له نظيراً فى تصوراتها المأثورة ! وإنه لمشهد عجيب فريد حين يتملاه الخيال البشرى جهد طاقته ! وحينما يتصور تلك الخلايا التى لا تحصى ، وهى تجمع وتقبض . وهى تخاطب خطاب العقلاء – بما ركب فيها من الخصائص المستكنة التى أودعها إياها الخالق المبدع – وهى تستجيب استجابة العقلاء ، فتعترف وتقر وتشهد ؛ ويؤخذ عليها الميثاق فى الأصلاب ! وإن الكيان البشرى ليرتعش من أعماقه وهو يتملى هذا المشهد الرائع الباهر الفريد . وهو يتمثل الذر السابح . وفى كل خلية حياة . وفى كل خلية استعداد كامن . وفى كل خلية كائن إنسانى مكتمل الصفات ينتظر الإذن له بالنماء والظهور فى الصورة المكنونة له فى ضمير الوجود المجهول ، ويقطع على نفسه العهد والميثاق ، قبل أن يبرز إلى حيز الوجود المعلوم ! لقد عرض القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الباهر العجيب الفريد ، لتلك الحقيقة الهائلة العميقة المستكنة فى أعماق الفطرة الإنسانية وفى أعماق الوجود . . عرض القرآن هذا المشهد قبل قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان ، حيث لم يكن إنسان يعلم عن طبيعة النشأة الإنسانية وحقائقها إلا الأوهام ! ثم يهتدى البشر بعد هذه القرون إلى طرف من هذه الحقائق وتلك الطبيعة . فإذا "العلم" يقرر أن الناسلات ، وهى خلايا الوراثة التى تحفظ سجل "الإنسان" وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا فى الأصلاب . . أن هذه الناسلات التى تحفظ سجل ثلاثة آلاف مليون من البشر ، وتكمن فيها خصائصهم كلها ، لا يزيد حجمها على سنتيمتر مكعب ، أو ما يساوى ملء قمع من أقماع الخياطة ! . . كلمة لو قيلت للناس يومذاك لاتهموا قائلها بالجنون والخبال ! وصدق الله العظيم (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أخرج ابن جرير وغيره – بإسناده – عن ابن عباس قال:" مسح ربك ظهر آدم ، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة . . . فأخذ مواثيقهم ، وأشهدهم على أنفسهم: (ألست بربكم ? قالوا:بلى) " . . وروى مرفوعاً وموقوفاً على ابن عباس . وقال ابن كثير:إن الموقوف أكثر وأثبت . فأما كيف كان هذا المشهد ؟ وكيف أخذ الله من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ؟ وكيف خاطبهم (ألست بربكم) وكيف أجابوا (بلى شهدنا) فالجواب عليه أن كيفيات فعل الله – سبحانه – غيب كذاته . ولا يملك الإدراك البشرى أن يدرك كيفيات أفعال الله ما دام أنه لا يملك أن يدرك ذات الله . إذ أن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية . وكل فعل ينسب لله سبحانه مثل الذى يحكيه قوله هذا كقوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهى دخان . . .). (ثم استوى على العرش). (يمحو الله ما يشاء ويثبت). (والسماوات مطويات بيمينه). (وجاء ربك والملك صفاً صفاً). (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم). . . إلى آخر ما تحكيه النصوص الصحيحة عن فعل الله سبحانه ، لا مناص من التسليم بوقوعه ، دون محاولة إدراك كيفيته . . إذ أن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية كما قلنا . . والله ليس كمثله شيء . فلا سبيل إلى إدراك ذاته ولا إلى إدراك كيفيات أفعاله . إذ أنه . لا سبيل إلى تشبيه فعله بفعل أى شيء , ما دام أن ليس كمثله شيء . . وكل محاولة لتصور كيفيات أفعاله على مثال كيفيات أفعال خلقه ، هى محاولة مضللة ، لاختلاف ماهيته – سبحانه – عن ماهيات خلقه . وما يترتب على هذا من اختلاف كيفيات أفعاله عن كيفيات أفعال خلقه . . وكذلك جهل وضل كل من حاولوا – من الفلاسفة والمتكلمين – وصف كيفيات أفعال الله ، وخلطوا خلطاً شديداً ! على أن هناك تفسيرا لهذا النص بأن هذا العهد الذى أخذه الله على ذرية بنى آدم هو عهد الفطرة . . فقد أنشأهم مفطورين على الاعتراف له بالربوبية وحده . أودع هذا فطرتهم فهى تنشأ عليه ، حتى تنحرف عنه بفعل فاعل يفسد سواءها ، ويميل بها عن فطرتها .

قال ابن كثير فى التفسير:قال قائلون من السلف والخلف:إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد – وقد فسر الحسن الآية بذلك . قالوا:ولهذا قال: (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) ولم يقل من آدم (من ظهورهم). . ولم يقل من ظهره (ذرياتهم) أى جعل نسلهم جيلا بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، كقوله تعالى : وهو الذى جعلكم خلفاء الأرض . . وقال: (ويجعلكم خلفاء الأرض). . وقال (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين). . ثم قال: (وأشهدهم على أنفسهم:ألست بربكم ؟ قالوا:بلى) وفى الصحيحين عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال رسول الله [ص] . " كل مولود يولد على الفطرة – وفى رواية . " على هذه الملة " – فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تولد بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ " . ونحن لا نستبعد أن يكون قول الله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم .) .. الآيات على وجهه لا على سبيل الحال . لأنه فى تصورنا يقع كما أخبر عنه الله سبحانه . وليس هناك ما يمنع أن يقع حين يشاؤه . . ولكنا كذلك لا نستبعد هذا التأويل الذى اختاره ابن كثير ، وذكره الحسن البصرى واستشهد له بالآية . . والله أعلم أى ذلك كان . وفى أى من الحالين يخلص لنا أن هناك عهداً من الله على فطرة البشر أن توحده . وأن حقيقة التوحيد مركوزة فى هذه الفطرة ؛ يخرج بها كل مولود إلى الوجود ؛ فلا يميل عنها إلا أن يفسد فطرته عامل خارجى عنها ! عامل يستغل الاستعداد البشرى للهدى وللضلال . وهو استعداد كذلك كامن تخرجه إلى حيز الوجود ملابسات وظروف معينة ، هذا الناموس – بذاته – هو ميثاق معقود بين الفطرة وخالقها . ميثاق مودع فى كيانها . مودع فى كل خلية حية منذ نشأتها . وهو ميثاق أقدم من الرسل والرسالات . وفيه تشهد كل خلية بربوبية الله الواحد ، ذى المشيئة الواحدة ، المنشئة للناموس الواحد الذى يحكمها ويصرفها . فلا سبيل إلى الاحتجاج بعد ميثاق الفطرة وشهادتها – سواء أكان بلسان الحال هذا أم بلسان المقال كما فى بعض الآثار – لا سبيل إلى أن يقول أحد:إنه غفل عن كتاب الله الهادى إلى التوحيد ، وعن رسالات الله التى دعت إلى هذا التوحيد . أو يقول:إننى خرجت إلى هذا الوجود ، فوجدت آبائى قد أشركوا فلم يكن أمامى سبيل لمعرفة التوحيد إنما ضل آبائى فضللت فهم المسؤولون وحدهم ولست بالمسؤول ! ومن ثم جاء هذا التعقيب على تلك الشهادة (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا:إنما أشرك آباؤنا من قبل , وكنا ذرية من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟)

ولكن الله – سبحانه – رحمة منه بعباده قدر ألا يحاسبهم على عهد الفطرة هذا ؛ كما أنه لا يحاسبهم على ما أعطاهم من عقل يميزون به ؛ حتى يرسل إليهم الرسل ، ويفصل لهم الآيات ، لاستنقاذ فطرتهم من الركام والتعطل والانحراف ، واستنقاذ عقلهم من ضغط الهوى والضعف والشهوات . ولو كان الله يعلم أن الفطر والعقول تكفى وحدها للهدى دون رسل ولا رسالات ؛ ودون تذكير وتفصيل للآيات لأخذ الله عباده بها . ولكنه رحمهم بعلمه فجعل الحجة عليهم هى الرسالة (وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) يرجعون إلى فطرتهم وعهدها مع الله ؛ وإلى ما أودعه الله كينونتهم من قوى البصيرة والإدراك . فالرجعة إلى هذه المكنونات كفيلة بانتفاض حقيقة التوحيد فى القلوب ؛ وردها إلى بارئها الوحيد ، الذى فطرها على عقيدة التوحيد . ثم رحمها فأرسل إليها الرسل بالآيات للتذكير والتحذير . وكمثل للانحراف عن سواء الفطرة ، ونقض لعهد الله المأخوذ عليها ، ونكوص عن آيات الله بعد رؤيتها والعلم بها . . ذلك الذى آتاه الله آياته ، فكانت فى متناول نظره وفكره ; ولكنه انسلخ منها ، وتعرى عنها ولصق بالأرض ، واتبع الهوى ؛ فلم يستمسك بالميثاق الأول ، ولا بالآيات الهادية ؛ فاستولى عليه الشيطان ؛ وأمسى مطروداً من حمى الله ، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب . . إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث . . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون !) إنه مشهد من المشاهد العجيبة ، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات . . إنسان يؤتيه الله آياته ، ويخلع عليه من فضله ، ويكسوه من علمه , ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع . . ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً . ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه ؛ فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة ، انسلاخ الحى من أديمه اللاصق بكيانه . . أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان ؟ . . ها هو ذا ينسلخ من آيات الله ؛ ويتجرد من الغطاء الواقى ، والدرع الحامى ؛ وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى ؛ ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم ؛ فيصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واق ، ولا يحميه منه حام ؛ فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه . . ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بائس نكد . . إذا نحن بهذا المخلوق ، لاصقا بالأرض ، ملوثا بالطين . ثم إذا هو مسخ فى هيئة الكلب ، يلهث إن طورد ويلهث إن لم يطارد . . كل هذه المشاهد المتحركة تتتابع وتتوالى ؛ والخيال شاخص يتبعها فى انفعال

وانبهار وتأثر . . فإذا انتهى إلى المشهد الأخير منها . . مشهد اللهاث الذى لا ينقطع . . سمع التعليق المرهوب الموحى ، على المشهد كله (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون) ذلك مثلهم ! فلقد كانت آيات الهدى وموحيات الإيمان متلبسة بفطرتهم وكيانهم وبالوجود كله من حولهم . ثم إذا هم ينسلخون منها انسلاخاً . ثم إذا هم أمساخ شائهو الكيان , هابطون عن مكان "الإنسان" إلى مكان الحيوان . . مكان الكلب الذى يتمرغ في الطين . . وكان لهم من الإيمان جناح يرفون به إلى عليين ؛ وكانوا من فطرتهم الأولى فى أحسن تقويم ، فإذا هم ينحطون منها إلى أسفل سافلين ! (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون !) وهل أسوأ من هذا المثل مثلاً ؟ وهل أسوأ من الانسلاخ والتعرى من الهدى ؟ وهل أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى ؟ وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا ؟ من يعريها من الغطاء الواقى والدرع الحامى ، ويدعها غرضاً للشيطان يلزمها ويركبها , ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض ، الحائر القلق ، اللاهث لهاث الكلب أبداً !!! وهل يبلغ قول قائل فى وصف هذه الحالة وتصويرها على هذا النحو العجيب الفريد ؛ إلا هذا القرآن العجيب الفريد !! وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها . ويعلن غيرها . ويستخدم علمه فى التحريفات المقصودة ، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل ! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدى على سلطان الله وحرماته فى الأرض جميعاً ! لقد رأينا من هؤلاء من يعلم ويقول:إن التشريع حق من حقوق الله – سبحانه – من ادعاه فقد ادعى الألوهية . ومن ادعى الألوهية فقد كفر . ومن أقر له بهذا الحق وتابعه عليه فقد كفر أيضاً ! . . ومع ذلك . . مع علمه بهذه الحقيقة ، التي يعلمها من الدين بالضرورة ، فإنه يدعو للطواغيت الذين يدّعون حق التشريع ، ويدّعون الألوهية بادعاء هذا الحق ، ممن حكم عليهم هو بالكفر ! ويسميهم "المسلمين" ! ويسمى ما يزاولونه إسلاما لا إسلام بعده ! ، ولقد رأينا من هؤلاء من يكتب فى تحريم الربا كله عاماً ؛ ثم يكتب فى حله كذلك عاماً آخر . . ورأينا منهم من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس ، ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشاراته وعناوينه ، فماذا يكون هذا إلا أن يكون مصداقاً لنبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ؟ وماذا يكون هذا إلا أن يكون المسخ الذى يحكيه الله سبحانه عن صاحب النبأ (ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه . فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث !). . ولو شاء الله لرفعه بما آتاه من العلم بآياته . ولكنه – سبحانه – لم يشأ ، لأن ذلك الذى علم الآيات أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، ولم يتبع الآيات . .

إنه مثل لكل من آتاه الله من علم الله ؛ فلم ينتفع بهذا العلم ؛ ولم يستقم على طريق الإيمان . وانسلخ من نعمة الله . ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان . ولينتهى إلى المسخ فى مرتبة الحيوان ! ثم ما هذا اللهاث الذى لا ينقطع ؟ إنه – فى حسنا كما توحيه إيقاعات النبأ وتصوير مشاهده فى القرآن – ذلك اللهاث وراء أعراض هذه الحياة الدنيا التى من أجلها ينسلخ الذين يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها . ذلك اللهاث القلق الذى لا يطمئن أبداً . والذى لا يتركه صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه ؛ فهو منطلق فيه أبداً ! وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يتلوه على قومه الذين كانت تتنزل عليهم آيات الله ، كي لا ينسلخوا منها وقد أوتوها . ثم ليبقى من بعده ومن بعدهم يتلى ، ليحذر الذين يعلمون من علم الله شيئاً أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة ؛ وأن يصيروا إلى هذا اللهاث الذى لا ينقطع أبداً ؛ وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذى لا يظلمه عدو لعدو . فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم بهذه النهاية النكدة ! ويقف السياق وقفة قصيرة للتعقيب على ذلك المثل الشاخص فى ذلك المشهد ، للذى آتاه الله آياته فانسلخ منها ، بأن الهدى هدى الله . فمن هداه الله فهو المهتدى حقاً ؛ ومن أضله الله فهو الخاسر الذى لا يربح شيئاً (من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون) والله سبحانه يهدى من يجاهد ليهتدى ، كذلك يضل الله من يبغي الضلال لنفسه ويعرض عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، ويغلق قلبه وسمعه وبصره دونها . ويؤيد ما ذهبنا إليه فى فهم الآية السابقة وأخواتها نص الآية التالية: (ولقد ذرانا لجهنم كثيراً من الجن والإنس . لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . . أولئك كالأنعام ، بل هم أضل . . أولئك هم الغافلون) إن هؤلاء الكثيرين من الجن والإنس مخلوقون لجهنم ! وهم مهيأون لها ! فما بالهم كذلك ؟ هنالك اعتباران:

الاعتبار الأول:أنه مكشوف لعلم الله الأزلي أن هؤلاء الخلق صائرون إلى جهنم . . وهذا لا يحتاج إلى بروز العمل الذى يستحقون به جهنم إلى عالم الواقع الفعلى لهم . فعلم الله سبحانه شامل محيط غير متوقف على زمان ولا على حركة ينشأ بعدها الفعل فى عالم العباد الحادث .

والاعتبار الثانى:أن هذا العلم الأزلى – الذى لا يتعلق بزمان ولا حركة فى عالم العباد الحادث – ليس هو الذى يدفع هذه الخلائق إلى الضلال الذى تستحق به جهنم . إنما هم كما تنص الآية (لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها)

فهم لم يفتحوا القلوب التى أعطوها ليفقهوا – ودلائل الإيمان والهدى حاضرة فى الوجود وفى الرسالات تدركها القلوب المفتوحة والبصائر المكشوفة – وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية . ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة . لقد عطلوا هذه الأجهزة التى وهبوها ولم يستخدموها . . لقد عاشوا غافلين لا يتدبرون (أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) والذين يغفلون عما حولهم من آيات الله فى الكون وفى الحياة ؛ والذين يغفلون عما يمر بهم من الأحداث والغير فلا يرون فيها يد الله . . أولئك كالأنعام بل هم أضل . . فللأنعام استعدادات فطرية تهديها . أما الجن والإنس فقد زودوا بالقلب الواعى والعين المبصرة والأذن الملتقطة . فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا . فإنهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهادية ، وبعد استعراض مشهد الميثاق الكونى بالتوحيد ؛ واستعراض مثل المنحرف عن هذا الميثاق وعن آيات الله بعد إذ آتاه الله إياها . . يعقب بالتوجيه الآمر بإهمال المنحرفين – الذين كانوا يتمثلون فى المشركين الذين كانوا يواجهون دعوة الإسلام بالشرك – الذين يلحدون فى أسماء الله ويحرفونها ، فيسمون بها الشركاء المزعومين (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون) والإلحاد هو الإنحراف أو التحريف . . وقد حرف المشركون فى الجزيرة أسماء الله الحسنى , فسموا بها آلهتهم المدعاة . . حرفوا اسم (الله) فسموا به "اللات" . واسم(العزيز) فسموا به "العزى " . . فالآية تقرر أن هذه الأسماء الحسنى لله وحده . وتأمر أن يدعوه المؤمنون وحده بها ، دون تحريف ولا ميل ؛ وأن يدعوا المحرفين المنحرفين ; فلا يحفلوهم ولا يأبهوا لما هم فيه من الإلحاد . فأمرهم موكول إلى الله ; وهم ملاقون جزاءهم الذى ينتظرهم منه . . وياله من وعيد ! وهذا الأمر بإهمال شأن الذين يلحدون فى أسماء الله ؛ لا يقتصر على تلك المناسبة التاريخية , ولا على الإلحاد فى أسماء الله بتحريفها اللفظى إلى الآلهة المدعاة . . إنما هو ينسحب على كل ألوان الإلحاد فى شتى صوره . . ينسحب على الذين يلحدون – أى يحرفون أو ينحرفون – فى تصورهم لحقيقة الألوهية على الإطلاق . كالذين يدّعون له الولد . وكالذين يدّعون أن مشيئته – سبحانه – مقيدة بنواميس الطبيعة الكونية ! وكالذين يدعون له كيفيات أعمال تشبه كيفيات أعمال البشر – وهو سبحانه ليس كمثله شىء – وكذلك من يدعون أنه سبحانه إله فى السماء ، وفى تصريف نظام الكون ، وفى حساب الناس فى الآخرة . ولكنه ليس إلهاً فى الأرض ، ولا فى حياة الناس ، فليس له – فى زعمهم – أن يشرع لحياة الناس ؛ إنما الناس هم الذين يشرعون لأنفسهم بعقولهم وتجاربهم ومصالحهم – كما يرونها هم – فالناس – فى هذا – هم آلهة أنفسهم . أو بعضهم آلهة بعض ! . . وكله إلحاد فى الله وصفاته وخصائص ألوهيته . . والمسلمون مأمورون بالإعراض عن هذا كله وإهماله ؛ والملحدون موعدون بجزاء الله لهم على ما كانوا يعملون ! ثم يمضى السياق يفصل صنوف الخلق . . و منهم أمة يستمسكون بالحق ، ويدعون الناس إليه ، ويحكمون به ولا ينحرفون عنه . . وأمة – على الضد – ينكرون الحق ، ويكذبون بآيات الله ! فأما الأولون فيقرر وجودهم فى الأرض وجوداً ثابتاً لا شك فيه ؛ وهم حراس على الحق حين ينحرف عنه المنحرفون ، ويزيغ عنه الزائغون ; وحين يكذب الناس بالحق وينبذونه يبقون هم عليه صامدين . وأما الآخرون فيكشف عن مصير لهم مخيف ، وكيد لله إزاءهم متين (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين) وما كانت البشرية لتستحق التكريم لو لم تكن فيها دائماً – وفى أحلك الظروف – تلك الجماعة – التى يسميها الله (أمة)بالمصطلح الإسلامى للأمة وهى الجماعة التى تدين بعقيدة واحدة وتتجمع على آصرتها ؛ وتدين لقيادة واحدة قائمة على تلك العقيدة – فهذه الأمة الثابتة على الحق ؛ العاملة به فى كل حين ، هى الحارسة لأمانة الله فى الأرض , الشاهدة بعهده على الناس ، التى تقوم بها حجة الله على الضالين المتنكرين لعهده فى كل جيل . ونقف لحظة أمام صفة هذه الأمة (يهدون بالحق ، وبه يعدلون) إن صفة هذه الأمة – التى لا ينقطع وجودها من الأرض أياً كان عددها – أنهم (يهدون بالحق) فهم دعاة إلى الحق ، لا يسكتون عن الدعوة به ، وإليه ، ولا يتقوقعون على أنفسهم ، ولا ينزوون بالحق الذى يعرفونه . ولكنهم يهدون به غيرهم . فلهم قيادة فيمن حولهم من الضالين عن هذا الحق ، المتنكرين لذلك العهد ؛ ولهم عمل إيجابى لا يقتصر على معرفة الحق ؛ إنما يتجاوزه إلى الهداية به والدعوة إليه والقيادة باسمه (وبه يعدلون). . فيتجاوزون معرفة الحق والهداية به إلى تحقيق هذا الحق فى حياة الناس والحكم به بينهم ، تحقيقاً للعدل الذى لا يقوم إلا بالحكم بهذا الحق . والأمة المسلمة القائمة على هذا الحق – على قلة العدد وضعف العدة – ما تزال صامدة لعمليات السحق الوحشية . . والله غالب على أمره (والذين كذبوا بآياتنا

سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملي لهم إن كيدي متين) إنهم لا يتصورون أبداً أنه استدراج الله لهم من حيث لا يعلمون. ولا يحسبون أنه إملاء الله لهم إلى حين . . فهم لا يؤمنون بأن كيد الله متين ! . . إنهم يتولى بعضهم بعضاً ويرون قوة أوليائهم ظاهرة في الأرض فينسون القوة الكبرى ! . . إنها سنة الله مع المكذبين . . يرخي لهم العنان ، ويملي لهم في العصيان والطغيان ، استدراجاً لهم في طريق الهلكة ، وإمعاناً في الكيد لهم والتدبير . ومن الذي يكيد ؟ إنه الجبار ذو القوة المتين ! ولكنهم غافلون ! والعاقبة للمتقين . الذين يهدون بالحق وبه يعدلون . . ثم ها هو يدعوهم إلى التدبر في أمر رسولهم الذي يدعوهم إلى الحق ويهديهم به ؛ وإلى النظر في ملكوت السماوات والأرض وآيات الله المبثوثة في هذا الملكوت ؛ وكان يوقظهم إلى مرور الوقت وما يؤذن به من اقتراب الأجل المجهول ، وهم غافلون (أو لم يتفكروا ؟ ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مبين . أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ؟ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ؟ فبأي حديث بعده يؤمنون ؟) إن القرآن يهزهم من غفوتهم ، ويوقظهم من غفلتهم ، ويستنقذ – من تحت الركام – فطرتهم وعقولهم ومشاعرهم . . إنه يخاطب كينونتهم البشرية كلها ، بكل ما فيها من أجهزة الاستقبال والاستجابة . . إنه لا يوجه إليهم جدلاً ذهنياً باردا ؛ إنما هو يستنقذ كينونتهم كلها وينفضها من أعماقها (أو لم يتفكروا ؟ ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مبين) لقد كانوا يقولون عن الرسول ﷺ في حرب الدعاية التي يشنها ضده الملأ من قريش يخدعون بها الجماهير إن محمداً به جنة . وهو من ثم ينطق بهذا الكلام الغريب ، غير المعهود في أساليب البشر العاديين ! ولقد كان الملأ من قريش يعلمون أنهم كاذبون ! وقد تضافرت الروايات على أنهم كانوا يعرفون الحق في أمر رسول الله ﷺ وأنهم ما كانوا يملكون أن يمنعوا أنفسهم عن الاستماع لهذا القرآن والتأثر به أعمق التأثر ، إنما هم كانوا يستكبرون عنه ، ويخشونه على سلطانهم الذي تهدده شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ التي تسلب البشر حق تعبيد البشر لغير الله . . وتهدد كل طاغوت بشري على العموم ! القرآن يدعوهم إلى التفكر والتدبر في أمر صاحبهم هذا المعروف لهم ماضيه كله ، المكشوف لهم أمره كله . . أفهذا به جنة ؟ . . أفهذا قول مجنون وفعل مجنون ؟ . . كلا (ما بصاحبهم من جنة . . إن هو إلا نذير مبين) لا اختلاط في عقله ولا في قوله . إنما هو منذر مفصح مبين . لا يلتبس قوله بقول المجانين ، ولا تشتبه حاله بحال المجانين . ثم (أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ؟). . وهي هزة أخرى أمام هذا الكون العجيب . . والنظر بالقلب المفتوح والعين المبصرة في هذا الملكوت الواسع الهائل العظيم ، يكفي وحده لانتفاض الفطرة من تحت الركام ؛ وتفتح الكينونة البشرية لإدراك الحق الكامن فيه ، والإبداع الذي يشهد به ، والإعجاز الذي يدل على البارىء الواحد القدير . . والنظر إلى ما خلق الله من شيء – وكم في ملكوت السماوات والأرض من شيء – يدهش القلب ويحير الفكر ، ويلجيء العقل إلى البحث عن مصدر هذا كله ، وعن الإرادة التي أوجدت هذا الخلق على هذا النظام المقصود المشهور .

إن التوازن ملحوظ في ملكوت السماوات والأرض جميعاً –لا في هذه الظاهرة الحيوية وحدها – إنه ملحوظ في بناء الذرة كما هو ملحوظ في بناء المجرة! وملحوظ في التوازن بين الأحياء وبين الأشياء سواء . . ولو اختل هذا التوازن شعرة ما ظل هذا الكون قائماً لحظة ! فمن الذي يمسك بعجلة التوازن الكبرى في السماوات والأرض جميعاً ؟ وعرب الجزيرة الذين كانوا يخاطبون بهذا القرآن أول مرة ما كانوا يدركون بعلومهم مدى هذا التوازن والتناسق في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء . . ولكن الفطرة الإنسانية بذاتها تلتقي مع هذا الكون في أعماقها ؛ وتتجاوب معه بلغة غير منطوقة إلا في هذه الأعماق ، ويكفي أن ينظر الإنسان بالقلب المفتوح والعين المبصرة إلى هذا الكون حتى يتلقى إيقاعاته وإيحاءاته تلقياً موحياً هادياً إن الله الذي يخاطب الإنسان بهذا القرآن لهو الذي خلق هذا الإنسان ، والذي يعلم فطرة هذا الإنسان ! وأخيراً يلمس قلوبهم بطائف الموت الذي قد يكون مخبأ لهم – من قريب – في عالم المجهول المغيب ؛ وهم عنه غافلون (وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) فما يدريهم أن أجلهم قريب ؟ وما يبقيهم في غفلتهم سادرين ؛ وهم عن غيب الله محجوبون ؟ وهم في قبضته لا يفلتون ؟ إن هذه اللمسة بالأجل المغيب – الذي قد يكون قد اقترب – لتهز القلب البشري هزة عميقة ! لعله يستيقظ ويتفتح ويرى . والله منزل هذا القرآن وخالق هذا الإنسان يعلم أن هذه اللمسة لا تبقي قلباً غافلاً . . ولكن بعض القلوب قد يعاند بعد ذلك ويكابر ! (فبأي حديث بعده يؤمنون ؟)! وما بعد هذا الحديث من حديث تهتز له القلوب أو تلين . . وهنا يقف السياق وقفة قصيرة للتعقيب . . يقرر فيها سنة الله الجارية بالهدى والضلال ; وفق ما أرادته مشيئته من هداية من يطلب الهدى ويجاهد فيه ؛ وإضلال من يصرف قلبه عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان . وذلك بمناسبة ما عرضه السياق قبل ذلك من حال أولئك القوم الذين كانوا يخاطبون بهذا القرآن ؛ على طريقة القرآن الكريم في عرض القاعدة العامة بمناسبة المثل الفريد ؛ ومن بيان السنة الثابتة بمناسبة الحادث العابر(من يضلل الله فلا هادي له ، ويذرهم في طغيانهم يعمهون) إن الذين يضلون

، إنما يضلون لأنهم غافلون عن النظر والتدبر . ومن يغفل عن النظر فى آيات الله وتدبرها يضله الله ؛ ومن يضله الله لا يهديه أحد من بعده (من يضلل الله فلا هادى له) ومن يكتب الله عليه الضلال – وفق سنته تلك – يظل فى طغيانه عن الحق وعماه عنه أبداً (ويذرهم فى طغيانهم يعمهون) وما فى تركهم فى عماهم من ظلم ، فهم الذين أغلقوا بصائرهم وأبصارهم ، وهم الذين عطلوا قلوبهم وجوارحهم ، وهم الذين غفلوا عن بدائع الخلق وأسرار الوجود ، وشهادة الأشياء ، هؤلاء الغافلون عما حولهم ، العمىُ عما يحيط بهم . . يسألون الرسول ﷺ عن الساعة البعيدة المغيبة فى المجهول . كالذى لا يرى ما تحت قدميه ويريد أن يرى ما فى الأفق البعيد ! (يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل:إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو , ثقلت فى السماوات والأرض , لا تأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفى عنها ! قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . قل:لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) لقد كانوا يعجبون ويعجبون من رسول الله ﷺ لأنه يحدثهم عن الحياة بعد الموت ؛ وعن البعث والنشور والحساب والجزاء ، والاعتقاد فى الآخرة مفرق طريق بين فسحة الرؤية والتصور فى نفس "الإنسان" ، وضيق الرؤية واحتباسها فى حدود الحس فى إدراك "الحيوان" ! وما يصلح إدراك الحيوان لقيادة البشرية , والقيام بأمانة الله فى الخلافة الراشدة ! ونحن فى هذا الموضع من سياق سورة الأعراف أمام صورة من صور الاستغراب والاستنكار الذى يواجه به المشركون عقيدة الآخرة ، تبدو فى سؤالهم عن الساعة سؤال الساخر المستنكر المستهتر (يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟) إن الساعة غيب ، من الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه . . ولكن المشركين يسألون الرسول عنها . . إما سؤال المختبر الممتحن ! وإما سؤال المتعجب المستغرب ! وإما سؤال المستهين المستهتر ! (أيان مرساها ؟) أى متى موعدها الذى إليه تستقر وترسو ؟! والرسول ﷺ بشر لا يدعى علم الغيب ، مأمور أن يكل الغيب إلى صاحبه ، وأن يعلمهم أنها من خصائص الألوهية ، وأنه هو بشر لا يدعى شيئاً خارج بشريته ولا يتعدى حدودها , إنما يعلمه ربه ويوحى إليه ما يشاء (قل:إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو) فهو – سبحانه – مختص بعلمها ، وهو لا يكشف عنها إلا فى حينها ، ولا يكشف غيره عنها . ثم يلفتهم عن السؤال هكذا عن موعدها ، إلى الاهتمام بطبيعتها وحقيقتها ، وإلى الشعور بهولها وضخامتها ، ألا وإن أمرها لعظيم ، ألا وإن عبئها لثقيل . ألا وإنها لتثقل فى السماوات والأرضين . وهى – بعد ذلك – لا تأتى إلا بغتة والغافلون عنها غافلون (ثقلت فى السماوات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة) فأولى أن ينصرف الاهتمام للتهيؤ لها والاستعداد قبل أن تأتى بغتة ؛ فلا ينفع معها الحذر ، ولا تجدى عندها الحيطة ، ما لم يأخذوا حذرهم قبلها ، وما لم يستعدوا لها , وفى الوقت متسع وفى العمر بقية . وما يدرى أحد متى تجىء ، فأولى أن يبادر اللحظة ويسارع ، وألا يضيع بعد ساعة ، قد تفجؤه بعدها الساعة ! ثم يعجب من أمر هؤلاء الذين يسألون الرسول ﷺ عن الساعة . . إنهم لا يدركون طبيعة الرسالة وحقيقة الرسول ؛ ولا يعرفون حقيقة الألوهية ، وأدب الرسول فى جانب ربه العظيم (يسألونك كأنك حفى عنها) أى كأنك دائم السؤال عنها ! مكلف أن تكشف عن موعدها ! ورسول الله ﷺ لا يسأل ربه علم ما يعلم هو أنه مختص بعلمه (قل:إنما علمها عند الله) قد اختص سبحانه به ؛ ولم يطلع عليه أحداً من خلقه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وليس الأمر أمر الساعة وحده . إنما هو أمر الغيب كله فلله وحده علم هذا الغيب . لا يطلع على شىء منه إلا من شاء ، بالقدر الذى يشاء ، فى الوقت الذى يشاء . . لذلك لا يملك العباد لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . . فقد يفعلون الأمر يريدون به جلب الخير لأنفسهم , ولكن عاقبته تكون هى الضر لهم . وقد يفعلون الأمر يريدون به رفع الضر عنهم , ولكن عاقبته المغيبة تجره عليهم ! وقد يفعلون الأمر يكرهونه فإذا عاقبته هى الخير ; ويفعلون الأمر يحبونه فإذا عاقبته هى الضر ، إنما يمثل موقف البشرية أمام الغيب المجهول . ومهما يعلم الإنسان ومهما يتعلم , فإن موقفه أمام باب الغيب الموصد ، وأمام ستر الغيب المسدل ، سيظل يذكره ببشريته المحجوبة أمام عالم الغيب المحجوب . والرسول ﷺ وهو من هو ؛ وقربه من ربه هو قربه ، مأمور أن يعلن للناس أنه أمام غيب الله بشر من البشر ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، لأنه لا يطلع على الغيب ، ولا يعرف الغايات قبل المذاهب ، ولا يرى مآل أفعاله ؛ ومن ثم لا يملك أن يختار عاقبة فعله بحيث إن رأى العاقبة المغيبة خيراً أقدم ، وإن رآها سوءاً أحجم . إنما هو يعمل ، والعاقبة تجىء كما قدر الله فى غيبه المكنون (قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً – إلا ما شاء الله – ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) وبهذا الإعلان تتم لعقيدة التوحيد الإسلامية كل خصائص التجريد المطلق ، من الشرك فى أية صورة من صوره . وتتفرد الذات الإلهية بخصائص لا يشاركها البشر فى شىء منها . ولو كان هذا البشر محمداً رسول الله وحبيبه ومصطفاه – عليه صلوات الله وسلامه – فعند عتبة الغيب تقف الطاقة البشرية ، ويقف العلم البشرى . وعند حدود البشرية يقف شخص رسول الله ﷺ وتتحدد وظيفته (إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) والرسول ﷺ نذير وبشير للناس أجمعين . ولكن

الذين(يؤمنون) هم الذين ينتفعون بما معه من النذارة والبشارة ؛ فهم الذين يفقهون حقيقة ما معه ؛ وهم الذين يدركون ما وراء هذا الذى جاء به . ثم هم بعد ذلك خلاصة البشرية كلها ، كما أنهم هم الذين يخلص بهم الرسول من الناس أجمعين . . . ثم جولة جديدة فى قضية التوحيد . تأخذ فى أولها صورة القصة ، لتصوير خطوات الإنحراف من التوحيد إلى الشرك فى النفس . ثم تنتهى إلى مواجهتهم بالسخف الذى يزاولونه فى عبادة آلهتهم التى كانوا يشركون بها ، وهى ظاهرة البطلان لأول نظرة ولأول تفكير . وتختم بتوجيه الرسولﷺ إلى تحديهم هم وهؤلاء الآلهة التى يعبدونها من دون الله ، وأن يعلن التجاءه إلى الله وحده ، وليه وناصره ... إنها جولة مع الجاهلية فى تصوراتها التى متى انحرفت عن العبودية لله الواحد لم تقف عند حد من السخف والضلال ؛ ولم ترجع إلى تدبر ولا تفكير ! وتصوير لخطوات الانحراف فى مدارجه الأولى ؛ وكيف ينتهى إلى ذلك الضلال البعيد ! إنها الفطرة التى فطر الله الناس عليها . . أن يتوجهوا إلى الله ربهم ، معترفين له بالربوبية الخالصة ، عند الخوف وعند الطمع . . والمثل المضروب هنا للفطرة يبدأ من أصل الخليقة ، وتركيب الزوجية وطبيعتها (هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها) فهى نفس واحدة فى طبيعة تكوينها ، وإن اختلفت وظيفتها بين الذكر والأنثى . وإنما هذا الاختلاف ليسكن الزوج إلى زوجه ويستريح إليها . . وهذه هى نظرة الإسلام لحقيقة الإنسان . ووظيفة الزوجية فى تكوينه . وهى نظرة كاملة وصادقة جاء بها هذا الدين منذ أربعة عشر قرناً . يوم أن كانت الديانات المحرفة تعد المرأة أصل البلاء الإنسانى ، وتعتبرها لعنة ونجساً وفخاً للغواية تحذر منه تحذيراً شديداً ، ويوم أن كانت الوثنيات - ولا تزال - تعدها من سقط المتاع أو على الأكثر خادماً أدنى مرتبة من الرجل ولا حساب له فى ذاته على الإطلاق . والأصل فى التقاء الزوجين هو السكن والاطمئنان والأنس والاستقرار . ليظلل السكون والأمن جو المحضن الذى تنمو فيه الفراخ الزغب ، وينتج فيه المحصول البشرى الثمين ، ويؤهل فيه الجيل الناشئ لحمل تراث التمدن البشرى والإضافة إليه . ولم يجعل هذا الالتقاء لمجرد اللذة العابرة والنزوة العارضة . كما أنه لم يجعله شقاقاً ونزاعاً ، وتعارضاً بين الاختصاصات والوظائف ، أو تكراراً للاختصاصات والوظائف ؛ كما تخبط الجاهليات فى القديم والحديث سواء ! وبعد ذلك تبدأ القصة . . تبدأ من المرحلة الأولى (فلما تغشاها حملت حملاً خفيفا فمرت به) والتعبير القرآنى يلطف ويدق ويشف عند تصوير العلاقة الأولية بين الزوجين (فلما تغشاها) تنسيقاً لصورة المباشرة مع جو السكن ؛ وترقيقاً لحاشية الفعل حتى ليبدو امتزاج طائفين لا التقاء جسدين . إيحاء "للإنسان" بالصورة "الإنسانية " فى المباشرة . وافتراقها عن الصورة الحيوانية الغليظة ! . . كذلك تصوير الحمل فى أول أمره (خفيفاً) تمر به الأم بلا ثقلة كأنها لا تحسه . ثم تأتى المرحلة الثانية (فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين) لقد تبين الحمل ، وتعلقت به قلوب الزوجين ، وجاء دور الطمع فى أن يكون المولود سليماً صحيحاً صبوحاً . . إلى آخر ما يطمع الآباء والأمهات أن تكون عليه ذريتهم ، وهى أجنة فى ظلام البطون وظلام الغيوب . . وعند الطمع تستيقظ الفطرة ، فتتوجه إلى الله , تعترف له بالربوبية وحده ، وتطمع فى فضله وحده ، لإحساسها اللدنى بمصدر القوة والنعمة والإفضال الوحيد فى هذا الوجود . لذلك (دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما . فتعالى الله عما يشركون !) وتنزه عن الشرك الذى يعتقدون ويزاولون !

على أننا نرى فى زماننا هذا صنوفاً وألواناً من الشرك ؛ ممن يزعمون أنهم يوحدون الله ويسلمون له ، ترسم لنا صورة من مدارج الشرك التى ترسمها هذه النصوص .

إن الناس يقيمون لهم اليوم آلهة يسمونها "القوم" ويسمونها "الوطن " ، ويسمونها" الشعب" . . إلى آخر ما يسمون . وهى لا تعدو أن تكون أصناماً غير مجسدة كالأصنام الساذجة التى كان يقيمها الوثنيون . ولا تعدو أن تكون آلهة تشارك الله - سبحانه - فى خلقه ، وينذر لها الأبناء كما كانوا ينذرون للآلهة القديمة ! ويضحون لها كالذبائح التى كانت تقدم فى المعابد على نطاق واسع !

إن الناس يعترفون بالله ربا . ولكنهم ينبذون أوامره وشرائعه من ورائهم ظهرياً ، بينما يجعلون أوامر هذه الآلهة ومطالبها "مقدسة " . تخالف فى سبيلها أوامر الله وشرائعه , بل تنبذ نبذاً . فكيف تكون الآلهة ؟ وكيف يكون الشرك ؟ وكيف يكون نصيب الشركاء فى الأبناء . . إن لم يكن هو هذا الذى تزاوله الجاهلية الحديثة !!

ولقد كانت الجاهلية القديمة اكثر أدباً مع الله . . لقد كانت تتخذ من دونه آلهة تقدم لها هذه التقدمات من الشرك في الأبناء والثمار والذبائح لتقرب الناس من الله زلفى ! فكان الله في حسها هو الأعلى . فأما الجاهلية الحديثة فهى تجعل الآلهة الأخرى أعلى من الله عندها . فتقدس ما تأمر به هذه الآلهة وتنبذ ما يأمر به الله نبذاً !

إننا نخدع أنفسنا حين نقف بالوثنية عند الشكل الساذج للأصنام والآلهة القديمة ، والشعائر التى كان الناس يزاولونها في عبادتها واتخاذها شفعاء عند الله . . إن شكل الأصنام والوثنية فقط هو الذى تغير . كما أن الشعائر هى التى تعقدت ، واتخذت لها عنوانات جديدة . . أما طبيعة الشرك وحقيقته فهى القائمة من وراء الأشكال والشعائر المتغيرة . .

وهذا ما ينبغى ألا يخدعنا عن الحقيقة !

إن الله – سبحانه – يأمر بالعفة والحشمة والفضيلة . ولكن "الوطن" أو "الإنتاج" يأمر بأن تخرج المرأة وتتبرج وتغرى وتعمل مضيفة فى الفنادق فى صورة فتيات الجيشا فى اليابان الوثنية ! فمن الإله الذى تتبع أوامره ؟ أهو الله سبحانه ؟ أم إنها الآلهة المدعاة ؟

إن الله – سبحانه – يأمر أن تكون رابطة التجمع هى العقيدة . . ولكن "القومية " أو" الوطن" يأمر باستبعاد العقيدة من قاعدة التجمع ؛ وأن يكون الجنس أو القوم هو القاعدة . . ! فمن هو الإله الذى تتبع أوامره ؟ أهو الله – سبحانه – أم هى الآلهة المدعاة ؟ !

إن الله – سبحانه – يأمر أن تكون شريعته هى الحاكمة . ولكن عبداً من العبيد – أو مجموعة من "الشعب" – تقول:كلا ! إن العبيد هم الذين يشرعون وشريعتهم هى الحاكمة . . فمن هو الإله الذى تتبع اوامره ؟ أهو الله سبحانه أم هى الآلهة المدعاة ؟!

إنها أمثلة لما يجرى في الأرض كلها اليوم ؛ ولما تتعارف عليه البشرية الضالة . . أمثلة تكشف عن حقيقة الوثنية السائدة ، وحقيقة الأصنام المعبودة ، المقامة اليوم بديلاً من تلك الوثنية الصريحة ، ومن تلك الأصنام المنظورة ! ويجب ألا تخدعنا الأشكال المتغيرة للوثنية والشرك عن حقيقتها الثابتة !!! ولقد كان القرآن يحاور أصحاب تلك الوثنية الساذجة ؛ وتلك الجاهلية الصريحة ؛ ويخاطب عقولهم البشرية لإيقاظها من تلك الغفلة التى لا تليق بالعقل البشرى – أيّاً كانت طفولته – فيعقب على ذلك المثل الذى ضربه لهم ، وصور فيه مدارج الشرك فى النفس (أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون) إن الذى يخلق هو الذى يستحق أن يعبد ! والهتهم المدعاة – كلها – لا تخلق شيئاً بل هى تخلق ! فكيف يشركون بها ؟ كيف يجعلون لها شركاً مع الله فى نفوسهم وفى أولادهم ؟ وإن الذى يملك أن ينصر عباده بقوته ويحميهم هو الذى ينبغى أن يعبد . فالقوة والقهر والسلطان هى خصائص الألوهية وموجبات العبادة والعبودية . . والهتهم المدعاة – كلها – لا قوة لها ولا سلطان ؛ فهم لا يستطيعون نصرهم ، ولا نصر أنفسهم ! فكيف يجعلون لها شركاً مع الله فى نفوسهم وفى أولادهم ؟ إن صيغة التعبير القرآنية توحى بأنه كان يعنى كذلك تقريعهم على اتخاذ آلهة من البشر :

(أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون)

فهذه الواو والنون تشير إلى أن من بين هذه الآلهة على الأقل بشراً من "العقلاء" الذين يعبر عنهم بضمير "العاقل" ! . . وما علمنا أن العرب فى وثنيتهم كانوا يشركون بآلهة من البشر – بمعنى أنهم يعتقدون بألوهيتهم أو يقدمون الشعائر التعبدية لهم – إنما هم كانوا يشركون بأمثال هؤلاء من ناحية أنهم يتلقون منهم الشرائع الاجتماعية والأحكام فى النزاعات – أى الحاكمية الأرضية – وأن القرآن يعبر عن هذا بالشرك ، ويسوى بينه وبين شركهم الآخر بالأوثان والأصنام سواء . وهذا هو الاعتبار الإسلامى لهذا اللون من الشرك . فهو شرك كشرك الاعتقاد والشعائر لا فرق بينه وبينه ، كما اعتبر الذين يتقبلون الشرائع والأحكام من الأحبار والرهبان مشركين . مع أنهم لم يكونوا يعتقدون بألوهيتهم ولم يكونوا يقدمون لهم الشعائر كذلك . . فكله شرك وخروج عن التوحيد الذى يقوم عليه دين الله ؛ والذى تعبر عنه شهادة أن لا إله إلا الله . . مما يتفق تماماً مع ما قررناه من شرك الجاهلية الحديثة ! ولما كان الحديث عن قصة

الإنحراف فى النفس – ذلك المتمثل فى قصة الزوجين – هو حديث كل شرك ! والمقصود به هو تنبيه أولئك الذين كانوا يخاطبون بهذا القرآن أول مرة , إلى سخف ما هم عليه من الشرك ، واتخاذ تلك الآلهة التى لا تخلق شيئاً بل هى تخلق , ولا تنصر عبادها بل لا تملك لأنفسها نصرا ، سواء أكانت من البشر أم من غيرهم ، فهى كلها لا تخلق ولا تنصر – لما كان هذا هو اتجاه السياق القرآنى ، فإنه ينتقل من القصة ومن أسلوب الحكاية فى الفقرة السابقة ، إلى مواجهة مشركى العرب وإلى أسلوب الخطاب انتقالاً مباشراً ، كأنه امتداد للحديث السابق عليه عن تلك الآلهة (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم ادعوتموهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم . فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها ؟ أم لهم أيد يبطشون بها ؟ أم لهم أعين يبصرون بها ؟ أم لهم آذان يسمعون بها ؟) لقد كانت وثنية مشركى العرب وثنية ساذجة – كما أسلفنا – سخيفة فى ميزان العقل البشرى فى أية مرحلة من مراحله ! ومن ثم كان القرآن ينبه فيهم هذا العقل ؛ وهو يواجههم بسخافة ما يزاولونه من الشرك بمثل هذه الآلهة . إن أصنامهم هذه الساذجة بهيئتها الظاهرة ليس لها أرجل تمشى بها ، وليس لها أيد تبطش بها . وليس لها أعين تبصر بها ، وليس لها آذان تسمع بها . . هذه الجوارح التى تتوافر لهم هم . فكيف يعبدون ما هو دونهم من هذه الأحجار الهامدة ؟ فأما ما يرمزون إليه بهذه الأصنام من الملائكة حيناً ، ومن الآباء والأجداد حيناً ، فهم عباد أمثالهم من خلق الله مثلهم . لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ! والازدواج فى عقائد مشركى العرب بين الأصنام الظاهرة ، والرموز الباطنة هو – فيما نحسب – سبب مخاطبتهم هكذا عن هذه الآلهة:مرة بضمير العاقل ملحوظاً فيها ما وراء الأصنام من الرمز ، ومرة بالإشارة المباشرة إلى الأصنام ذاتها ، وأنها فاقدة للحياة والحركة ! وهى فى مجموعها ظاهرة البطلان فى منطق العقل البشرى ذاته ، الذى يوقظه القرآن ، ويرفعه عن هذه الغفلة المزرية ! وفى نهاية هذه المحاجة يوجه الله سبحانه رسوله ﷺ أن يتحداهم ويتحدى آلهتهم العاجزة – كلها – وأن يعلن عن عقيدته الناصعة فى تولى الله – وحده – له (قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليى الله الذى نزل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) إنها كلمة صاحب الدعوة ، فى وجه الجاهلية . . ولقد قالها رسول الله ﷺ كما أمره ربه ؛ وتحدى بها المشركين فى زمانه وآلهتهم المدعاة (قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون) لقد قذف فى وجوههم ووجوه آلهتهم المدعاة بهذا التحدى . . وقال لهم:ألا يألوا جهداً فى جمع كيدهم وكيد آلهتهم ؛ بلا إمهال ولا إنظار ! وقالها فى لهجة الواثق المطمئن إلى السند الذى يرتكن إليه ، ويحتمى به من كيدهم جميعاً (إن وليى الله ، الذى نزل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين) فأعلن بها عمن إليه يرتكن . إنه يرتكن إلى الله . . الذى نزل الكتاب . . فدل بتنزيله على إرادته – سبحانه – فى أن يواجه رسوله الناس بالحق الذى فيه ؛ كما قدر أن يعلى هذا الحق على باطل المبطلين . . وأن يحمى عباده الصالحين الذين يبلغونه ويحملونه ويثقون فيه . وإنها لكلمة صاحب الدعوة إلى الله – بعد رسول الله ﷺ فى كل مكان وفى كل زمان : (قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون). .(إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) إنه لا بد لصاحب الدعوة إلى الله أن يتجرد من أسناد الأرض ؛ وأن يستهين كذلك بأسناد الأرض . . وصاحب الدعوة إلى الله يرتكن إلى الله . فما هذه الأولياء والأسناد الأخرى إذن ؟ وماذا تساوى فى حسه ؛ حتى لو قدرت على أذاه ؟!إنما تقدر على أذاه بإذن ربه الذى يتولاها . لا عجزاً من ربه عن حمايته من أذاها _ سبحانه وتعالى _ ولا تخلياً منه سبحانه عن نصرة أوليائه . . ولكن ابتلاء لعباده الصالحين للتربية والتمحيص والتدريب . واستدراجاً لعباده الطالحين للإعذار والإمهال والكيد المتين ! إن صاحب الدعوة إلى الله – فى كل زمان وفى كل مكان – لن يبلغ شيئاً إلا بمثل هذه الثقة , وإلا بمثل هذه العزمة ، وإلا بمثل ذلك اليقين (إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) لقد أمر رسول الله ﷺ أن يتحدى المشركين . فتحداهم . وأمر أن يبين لهم عجز آلهتهم وسخف الشرك بها فبين لهم (والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) وإذا كان هذا التقرير ينطبق على آلهة الوثنية الساذجة فى جاهلية العرب القديمة . . فإنه ينطبق كذلك على كل الآلهة المدعاة فى الجاهلية الحديثة ، وإذا كانت آلهة العرب الساذجة لا تسمع ، وعيونها المصنوعة من الخرز أو الجوهر تنظر ولا تبصر ! فإن بعض الآلهة الجديدة كذلك لا تسمع ولا تبصر . . فإنما هم هم . . فى كل أرض وفى كل حين !!!

فى الآخير تجىء هذه التوجيهات الربانية من الله سبحانه إلى أوليائه . . رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه . . وهم بعد فى مكة ؛ وفى مواجهة تلك الجاهلية من حولهم فى الجزيرة العربية وفى الأرض كافة . . هذه التوجيهات الربانية فى مواجهة تلك الجاهلية الفاحشة ، وفى مواجهة هذه البشرية الضالة ، تدعو صاحب

الدعوة ﷺ إلى السماحة واليسر ، والأمر بالواضح من الخير الذى تعرفه فطرة البشر فى بساطتها ، بغير تعقيد ولا تشديد . والإعراض عن الجاهلية فلا يؤاخذهم ، ولا يجادلهم , ولا يحفلهم . . فإذا تجاوزوا الحد وأثاروا غضبه بالعناد والصد ، ونفخ الشيطان فى هذا الغضب ، فليستعذ بالله ليهدأ ويطمئن ويصبر (خذ العفو ، وأمر بالعرف , وأعرض عن الجاهلين . وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم . إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) ثم يعرفه بطبيعة أولئك الجاهلين ؛ والوسوسة التى وراءهم والتى تمدهم فى الغى والضلال . ويذكر طرفاً من سلوكهم مع رسول الله ﷺ وطلبهم الخوارق ؛ ليوجهه إلى ما يقول لهم ، ليعرفهم بطبيعة الرسالة وحقيقة الرسول ، وليصحح لهم تصوراتهم عنها وعنه وعن علاقته بربه الكريم (وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون . وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها ! قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى . هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) وبمناسبة هذه الإشارة إلى ما أوحاه إليه ربه من القرآن ، يجىء توجيه المؤمنين إلى أدب الاستماع لهذا القرآن ؛ وأدب ذكر الله ؛ مع التنبيه إلى مداومة هذا الذكر ، وعدم الغفلة عنه . فإن الملائكة الذين لا يخطئون يذكرون ويسبحون ويسجدون ، فما أولى البشر الخطائين أن لا يغفلوا عن الذكر والتسبيح ؟

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ{١٩٩} وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{٢٠٠} إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ{٢٠١} وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ{٢٠٢} وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{٢٠٣} وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{٢٠٤} وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ{٢٠٥} إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ){٢٠٦}

(خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين ، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم . إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) خذ العفو الميسر الممكن من أخلاق الناس فى المعاشرة والصحبة ، ولا تطلب إليهم الكمال , ولا تكلفهم الشاق من الأخلاق . واعف عن أخطائهم وضعفهم ونقصهم . . كل أولئك فى المعاملات الشخصية لا فى العقيدة الدينية ولا فى الواجبات الشرعية . فليس فى عقيدة الإسلام ولا شريعة الله يكون التغاضى والتسامح . ولكن فى الأخذ والعطاء والصحبة والجوار . وبذلك تمضى الحياة سهلة لينة . فالإغضاء عن الضعف البشرى ، والعطف عليه ، والسماحة معه ، واجب الكبار الأقوياء تجاه الصغار الضعفاء . ورسول الله ﷺ راع وهاد ومعلم ومرب . فهو أولى الناس بالسماحة واليسر والإغضاء . . وكذلك كان ﷺ لم يغضب لنفسه قط . فإذا كان فى دين الله لم يقم لغضبه شىء ! . . وكل أصحاب الدعوة مأمورون بما أمر به رسول الله ﷺ فالتعامل مع النفوس البشرية لهدايتها يقتضى سعة صدر ، وسماحة طبع ، ويسراً وتيسيراً فى غير تهاون ولا تفريط فى دين الله (وأمر بالعرف). . وهو الخير المعروف الواضح الذى لا يحتاج إلى مناقشة وجدال ؛ والذى تلتقى عليه الفطر السليمة والنفوس المستقيمة . والنفس حين تعتاد هذا المعروف يسلس قيادها بعد ذلك ، وتتطوع لألوان من الخير دون تكليف وما يصد النفس عن الخير شىء مثلما يصدها التعقيد والمشقة والشد فى أول معرفتها بالتكاليف ! ورياضة النفوس تقتضى أخذها فى أول الطريق بالميسور المعروف من هذه التكاليف حتى يسلس قيادها وتعتاد هى بذاتها النهوض بما فوق ذلك فى يسر وطواعية ولين (وأعرض عن الجاهلين) من الجهالة ضد الرشد ، والجهالة ضد العلم . . وهما قريب من قريب . . والإعراض يكون بالترك والإهمال ؛ والتهوين من شأن ما يجهلون به من التصرفات والأقوال ؛ والمرور بها مر الكرام ؛ وعدم الدخول معهم فى جدال لا ينتهى إلى شىء إلا الشد والجذب ، وإضاعة الوقت والجهد . . وقد ينتهى السكوت عنهم ، والإعراض عن جهالتهم إلى تذليل نفوسهم وترويضها ، بدلاً من الفحش فى الرد واللجاج فى العناد . فإن لم يؤد إلى هذه النتيجة فيهم ، فإنه يعزلهم عن الآخرين الذين فى قلوبهم خير . إذ يرون صاحب الدعوة محتملاً معرضاً عن اللغو ، ويرون هؤلاء الجاهلين يحمقون ويجهلون فيسقطون من عيونهم ويُعزلون ! ولكن رسول الله ﷺ بشر . وقد يثور غضبه على جهالة الجهال وسفاهة السفهاء وحمق الحمقى . . وإذا قدر عليها رسول الله ﷺ فقد يعجز عنها من وراءه من أصحاب الدعوة . . وعند الغضب ينزغ الشيطان فى النفس ، وهى ثائرة هائجة مفقودة الزمام ! . . لذا يأمره ربه أن يستعيذ بالله ؛ لينفئ غضبه ، ويأخذ على الشيطان طريقه (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) وهذا التعقيب (إنه سميع عليم) يقرر أن الله سبحانه سميع لجهل الجاهلين وسفاهتهم ; عليم بما تحمله نفسك من أذاهم . . وفى هذا ترضية وتسرية للنفس . . فحسبها أن الجليل العظيم يسمع ويعلم ! وماذا تبتغى نفس بعدما يسمع الله ويعلم ما تلقى

من السفاهة والجهل وهى تدعو إليه الجاهلين ؟! ثم يتخذ السياق القرآنى طريقاً آخر للإيحاء إلى نفس صاحب الدعوة بالرضى والقبول , وذكر الله عند الغضب لأخذ الطريق على الشيطان ونزغه اللئيم (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) وتكشف هذه الآية القصيرة عن إيحاءات عجيبة ، وحقائق عميقة ، يتضمنها التعبير القرآنى المعجز الجميل ، إن اختتام الآية بقوله (فإذا هم مبصرون) ليضيف معانى كثيرة إلى صدر الآية . ليس لها ألفاظ تقابلها هناك ، إنه يفيد أن مس الشيطان يعمى ويطمس ويغلق البصيرة . ولكن تقوى الله ومراقبته وخشية غضبه وعقابه ، تلك الوشيجة التى تصل القلوب بالله وتوقظها من الغفلة عن هداه ، تذكر المتقين . فإذا تذكروا تفتحت بصائرهم ؛ وتكشفت الغشاوة عن عيونهم (فإذا هم مبصرون) إن مس الشيطان عمى , وإن تذكر الله إبصار ، إن مس الشيطان ظلمة ، وإن الاتجاه إلى الله نور ، إن مس الشيطان تجلوه التقوى ، فما للشيطان على المتقين من سلطان . .ذلك شأن المتقين (إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون). . جاء بيان هذا الشأن معترضاً بين أمر الله سبحانه بالإعراض عن الجاهلين ؛ وبيان ماذا ومن ذا وراء هؤلاء الجاهلين ، يدفعهم إلى الجهل والحمق والسفه الذى يزاولون . . فلما انتهى التعقيب عاد السياق يحدث عن الجاهلين (وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون . وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها . قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى ، هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (وإخوانهم الذين يمدونهم فى الغى هم شياطين الجن . . وقد يكونون هم شياطين الإنس أيضاً . . إنهم يزيدون لهم فى الضلال ، لا يكلون ولا يسأمون ولا يسكتون ! وهم من ثم يحمقون ويجهلون ! ويظلون فيما هم فيه سادرين . ولقد كان المشركون لا يكفون عن طلب الخوارق من رسول الله ﷺ والسياق هنا يحكى بعض أقوالهم الدالة على جهلهم بحقيقة الرسالة وطبيعة الرسول (وإذا لم تأتهم بآية قالوا: لولا اجتبيتها !) أى لولا ألححت على ربك حتى ينزلها ! . . أو هلا فعلتها أنت من نفسك ؟ ألست نبياً ؟ إنهم لم يكونوا يدركون طبيعة الرسول ووظيفته ؛ كذلك لم يكونوا يعرفون أدبه مع ربه ; وأنه يتلقى منه ما يعطيه ؛ ولا يقدم بين يدى ربه ولا يقترح عليه ؛ ولا يأتى كذلك الشىء من عند نفسه . . والله يأمره أن يبين لهم (قل:إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى) فلا أقترح ، ولا أبتدع ، ولا أملك إلا ما يوحيه إلى ربى . ولا آتى إلا ما يأمرنى به . . لقد كانت الصورة الزائفة للمتنبئين فى الجاهليات تتراءى لهم ، ولم يكن لهم فقه ولا معرفة بحقيقة الرسالة وطبيعة الرسول كذلك يؤمر رسول الله ﷺ أن يبين لهم ما فى هذا القرآن الذى جاءهم به ، وحقيقته التى يغفلون عنها ، ويطلبون الخوارق المادية ، وأمامهم هذا الهدى الذى يغفلون عنه (هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) إنه هذا القرآن . . بصائر تهدى ، ورحمة تفيض . . لمن يؤمن به ، ويغتنم هذا الخير العميم . . إنه هذا القرآن الذى كان الجاهليون القدامى يصرفون عنه الجماهير بطلب الخوارق المادية . والذى يصرف عنه الجاهليون المحدثون الجماهير بالقرآن الجديد الذى يفترونه , وبشتى وسائل الإعلام والتوجيه ! إنه هذا القرآن الذى يقول عنه العليم الخبير (هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) بصائر تكشف وتنير . وهدى يرشد ويهدى . ورحمة تغمر وتفيض . . (لقوم يؤمنون) فهم الذين يجدون هذا كله فى هذا القرآن الكريم . ولأن هذا هو القرآن يجىء مباشرة فى السياق هذا التوجيه للمؤمنين (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون) فتختتم به السورة التى بدأت بالإشارة إلى هذا القرآن (كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر به وذكرى للمؤمنين) وإن العكوف على هذا القرآن – فى وعى وتدبر لا مجرد التلاوة والترنم ! – لينشئ فى القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى ؛ ومن المعرفة المطمئنة المستيقنة ؛ ومن الحرارة والحيوية والانطلاق ! ومن الإيجابية والعزم والتصميم ؛ ما لا تدانيه رياضة أخرى أو معرفة أو تجريب ! ثم تنتهى السورة بالتوجيه إلى ذكر الله عامة . . فى الصلاة وفى غير الصلاة (واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ، ولا تكن من الغافلين . إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) و ذكر الله – كما توجه إليه هذه النصوص – ليس مجرد الذكر بالشفة واللسان . ولكنه الذكر بالقلب والجنان . فذكر الله إن لم يرتعش له الوجدان , وإن لم يخفق له القلب ، وإن لم تعش به النفس . . إن لم يكن مصحوباً بالتضرع والتذلل والخشية والخوف . . لن يكون ذكراً . . بل قد يكون سوء أدب فى حق الله سبحانه . إنما هو التوجه إلى الله بالتذلل والضراعة ، وبالخشية والتقوى . . إنما هو استحضار جلال الله وعظمته ، واستحضار المخافة لغضبه وعقابه ، واستحضار الرجاء فيه والالتجاء إليه . . حتى يصفو الجوهر الروحى فى الإنسان ، ويتصل بمصدره اللدنى الشفيف المنير . . فإذا تحرك اللسان مع القلب ؛ وإذا نبست الشفاه مع الروح ؛ فليكن ذلك فى صورة لا تخدش الخشوع ولا تناقض الضراعة . ليكن ذلك فى صوت خفيض ، لا مكاء تصدية ، ولا صراخاً وضجة ، ولا غناء وتطرية ! (واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول) (بالغدو والآصال) فى مطالع النهار وفى أواخره . فيظل القلب موصولاً بالله طرفى النهار (ولا تكن من الغافلين) الغافلين عن ذكر الله . . لا بالشفة واللسان ، ولكن بالقلب والجنان ... اذكر ربك ولا تغفل عن

ذكره ؛ ولا يغفل قلبك عن مراقبته ؛ فالإنسان أحوج إلى أن يظل على اتصال بربه ، ليتقوى على نزغات الشيطان ، ثم يضرب مثلا بالملائكة الكرام ، فليس له في تركيب طبيعتهم مكان ! ولا تستبد بهم نزوة ، ولا تغلبهم شهوة . ومع هذا فهم دائبون على تسبيح الله وذكره ، لا يستكبرون عن عبادته ولا يقصرون . والإنسان أحوج منهم إلى الذكر والعبادة والتسبيح . وطريقه شاق ! وطبيعته قابلة لنزغ الشيطان ! وقابلة للغفلة المردية ! وجهده محدود . لولا هذا الزاد فى الطريق الكؤود (إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته . ويسبحونه . وله يسجدون)

إن العبادة والذكر عنصر أساسى فى منهج هذا الدين . . إنه ليس منهج معرفة نظرية . وجدل لاهوتى . إنه منهج حركة واقعية لتغيير الواقع البشرى . وللواقع البشرى جذوره وركائزه فى نفوس الناس وفى أوضاعهم سواء . وتغيير هذا الواقع الجاهلى إلى الواقع الربانى الذى يريده الله للناس وفق منهجه مسألة شاقة عسيرة ؛ تحتاج إلى جهد طويل ، وإلى صبر عميق . وطاقة صاحب الدعوة محدودة . ولا قبل له بمواجهة هذه المشقة دون زاد يستمده من ربه . إنه ليس العلم وحده ، وليست المعرفة وحدها . إنما هى العبادة لله والاستمداد منه . . هى الزاد ، وهى السند ، وهى العون ؛ فى الطريق الشاق الطويل !

إنه زاد الطريق . وعدة الموكب الكريم فى هذا الطريق . .

سورة الأنفال
مدنية و آياتها 75

نزلت سورة الأنفال بعد سورة البقرة فى غزوة بدر الكبرى فى شهر رمضان من العام الثانى للهجرة بعد تسعة عشر شهراً من الهجرة على الأرجح . . ولكن القول بأن هذه السورة نزلت بعد سورة البقرة لا يمثل حقيقة نهائية . فسورة البقرة لم تنزل دفعة واحدة ؛ بل أن منها ما نزل فى أوائل العهد بالمدينة ، ومنها ما نزل فى أواخر هذا العهد . وبين هذه الأوائل وهذه الأواخر نحو تسع سنوات ! ومن المؤكد أن سورة الأنفال نزلت بين هذين الموعدين ؛ وأن سورة البقرة قبلها وبعدها ظلت مفتوحة ؛ تنزل الآيات ذوات العدد منها بين هذين الموعدين ؛ وتضم إليها وفق الأمر النبوى التوقيفى . ولكن المعول عليه فى قولهم:إن هذه السورة نزلت بعد هذه السورة , هو نزول أوائل السور . وفى بعض الروايات أن الآيات من ٣٠ إلى غاية ٣٦ من سورة الأنفال مكية . . وهى هذه الآيات (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك . ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ...) ولعل الذى دعا أصحاب هذه الروايات إلى القول بمكية هذه الآيات أنها تتحدث عن أمور كانت فى مكة قبل الهجرة . . ولكن هذا ليس بسبب . . فإن هناك كثيراً من الآيات المدنية تتحدث عن أمور كانت فى مكة قبل الهجرة . وفى هذه السورة نفسها آية:٢٦ قبل هذه الآيات تتحدث عن مثل هذا الشأن: (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) وبعد , فإنه من أجل مثل هذه الملابسات فى الروايات الواردة عن أسباب النزول ، آثرنا المنهج الذى جرينا عليه فى عرض القرآن الكريم كما هو ترتيب السور فى مصحف عثمان - رضى الله عنه - لا وفق ترتيب النزول الذى لا سبيل اليوم فيه إلى يقين . . مع محاولة الاستئناس بأسباب النزول وملابساته قدر ما يستطاع .

والله المستعان . .

هذه السورة نزلت فى غزوة بدر الكبرى . . وغزوة بدر - بملابساتها وبما ترتب عليها فى تاريخ الحركة الإسلامية وفى التاريخ البشرى جملة - تقوم معلماً ضخماً فى طريق تلك الحركة وفى طريق هذا التاريخ . ومع كل عظمة هذه الغزوة ، فإن قيمتها لا تتضح أبعادها الحقيقية إلا حين نعرف طبيعتها وحين نراها حلقة من حلقات "الجهاد فى الإسلام" ، وحين ندرك بواعث هذا الجهاد وأهدافه . كذلك نحن لا ندرك طبيعة "الجهاد فى الإسلام" وبواعثه وأهدافه ، قبل أن نعرف طبيعة هذا الدين ذاته . .

لقد لخص الإمام ابن القيم سياق الجهاد فى الإسلام فى "زاد المعاد" ، فى الفصل الذى عقده باسم:"فصل فى ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقى الله عز وجل:أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى:أن يقرأ باسم ربه الذى خلق . وذلك أول نبوته . فأمره أن يقرأ فى نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ . ثم أنزل عليه (يا أيها المدثر . قم فأنذر) فنبأه بقوله (اقرأ) وأرسله ب (يا أيها المدثر). ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين . ثم أنذر قومه . ثم أنذر من حولهم من العرب . ثم أنذر العرب قاطبة . ثم أنذر العالمين . فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ؛ ويؤمر بالكف والصبر والصفح . ثم أذن له فى الهجرة ، وأذن له فى القتال . ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله . ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله . . ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام:أهل صلح وهدنة . وأهل حرب . وأهل ذمة . فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم , وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد ؛ فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده . . ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها:فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا فى الإسلام . وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم . فجاهد الكفار بالسيف والسنان , والمنافقين بالحجة واللسان . وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم . . وجعل أهل العهد فى ذلك ثلاثة أقسام:قسماً أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له , فحاربهم وظهر عليهم . وقسماً لهم عهد موقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم . وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه ؛ أو كان لهم عهد مطلق , فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر ؛ فإذا انسلخت قاتلهم . . فقتل الناقض لعهده ؛ وأجل من لا عهد له ، أو له عهد مطلق ، أربعة أشهر . وأمره أن يتم للموفى بعهده عهده إلى مدته ؛ فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم . وضرب على أهل الذمة الجزية . . فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة

أقسام:محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة . . ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين:محاربين وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه . فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام:مسلم مؤمن به . ومسالم له آمن . وخائف محارب . . وأما سيرته فى المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ؛ ويكل سرائرهم إلى الله ؛ وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ; وأمر أن يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهى أن يصلى عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم . . فهذه سيرته فى أعدائه من الكفار والمنافقين" . .

ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد فى الإسلام تتجلى سمات أصيلة وعميقة فى المنهج الحركى لهذا الدين ، جديرة بالوقوف أمامها طويلاً . ولكننا فى هذه الظلال لا نملك إلا أن نشير إليها إشارات مجملة:

السمة الأولى:هى الواقعية الجدية فى منهج هذا الدين . . فهو حركة تواجه واقعاً بشرياً . . وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعى . . إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية ; تقوم عليها أنظمة واقعية عملية ؛ تسندها سلطات ذات قوة مادية . . ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه . . تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها ؛ تلك التى تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات ; وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبدهم لغير ربهم الجليل . . إنها حركة لا تكتفى بالبيان فى وجه السلطان المادى . كما أنها لا تستخدم القهر المادى لضمائر الأفراد . . وهذه كتلك سواء فى منهج هذا الدين وهو يتحرك لإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده كما سيجىء .

والسمة الثانية فى منهج هذا الدين . . هى الواقعية الحركية . فهو حركة ذات مراحل . كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية . وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التى تليها . . فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة . كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة . . والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين فى الجهاد ، ولا يراعون هذه السمة فيه ، ولا يدركون طبيعة المراحل التى مر بها هذا المنهج ، وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها . . الذين يصنعون هذا يخلطون خلطاً شديداً ؛ ويلبسون منهج هذا الدين لبساً مضللاً ، ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادئ والقواعد النهائية . ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصاً نهائياً ؛ يمثل القواعد النهائية فى هذا الدين . ويقولون – وهم مهزومون روحياً وعقلياً تحت ضغط الواقع اليائس لذرارى المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان –:إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع ! ويحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميلاً بتخليه عن منهجه وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً ، وتعبيد الناس لله وحده ، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد ! لا بقهرهم على اعتناق عقيدته . ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة . . بعد تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة ، أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها . .

والسمة الثالثة:هى أن هذه الحركة الدائبة ، والوسائل المتجددة ، لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة ، ولا عن أهدافه المرسومة . فهو منذ اليوم الأول – سواء وهو يخاطب العشيرة الأقربين ، أو يخاطب قريشاً ، أو يخاطب العرب أجمعين ، أو يخاطب العالمين , إنما يخاطبهم بقاعدة واحدة ؛ ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد . . هو إخلاص العبودية لله ، والخروج من العبودية للعباد . . لا مساومة فى هذه القاعدة ولا لين .ثم يمضى إلى تحقيق هذا الهدف الواحد , فى خطة مرسومة ؛ ذات مراحل محددة ؛ لكل مرحلة وسائلها المتجددة . على نحو ما أسلفنا فى الفقرة السابقة .

والسمة الرابعة:هى ذلك الضبط التشريعى للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى – على النحو الملحوظ فى ذلك التلخيص الجيد الذى نقلناه عن "زاد المعاد . "وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام لله هو الأصل العالمى الذى على البشرية كلها أن تفىء إليه ؛ أو أن تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوته بأى حائل من نظام سياسى , أو قوة مادية . وأن تخلى بينه وبين كل فرد، يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته . ولكن لا يقاومه ولا يحاربه ! فإن فعل ذلك أحد كان على الإسلام أن يقاتله حتى يقتله أو حتى يعلن استسلامه !

والمهزومون روحياً وعقلياً ممن يكتبون عن "الجهاد في الإسلام" ليدفعوا عن الإسلام هذا "الاتهام ! " . . يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة ، وبين منهجه فى تحطيم القوى السياسية المادية التى تحول بين الناس وبينه ؛ والتى تعبد الناس للناس ؛ وتمنعهم من العبودية لله . . وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما . . ومن أجل هذا التخليط – وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة !– يحاولون أن يحصروا الجهاد فى الإسلام فيما يسمونه اليوم:"الحرب الدفاعية . . " والجهاد فى الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم ، ولا بواعثها , ولا تكييفها كذلك . . إن بواعث الجهاد فى الإسلام ينبغى تلمسها فى طبيعة" الإسلام" ذاته ، ودوره فى هذه الأرض ، وأهدافه العليا التى قررها الله ؛ وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة ، وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات . .

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير "الإنسان" فى "الأرض" من العبودية للعباد – ومن العبودية لهواه أيضاً وهى من العبودية للعباد – وذلك بإعلان ألوهية الله وحده – سبحانه – وربوبيته للعالمين . . إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها:الثورة الشاملة على حاكمية البشر فى كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها ؛ والتمرد الكامل على كل وضع فى أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور . . أو بتعبير آخر مرادف:الألوهية فيه للبشر فى صورة من الصور . . ذلك أن الحكم الذى مرد الأمر فيه إلى البشر ، ومصدر السلطات فيه هم البشر ، هو تأليه للبشر ، يجعل بعضهم لبعض أرباباً من دون الله . . إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده إلى الله ; وطرد المغتصبين له ؛ الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون منهم مقام الأرباب ؛ ويقوم الناس منهم مقام العبيد . . إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله فى الأرض . . أو بالتعبير القرآنى الكريم (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه . . ذلك الدين القيم . .) (قل:يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم:ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا:اشهدوا بأنا مسلمون). ومملكة الله فى الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية فى الأرض رجال بأعيانهم – هم رجال الدين كما كان الأمر فى سلطان الكنيسة ، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة ، كما كان الحال فى ما يعرف باسم "الثيوقراطية " أو الحكم الإلهى المقدس !!! – ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هى الحاكمة ؛ وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة . وقيام مملكة الله فى الأرض ، وإزالة مملكة البشر . وانتزاع السلطان من أيدى مغتصبيه من العباد ورده إلى الله وحده . وسيادة الشريعة الإلهية وحدها وإلغاء القوانين البشرية . . كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان . لأن المتسلطين على رقاب العباد ، المغتصبين لسلطان الله فى الأرض ، لا يسلمون فى سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان . وإلا فما كان أيسر عمل الرسل فى إقرار دين الله فى الأرض ! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – وتاريخ هذا الدين على ممر الأجيال ! إن هذا الإعلان العام لتحرير "الإنسان" فى "الأرض" من كل سلطان غير سلطان الله ، بإعلان ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ، لم يكن إعلاناً نظرياً فلسفياً سلبياً . . إنما كان إعلاناً حركياً واقعياً إيجابياً . . إعلاناً يراد له التحقيق العملى فى صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله ؛ ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلا شريك . . ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل "الحركة " إلى جانب شكل "البيان" . . ذلك ليواجه "الواقع" البشرى بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه . والواقع الإنسانى ، أمس واليوم وغداً ، يواجه هذا الدين – بوصفه إعلاناً عاماً لتحرير" الإنسان" فى "الأرض" من كل سلطان غير سلطان الله – بعقبات اعتقادية تصورية . وعقبات مادية واقعية . . عقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية ، إلى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة . . وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد . . وإذا كان "البيان" يواجه العقائد والتصورات ، فإن "الحركة " تواجه العقبات المادية الأخرى – وفى مقدمتها السلطان السياسى القائم على العوامل الاعتقادية التصورية , والعنصرية والطبقية ، والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة . . وهما معاً – البيان والحركة – يواجهان "الواقع البشرى" بجملته ، بوسائل مكافئة لكل مكوناته . . وهما معاً لا بد منهما لانطلاق حركة التحرير للإنسان فى الأرض . . " الإنسان" كله فى "الأرض" كلها . . وهذه نقطة هامة لا بد من تقريرها مرة أخرى ! إن هذا الدين ليس إعلاناً لتحرير الإنسان العربى ! وليس رسالة خاصة بالعرب ! . . إن موضوعه هو "الإنسان" . . نوع "الإنسان" . . ومجاله هو "الأرض" . . كل الأرض . إن الله – سبحانه – ليس رباً للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم . . إن الله هو (رب العالمين). . وهذا الدين يريد أن يرد(العالمين)إلى ربهم ؛ وأن ينتزعهم من العبودية لغيره . والعبودية الكبرى – فى نظر الإسلام – هى خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر . . وهذه هى "العبادة " التى يقرر أنها لا تكون إلا لله .

وأن من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه فى هذا الدين . ولقد نص رسول الله ﷺ على أن "الاتباع" فى الشريعة والحكم هو "العبادة" التى صار بها اليهود والنصارى "مشركين" مخالفين لما أمروا به من "عبادة" الله وحده . .

ومن ثم لم يكن بد للإسلام أن ينطلق فى "الأرض" لإزالة "الواقع" المخالف لذلك الإعلان العام . . بالبيان وبالحركة مجتمعين . . وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التى تعبد الناس لغير الله – أى تحكمهم بغير شريعة الله وسلطانه – والتى تحول بينهم وبين الاستماع إلى "البيان" واعتناق "العقيدة" بحرية لا يتعرض لها السلطان . ثم لكى يقيم نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلى – بعد إزالة القوة المسيطرة – سواء كانت سياسية بحتة ، أو متلبسة بالعنصرية أو الطبقية داخل العنصر الواحد ! إنه لم يكن من قصد الإسلام قط أن يكره الناس على اعتناق عقيدته . . والذى يدرك طبيعة هذا الدين – على النحو المتقدم – يدرك معها حتمية الانطلاق الحركى للإسلام فى صورة الجهاد بالسيف – إلى جانب الجهاد بالبيان – ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية – بالمعنى الضيق الذى يفهم اليوم من اصطلاح "الحرب الدفاعية" – كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر أن يصوروا حركة الجهاد فى الإسلام – إنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير "الإنسان" فى" الأرض" . . بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشرى ؛ وفى مراحل محددة لكل مرحلة منها وسائلها المتجددة . وإذا لم يكن بد من أن نسمى حركة الإسلام الجهادية حركة دفاعية ، فلا بد أن نغير مفهوم كلمة "دفاع" . ونعتبره" دفاعاً عن الإنسان" ذاته ، ضد جميع العوامل التى تقيد حريته وتعوق تحرره . . هذه العوامل التى تتمثل فى المعتقدات والتصورات ؛ كما تتمثل فى الأنظمة السياسية , القائمة على الحواجز الاقتصادية والطبقية والعنصرية ، التى كانت سائدة فى الأرض كلها يوم جاء الإسلام ؛ والتى ما تزال أشكال منها سائدة فى الجاهلية الحاضرة فى هذا الزمان ! وبهذا التوسع فى مفهوم كلمة "الدفاع" نستطيع أن نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الإسلامى فى "الأرض" بالجهاد ؛ ونواجه طبيعة الإسلام ذاتها ، وهى أنه إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد ، وتقرير ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ؛ وتحطيم مملكة الهوى البشرى فى الأرض ، وإقامة مملكة الشريعة الإلهية فى عالم الإنسان . . أما محاولة إيجاد مبررات دفاعية للجهاد الإسلامى بالمعنى الضيق للمفهوم العصرى للحرب الدفاعية ؛ ومحاولة البحث عن أسانيد لإثبات أن وقائع الجهاد الإسلامى كانت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على "الوطن الإسلامى ! " – وهو فى عرف بعضهم جزيرة العرب – فهى محاولة تنم عن قلة إدراك لطبيعة هذا الدين ، ولطبيعة الدور الذى جاء ليقوم به فى الأرض . كما أنها تشى بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر ؛ وأمام الهجوم الاستشراقى الماكر على الجهاد الإسلامى ! ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان – رضى الله عنهم – قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامى إلى أطراف الأرض ؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد ، وأمام الدعوة تلك العقبات المادية – من أنظمة الدولة السياسية ؛ وأنظمة المجتمع العنصرية والطبقية ، والاقتصادية الناشئة من الاعتبارات العنصرية والطبقية , والتى تحميها القوة المادية للدولة كذلك ؟! ثم تقف أمام هذه العقبات تجاهدها باللسان والبيان ! . . إنها تجاهد باللسان والبيان حينما يخلى بينها وبين الأفراد ، تخاطبهم بحرية ، وهم مطلقو السراح من جميع تلك المؤثرات . . فهنا (لا إكراه فى الدين). . أما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية ، فلا بد من إزالتها أولاً بالقوة ، للتمكن من مخاطبة قلب الإنسان وعقله ؛ وهو طليق من هذه الأغلال ! إن الجهاد ضرورة للدعوة . إذا كانت أهدافها هى إعلان تحرير الإنسان إعلاناً جاداً يواجه الواقع الفعلى بوسائل مكافئة له فى كل جوانبه ؛ ولا يكتفى بالبيان الفلسفى النظرى السلبى ! سواء كان الوطن الإسلامى – وبالتعبير الإسلامى الصحيح: دار الإسلام – آمنا أم مهدداً من جيرانه . فالإسلام حين يسعى إلى السلم ، لا يقصد تلك السلم الرخيصة ؛ وهى مجرد أن يأمن على الرقعة الخاصة التى يعتنق أهلها العقيدة الإسلامية . إنما هو يريد السلم التى يكون الدين فيها كله لله . أى تكون عبودية الناس كلهم فيها لله ؛ والتى لا يتخذ فيها الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله . والعبرة بنهاية المراحل التى وصلت إليها الحركة الجهادية فى الإسلام – بأمر من الله – لا بأوائل أيام الدعوة ولا بأوسطها . . ولقد انتهت هذه المراحل كما يقول الإمام ابن القيم:" فاستقر أمر الكفار معه – بعد نزول براءة – على ثلاثة أقسام: محاربين له , وأهل عهد ، وأهل ذمة . . ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام . . فصاروا معه قسمين:محاربين ، وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه . . فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام:مسلم مؤمن به . ومسالم له آمن [وهم أهل الذمة كما يفهم من الجملة السابقة] وخائف محارب " . . وهذه هى المواقف المنطقية مع طبيعة هذا الدين وأهدافه . لا كما يفهم المهزومون أمام الواقع الحاضر ، وأمام هجوم المستشرقين الماكر ! ولقد كف الله المسلمين عن القتال فى مكة ؛ وفى أول العهد بالهجرة إلى المدينة . وقيل للمسلمين (كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة). .

ثم أذن لهم فيه ، فقيل لهم (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق – إلا أن يقولوا:ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره , إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور) ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقيل لهم (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم) ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقيل لهم (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وقيل لهم (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) فكان القتال – كما يقول الإمام ابن القيم – " محرماً , ثم مأذوناً به ، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأموراً به لجميع المشركين . . " إن جدية النصوص القرآنية الواردة فى الجهاد ؛ وجدية الأحاديث النبوية التى تحض عليه ; وجدية الوقائع الجهادية فى صدر الإسلام ، وعلى مدى طويل من تاريخه . . إن هذه الجدية الواضحة تمنع أن يجول فى النفس ذلك التفسير الذى يحاوله المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشراقى الماكر على الجهاد الإسلامى ! ومن ذا الذى يسمع قول الله سبحانه فى هذا الشأن وقول رسوله ﷺ ويتابع وقائع الجهاد الإسلامى ؛ ثم يظنه شأناً عارضاً مقيداً بملابسات تذهب وتجيء ؛ ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود ؟! إن المسلم قبل أن ينطلق للجهاد فى المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر فى نفسه مع الشيطان . . مع هواه وشهواته . . مع مطامعه ورغباته . . مع مصالحه ومصالح عشيرته وقومه . . مع كل شارة غير شارة الإسلام . . ومع كل دافع إلا العبودية لله ، وتحقيق سلطانه فى الأرض وطرد سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان الله . . والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الإسلامى فى حماية "الوطن الإسلامى" يغضون من شأن" المنهج" ويعتبرونه أقل من "الموطن" ! وهذه ليست نظرة الإسلام إلى هذه الاعتبارات . . إنها نظرة مستحدثة غريبة على الحس الإسلامى ، فالعقيدة والمنهج الذى تتمثل فيه والمجتمع الذى يسود فيه هذا المنهج هى الاعتبارات الوحيدة فى الحس الإسلامى . أما الأرض – بذاتها – فلا اعتبار لها ولا وزن ! وكل قيمة للأرض فى التصور الإسلامى إنما هى مستمدة من سيادة منهج الله وسلطانه فيها . وبهذا تكون محضن العقيدة وحقل المنهج و "دار الإسلام" ونقطة الانطلاق لتحرير "الإنسان" . . وحقيقة أن حماية "دار الإسلام" حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذى يسود فيه المنهج . ولكنها هى ليست الهدف النهائى . وليست حمايتها هى الغاية الأخيرة لحركة الجهاد الإسلامى . إنما حمايتها هى الوسيلة لقيام مملكة الله فيها . ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق إلى الأرض كلها ، وإلى النوع الإنسانى بجملته . فالنوع الإنسانى هو موضوع هذا الدين ، والأرض هى مجاله الكبير ! وكما أسلفنا فإن الانطلاق بالمنهج الإلهي تقوم فى وجهه عقبات مادية من سلطة الدولة , ونظام المجتمع ، وأوضاع البيئة . . وهذه كلها هى التى ينطلق الإسلام ليحطمها بالقوة . كى يخلو له وجه الأفراد من الناس ، يخاطب ضمائرهم وأفكارهم ، بعد أن يحررها من الأغلال المادية ؛ ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار . . يجب ألا تخدعنا أو تفزعنا حملات المستشرقين على مبدأ "الجهاد" ، وألا يثقل على عاتقنا ضغط الواقع وثقله فى ميزان القوى العالمية ، فنروح نبحث للجهاد الإسلامى عن مبررات أدبية خارجة عن طبيعة هذا الدين ، فى ملابسات دفاعية وقتية ، كان الجهاد سينطلق فى طريقه سواء وجدت هذه الملابسات أم لم توجد ! ويجب ونحن نستعرض الواقع التاريخى ألا نغفل عن الاعتبارات الذاتية فى طبيعة هذا الدين وإعلانه العام ومنهجه الواقعى . . وألا نخلط بينها وبين المقتضيات الدفاعية الوقتية . . حقاً إنه لم يكن بد لهذا الدين أن يدافع المهاجمين له . لأن مجرد وجوده ، فى صورة إعلان عام لربوبية الله للعالمين ، وتحرير الإنسان من العبودية لغير الله ، وتمثل هذا الوجود فى تجمع تنظيمى حركى تحت قيادة جديدة غير قيادات الجاهلية ، وميلاد مجتمع مستقل متميز لا يعترف لأحد من البشر بالحاكمية ، لأن الحاكمية فيه لله وحده . . إن مجرد وجود هذا الدين فى هذه الصورة لا بد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله ، القائمة على قاعدة العبودية للعباد ، أن تحاول سحقه ، دفاعاً عن وجودها ذاته . ولا بد أن يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه . . هذه ملابسة لا بد منها . تولد مع ميلاد الإسلام ذاته . وهذه معركة مفروضة على الإسلام فرضاً ، ولا خيار له فى خوضها . وهذا صراع طبيعى بين وجوددين لا يمكن التعايش بينهما طويلاً . . هذا كله حق . . ووفق هذه النظرة يكون لا بد للإسلام أن يدافع عن وجوده . ولا بد أن يخوض معركة دفاعية مفروضة عليه فرضاً . . ولكن هناك حقيقة أخرى أشد أصالة من هذه الحقيقة . . إن من طبيعة الوجود الإسلامى ذاته أن يتحرك إلى الأمام ابتداء ؛ لإنقاذ "الإنسان" فى "الأرض" من العبودية لغير الله . ولا يمكن أن يقف عند حدود جغرافية ؛ ولا أن ينزوى داخل حدود عنصرية ؛ تاركاً" الإنسان" . . نوع الإنسان . . فى "الأرض" . . كل الأرض . . للشر والفساد والعبودية لغير الله . إن المعسكرات المعادية للإسلام قد يجيء عليها زمان تؤثر فيه ألا تهاجم الإسلام ، إذا تركها الإسلام تزاول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الإقليمية ؛ ورضى

أن يدعها وشأنها ولم يمد إليها دعوته وإعلانه التحريرى العام ! . . ولكن الإسلام لا يهادنها , إلا أن تعلن استسلامها لسلطانه فى صورة أداء الجزية ، ضماناً لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها . هذه طبيعة هذا الدين ، وهذه وظيفته بحكم أنه إعلان عام لربوبية الله للعالمين وتحرير الإنسان من كل عبودية لغير الله فى الناس أجمعين ! وفرق بين تصور الإسلام على هذه الطبيعة ، وتصوره قابعا داخل حدود إقليمية أو عنصرية , لا يحركه إلا خوف الاعتداء ! إنه فى هذه الصورة الأخيرة يفقد مبرراته الذاتية فى الإنطلاق ! إن مبررات الانطلاق الإسلامى تبرز بوضوح وعمق عند تذكر أن هذا الدين هو منهج الله للحياة البشرية ، وليس منهج إنسان ، ولا مذهب شيعة من الناس ، ولا نظام جنس من الأجناس . . ! ونحن لا نبحث عن مبررات خارجية إلا حين تفتر فى حسنا هذه الحقيقة الهائلة . . حين ننسى أن القضية هى قضية ألوهية الله وعبودية العباد . . إنه لا يمكن أن يستحضر إنسان ما هذه الحقيقة الهائلة ثم يبحث عن مبرر آخر للجهاد الإسلامى ! والمسافة قد لا تبدو كبيرة عند مفرق الطريق ، بين تصور أن الإسلام كان مضطراً لخوض معركة لا اختيار له فيها ، بحكم وجوده الذاتى ووجود المجتمعات الجاهلية الأخرى التى لا بد أن تهاجمه . وتصور أنه هو بذاته لا بد أن يتحرك ابتداء ، فيدخل فى هذه المعركة" . . إن الإسلام ليس بمجرد مجموعة من العقيدة الكلامية ، وجملة من المناسك والشعائر , كما يفهم من معنى الدين فى هذه الأيام . بل الحق أنه نظام شامل ، يريد أن يقضى على سائر النظم الباطلة الجائرة الجارية فى العالم ، ويقطع دابرها ، ويستبدل بها نظاماً صالحاً ، ومنهاجاً معتدلاً ، يرى أنه خير للإنسانية من النظم

. والآن نمضى كذلك فى التعرف إلى سورة الأنفال ، التى نزلت فى هذه الغزوة ، على وجه الإجمال .

لم تكن غزوة بدر الكبرى هى أولى حركات الجهاد الإسلامى – كما بينا من قبل – فقد سبقتها عدة سرايا ، لم يقع قتال إلا فى واحدة منها ، هى سرية عبد الله بن جحش فى رجب على رأس سبعة عشر شهراً من هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة . . وكانت كلها تمشياً مع القاعدة التى يقوم عليها الجهاد فى الإسلام . والتى أسلفت الحديث عنها من قبل . . نعم إنها كلها كانت موجهة إلى قريش التى أخرجت رسول الله ﷺ وللمسلمين الكرام ; ولم تحفظ حرمة البيت الحرام المحرمة فى الجاهلية وفى الإسلام ! ولكن هذا ليس الأصل فى انطلاقة الجهاد الإسلامى . إنما الأصل هو إعلان الإسلام العام بتحرير الإنسان من العبودية لغير الله ؛ وبتقرير ألوهية الله فى الأرض ؛ وتحطيم الطواغيت التى تعبد الناس ، وإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده . . وقريش كانت هى الطاغوت المباشر الذى يحول بين الناس فى الجزيرة وبين التوجه إلى عبادة الله وحده ؛ والدخول فى سلطانه وحده . فلم يكن بد أن يناجز الإسلام هذا الطاغوت ,تمشياً مع خطته العامة ؛ وانتصافاً فى الوقت ذاته من الظلم والطغيان اللذين وقعا بالفعل على المسلمين الكرام ؛ ووقاية كذلك لدار الإسلام فى المدينة من الغزو والعدوان . . وإن كان ينبغى دائماً ونحن نقرر هذه الأسباب المحلية القريبة أن نتذكر – ولا ننسى – طبيعة هذا الدين نفسه وخطته التى تحتمها طبيعته هذه . وهى ألا يترك فى الأرض طاغوتاً يغتصب سلطان الله ؛ ويعبد الناس لغير ألوهيته وشرعه بحال من الأحوال !

أما أحداث هذه الغزوة الكبرى فيمكن إلتماسها مختصرة فى كتاب نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين لشيخ الأزهر الأستاذ محمد الخضرى

فى أحداث غزوة بدر نزلت سورة الأنفال . . نزلت تعرض وقائع الغزوة الظاهرة ، وتعرض وراءها فعل القدرة المدبرة ، وتكشف عن قدر الله وتدبيره فى وقائع الغزوة ، وفيما وراءها من خط سير التاريخ البشرى كله ؛ وتحدث عن هذا كله بلغة القرآن الفريدة وبأسلوب القرآن المعجز . . وسيأتى تفصيل هذه المعانى فى ثنايا استعراض النصوص القرآنية . . فأما الآن فنكتفى باستعراض الخطوط الأساسية فى السورة: إن هنالك حادثاً بعينه فى الغزوة يلقى ضوءاً على خط سيرها . ذلك هو ما رواه ابن إسحاق – عن عبادة ابن الصامت – رضى الله عنه ، قال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا , فجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ هذا الحادث يلقى ضوءا على افتتاح السورة وعلى خط سيرها كذلك: لقد اختلفوا على الغنائم القليلة فى الوقعة التى جعلها الله فرقاناً فى مجرى التاريخ البشرى إلى يوم القيامة ! ولقد أراد الله – سبحانه – أن يعلمهم ، وأن يعلم البشر كلهم من بعدهم أموراً عظاماً ، أراد أن يعلمهم ابتداء أن أمر هذه الوقعة أكبر كثيراً من أمر الغنائم التى يختلفون عليها . فسمى يومها (يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان) وأراد أن يريهم مدى الفرق بين ما أرادوه هم لأنفسهم من الظفر بالعير ؛ وما أراده الله لهم ، وللبشرية كلها من ورائهم من إفلات العير ، ولقاء النفير . ليروا على مد البصر

مدى ما بين إرادتهم بأنفسهم وإرادة الله بهم ولهم من فرق كبير ! لقد بدأت السورة بتسجيل سؤالهم عن الأنفال وبيان حكم الله فيها وردها إلى الله والرسول ودعوتهم إلى تقوى الله ، وإصلاح ذات بينهم – بعدما ساءت أخلاقهم في النفل كما يقول عبادة بن الصامت – ودعوتهم إلى طاعة الله وطاعة الرسول ، وتذكيرهم بإيمانهم وهذا مقتضاه . ورسم للمؤمنين صورة موحية تجف لها القلوب:(يسألونك عن الأنفال . قل:الأنفال لله والرسول . فاتقوا الله ، وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله ، إن كنتم مؤمنين . إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم)ثم جعل يذكرهم بأمرهم وتدبيرهم لأنفسهم وتدبير الله لهم ، ومدى ما يرونه من واقع الأرض ومدى قدرة الله من ورائه ومن ورائهم (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعد ما تبين ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) ثم ذكرهم بما أمدهم به من العون ، وما يسره لهم من النصر ، وما قدره لهم بفضله من الأجر (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب . ذلكم فذوقوه ، وأن للكافرين عذاب النار) وهكذا يمضي سياق السورة في هذا المجال ؛ يسجل أن المعركة بجملتها من صنع الله وتدبيره بقيادته وتوجيهه . بعونه ومدده . بفعله وقدره . له وفي سبيله . ومن ثم تجريد المقاتلين ابتداء من الأنفال وتقرير أنها لله وللرسول ، حتى إذا ردها الله عليهم كان ذلك مَناً منه وفضلاً . وكذلك يجردهم من كل مطمع فيها ومن كل مغنم ، ليكون جهادهم في سبيله خالصاً له وحده . . فترد أمثال هذه النصوص (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت – إذ رميت – ولكن الله رمى ، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ، إن الله سميع عليم . ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) ولأن المعركة – كل معركة يخوضها المؤمنون – من صنع الله وتدبيره . بقيادته وتوجيهه . بعونه ومدده . بفعله وقدره . له وفي سبيله . تتكرر الدعوة في السورة إلى الثبات فيها ، والمضي معها ، والاستعداد لها ، والاطمئنان إلى تولي الله فيها ، والحذر من المعوقات عنها من فتنة الأموال والأولاد ، والاستمساك بآدابها ، وعدم الخروج لها بطراً ورئاء الناس . ويؤمر رسول الله ﷺ بتحريض المؤمنين عليها . . وترد أمثال هذه النصوص في بيان هذه المعاني (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره – إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة – فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير) (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون) (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم ، وأنتم لا تظلمون) وفي ذات الوقت الذي تتكرر الأوامر بالتثبيت في المعركة يتجه السياق إلى توضيح معالم العقيدة وتعميقها ورد كل أمر وكل حكم وكل توجيه إليها . فلا تبقى الأوامر معلقة في الفراغ ، إنما ترتكز على ذلك الأصل الواضح الثابت العميق:

أ في مسألة الأنفال يردون إلى تقوى الله ، والوجل عند ذكره ، وتعلق الإيمان بطاعة الله وطاعة رسوله: يسألونك عن الأنفال . قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ، إن كنتم مؤمنين . إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون .. . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم .

ب وفي خطة المعركة يردون إلى قدر الله وتدبيره ، وتصريفه لمراحلها جميعاً (إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً)

ج وفى أحداثها ونتائجها يردون إلى قيادة الله لها ، ومدده وعونه فيها (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً . . .)

د وفى الأمر بالثبات فيها يردون إلى ما يريده الله لهم بها من حياة ، وإلى قدرته على الحيلولة بينهم وبين قلوبهم ، وإلى تكفله بنصر من يتوكل عليه (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه , وأنه إليه تحشرون) (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون). .

ه وفى تحديد الهدف من وراء المعركة يقرر (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) وفى تنظيم العلاقات فى المجتمع المسلم وبينه وبين غيره من المجتمعات الأخرى تبرز العقيدة قاعدة للتجمع وللتميز ، وتجعل القيم العقيدية هى التى تقدم فى الصف أو تؤخر :إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر ...)ويبرز فى سياق السورة بصفة خاصة – إلى جانب خط العقيدة – خط آخر هو خط الجهاد ، وبيان قيمته الإيمانية والحركية . وتجريده كذلك من كل شائبة شخصية ؛ وإعطاؤه مبرراته الذاتية العليا التى ينطلق بها المجاهدون فى ثقة وطمأنينة واستعلاء إلى آخر الزمان . . والسورة بجملتها تتضمن هذا الإيحاء . فنكتفى ببعض النصوص فى هذا التعريف , وندع تفصيلها إلى موضعه عند مواجهة النصوص (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير) (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ، وهم لا يتقون . فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون)وأخيراً فإن السورة تنظم ارتباطات الجماعة المسلمة على أساس العقيدة كما أسلفنا ; وبيان الأحكام التى تتعامل بها مع غيرها من الجماعات الأخرى فى الحرب والسلم – إلى هذه الفترة التى نزلت فيها السورة – وأحكام الغنائم والمعاهدات وتضع خطوطاً أصيلة فى تنظيم تلك الروابط وهذه الأحكام فى مثل هذه النصوص الواضحة المحددة .. هذا مجمل لخطوط السورة الرئيسية . . فإذا كانت السورة بجملتها إنما نزلت فى غزوة بدر , وفى التعقيب عليها ، فإننا ندرك من هذا طرفاً من منهج القرآن فى تربية الجماعة المسلمة ، وإعدادها لقيادة البشرية ؛ وجانباً من نظرة هذا الدين إلى حقيقة ما يجرى فى الأرض وفى حياة البشر ؛ مما يقوم منه تصور صحيح لهذه الحقيقة:لقد كانت هذه الغزوة هى أول وقعة كبيرة لقى فيها المسلمون أعداءهم من المشركين ، فهزموهم تلك الهزيمة الكبيرة . . ولكن المسلمين لم يكونوا قد خرجوا لهذه الغاية . . لقد كانوا إنما خرجوا ليأخذوا الطريق على قافلة قريش الذين أخرجوا المهاجرين من ديارهم وأموالهم ! فأراد الله للعصبة المسلمة غير ما أرادت لنفسها من الغنيمة . . أراد لها أن تنفلت منها القافلة وأن تلقى عدوها من عتاة قريش الذين جمدوا الدعوة فى مكة ؛ ومكروا مكرهم لقتل رسول الله ﷺ بعدما بلغوا بأصحابه الذين تابعوه على الهدى غاية التعذيب والتنكيل والأذى ، لقد أراد الله سبحانه أن تكون هذه الوقعة فرقاناً بين الحق والباطل ؛ وفرقاناً فى خط سير التاريخ الإسلامى . ومن ثم فرقاناً فى خط سير التاريخ الإنسانى . . وأراد أن يظهر فيها الآماد البعيدة بين تدبير البشر لأنفسهم فيما يحسبونه الخير لهم . وتدبير رب البشر لهم ولو كرهوه فى أول الأمر . كما أراد أن تتعلم العصبة المؤمنة عوامل النصر وعوامل الهزيمة ؛ وتتلقاها مباشرة من يد ربها ووليها ، وهى فى ميدان المعركة وأمام مشاهدها .

وتضمنت السورة التوجيهات الموحية إلى هذه المعانى الكبيرة ؛ وإلى هذه الحقائق الضخمة الخطيرة . كما تضمنت الكثير من دستور السلم والحرب ، والغنائم والأسرى ، والمعاهدات والمواثيق ، وعوامل النصر وعوامل الهزيمة . كلها مصوغة فى أسلوب التوجيه المربى , الذى ينشئ التصور الاعتقادى ، ويجعله هو المحرك الأول والأكبر فى النشاط الإنسانى . . وهذه هى سمة المنهج القرآنى فى عرض الأحداث وتوجيهها .

ثم إنها تضمنت مشاهد من الموقعة ، ومشاهد من حركات النفوس قبل المعركة وفى ثناياها وبعدما . . مشاهد حية تعيد إلى المشاعر وقع المعركة وصورها وسماتها ؛ كأن قارئ القرآن يراها فيتجاوب معها

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{١} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{٢} الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{٣} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ{٤} كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ{٥} يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ{٦} وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ{٧} لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ{٨} إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ{٩} وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{١٠} إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ{١١} إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ{١٢} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ{١٣} ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ{١٤} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ{١٥} وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{١٦} فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{١٧} ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ{١٨} ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ{١٨} إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ{١٩} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ{٢٠} وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ{٢١} إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ{٢٢} وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ{٢٣} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ{٢٤} وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ){٢٥}اذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ){٢٦} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ{٢٧} وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ{٢٨} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ){٢٩}

تبدأ السورة بيان حكم الله فى الأنفال أى المغانم التى يغنمها المسلمون فى جهادهم فى سبيل الله . . بعد ما ثار بين أهل بدر من الجدال حول تقسيمها . فردهم الله إلى حكمه فيها ؛ كما ردهم إلى تقواه وطاعته وطاعة رسوله ؛ واستجاش فى قلوبهم وجدان الإيمان والتقوى . ثم أخذ يذكرهم بما أرادوا لأنفسهم من العير والغنيمة ، وما أراده الله لهم من النصر والعزة . وكيف سارت المعركة ، وهم قلة لا عدد لها ولا عدة ، وأعداؤهم كثرة فى الرجال والعتاد . وكيف ثبتهم بمدد من الملائكة ، وبالمطر يستقون منه ويغتسلون ويثبت الأرض تحت أقدامهم فلا تسوخ فى الرمال ، وبالنعاس يغشاهم فيسكب عليهم السكينة والاطمئنان . وكيف ألقى فى قلوب أعدائهم الرعب وأنزل بهم شديد العقاب . ومن ثم يأمر المؤمنين أن يثبتوا فى كل قتال ، مهما خيل إليهم فى أول الأمر من قوة أعدائهم ، فإن الله هو الذى يقتل ، وهو الذى يرمى ، وهو الذى يدبر ، وإن هم إلا ستار لقدر الله وقدرته ، يفعل بهم ما يشاء ، ثم يسخر من المشركين الذين كانوا قبل الموقعة يستفتحون ، فيطلبون أن تدور الدائرة على أضل الفريقين وأقطعهما للرحم ، فيقول لهم: (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، ويحذر المؤمنين أن يتشبهوا بالمنافقين الذين يسمعون ولكنهم لا يسمعون ، لأنهم لا يستجيبون ! وينتهى الدرس بنداءات متكررة للذين آمنوا . ليستجيبوا الله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم – ولو خيل إليهم أنه الموت والقتل – وليذكرهم كيف كانوا قليلاً مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس ، فآواهم وأيدهم بنصره ؛ وليعدهم أن يجعل لهم فرقاناً فى قلوبهم وفى حركتهم إن هم اتقوه . ذلك إلى تكفير السيئات وغفران الذنوب ؛ وما ينتظرهم من فضل الله الذى تتضاءل دونه الغنائم والأنفال (يسألونك عن الأنفال . قل:الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم , وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ، إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم , وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة , ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) قال ابن كثير فى التفسير:روى أبو داود والنسائى وابن جرير وابن مردويه – واللفظ له – وابن حبان والحاكم من طرق عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس قال:لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ " من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا " . فتسارع فى ذلك شبان

القوم ، وبقى الشيوخ تحت الرايات . فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذى جعل لها , فقال الشيوخ:لا تستأثروا علينا ، فإنا كنا رداء لكم ، لو انكشفتم لفئتم إلينا . فتنازعوا ، فأنزل الله تعالى: (يسألونك عن الأنفال). . . إلى قوله: (وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) . . ولقد يدهش الإنسان حين يرى أهل بدر يتكلمون فى الغنائم ؛ وهم إما من المهاجرين السابقين الذين تركوا وراءهم كل شيء ، وهاجروا إلى الله بعقيدتهم ، لا يلوون على شيء من أعراض هذه الحياة الدنيا ; وإما من الأنصار الذين آووا المهاجرين ، وشاركوهم ديارهم وأموالهم ، لا يبخلون بشيء من أعراض هذه الحياة الدنيا ، ولكننا نجد بعض التفسير لهذه الظاهرة فى الروايات نفسها . لقد كانت الأنفال مرتبطة فى الوقت ذاته بحسن البلاء فى المعركة ؛ وكانت بذلك شهادة على حسن البلاء ; وكان الناس - يومئذ - حريصين على هذه الشهادة من رسول الله ﷺ ومن الله سبحانه وتعالى ، فى أول وقعة يشفى فيها صدورهم من المشركين ! . . ولقد غطى هذا الحرص وغلب على أمر آخر نسيه من تكلموا فى الأنفال حتى ذكرهم الله سبحانه به ، وردهم إليه . . ذلك هو ضرورة السماحة فيما بينهم فى التعامل ، والصلاح بين قلوبهم فى المشاعر ؛ حتى أحسوا ذلك فى مثل ما قاله عبادة بن الصامت - رضى الله عنه -:" فينا - أصحاب بدر - نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا , فجعله إلى رسول الله ﷺ . " ولقد أخذهم الله سبحانه بالتربية الربانية قولاً وعملاً . نزع أمر الأنفال كله منهم ورده إلى رسول الله ﷺ حتى أنزل حكمه فى قسمة الغنائم بجملتها ، فلم يعد الأمر حقاً لهم يتنازعون عليه ؛ إنما أصبح فضلاً من الله عليهم ؛ يقسمه رسول الله بينهم كما علمه ربه ، وإلى جانب الإجراء العملى التربوى كان التوجيه المستطرد الطويل , الذى بدأ بهذه الآيات ، واستطرد فيما تلاها كذلك (يسألونك عن الأنفال . قل:الأنفال لله والرسول . فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم , وأطيعوا الله ورسوله ، إن كنتم مؤمنين)

لقد كان الهتاف لهذه القلوب التى تنازعت على الأنفال ، هو الهتاف بتقوى الله . . وسبحان خالق القلوب العليم بأسرار القلوب . . إنه لا يرد القلب البشرى عن الشعور بأعراض الحياة الدنيا ، والنزاع عليها - وإن كانهذا النزاع متلبساً هنا بمعنى الشهادة بحسن البلاء - إلا استجاشة الشعور بتقوى الله وخوفه وتلمس رضاه فى الدنيا والأخرى . . إن قلباً لا يتعلق بالله ، يخشى غضبه ويتلمس رضاه , لا يملك أن يتخلص من ثقلة الأعراض ، ولا يملك أن يرف شاعراً بالانطلاق ! إن التقوى زمام هذه القلوب الذى يمكن أن تقاد منه طائعة ذلولة فى يسر وفى هوادة . . وبهذا الزمام يقود القرآن هذه القلوب إلى إصلاح ذات بينها (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) وبهذا الزمام يقودها إلى طاعة الله ورسوله (وأطيعوا الله ورسوله). وأول الطاعة هنا طاعته فى حكمه الذى قضاه فى الأنفال . فقد خرجت من أن تكون لأحد من الغزاة على الإطلاق ، وارتدت ملكيتها ابتداء لله والرسول ، فانتهى حق التصرف فيها إلى الله والرسول . فما على الذين آمنوا إلا أن يستسلموا فيها لحكم الله وقسم رسول الله ؛ طيبة قلوبهم ، راضية نفوسهم ؛ وإلا أن يصلحوا علائقهم ومشاعرهم ، ويصفوا قلوبهم بعضهم لبعضهم . . ذلك (إن كنتم مؤمنين) فلابد للإيمان من صورة عملية واقعية . يتجلى فيها ، ليثبت وجوده ، ويترجم عن حقيقته . وكما قال رسول الله ﷺ ليس الإيمان بالتمنى ، ولا بالتحلى ولكن هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل " . ومن ثم يرد مثل هذا التعقيب كثيراً فى القرآن لتقرير هذا المعنى الذى يقرره قول رسول الله ﷺ ولتعريف الإيمان وتحديده ؛ وإخراجه من أن يكون كلمة تقال باللسان ، أو تمنياً لا واقعية له فى عالم العمل والواقع . ثم يعقب بتقرير صفات الإيمان "الحق" كما يريده رب هذا الدين ؛ ليحدد لهم ما يعنيه قوله تعالى (إن كنتم مؤمنين). فها هو ذا الإيمان الذى يريده منهم رب هذا الدين (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً , وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) إن التعبير القرآنى دقيق فى بنائه اللفظى ليدل دلالة دقيقة على مدلوله المعنوى . وفى العبارة هنا قصر بلفظ (إنما) وليس هنالك مبرر لتأويله - وفيه هذا الجزم الدقيق - ليقال إن المقصود هو "الإيمان الكامل" ! فلو شاء الله - سبحانه - أن يقول هذا لقاله . إنما هو تعبير محدد دقيق الدلالة . إن هؤلاء الذين هذه صفاتهم وأعمالهم ومشاعرهم هم المؤمنون . فغيرهم ممن ليس له هذه الصفات بجملتها ليسوا بالمؤمنين . والتوكيد فى آخر الآيات (أولئك هم المؤمنون حقا) يقرر هذه الحقيقة (فغير المؤمنين حقا) لا يكونون مؤمنين أصلاً . . والتعبيرات القرآنية يفسر بعضها بعضا لذلك كان السلف يعرفون من هذه الآيات أن من لم يجد فى نفسه وعمله هذه الصفات لم يجد الإيمان ، ولم يكن مؤمناً أصلاً . . جاء فى تفسير ابن كثير:قال على ابن طلحة عن ابن عباس ، فى قوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال:المنافقون:لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا [أى عن أعين الناس] ولا يؤدون زكاة أموالهم . فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين . ثم وصف الله المؤمنين فقال (إنما المؤمنون الذين إذا

ذكر اللّه وجلت قلوبهم) فأدوا فرائضه . (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) يقول زادتهم تصديقاً (وعلى ربهم يتوكلون) يقول لا يرجون غيره" . وسنرى من طبيعة هذه الصفات أنه لا يمكن أن يقوم بدونها الإيمان أصلاً ؛ وأن الأمر فيها ليس أمر كمال الإيمان أو نقصه ؛ إنما هو أمر وجود الإيمان أو عدمه (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر اللّه وجلت قلوبهم) إنها الإرتعاشة الوجدانية التي تنتاب القلب المؤمن حين يذكر باللّه في أمر أو نهي فيغشاه جلاله ، وتنتفض فيه مخافته ؛ ويتمثل عظمة اللّه ومهابته ، إلى جانب تقصيره هو وذنبه ، فينبعث إلى العمل والطاعة ، إنها حال ينال القلب منها أمر يحتاج إلى الدعاء ليستريح منها ويقر ! وهي الحال التي يجدها القلب المؤمن حين يذكر بالله في صدد أمر أو نهي ؛ فيأتمر معها وينتهي كما يريد الله ، وجلا وتقوى لله (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) والقلب المؤمن يجد في آيات هذا القرآن ما يزيده إيماناً ، وما ينتهي به إلى الاطمئنان (وعلى ربهم يتوكلون) عليه وحده . . كما يفيده بناء العبارة . لا يشركون معه أحداً يستعينون به ويتوكلون عليه . . أو كما عقب عليها الإمام ابن كثير في التفسير:" أي لا يرجون سواه , ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ، ولهذا قال سعيد ابن جبير:التوكل على الله جماع الإيمان " . . وهذا هو إخلاص الاعتقاد بوحدانية الله ؛ وإخلاص العبادة له دون سواه فما يمكن أن يجتمع في قلب واحد ، توحيد الله والتوكل على أحد معه سبحانه . والذين يجدون في قلوبهم الاتكال على أحد أو على سبب يجب أن يبحثوا ابتداء في قلوبهم عن الإيمان بالله ! (الذين يقيمون الصلاة) وهنا نرى للإيمان صورة حركية ظاهرة – بعد ما رأيناه في الصفات السابقة–مشاعر قلبية باطنة – ذلك أن الإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل . فالعمل هو الدلالة الظاهرة للإيمان التي لا بد من ظهورها للعيان ، لتشهد بالوجود الفعلي لهذا الإيمان . وإقامة الصلاة ليست هي مجرد أدائها . إنما هي الأداء الذي يحقق حقيقتها . الأداء الكامل اللائق بوقفة العابد في حضرة المعبود – سبحانه – لا مجرد القراءة والقيام والركوع والسجود والقلب غافل ! وهي في صورتها الكاملة تلك تشهد للإيمان بالوجود فعلاً (ومما رزقناهم ينفقون) في الزكاة وغير الزكاة ، وهم ينفقون (مما رزقناهم) فهو بعض مما رزقهم الرازق . . وللنص القرآني دائماً ظلاله وإيحاءاته . فهم لم يخلقوا هذا المال خلقاً . إنما هو مما رزقهم الله إياه – من بين ما رزقهم وهو كثير لا يحصى – فإذا أنفقوا فإنما ينفقون بعضه ، ويحتفظون منه ببقية . والأصل هو رزق الله وحده ! تلك هي الصفات التي حدد الله بها – في هذا المقام – الإيمان . وهي تشمل الاعتقاد في وحدانية الله ؛ والاستجابة الوجدانية لذكره ؛ والتأثر القلبي بآياته ؛ والتوكل عليه وحده ؛ وإقامة الصلاة له ، والإنفاق من بعض رزقه وعلى نفس القاعدة يجيء التعقيب الأخير (أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ، ومغفرة ، ورزق كريم) فهذه الصفات إنما يجدها في نفسه وفي عمله المؤمن الحق . فمن لم يجدها جملة لم يجد صفة الإيمان (أولئك هم المؤمنون حقاً) بعد ذلك يأخذ سياق السورة في الحديث عن الموقعة التي تخلفت عنها تلك الأنفال التي تنازعوا عليها ، وساءت أخلاقهم فيها ملابساتها ، ومواقفهم فيها ، ومشاعرهم تجاهها . . . فيتبين من هذا الاستعراض أنهم هم لم يكونوا فيها إلا ستاراً لقدر الله ؛ وأن كل ما كان فيها من أحداث , وكل ما نشأ عنها من نتائج – بما فيها هذه الأنفال التي تنازعوا عليها – إنما كان بقدر اللّه وتوجيهه وتدبيره وعونه ومدده . . أما ما أرادوه هم لأنفسهم من الغزوة فقد كان شيئاً صغيراً محدوداً ، لا يقاس إلى ما أراده الله لهم ، وبهم ، من هذا الفرقان العظيم في السماوات وفي الأرض . ذلك الذي اشتغل به الملأ الأعلى إلى جانب ما اشتغل به الناس في الأرض ، وما اشتغل به التاريخ البشري على الإطلاق . . ويذكرهم أن فريقاً منهم واجه المعركة كارهاً ؛ كما أن فريقاً منهم كره تقسيم الأنفال وتنازع فيها ؛ ليروا أن ما يرونه هم ، وما يكرهونه أو يحبونه ، ليس بشيء إلى جانب ما يريده الله سبحانه ويقضي فيه بأمره ، لقد رد الله الأنفال كلها إلى الله والرسول ، ليعيد الرسول ﷺ قسمتها بينهم على السواء – بعد استبقاء الخمس الذي ستأتي فيما بعد مصارفه – ذلك لتخلص نفوس العصبة المؤمنة من كل ملابسات الغنيمة ؛ فيمتنع التنازع عليها ، ويصير حق التصرف فيها إلى رسول الله كما يعلمه الله ، فلا يبقى في النفوس من أجلها شيء ؛ وليذهب ما حاك في نفوس الفئة التي حازت الغنائم ، ثم سويت مع الآخرين في القسمة على ما تقدم . ثم ضرب الله هذا المثل من إرادتهم هم لأنفسهم ، ومن إرادة الله لهم ، وبهم ، ليستيقنوا أن الخيرة فيما اختاره الله في الأنفال وغير الأنفال ؛ وأن الناس لا يعلمون إلا ما بين أيديهم والغيب عنهم محجوب . . ضرب لهم هذا المثل من واقعهم الذي بين أيديهم . . من المعركة ذاتها تلك التي يتقاسمون أنفالها . . فما الذي كانوا يريدونه لأنفسهم فيها ؟ وما الذي أراده الله لهم ، وبهم ؟ وأين ما أرادوه مما أراده الله . . ؟ إنها نقلة بعيدة في واقع الأمر ؛ ونقلة بعيدة على مدّ الرؤية والتصور ! (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعدما تبينَ كأنما

يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ؛ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) إن رد الأنفال لله والرسول ، وقسمتها بينهم على السواء ، وكراهة بعض المؤمنين لهذه التسوية . . ومن قبل كراهة بعضهم لاختصاص بعض الشباب بالنصيب الأوفر منها . . إنها شأن يشبه شأن إخراج الله لك من بيتك – بالحق – لمقاتلة الفرقة ذات الشوكة ؛ وكراهة بعض المؤمنين للقتال . . وبين أيديهم العاقبة التى أنتجت هذه الأنفال ، ولكن هذا الذى قاله أبو بكر وعمر ، والذى قاله المقداد ، والذى قاله سعد بن معاذ – رضى الله عنهم – لم يكن هو مقالة جميع الذين خرجوا من المدينة مع رسول الله [ص] فلقد كره بعضهم القتال ، وعارض فيه ، لأنهم لم يستعدوا لقتال ، إنما خرجوا لملاقاة الفئة الضعيفة التى تحرس العير ؛ فلما أن علموا أن قريشاً قد نفرت بخيلها ورجلها ، وشجعانها وفرسانها ، كرهوا لقاءها كراهية شديدة ، هى هذه الكراهية التى يرسم التعبير القرآنى صورتها بطريقة القرآن الفريدة (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون)! فهذا ما جاك فى نفوس فريق من المسلمين يومئذ ، وما كرهوا من أجله القتال ، حتى ليقول عنهم القرآن الكريم: (كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) وذلك بعد ما تبين الحق ، وعلموا أن الله وعدهم إحدى الطائفتين وأنه لم يبق لهم خيار بعدما أفلتت إحدى الطائفتين وهى – العير – وأن عليهم أن يلقوا الطائفة الأخرى ، وقد قدر الله لهم لقاءها وقدر أنها ستكون لهم . كانت ما كانت . كانت العير أو كانت النفير . كانت الضعيفة التى لا شوكة لها أم كانت القوية ذات الشوكة والمنعة . ولقد بقيت العصبة المسلمة تود أن لو كانت غير ذات الشوكة هى التى كتب الله عليهم لقاءها (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) هذا ما أرادته العصبة المسلمة لأنفسها يومذاك . أما ما أراده الله لهم ، وبهم ، فكان أمراً آخر (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل , ولو كره المجرمون) لقد أراد الله – وله الفضل والمنة – أن تكون ملحمة لا غنيمة ؛ وأن تكون موقعة بين الحق والباطل ، ليحق الحق ويثبته ، ويبطل الباطل ويزهقه . وأراد أن يقطع دابر الكافرين , فيقتل منهم من يقتل ، ويؤسر منهم من يؤسر ، وتذل كبرياؤهم ، وتخضد شوكتهم ,وتعلو راية الإسلام وتعلو معها كلمة الله ، ويمكن الله للعصبة المسلمة التى تعيش بمنهج الله ، وتنطلق به لتقرير ألوهية الله فى الأرض ، وتحطيم طاغوت الطواغيت . وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق لا عن جزاف – تعالى الله عن الجزاف – وبالجهد والجهاد وبتكاليف الجهاد ومعاناتها فى عالم الواقع وفى ميدان القتال ، أراد الله للعصبة المسلمة أن تصبح أمة ؛ وأن تصبح دولة ؛ وأن يصبح لها قوة وسلطان . . وأراد لها أن تقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها . فترجح ببعض قوتها على قوة أعدائها ! وينظر الناظر اليوم ، وبعد اليوم ، ليرى الآماد المتطاولة بين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها يومذاك وما أراده الله لها . بين ما حسبته خيراً لها وما قدره الله لها من الخير . . ينظر فيرى الآماد المتطاولة ؛ ويعلم كم يخطئ الناس حين يحسبون أنهم قادرون على أن يختاروا لأنفسهم خيراً مما يختاره الله لهم ؛ وحين يتضررون مما يريده الله لهم مما قد يعرضهم لبعض الخطر أو يصيبهم بشىء من الأذى . بينما يكمن وراءه الخير الذى لا يخطر لهم ببال ، ولا بخيال ! ألا إن غزوة بدر – بملابساتها هذه – لتمضى مثلاً فى التاريخ البشرى . ألا وإنها لتقرر دستور النصر والهزيمة ؛ وتكشف عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة . . الأسباب الحقيقية لا الأسباب الظاهرة المادية . . ألا وإنها لكتاب مفتوح تقرؤه الأجيال فى كل زمان وفى كل مكان ، لا تتبدل دلالتها ولا تتغير طبيعتها . فهى آية من آيات الله , وسنة من سننه الجارية فى خلقه ، ما دامت السماوات والأرض . . ألا وإن العصبة المسلمة التى تجاهد اليوم لإعادة النشأة الإسلامية فى الأرض – بعد ما غلبت عليها الجاهلية – لجديرة بأن تقف طويلاً أمام [بدر] وقيمها الحاسمة التى تقررها ؛ والأبعاد الهائلة التى تكشفها بين ما يريده الناس لأنفسهم وما يريده الله لهم (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم . ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون) إن العصبة المسلمة التى تحاول اليوم إعادة نشأة هذا الدين فى دنيا الناس وفى عالم الواقع ، قد لا تكون اليوم من الناحية الحركية فى المرحلة التى كانت فيها العصبة المسلمة الأولى يوم بدر . ولكن الموازين والقيم والتوجيهات العامة لبدر وملابساتها ونتائجها والتعقيبات القرآنية عليها ما تزال تواجه وتوجه موقف العصبة المسلمة فى كل مرحلة من مراحل الحركة ، ذلك أنها موازين وقيم وتوجيهات كلية ودائمة ما دامت السماوات والأرض ، وما كانت عصبة مسلمة فى هذه الأرض ، تجاهد فى وجه الجاهلية لإعادة النشأة الإسلامية . . . ثم يمضى السياق فى استحضار جو المعركة وملابساتها ومواقفها ، حيث يتجلى كيف كانت حالهم , وكيف دبر الله لهم ، وكيف كان النصر كله وليد تدبير الله أصلاً . . . والتعبير القرآنى الفريد يعيد تمثيل الموقف بمشاهده وحوادثه وانفعالاته وخفقاته ، ليعيشوه مرة أخرى ، ولكن فى ضوء التوجيه القرآنى ، فيروا أبعاده الحقيقية التى تتجاوز بدراً ، والجزيرة العربية ، والأرض كلها

؛ وتمتد عبر السماوات وتتناول الملأ الأعلى ; كما أنها تتجاوز يوم بدر ، وتاريخ الجزيرة العربية ، وتاريخ البشرية فى الأرض , وتمتد وراء الحياة الدنيا ، حيث الحساب الختامى فى الآخرة والجزاء الأوفى ، وحيث تشعر العصبة المسلمة بقيمتها فى ميزان الله ، وقيمة أقدارها وأعمالها وحركتها بهذا الدين ومقامها الأعلى (إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب , فاضربوافوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب . ذلكم فذوقوه ، وأن للكافرين عذاب النار) إنها المعركة كلها تدار بأمر الله ومشيئته ، وتدبيره وقدره ؛ وتسير بجند الله وتوجيهه . . وهى شاخصة بحركاتها وخطراتها من خلال العبارة القرآنية المصورة المتحركة المحيية للمشهد الذى كان ، كأنه يكون الآن ! فأما قصة الاستغاثة فقد روى الإمام أحمد – بإسناده – عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال:لما كان يوم بدر نظر النبى ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاث مائة ونيف ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة . فاستقبل النبى ﷺ القبلة ، وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال:" اللهم أنجز لى ما وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد فى الأرض أبداً " قال:فما زال يستغيث ربه ويدعوه ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّاه ، ثم التزمه من ورائه ، ثم قال:يا نبى الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) وتروى روايات كثيرة مفصلة عن الملائكة فى يوم بدر:عددهم . وطريقة مشاركتهم فى المعركة . وما كانوا يقولونه للمؤمنين مثبتين وما كانوا يقولونه للمشركين مخذلين . . . ونحن – على طريقتنا فى الظلال – نكتفى فى مثل هذا الشأن من عوالم الغيب بما يرد فى النصوص المستيقنة من قرآن أو سنة . والنصوص القرآنية هنا فيها الكفاية (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين). فهذا عددهم (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان). فهذا عملهم . . ولا حاجة إلى التفصيل وراء هذا فإن فيه الكفاية . . وبحسبنا أن نعلم أن الله لم يترك العصبة المسلمة وحدها فى ذلك اليوم ، وهى قلة والأعداء كثرة . وأن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد شارك فيه الملأ الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذى يصفه الله – سبحانه – فى كلماته . قال البخارى باب شهود الملائكة بدراً:حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا جرير ، عن يحيى بن سعيد ، عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقى ، عن أبيه – وكان أبوه من أهل بدر – قال:جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال:ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال:" من أفضل المسلمين – " أو كلمة نحوها – قال:" وكذلك من شهد بدراً من الملائكة " [انفرد بإخراجه البخارى] (إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم) لقد استجاب لهم ربهم وهم يستغيثون ، وأنبأهم أنه ممدهم بألف من الملائكة مردفين . . ومع عظمة هذا الأمر ودلالته على قيمة هذه العصبة وقيمة هذا الدين فى ميزان الله ; إلا أن الله سبحانه لا يدع المسلمين يفهمون أن هناك سبباً ينشئ نتيجة ، إنما يرد الأمر كله إليه – سبحانه – تصحيحاً لعقيدة المسلم وتصوره . فهذه الاستجابة ، وهذا المدد , وهذا الإخبار به ، كل ذلك لم يكن إلا بشرى ، ولتطمئن به القلوب . أما النصر فلم يكن إلا من عند الله ولا يكون . . هذه هى الحقيقة الاعتقادية التى يقررها السياق القرآنى هنا ، حتى لا يتعلق قلب المسلم بسبب من الأسباب أصلاً (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام) . . أما قصة النعاس الذى غشى المسلمين قبل المعركة فهى قصة حالة نفسية عجيبة ، لا تكون إلا بأمر الله وقدره وتدبيره . . لقد فزع المسلمون وهم يرون أنفسهم قلة فى مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه ولم يتخذوا له عدته . . فإذا النعاس يغشاهم ، ثم يصحون منه والسكينة تغمر نفوسهم ؛ والطمأنينة تفيض على قلوبهم ولقد كنت أمر على هذه الآيات ، وأقرأ أخبار هذا النعاس ، فأدركه كحادث وقع ، يعلم الله سره ، ويحكى لنا خبره . . ثم إذا بى أقع فى شدة ، وتمر علىّ لحظات من الضيق المكتوم ، والتوجس القلق ، فى ساعة غروب . . ثم تدركنى سنة من النوم لا تتعدى بضع دقائق . . وأصحوا إنساناً جديداً غير الذى كان . . ساكن النفس . مطمئن القلب . مستغرقاً فى الطمأنينة الواثقة العميقة . . كيف تم هذا ؟ كيف وقع هذا التحول المفاجىء ؟ لست أدرى ! ولكنى بعدها أدرك قصة بدر وأحد . أدركها فى هذه المرة بكيانى كله لا بعقلى . وأستشعرها حية فى حسى لا مجرد تصور . وأرى فيها يد الله وهى تعمل عملها الخفى المباشر . . ويطمئن قلبى . . لقد كانت هذه الغشية ، وهذه الطمأنينة ، مدداً من أمداد الله للعصبة المسلمة يوم بدر(إذ يغشيكم النعاس أمنة منه) ولفظ (يغشيكم) ولفظ (النعاس) ولفظ(أمنة) كلها

تشترك في إلقاء ظل لطيف شفيف ؛ وترسم الظل العام للمشهد ، وتصور حال المؤمنين يومذاك ، وتجلى قيمة هذه اللحظة النفسية الفاصلة بين حال للمسلمين وحال . وأما قصة الماء (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم , ويثبت به الأقدام) فهى قصة مدد آخر من أمداد الله للعصبة المسلمة ، قبيل المعركة قال على بن طلحة ، عن ابن عباس قال:نزل النبى ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة وعصة ، وأصاب المسلمين ضعف شديد ، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم:تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون مجنبين ؟ فأمطر الله عليهم مطراً شديداً ، فشرب المسلمون وتطهروا , وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم ، وأمد الله نبيه ﷺ بألف من الملائكة ، فكان جبريل فى خمسمائة مجنبة ، وميكائيل فى خمسمائة مجنبة " ولقد كان ذلك قبل أن ينفذ رسول الله ﷺ ما أشار به الحباب بن المنذر من النزول على ماء بدر ، وتغوير ما وراءها من القلب . ففى هذه الليلة – وقبل إنفاذ مشورة الحباب بن المنذر – كانت هذه الحالة التى يذكر الله بها العصبة التى شهدت بدراً . . والمدد على هذا النحو مدد مزدوج:مادى وروحى . فالماء فى الصحراء مادة الحياة ، فضلاً على أن يكون أداة النصر . والجيش الذى يفقد الماء فى الصحراء يفقد أعصابه قبل أن يواجه المعركة . ثم هذه الحالة النفسية التى صاحبت الموقف ووسوس بها الشيطان ! حالة التحرج من أداء الصلاة على غير طهر لعدم وجود الماء [ولم يكن قد رخص لهم بعد فى التيمم ، فقد جاء هذا متأخراً فى غزوة بنى المصطلق فى السنة الخامسة] . وهنا تثور الهواجس والوساوس ، ويدخل الشيطان من باب الإيمان ليزيد حرج النفوس ووجل القلوب ! والنفوس التى تدخل المعركة فى مثل هذا الحرج وفى مثل هذا القلق تدخلها مزعزعة مهزومة من داخلها . . وهنا يجىء المدد وتجىء النجدة (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم , ويثبت به الأقدام) ويتم المدد الروحى بالمدد المادى ؛ وتسكن القلوب بوجود الماء ، وتطمئن الأرواح بالطهارة ; وتثبت الأقدام بثبات الأرض وتماسك الرمال . ذلك إلى ما أوحى الله به إلى الملائكة من تثبيت الذين آمنوا ؛ وإلى ما وعد به من إلقاء الرعب فى قلوب الذين كفروا ؛ وإلى ما أمر به الملائكة من الاشتراك الفعلى فى المعركة (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان) إنه الأمر الهائل . . إنها معية الله سبحانه للملائكة فى المعركة ؛ واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة . . هذا هو الأمر الذى لا يجوز أن يشغلنا عنه أن نبحث كيف اشتركت الملائكة ؟ ولاكم قتيلاً قتلت ؟ ولا كيف قتلت ؟ . . . إن الحقيقة الكبيرة الهائلة فى الموقف هى تلك الحقيقة . . إن حركة العصبة المسلمة فى الأرض بهذا الدين أمر هائل عظيم . . أمر يستحق معية الله لملائكته فى المعركة ، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة ! إننا نؤمن بوجود خلق من خلق الله اسمهم الملائكة ؛ ولكنا لا ندرك من طبيعتهم إلا ما أخبرنا به خالقهم عنهم . فلا نملك من إدراك الكيفية التى اشتركوا بها فى نصر المسلمين يوم بدر إلا بمقدار ما يقرره النص القرآنى . . وقد أوحى إليهم ربهم:أنى معكم . وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا ، ففعلوا – لأنهم يفعلون ما يؤمرون – ولكننا لا ندرى كيف فعلوا . وأمرهم أن يضربوا فوق أعناق المشركين وأن يضربوا منهم كل بنان . ففعلوا كذلك بكيفية لا نعلمها ، فهذا فرع عن طبيعة إدراكنا نحن لطبيعة الملائكة ، ونحن لا نعلم عنها إلا ما علمنا الله . . ولقد وعد الله سبحانه أن يلقى الرعب فى قلوب الذين كفروا . فكان ذلك ، ووعده الحق ، ولكنا كذلك لا نعلم كيف كان . فالله هو الذى خلق ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو يحول بين المرء وقلبه ؛ وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، إن البحث التفصيلى فى كيفيات هذه الأفعال كلها ليس من الجد الذى هو طابع هذه العقيدة . وطابع الحركة الواقعية بهذه العقيدة . . ولكن هذه المباحث صارت من مباحث الفرق الإسلامية ومباحث علم الكلام فى العصور المتأخرة ، عندما فرغ الناس من الاهتمامات الإيجابية فى هذا الدين ، وتسلط الترف العقلى على النفوس والعقول . . وإن وقفة أمام الدلالة الهائلة لمعية الله سبحانه للملائكة فى المعركة ، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة ، لهى أنفع وأجدى ، وفى نهاية هذا الاستعراض ، وفى أعقاب المشهد الهائل الذى تتجلى فيه تلك الحقيقة الهائلة , يجىء التقرير الموضح لما وراء المعركة كلها . ووراء النصر فيها والهزيمة , من قاعدة ودستور لمجرى هذه الأمور (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله . ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) إنها ليست فلتة عارضة ، ولا مصادفة عابرة ، أن ينصر الله العصبة المسلمة ، وأن يسلط على أعدائها الرعب والملائكة مع العصبة المسلمة . . إنما ذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله , فاتخذوا لهم شقاً غير شق الله ورسوله ، وصفا غير صف الله ورسوله . ووقفوا موقف الخلف والمشاقة هذا يصدون عن سبيل الله ، ويحولون دون منهج الله للحياة (ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) ينزل عقابه الشديد على الذين يشاقونه ويشاقون رسوله . وهو قادر على عقابهم وهم أضعف من أن يقفوا لعقابه ، وفى نهاية المشهد يتوجه بالخطاب إلى أولئك الذين شاقوا الله ورسوله . . إن هذا الذى حل بكم فى الدنيا من الرعب

والهزيمة ليس نهاية المطاف . فأمر هذا الدين والحركة به والوقوف فى طريقه ، ليس أمر هذه الأرض وحدها ، ولا أمر هذه الحياة الدنيا بمفردها . . إنه أمر ممتد إلى ما وراء هذه الأرض ، وإلى ما بعد هذه الحياة . . إن أبعاده تمتد وراء هذه الآماد القريبة (ذلكم فذوقوه ، وأن للكافرين عذاب النار) فهذه نهاية المطاف . وهذا هو العذاب الذى لا يقاس إليه ما ذقتم من الرعب والهزيمة ومن الضرب فوق الأعناق ومن ضرب كل بنان ! الآن . . وقد استعرض السياق القرآنى هذا كله ، فأعاده حاضراً فى قلوبهم ، شاخصاً لأبصارهم . وهو يتضمن صورة من النصر الحاسم الذى لا يستند إلى تدبير بشرى ، ولا إلى قوة العدد ولا قوة العدة ؛ إنما يستند إلى تدبير الله وتقديره وعونه ومدده ؛ كما يستند إلى التوكل على الله وحده ، والالتجاء إليه ، والاستغاثة به ، والسير مع تدبيره وتقديره ، ويبدو فى التعبير القرآنى شدة فى التحذير ؛ وتغليظ فى العقوبة ؛ وتهديد بغضب من الله ومأوى فى النار(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره – إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة – فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير . . والمعنى:يا أيها الذين آمنوا إذا واجهتم الذين كفروا (زحفاً) أى متدانين متقاربين متواجهين ؛ فلا تفروا عنهم ، إلا أن يكون ذلك مكيدة حرب ، حيث تختارون موقعاً أحسن ، أو تدبرون خطة أحكم ؛ أو أن يكون ذلك انضماماً إلى فئة أخرى من المسلمين ، أو إلى قواعد المسلمين ، لتعاودوا القتال وأن من تولى ، وأعطى العدو دبره يوم الزحف فقد استحق ذلك العقاب غضباً من الله ومأوى فى جهنم . . أورد "ابن العربى فى أحكام القرآن " تعقيبا على الخلاف فى المقصود بهذا الحكم قال: اختلف الناس:هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر ، أم عام فى الزحوف كلها إلى يوم القيامة ؟ فروى ابن سعيد الخدرى أن ذلك يوم بدر ، لم يكن لهم فئة إلا رسول الله ؛ وبه قال نافع , والحسن ، وقتادة ، ويزيد بن حبيب ، والضحاك . ويروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة ؛ وإنما شذ من شذ بخصوص ذلك يوم بدر بقوله (ومن يولهم يومئذ دبره) فظن قوم أن ذلك إشارة إلى يوم بدر . وليس به . وإنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف . ونحن نأخذ بهذا الذى ذكره ابن العربى من رأى "ابن عباس وسائر العلماء" . . ذلك أن التولى يوم الزحف على إطلاقه يستحق هذا التشديد لضخامة آثاره الحركية من ناحية ؛ ولمساسه بأصل الاعتقاد من ناحية (فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ، وما رميت – إذ رميت – ولكن الله رمى . وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا . إن الله سميع عليم) وتذهب الروايات المأثورة إلى تفسير الرمى هنا بأنه رمية الحصى التى حثاها رسول الل ه ﷺ فى وجوه الكفار ، وهو يقول:" شاهت الوجوه . شاهت الوجوه " فأصابت وجوه المشركين ممن كتب عليهم القتل فى علم الله ولكن دلالة الآية أعم . فهى تمثل تدبير الله للأمر كله من وراء الحركة الظاهرة للنبى ﷺ والعصبة المسلمة معه . ولذلك تلاها قول الله تعالى (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) أى ليرزقهم من عنده أن يبلوا البلاء الحسن الذى ينالون عليه الأجر ، بعد أن يكتب لهم به النصر . فهو الفضل المضاعف أولاً وأخيراً (إن الله سميع عليم)يسمع استغاثتكم ويعلم حالكم ؛ ويجعلكم ستارا لقدرته ، متى علم منكم الخلوص له ؛ ويعطيكم النصر والأجر . . كما أعطاكم هذا وذاك فى بدر (ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) وهذه أخرى بعد تلك الأولى ! إن التدبير لا ينتهى عند أن يقتل لكم أعداءكم بأيديكم , ويصيبهم برمية رسولكم ، ويمنحكم حسن البلاء ليأجركم عليه . . إنما هو يضيف إليه توهين كيد الكافرين ، وإضعاف تدبيرهم وتقديرهم . . فلا مجال إذن للخوف ، ولا مجال إذن للهزيمة ، ولا مجال إذن لأن يولى المؤمنون الأدبار عند لقاء الكفار . . ويتصل السياق هنا بكل ملابسات المعركة . . فإذا كان الله هو الذى قتل المشركين ، وهو الذى رماهم ، وهو الذى أبلى المؤمنين فيها ذلك البلاء الحسن ، وهو الذى أوهن كيد الكافرين . . فما النزاع والاختلاف إذن فى الأنفال ، والمعركة كلها أديرت بتدبير الله وبتقديره ، وليس لهم فيها إلا أن كانوا ستارا لهذا التدبير والتقدير ؟! وعندما يصل السياق إلى تقرير . . أن الله موهن كيد الكافرين . . يتجه بالخطاب إلى الكافرين ، أولئك الذين استفتحوا قبيل المعركة ، فدعوا الله أن يجعل الدائرة على أضل الفريقين وأتاهما بما لا يُعرف وأقطعهما للرحم – كما كان دعاء أبى جهل وهو استفتاحه:أى طلبه الفتح من الله والفصل – فدارت الدائرة على المشركين ! . . يتوجه إليهم بالخطاب ، ساخرا من استفتاحهم ذاك ؛ مؤكدا لهم أن ما حدث فى بدر إنما هو نموذج من السنة الجارية وليس فلتة عارضة ؛ وأن جموعهم وكثرتهم لن تغير من الأمر شيئا ; لأنها السنة الجارية:أن يكون الله مع المؤمنين (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح . وإن تنتهوا فهو خير لكم . وإن تعودوا نعد ، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت . وأن الله مع المؤمنين) إن تستفتحوا فتطلبوا من الله أن يفتح بينكم وبين المسلمين ، وأن يهلك أضل الفريقين وأقطعهما للرحم . . فقد استجاب الله ، فجعل الدائرة عليكم ، تصديقاً لاستفتاحكم ! لقد دارت الدائرة على أضل الفريقين وأقطعهما للرحم ! ولقد علمتم – إن كنتم تريدون أن تعلموا – من هم أضل الفريقين وأقطعهما للرحم ! وعلى ضوء هذه الحقيقة ، وفى ظل هذا الإيحاء ، يرغبهم فى الانتهاء عما هم فيه من الشرك والكفر والحرب للمسلمين ، والمشاقة لله ورسوله (وإن تنتهوا فهو خير لكم) ومع الترغيب

الترهيب (وإن تعودوا نعد) والعاقبة معروفة ، لا يغيرها تجمع ، ولا تبدلها كثرة (ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت) وماذا تفعل الكثرة إذا كان الله فى جانب المؤمنين ؟ (وأن الله مع المؤمنين) إن المعركة على هذا النحو لن تكون متكافئة أبداً ؛ لأن المؤمنين – ومعهم الله – سيكونون فى صف ؛ والكفار – وليس معهم إلا ناس من البشر من أمثالهم – سيكونون فى الصف الآخر . والمعركة على هذا النحو مقررة المصير ! ولقد كان مشركو العرب يعرفون هذه الحقيقة . فإن معرفتهم بالله سبحانه لم تكن قليلة ولا سطحية ولا غامضة ؛ كما يتصور الناس اليوم من خلال تأثرهم ببعض التعميمات التاريخية . ولم يكن شرك العرب متمثلا فى إنكار الله – سبحانه – ولا فى عدم معرفتهم الحقيقة . . إنما كان يتمثل، فى عدم إخلاصهم العبودية له ؛ وذلك بتلقى منهج حياتهم وشرائعهم من غيره ؛ وهو ما لم يكن متفقاً مع إقرارهم بألوهية الله ومعرفتهم لحقيقته . . ثم يعود السياق إلى الهتاف للذين آمنوا – فى سلسلة متوالية من الهتافات الموحية – عقب ذكرهم:وذكر أن الله معهم . . يعود إليهم ليهتف بهم إلى طاعة الله ورسوله ؛ ويحذرهم التولى عنه ، والتشبه بأولئك الذين يسمعون آيات الله تتلى عليهم فكأنهم لم يسمعوها . . أولئك الصم البكم ، وإن كانت لهم آذان تسمع الأصوات والسنة تنطق بالكلمات . . أولئك الذين هم شر الدواب التى تدب على هذه الأرض ؛ لأنهم لا يهتدون بما يسمعون (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ، ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون . ولا تكونوا كالذين قالوا:سمعنا ، وهم لا يسمعون . إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم . ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) إن الهتاف هنا للذين آمنوا ليطيعوا الله ورسوله ، ولا يتولوا عنه وهم يسمعون آياته وكلماته . . إن هذا الهتاف هنا إنما يجىء بعد جميع مقدماته الموحية . . يجىء بعد استعراض أحداث المعركة ؛ وبعد رؤية يد الله فيها ، وتدبيره وتقديره ، وعونه ومدده ; وبعد توكيد أن الله مع المؤمنين ، وأن الله موهن كيد الكافرين . فما يبقى بعد ذلك كله مجال لغير السمع والطاعة لله والرسول . وإن التولى عن الرسول وأوامره بعد هذا كله ليبدو مستنكراً قبيحا لا يقدم عليه إنسان له قلب يتدبر وعقل يتفكر . . ومن هنا يجىء ذكر الدواب فى موضعه المناسب ! ولفظ (الدواب) يشمل الناس فيما يشمل ، فهم يدبون على الأرض ، ولكن استعماله يكثر فى الدواب من الأنعام ، فيلقى ظله بمجرد إطلاقه ; ويخلع على (الصم البكم الذين لا يعقلون) صورة البهيمة فى الحس والخيال ! وإنهم لكذلك ! إنهم لدواب بهذا الظل . بل هم شر الدواب ! فالبهائم لها آذان ولكنها لا تسمع إلا كلمات مبهمة ؛ ولها لسان ولكنها لا تنطق أصواتاً مفهومة . إلا أن البهائم مهتدية بفطرتها فيما يتعلق بشؤون حياتها الضرورية . أما هؤلاء الدواب فهم موكولون إلى إدراكهم الذى لا ينتفعون به . فهم شر الدواب قطعا ! (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) أى لأسمع قلوبهم وشرحها لما تسمعه آذانهم . . ولكنه – سبحانه – لم يعلم فيهم خيرا ولا رغبة فى الهدى فقد أفسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقى والاستجابة ؛ فلم يفتح الله عليهم ما أغلقوا هم من قلوبهم ، وما أفسدوا هم من فطرتهم . ولو جعلهم الله يدركون بعقولهم حقيقة ما يدعون إليه ، ما فتحوا قلوبهم له ولا استجابوا لما فهموا . (ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون) لأن العقل قد يدرك ، ولكن القلب المطموس لا يستجيب . فحتى لو أسمعهم الله سماع الفهم لتولوا هم عن الاستجابة . والاستجابة هى السماع الصحيح . وكم من ناس تفهم عقولهم ولكن قلوبهم مطموسة لا تستجيب ! ومرة أخرى يتكرر الهتاف للذين آمنوا . الهتاف بهم ليستجيبوا لله والرسول ، مع الترغيب فى الاستجابة والترهيب من الإعراض ؛ والتذكير بنعمة الله عليهم حين استجابوا لله وللرسول (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه . وأنه إليه تحشرون . واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب . واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) إن رسول الله ﷺ إنما يدعوهم إلى ما يحييهم . . إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة , وبكل معانى الحياة إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيى القلوب والعقول ، وتطلقها من أوهاق الجهل والخرافة ؛ ومن ضغط الوهم والأسطورة ، ومن الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والحتميات القاهرة ، ومن العبودية لغير الله والمذلة للعبد أو للشهوات سواء . . ويدعوهم إلى شريعة من عند الله ؛ تعلن تحرر "الإنسان". ويدعوهم إلى منهج للحياة ، ومنهج للفكر ، ومنهج للتصور ؛ يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة ، ويدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم ، والثقة بدينهم وبربهم ويدعوهم إلى الجهاد فى سبيل الله ، لتقرير ألوهية الله سبحانه – فى الأرض وفى حياة الناس ؛ وتحطيم ألوهية العبيد المدعاة ؛ ومطاردة هؤلاء المعتدين على ألوهية الله – سبحانه – وحاكميته وسلطانه ؛ حتى يفيئوا إلى حاكمية الله وحده ؛ وعندئذ يكون الدين كله لله . حتى إذا أصابهم الموت فى هذا الجهاد كان لهم فى الشهادة حياة (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) استجيبوا له طائعين مختارين ؛ وإن كان الله – سبحانه – قادراً على قهركم على الهدى لو أراد (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) ويا لها من صورة رهيبة مخيفة للقدرة القاهرة اللطيفة . . (يحول بين المرء وقلبه)

فيفصل بينه وبين قلبه ؛ ويستحوذ على هذا القلب ويحتجزه ، ويصرفه كيف شاء ، ويقلبه كما يريد . وصاحبه لا يملك منه شيئا وهو قلبه الذى بين جنبيه ! إنها صورة رهيبة حقاً ؛ يتمثلها القلب فى النص القرآنى ، ولكن التعبير البشرى يعجز عن تصوير إيقاعها فى هذا القلب ، ووصف هذا الإيقاع فى العصب والحس ! ولقد كان رسول الله ﷺ وهو رسول الله المعصوم يكثر من دعاء ربه:" اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك " . . فكيف بالناس ، وهم غير مرسلين ولا معصومين ؟! إنها صورة تهز القلب حقا ؛ ويجد لها المؤمن رجفة فى كيانه حين يخلو إليها لحظات , ناظرا إلى قلبه الذى بين جنبيه ، وهو فى قبضة القاهر الجبار ؛ وهو لا يملك منه شيئا , وإن كان يحمله بين جنبيه ويسير ! صورة يعرضها على الذين آمنوا وهو يناديهم (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) ليقول لهم:إن الله قادر على أن يقهركم على الهدى – لو كان يريد – وعلى الاستجابة التى يدعوكم إليها هذه الدعوة ، ولكنه – سبحانه – يكرمكم ؛ فيدعوكم لتستجيبوا عن طواعية تنالون عليها الأجر(وأنه إليه تحشرون) فقلوبكم بين يديه . وأنتم بعد ذلك محشورون إليه . فما لكم منه مفر . لا فى دنيا ولا فى آخرة . وهو مع هذا يدعوكم لتستجيبوا استجابة الحر المأجور ، لا استجابة العبد المقهور . ثم يحذرهم القعود عن الجهاد ، وعن تلبية دعوة الحياة ، والتراخى فى تغيير المنكر فى أية صورة كان (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب) والفتنة هى الابتلاء أو البلاء . ولما كانت مقاومة الظلم تكلف الناس التكاليف فى الأنفس والأموال ؛ فقد عاد القرآن يذكر العصبة المسلمة – التى كانت تخاطب بهذا القرآن أول مرة – بما كان من ضعفها وقلة عددها ، وبما كان من الأذى الذى ينالها ، والخوف الذى يظللها . . وكيف آواها الله بدينه هذا وأعزها ورزقها رزقا طيبا . . فلا تقعد إذن عن الحياة التى يدعوها إليها رسول الله . ولا عن تكاليف هذه الحياة ، التى أعزها بها الله ، وأعطاها وحماها (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم ، وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) اذكروا هذا لتستيقنوا أن الرسول يدعوكم لما يحييكم ؛ واذكروه كى لا تقعدوا عن مكافحة الظلم فى كل صوره وأشكاله . . اذكروا أيام الضعف والخوف ، قبل أن يوجهكم الله إلى قتال المشركين ، وقبل أن يدعوكم الرسول إلى الطائفة ذات الشوكة وأنتم كارهون . . ثم انظروا كيف صرتم بعد الدعوة المحيية التى انقلبتم بها أعزاء منصورين مأجورين مرزوقين . يرزقكم الله من الطيبات ليؤهلكم لشكره فتؤجروا على شكركم لفضله ! ويرسم التعبير مشهدا حيا للقلة والضعف والقلق والخوف (تخافون أن يتخطفكم الناس) وهو مشهد التربص الوجل ، والترقب الفزع ، حتى لتكاد العين تبصر بالسمات الخائفة , والحركات المفزعة ، والعيون الزائغة . . والأيدى تمتد للتخطف ؛ والقلة المسلمة فى ارتقاب وتوجس ! ومن هذا المشهد المفزع إلى الأمن والقوة والنصر والرزق الطيب والمتاع الكريم ، فى ظل الله الذى آواهم إلى حماه (فآواكم ، وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات) وفى ظل توجيه الله لهم ليشكروا فيؤجروا (لعلكم تشكرون) فمن ذا الذى يتأمل هذه النقلة البعيدة ، ثم لا يستجيب لصوت الحياة الآمنة القوية الغنية . .صوت الرسول الأمين الكريم . . ثم من ذا الذى لا يشكر الله على إيوائه ونصره وآلائه ، وهذا المشهد وذلك معروضان عليه ، ولكل منهما إيقاعه وإيحاؤه ؟ ثم يتكرر الهتاف للذين آمنوا مرة أخرى . . إن الأموال والأولاد قد تقعد الناس عن الاستجابة خوفا وبخلا . والحياة التى يدعو إليها رسول الله ﷺ حياة كريمة ، لا بد لها من تكاليف ، ولا بد لها من تضحيات . . لذلك يعالج القرآن هذا الحرص بالتنبيه إلى فتنة الأموال والأولاد – فهى موضع ابتلاء واختبار وامتحان – وبالتحذير من الضعف عن اجتياز هذا الامتحان ؛ ومن التخلف عن دعوة الجهاد ؛ وعن تكاليف الأمانة والعهد والبيعة . واعتبار هذا التخلف خيانة لله والرسول ، وخيانة للأمانات التى تضطلع بها الأمة المسلمة فى الأرض . ومع هذا التحذير التذكير بما عند الله من أجر عظيم يرجح الأموال والأولاد ، التى قد تقعد الناس عن التضحية والجهاد (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون . واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم) إن التخلى عن تكاليف الأمة المسلمة فى الأرض خيانة لله والرسول . فالقضية الأولى فى هذا الدين هى قضية لا إله إلا الله ، محمد رسول الله" . . قضية إفراد الله – سبحانه – بالألوهية ؛ والأخذ فى هذا بما بلغه محمد ﷺ وحده . . والبشرية فى تاريخها كله لم تكن تجحد الله البتة ؛ ولكنها إنما كانت تشرك معه آلهة أخرى . أحيانا قليلة فى الاعتقاد والعبادة . وأحيانا كثيرة فى الحاكمية والسلطان – وهذا هو غالب الشرك ومعظمه – ومن ثم كانت القضية الأولى لهذا الدين ليست هى حمل الناس على الاعتقاد بألوهية الله . ولكن حملهم على إفراده – سبحانه – بالألوهية ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، اى إفراده بالحاكمية فى حياتهم الأرضية – كما أنهم مقرون بحاكميته فى نظام الكون ، كذلك يحذرها خيانة الأمانة التى حملتها يوم بايعت رسول الله ﷺ على الإسلام . فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان ، وليس مجرد عبارات وادعيات . إنما هو منهج حياة كاملة شاملة تعترضه العقبات والمشاق . إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة أن لا إله إلا الله ؛ وذلك برد الناس إلى العبودية لربهم الحق ؛ ورد المجتمع إلى حاكميته

وشريعته وكل أولئك في حاجة إلى التضحية والصبر والاحتمال ؛ وإلى الاستعلاء على فتنة الأموال والأولاد ، وإلى التطلع إلى ما عند الله من الأجر العظيم ، المدخر لعباده الأمناء على أماناته ، الصابرين المؤثرين المضحين (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم) إن هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية ، بما يعلم خالقها من تركيبها الخفى ، وبما يطلع منها على الظاهر والباطن ، وعلى المنحنيات والدروب والمسالك ! وهو - سبحانه - يعلم مواطن الضعف فى هذه الكينونة . ويعلم أن الحرص على الأموال وعلى الأولاد من أعمق مواطن الضعف فيها . . ومن هنا ينبهها إلى حقيقة هبة الأموال والأولاد (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) فإذا انتبه القلب إلى موضع الامتحان والاختبار ، كان ذلك عونا له على الحذر واليقظة والاحتياط ؛ أن يستغرق وينسى ويخفق فى الامتحان والفتنة . ثم لا يدعه الله بلا عون منه ولا عوض . . فقد يضعف عن الأداء - بعد الانتباه - لثقل التضحية وضخامة التكليف ؛ وبخاصة فى موطن الضعف فى الأموال والأولاد ! إنما يلوّح له بما هو خير وأبقى ، ليستعين به على الفتنة ويتقوى (وأن الله عنده أجر عظيم) إنه - سبحانه - هو الذى وهب الأموال والأولاد . . وعنده وراءهما أجر عظيم لمن يستعلى على فتنة الأموال والأولاد ، فلا يقعد أحد إذن عن تكاليف الأمانة وتضحيات الجهاد . . وهذا هو العون والمدد للإنسان الضعيف ، الذى يعلم خالقه مواطن الضعف فيه ، والهتاف الأخير للذين آمنوا - فى هذا المقطع من السورة - هو الهتاف بالتقوى . فما تنهض القلوب بهذه الأعباء الثقال ، إلا وهى على بينة من أمرها ونور يكشف الشبهات ويزيل الوساوس ويثبت الأقدام على الطريق الشائك الطويل . وما يكون لها هذا الفرقان إلا بحساسية التقوى وإلا بنور الله (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ، ويغفر لكم . والله ذو الفضل العظيم) هذا هو الزاد ، وهذه هى عدة الطريق . . زاد التقوى التى تحيى القلوب وتوقظها وتستجيش فيها أجهزة الحذر والحيطة والتوقى . وعدة النور الهادى الذى يكشف منحنيات الطريق ودروبه على مد ألا إنه العطاء العميم الذى لا يعطيه إلا الرب(الكريم) ذو الفضل العظيم !

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ{٣٠} وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ{٣١} وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{٣٢} وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ{٣٣} وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{٣٤} وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٣٥} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ{٣٦} لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{٣٧} قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ{٣٨} وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{٣٩} وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ{٤٠}

يمضى السياق فى السورة ، يستعرض الماضى فى مواجهة الحاضر ؛ ويصور للعصبة المسلمة التى خاضت المعركة وانتصرت فيها ذلك النصر المؤزر ، مدى النقلة الهائلة بين ذلك الماضى وهذا الحاضر ؛ ويريها فضل الله عليها فى تدبيره لها وتقديره . . الأمر الذى تتضاءل إلى جانبه الأنفال والغنائم ; كما تهون إلى جانبه التضحيات والمشاق ، فيستطرد إلى تصوير موقف المشركين وهم يبيتون لرسول الله ﷺ قبيل الهجرة ويتآمرون . وهم يُعرضون عما معه من الآيات ويزعمون أنهم قادرون على الإتيان بمثلها لو يشاءون ! وهم يعاندون ويلج بهم العناد حتى ليستعجلون العذاب - إن كان هذا هو الحق من عند الله - بدلا من أن يفيئوا إليه ويهتدوا به ! ثم يذكر كيف ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، ويجمعوا لحرب رسول الله ؛ ويوعدهم بالخيبة والحسرة فى الدنيا ، والحشر إلى جهنم فى الآخرة ، والخسارة هنا وهناك من وراء الكيد والجمع والتدبير . وفى النهاية يأمر الله نبيه أن يواجه الذين كفروا فيخيرهم بين أمرين:أن ينتهوا عن الكفر العناد وحرب الله ورسوله فيغفر لهم ما سبق فى جاهليتهم من هذه المنكرات . أو أن يعودوا لما هم عليه وما حاولوه فيصيبهم ما أصاب الأولين من أمثالهم ؛ وتجرى عليه سنة الله بالعذاب الذى يشاؤه الله ويقدره كما يريد . . . ثم يأمر الله المسلمين أن يقاتلوهم حتى لا تكون للكفر قوة يفتنون بها المسلمين ؛ وحتى تتقرر الألوهية فيالأرض لله وحده - فيكون الدين كله لله - فإن أعلنوا الاستسلام قبل منهم النبى ﷺ هذا ونيتهم يحاسبهم بها الله ، والله بما يعملون بصير . وإن تولوا وظلوا على حربهم وعنادهم وعدم اعترافهم بألوهية الله وحده , وعدم استسلامهم لسلطان الله فى الأرض ، واصل المسلمون جهادهم ، مستيقنين أن الله مولاهم ,

ونعم المولى ونعم النصير (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك . ويمكرون ويمكر الله . والله خير الماكرين) إنه التذكير بما كان فى مكة ، قبل تغير الحال ، وتبدل الموقف . وإنه ليوحى بالثقة واليقين فى المستقبل ؛ كما ينبه إلى تدبير قدر الله وحكمته فيما يقضى به ويأمر . . ولقد كان المسلمون الذين يخاطبون بهذا القرآن أول مرة ، يعرفون الحالين معرفة الذى عاش ورأى وذاق . وكان يكفى أن يذكروا بهذا الماضى القريب ، وما كان فيه من خوف وقلق ؛ فى مواجهة الحاضر الواقع وما فيه من أمن وطمأنينة . . وما كان من تدبير المشركين ومكرهم برسول الله ﷺ فى مواجهة ما صار إليه من غلبة عليهم ، لا مجرد النجاة منهم ! لقد كانوا يمكرون ليوثقوا رسول الله ﷺ ويحبسوه حتى يموت ؛ أو ليقتلوه ويتخلصوا منه ؛ أو ليخرجوه من مكة منفيا مطرودا . . ولقد ائتمروا بهذا كله ثم اختاروا قتله ؛ على أن يتولى ذلك المنكر فتية من القبائل جميعا ؛ ليتفرق دمه فى القبائل ; ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب كلها ، فيرضوا بالدية وينتهى الأمر ! (و القصة مذكورة بإختصار فى كتاب نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين)(ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين) والصورة التى يرسمها قوله تعالى (ويمكرون ويمكر الله) صورة عميقة التأثير . . ذلك حين تتراءى للخيال ندوة قريش ، وهم يتآمرون ويتذاكرون ويدبرون ويمكرون . . والله من ورائهم ، محيط ، يمكر بهم ويبطل كيدهم وهم لا يشعرون ! إنها صورة ساخرة ، وهى فى الوقت ذاته صورة مفزعة . . فأين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل , من تلك القدرة القادرة . . قدرة الله الجبار ، القاهر فوق عباده ، الغالب على أمره ، وهو بكل شىء محيط ؟ والتعبير القرآنى يرسم الصورة على طريقة القرآن الفريدة فى التصوير ؛ فيهز بها القلوب , ويحرك بها أعماق الشعور . ويمضى السياق فى وصف أحوال الكفار وأفعالهم ؛ ودعاويهم ومفترياتهم . حتى ليبلغ بهم الادعاء أن يزعموا أن فى مقدورهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن لو شاءوا ! مع وصف هذا القرآن الكريم ، بأنه أساطير الأولين (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا:قد سمعنا ! لو نشاء لقلنا مثل هذا ! إن هذا إلا أساطير الأولين) ذكر ابن كثير فى التفسير – نقلا عن سعيد بن جبير والسدى وابن جريج وغيرهم – أن القائل لذلك هو النضر ابن الحارث قال:" فإنه – لعنه الله – كان قد ذهب إلى بلاد فارس , وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار ؛ ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن . فكان ﷺ إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ؛ ثم يقول:بالله أينا أحسن قصصا ؟ أنا أو محمد ؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى فيه يوم بدر ووقع فى الأسارى ، أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبرا بين يديه ، ففعل ذلك والحمد لله . وكان الذى أسره المقداد بن الأسود رضى الله عنه لقد كان الملأ من قريش يعرفون طبيعة هذه الدعوة ، مذ كانوا يعرفون مدلولات لغتهم الصحيحة ! كانوا يعرفون أن شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، معناها إعلان التمرد على سلطان البشر كافة ، والخروج من حاكمية العباد جملة ؛ والفرار إلى ألوهية الله وحده وحاكميته . ثم التلقى فى هذه العبودية لله عن محمد رسول الله ﷺ وحده ، دون الناطقين باسم الآلهة أو باسم الله ! . . وكانوا يرون الذين يشهدون هذه الشهادة يخرجون لتوهم من سلطان قريش وقيادتها وحاكميتها ؛ وينضمون إلى التجمع الحركى الذى يقوده محمد ﷺ ويخضعون لقيادته وسلطانه ؛ وينتزعون ولاءهم للأسرة والعشيرة والقبيلة والمشيخة والقيادة الجاهلية ؛ ويتوجهون بولائهم كله للقيادة الجديدة ، وللعصبة المسلمة التى تقوم عليها هذه القيادة الجديدة . كان هذا كله هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . . وكان هذا واقعاً يشهده الملأ من قريش ؛ ويحسون خطره على كيانهم ، وعلى الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقيدية التى يقوم عليها كيانهم . لم يكن مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، هو هذا المدلول الباهت الفارغ الهزيل الذى يعنيه اليوم من يزعمون أنهم مسلمون – لمجرد أنهم يشهدون هذه الشهادة بألسنتهم ؛ ويؤدون بعض الشعائر التعبدية ، بينما ألوهية الله فى الأرض وفى حياة الناس لا وجود لها ولا ظل ؛ وبينما القيادات الجاهلية والشرائع الجاهلية هى التى تحكم المجتمع وتصرف شؤونه . وحقيقة إنه فى مكة لم تكن للإسلام شريعة ولا دولة . . ولكن الذين كانوا ينطقون بالشهادتين كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية ؛ ويمنحون ولاءهم من فورهم للعصبة المسلمة ؛ كما كانوا ينسلخون من القيادة الجاهلية ويتمردون عليها ؛ وينزعون ولاءهم من الأسرة والعشيرة والقبيلة والقيادة الجاهلية بمجرد نطقهم بالشهادتين . . فلم يكن الأمر هو هذا النطق الفارغ الباهت الهزيل . ولكن كانت دلالته الواقعية العملية هى التى تترجمه إلى حقيقة يقوم عليها الإسلام . . وهذا هو الذى كان يزعج الملأ من قريش من زحف الإسلام ، ومن هذا القرآن . . إنه لم يزعجهم من قبل أن "الحنفاء" اعتزلوا معتقدات المشركين وعباداتهم ؛ واعتقدوا بألوهية الله وحده وقدموا له الشعائر وحده ، واجتنبوا عبادة الأصنام أصلاً . . فإلى هنا لا يهم الطاغوت الجاهلى شىء ؛ لأنه لا خطر على الطاغوت من الاعتقاد السلبى والشعائر التعبدية ! إن هذا ليس هو الإسلام – كما يظن بعض الطيبين الخيرين الذين يريدون اليوم أن يكونوا مسلمين ، ولكنهم لا يعرفون ما هو الإسلام معرفة اليقين ! – إنما الإسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين . . هو الانخلاع من المجتمع الجاهلى وتصوراته

وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه ؛ والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية وللعصبة المسلمة التي تريد أن تحقق الإسلام فى عالم الواقع . . وهذا ما كان يقض مضاجع الملأ من قريش ، فيقاومونه بشتى الأساليب . . ومنها هذا الأسلوب . . أسلوب الادعاء على القرآن الكريم ، بأنه أساطير الأولين ! وأنهم – لو شاءوا – قالوا مثله !ذلك مع تحديهم به مرة ومرة ومرة . . وهم فى كل مرة يعجزون ويخنسون ! والأساطير واحدتها أسطورة . وهي الحكاية المتلبسة – غالباً – بالتصورات الخرافية عن الآلهة ؛ وعن أقاصيص القدامى وبطولاتهم الخارقة ، وعن الأحداث التي يلعب فيها الخيال والخرافة دوراً كبيراً وقد كان الملأ من قريش يعمدون إلى ما فى القرآن من قصص الأولين ؛ وقصص الخوارق والمعجزات ; وفعل الله بالمكذبين وإنجائه للمؤمنين . . إلى آخر ما فى القصص القرآنى من هذه الموضوعات ؛ فيقولون للجماهير المستغفلة:إنها أساطير الأولين ؛ اكتتبها محمد ممن يجمعونها ؛ وجاء يتلوها عليكم ، زاعماً أنه أوحى إليه بها من عند الله . ولا بد أن نقدر أنه كان هناك تأثير لهذه البلبلة فى الوسط الجاهلي عند عامة الناس . وبخاصة فى أول الأمر ، قبل أن تتجلى الفوارق بين هذه الأساطير والقصص ، وبين القرآن الكريم . لندرك لم نادى منادى رسول الله ﷺ قبل المعركة فى بدر بقتل النضر بن الحارث . ثم لما وجده أسيراً أمر بقتله هو والنفر القليل الذين أمر بقتلهم من الأسرى ؛ ولم يقبل فيه فدية كالآخرين .

على أن الذى انتهى إليه الأمر فى مكة أن هذه الأساليب لم تعش طويلاً ؛ وأن هذا النوع من المناورات قد انكشف بعد حين ؛ وأن القرآن بسلطانه القاهر الذى يحمله من عند الله ؛ وبالحق العميق الذى تصطلح عليه الفطرة سريعاً ، قد اكتسح هذه الأساليب وهذه المناورات ، فلم يقف له منها شيء على أن محاولة النضر بن الحارث أن يلهى الناس عن هذا القرآن بشيء آخر يخدعهم به عنه , لم تكن هى المحاولة الأخيرة ولن تكون . . لقد تكررت فى صور شتى وسوف تتكرر . . لقد حاول أعداء هذا الدين دائماً أن يصرفوا الناس نهائياً عن هذا القرآن . فلما عجزوا حولوه إلى تراتيل يترنم بها القراء ويطرب لها المستمعون ، وحولوه إلى تمائم وتعاويذ يضعها الناس فى جيوبهم وفى صدورهم وتحت وسائدهم . . . ويفهمون أنهم مسلمون , ويظنون أنهم أدوا حق هذا القرآن وحق هذا الدين ! لم يعد القرآن فى حياة الناس هو مصدر التوجيه . . لقد صاغ لهم أعداء هذا الدين أبدالاً منه يتلقون منها التوجيه فى شؤون الحياة كلها . . حتى ليتلقون منها تصوراتهم ومفاهيمهم ، إلى جانب ما يتلقون منها شرائعهم وقوانينهم ، وقيمهم وموازينهم ! ثم قالوا لهم:إن هذا الدين محترم ، وإن هذا القرآن مصون . وهو يتلى عليكم صباحاً ومساء وفى كل حين ؛ ويترنم به المترنمون ، ويرتله المرتلون . . فماذا تريدون من القرآن بعد هذا الترنم وهذا الترتيل ؟! فأما تصوراتكم ومفهوماتكم ، وأما أنظمتكم وأوضاعكم ، وأما شرائعكم وقوانينكم ، وأما قيمكم وموازينكم ، فإن هناك قرآنا آخر هو المرجع فيها كلها ، فإليه ترجعون ! ثم يمضى السياق يصف العجب العاجب من عناد المشركين فى وجه الحق الذى يغالبهم فيغلبهم ; فإذا الكبرياء تصدهم عن الاستسلام له والإذعان لسلطانه ؛ وإذا بهم يتمنون على الله – إن كان هذا هو الحق من عنده – أن يمطر عليهم حجارة من السماء ، أو أن يأتيهم بعذاب أليم . بدلاً من أن يسألوا الله أن يرزقهم اتباع هذا الحق والوقوف فى صفه (وإذ قالوا:اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم) وهو دعاء غريب ؛ يصور حالة من العناد الجامح الذى يؤثر الهلاك على الإذعان للحق , حتى ولو كان حقاً ! . إن الفطرة السليمة حين تشك تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق , وأن يهديها إليه ، دون أن تجد فى هذا غضاضة . ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجامحة , تأخذها العزة بالإثم ، حتى لتؤثر الهلاك والعذاب ، على أن تخضع للحق عندما يكشف لها واضحاً لا ريب فيه . . وبمثل هذا العناد كان المشركون فى مكة يواجهون دعوة رسول الله ﷺ ولكن هذه الدعوة هي التي انتصرت فى النهاية فى وجه هذا العناد الجامح الشموس ! ويعقب السياق على هذا العناد ، وعلى هذا الادعاء ، بأنهم مع استحقاقهم لإمطار الحجارة عليهم من السماء وللعذاب الأليم الذى طلبوه – إن كان هذا هو الحق من عنده – وإنه للحق . . مع هذا فإن الله قد أمسك عنهم عذاب الاستئصال الذى أخذ به المكذبين قبلهم . لأن رسول الله ﷺ بينهم ، ولا يزال يدعوهم إلى الهدى . والله لا يعذبهم عذاب الاستئصال والرسول فيهم . كما أنه لا يعذبهم هذا العذاب على معاصيهم إذا كانوا يستغفرون منها ؛ وليس تأخير العذاب عنهم لمجرد أنهم أهل هذا البيت . فهم ليسوا بأولياء هذا البيت إنما أولياؤه المتقون (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون . وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ، وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون , ولكن أكثرهم لا يعلمون . وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية . فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) إنها رحمة الله تمهلهم فلا يأخذهم الله بعنادهم ؛ ولا يأخذهم بصدهم عن المسجد الحرام – وقد كانوا يمنعون المسلمين أن يحجوا إليه ، وهم لا يمنعون أحداً ولا يهيجونه عنه ! إنها رحمة الله تمهلهم عسى أن يستجيب للهدى منهم من تخالط بشاشة الإيمان قلبه – ولو بعد حين – وما دام الرسول [ص] بينهم ، يدعوهم ،

فهنالك توقع لاستجابة البعض منهم ; فهم إكراماً لوجود رسول الله بينهم يمهلون . والطريق أمامهم لاتقاء عذاب الاستئصال دائماً مفتوح إذا هم استجابوا واستغفروا عما فرط منهم وأنابوا (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) فأما لو عاملهم الله بما هم فيه فهم مستحقون لهذا العذاب (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام . وما كانوا أولياءه . إن أولياؤه إلا المتقون . ولكن أكثرهم لا يعلمون) إنه لا يمنع العذاب عنهم ما يدعونه من أنهم ورثة إبراهيم وسدنة بيت الله الحرام . . فهذه ليست سوى دعوى لا أساس لها من الواقع . إنهم ليسوا أولياء هذا البيت ولا أصحابه . إنهم أعداء هذا البيت وغاصبوه ! إن بيت الله الحرام ليس تركة يرثها الخلف عن السلف . إنه بيت الله يرثه أولياء الله المتقون لله . وإن هذا ليخطر بالبال صور العازفين المصفقين الصاخبين الممرغين خدودهم على الأعتاب والمقامات اليوم فى كثير من البلاد التى يسمونها "بلاد المسلمين" ! إنها الجاهلية تبرز فى صورة من صورها الكثيرة . بعدما برزت في صورتها الواضحة الكبيرة:صورة ألوهية العبيد فى الأرض ، وحاكميتهم فى حياة الناس . . وإذا وقعت هذه فكل صور الجاهلية الأخرى إنما هى تبع لها ، وفرع منها ! (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) وهو ذلك العذاب الذى نزل بهم فى بدر بأيدى العصبة المسلمة . فأما العذاب الذى طلبوه - عذاب الاستئصال المعروف - فهو مؤجل عنهم ، رحمة من الله بهم ، وإكراماً لنبيهﷺ ومقامه فيهم ، عسى أن ينتهى بهم الأمر إلى التوبة والاستغفار مما هم فيه . والكفار ينفقون أموالهم ليتعاونوا على الصد عن سبيل الله . . هكذا فعلوا يوم بدر , وهكذا ظلوا بعد بدر يستعدون للوقعة التالية . والله ينذرهم بالخيبة فيما يبغون وبالحسرة على ما ينفقون , ويعدهم الهزيمة فى الدنيا وعذاب جهنم فى الآخرة (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله . فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ; ثم يغلبون ؛ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون . ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض ، فيركمه جميعاً ، فيجعله فى جهنم ، أولئك هم الخاسرون) وليس هذا الذى حدث قبل بدر وبعدها إلا نموذجاً من الأسلوب التقليدى لأعداء هذا الدين . . إنهم ينفقون أموالهم ، ويبذلون جهودهم ، ويستنفدون كيدهم ، فى الصد عن سبيل الله ، وفى إقامة العقبات فى وجه هذا الدين . وفى حرب العصبة المسلمة فى كل أرض وفى كل حين . . والله - سبحانه - ينذر الكفار الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله بأنها ستعود عليهم بالحسرة . . إنهم سينفقونها لتضيع فى النهاية ، وليغلبوا هم وينتصر الحق فى هذه الدنيا . وسيحشرون فى الآخرة إلى جهنم ، فتتم الحسرة الكبرى . . ذلك (ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض ، فيركمه جميعاً ؛ فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون) فكيف ؟ إن هذا المال الذى ينفق يؤلب الباطل ويملى له فى العدوان ؛ فيقابله الحق بالكفاح والجهاد ; وبالحركة للقضاء على قدرة الباطل على الحركة . . وفى هذا الاحتكاك المرير , تنكشف الطباع ، ويتميز الحق من الباطل ، كما يتميز أهل الحق من أهل الباطل - حتى بين الصفوف التى تقف ابتداء تحت راية الحق قبل التجربة والابتلاء ! - ويظهر الصامدون الصابرون المثابرون الذين يستحقون نصر الله ، لأنهم أهل لحمل أماناته ، والقيام عليها ، وعدم التفريط فيها تحت ضغط الفتنة والمحنة . . عند ذلك يجمع الله الخبيث على الخبيث ، فيلقى به فى جهنم . . وتلك غاية الخسران . . والتعبير القرآنى يجسم الخبيث حتى لكأنه جرم ذو حجم ، وكأنما هو كومة من الأقذار , يقذف بها فى النار ، دون اهتمام ولا اعتبار ! (فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم) وهذا التجسيم يمنح المدلول وقعا أعمق فى الحس . . وتلك طريقة القرآن الكريم فى التعبير والتأثير . . وعندما يصل السياق إلى هذا التقرير الحاسم ، عن مصير الكفر المتعاون ، ونهاية الخبث المتراكم ، يتجه بالخطاب إلى رسول اللهﷺ لينذر الكافرين إنذاره الأخير ، ويتجه بالخطاب كذلك إلى الجبهة المسلمة يأمرها بالقتال حتى لا تكون فى الأرض فتنة ، وحتى يكون الدين كله لله ، ويطمئن العصبة المسلمة المجاهدة إلى أن الله مولاها ونصيرها , فلا غالب لها من الناس بحرب ولا بكيد ، والله وليها الناصر المعين (قل للذين كفروا:إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير) قل للذين كفروا - فى ضوء ما سبق من قرار الخالق الجبار عن خيبتهم فى جمعهم ، وحسرتهم على ما أنفقوا ، وصيرورتهم بعد الخزى والحسرة فى الدنيا إلى أن يراكم الخبيث منهم على الخبيث فيجعل الخبيث كله فى جهنم . . فالفرصة أمامهم سانحة لينتهوا عما هم فيه من الكفر ، ومن التجمع لحرب الإسلام وأهله , ومن إنفاق الأموال للصد عن سبيل الله . . والطريق أمامهم مفتوح ليتوبوا عن هذا كله ويرجعوا إلى الله ، ولهم عندئذ أن يغفر لهم ما قد سلف . فالإسلام يجب ما قبله , ويدخله الإنسان بريئاً من كل ما كان قبله كما ولدته أمه . . فأما إن هم عادوا - بعد هذا البيان - إلى ما هم فيه من الكفر والعدوان فإن سنة الله فى الأولين لا تتخلف . ولقد مضت سنة الله أن يعذب المكذبين بعد التبليغ والتبيين ؛ وأن يرزق أولياءه النصر والعز والتمكين . . وهذه السنة ماضية لا تتخلف . . وللذين كفروا أن يختاروا وهم على مفرق الطريق ! بذلك ينتهى الحديث مع الذين كفروا ويتجه السياق إلى الذين آمنوا (

وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير) وهذه حدود الجهاد فى سبيل الله فى كل زمان ، لا فى ذلك الزمان . . ومع أن النصوص المتعلقة بالجهاد فى هذه السورة ، وبقوانين الحرب والسلام ، ليست هى النصوص النهائية , فقد نزلت النصوص الأخيرة فى هذا الباب فى سورة براءة التى نزلت فى السنة التاسعة ; ومع أن الإسلام – كما قلنا فى تقديم السورة – حركة إيجابية تواجه الواقع البشرى بوسائل مكافئة ، وأنه حركة ذات مراحل ، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية .ومع هذا فإن قوله تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) يقرر حكماً دائماً للحركة الإسلامية فى مواجهة الواقع الجاهلى الدائم . . ولا بد لتحقيق هذا الهدف الضخم من أمرين أساسيين:

أولهما:دفع الأذى والفتنة عمن يعتنقون هذا الدين ، ويعلنون تحررهم من حاكمية الإنسان , ويرجعون بعبوديتهم لله وحده ، ويخرجون من العبودية للعبيد فى جميع الصور والأشكال . . وهذا لا يتم إلا بوجود عصبة مؤمنة ذات تجمع حركى تحت قيادة تؤمن بهذا الإعلان العام ، وتنفذه فى عالم الواقع ، وتجاهد كل طاغوت يعتدى بالأذى والفتنة على معتنقى هذا الدين ، أو يصد بالقوة وبوسائل الضغط والقهر والتوجيه من يريدون اعتناقه . .

وثانيهما:تحطيم كل قوة فى الأرض تقوم على أساس عبودية البشر للبشر – فى صورة من الصور – وذلك لضمان الهدف الأول ، ولإعلان ألوهية الله وحدها فى الأرض كلها ، بحيث لا تكون هناك دينونةإلا لله وحده – فالدين هنا بمعنى الدينونة لسلطان الله – وليس هو مجرد الاعتقاد . ولا بد هنا من بيان الشبهة التى قد تحيك فى الصدور من هذا القول ، على حين أن الله سبحانه يقول (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) إن الذى يعنيه هذا النص: (ويكون الدين كله لله). . هو إزالة الحواجز المادية ، المتمثلة فى سلطان الطواغيت ، وفى الأوضاع القاهرة للأفراد ، فلا يكون هناك – حينئذ – سلطان فى الأرض لغير الله ، ولا يدين العباد يومئذ لسلطان قاهر إلا سلطان الله . . فإذا أزيلت هذه الحواجز المادية ترك الناس أفراداً يختارون عقيدتهم أحراراً من كل ضغط . على ألا تتمثل العقيدة المخالفة للإسلام فى تجمع له قوة مادية يضغط بها على الآخرين , ويحول بها دون إهتداء من يرغبون فى الهدى ، ويفتن بها الذين يتحررون فعلاً من كل سلطان إلا سلطان الله . . إن الناس أحرار فى اختيار عقيدتهم ، على أن يعتنقوا هذه العقيدة أفراداً ، فلا يكونون سلطة قاهرة يدين لها العباد . فالعباد لا يدينون إلا لسلطان رب العباد . ولن تنال البشرية الكرامة التى وهبها لها الله ، ولن يتحرر "الإنسان" فى "الأرض" , إلا حين يكون الدين كله لله ، فلا تكون هنالك دينونة لسلطان سواه . ولهذه الغاية الكبرى تقاتل العصبة المؤمنة (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) فمن قبل هذا المبدأ وأعلن استسلامه له ، قبل منه المسلمون إعلانه هذا واستسلامه , ولم يفتشوا عن نيته وما يخفى صدره ، وتركوا هذا لله (فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير) ومن تولى وأصر على مقاومة سلطان الله قاتله المسلمون معتمدين على نصرة الله (وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم . نعم المولى ونعم النصير) هذه تكاليف هذا الدين ؛ وهذه هى جديته وواقعيته وإيجابيته وهو يتحرك لتحقيق ذاته فى عالم الواقع ؛ ولتقرير ألوهية الله وحده فى دنيا الناس . .

(وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٤١} إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ{٤٢} إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{٤٣} وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ{٤٤} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{٤٥} وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ{٤٦} وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ{٤٧} وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ{٤٨} إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{٤٩} وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ{٥٠} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ{٥١} كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن

قِبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ{٥٢} ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{٥٣} كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ{٥٤} إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{٥٥} الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ{٥٦} فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ{٥٧} وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ{٥٨} وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوَاْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ{٥٩} وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ{٦٠} وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{٦١} وَإِن يُرِيدُوَاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ{٦٢} وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{٦٣} يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{٦٤} يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ{٦٥} الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ{٦٦} مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{٦٧} لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{٦٨} فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٦٩} يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٧٠} وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{٧١} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{٧٢} وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ{٧٣} وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ{٧٤} وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{٧٥}

لقد ألممنا بالخطوط الرئيسية للسورة فى مطلعها . وهذه البقية منها تمضى على هذه الخطوط الرئيسية فيها . . إلا أن الظاهرة التى تلمح بوضوح فى سياق السورة ، هى أن هذا الشطر الأخير منها ، يكاد يكون مماثلا فى سياقه وترتيب موضوعاته للشطر الأول منها ، ومع انتفاء التكرار بسبب تجدد الموضوعات ، إلا أن ترتيب هذه الموضوعات فى السياق يكاد يجعل هذا الشطر دورة ، والشطر الأول دورة ، بينهما هذا التناسق العجيب ،

يسير هذا الشطر الثانى كما الشطر ألأول تقريبا فيبدأ ببيان حكم اللّه فى الغنائم – بعد أن ردها إلى اللّه ورسوله – ثم يدعوهم إلى الإيمان باللّه وما أنزله على عبده يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . . ثم يكشف لهم عن تدبير اللّه وتقديره فى الموقعة التى جاءت بهذه الغنائم ؛ ويستحضر جانبا آخر من مواقف المعركة ومشاهدها ، يتجلى فيه هذا التقدير وذلك التدبير ، كما يتجلى فيه أنهم لم يكونوا سوى أداة لقدر اللّه وستار . . ثم يهيب بهم من وراء هذا الذى كشفه لهم من حقيقة المعركة إلى الثبات عند اللقاء ، وإلى ذكر اللّه ، وطاعته وطاعة رسوله ؛ ويحذرهم التنازع مخافة الفشل والانكسار ؛ ويدعوهم إلى الصبر ؛ وتجنب البطر والرياء فى الجهاد ؛ ويحذرهم عاقبة الكفار الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل اللّه ، منخدعين بمكر الشيطان ؛ ويدعوهم إلى التوكل على اللّه وحده ، القوى القادر على النصر الحكيم فى تقديره وتدبيره . . ثم يريهم سنة اللّهفى أخذ الكافرين المكذبين بذنوبهم . . وكما ذكر الملائكة فى الشطر الأول وهم يثبتون المؤمنين ويضربون أعناق الكفار وأيديهم ، فكذلك يذكر فى هذا الشطر الثانى أن الملائكة يتوفون الذين كفروا يضربون وجوههم وأدبارهم . . وكما قال فى الشطر الأول عن الذين كفروا:إنهم شر الدواب ، فكذلك يكرر هنا هذا الوصف بمناسبة الحديث عن نقضهم لعهدهم كلما عاهدوا ، وتمهيدا لما يأمر به اللّه رسوله ﷺ من أحكام التعامل معهم فى الحرب والسلم ؛ وهى أحكام مفصلة للعلاقات بين المعسكر الإسلامى والمعسكرات المعادية والمسالمة ، بعضها أحكام نهائية ، وبعضها أحكام استكملت فيما بعد فى سورة التوبة . وإلى هنا تكاد تكون هذه الدورة الثانية فى السورة مطابقة – من حيث طبيعة الموضوعات ومن حيث ترتيبها فى السياق – لما جاء فى الدورة الأولى ، مع شىء من

التفصيل فى أحكام المعاملات بين المعسكر الإسلامي وسائر المعسكرات . ثم تزيد فى ختام السورة موضوعات وأحكام أخرى متصلة بها ، ومكملة لها: يذكر الله – سبحانه – رسوله ﷺ والذين آمنوا معه ، بمنته عليهم فى تأليف قلوبهم , وقد كانت مستعصية على التأليف لولا إرادة الله ورحمته ومنته . ويطمئنهم الله كذلك إلى كفايته لهم وحمايته . . ومن ثم يأمر رسوله بتحريضهم على القتال ; ويريهم أنهم بإيمانهم – إذا صبروا – أكفاء لعشرة أضعافهم من الذين كفروا الذين لا يفقهون ، لأنهم لا يؤمنون ! وأنهم فى أضعف حالاتهم أكفاء لضعفهم من الذين كفروا – متى صبروا . والله مع الصابرين . ثم يعاتبهم الله سبحانه على قبولهم الفدية فى الأسرى ؛ وهم لم يثخنوا فى الأرض بعد , ولم يخضدوا شوكة عدوهم ؛ ولم يستقر سلطانهم وتثبت دولتهم . فيقرر بهذا منهج الحركة الإسلامية فى المراحل المختلفة والأحوال المتعددة ، ويدل على مرونة هذا المنهج وواقعيته فى مواجهة الواقع فى المراحل المختلفة . . وكذلك يبين الله لهم كيف يعاملون من فى أيديهم من الأسرى ، وكيف يحببونهم فى الإيمان ، ويزينونه فى قلوبهم ؛ ثم يخذل الله هؤلاء الأسرى عن محاولة الخيانة مرة أخرى ويئيسهم من جدواها ؛ فالله الذى أمكن منهم أول مرة حين خانوه بالكفر ، سيمكن منهم مرة أخرى لو خانوا رسوله ﷺوأخيراً تجيء الأحكام المنظمة لعلاقات الجماعة المسلمة فيما بينها ، وعلاقاتها بالمجموعات التى تدخل فى الإسلام ، ولكنها لا تلحق بدار الإسلام ، ثم علاقاتها بالذين كفروا فى حالات معينة ، ومن حيث المبدأ العام أيضاً . حيث تتجلى فى هذه الأحكام طبيعة التجمع الإسلامى ؛ وطبيعة المنهج الإسلامى كله ؛ وحيث يبدو بوضوح كامل أن "التجمع الحركى" هو قاعدة الوجود الإسلامى ، الذى تنبثق منه أحكامه فى المعاملات الداخلية والخارجية ؛ وأنه لا يمكن فصل العقيدة والشريعة فى هذا الدين عن الحركة والوجود الفعلى للمجتمع المسلم (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين , وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . . والله على كل شيء قدير) وبين الروايات المأثورة والآراء الفقهية خلاف طويل . . أولاً حول مدلول" الغنائم" ومدلول "الأنفال" هل هما شيء واحد ، أم هما شيئان مختلفان ؟ وثانيا:حول هذا الخمس – الذى يتبقى بعد الأخماس الأربعة التى منحها الله للمقاتلين – كيف يقسم ؟ وثالثاً:حول خمس الخمس الذى لله . أهو الخمس الذى لرسول الله ، أم هو خمس مستقل ؟ ورابعا:حول خمس الخمس الذى لرسول الله ﷺ أهو خاص به أم ينتقل لكل إمام بعده ؟ وخامساً:حول خمس الخمس الذى لأولى القربى ، أهو باق فى قرابة رسول الله ﷺ من بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، كما كان على عهد رسول الله ﷺ أم يرجع إلى الإمام يتصرف فيه ؟ وسادساً:أهى أخماس محددة يقسم إليها الخمس ، أم يترك التصرف فيه كله لرسول الله [ص] ولخلفائه من بعده ؟ . . . وخلافات أخرى فرعية .

ونحن – فى هذه الظلال – لا ندخل فى هذه التفريعات الفقهية التى يحسن أن تطلب فى مباحثها الخاصة . . هذا بصفة عامة . . وبصفة خاصة فإن موضوع الغنائم بجملته ليس واقعا إسلاميا يواجهنا اليوم أصلا . فنحن اليوم لسنا أمام قضية واقعة ، لسنا أمام دولة مسلمة وإمامة مسلمة وأمة مسلمة تجاهد فى سبيل الله ، ثم تقع لها غنائم تحتاج إلى التصرف فيها ! لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية أول مرة ؛ ورجع الناس إلى الجاهلية التى كانوا عليها ، فأشركوا مع الله أرباباً أخرى تصرف حياتهم بشرائعها البشرية ! ولقد عاد هذا الدين أدراجه ليدعو الناس من جديد إلى الدخول فيه . . إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . . إلى إفراد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية والسلطان . والتلقى فى هذا الشأن عن رسول اللهوحده ! وإلى التجمع تحت قيادة مسلمة تعمل لإعادة إنشاء هذا الدين فى حياة البشر , والتوجه بالولاء كله لهذا التجمع ولقيادته المسلمة ؛ ونزع هذا الولاء من المجتمعات الجاهلية وقياداتها جميعاً .

هذه هى القضية الحية الواقعية التى تواجه اليوم هذا الدين ؛ وليس هناك – فى البدء – قضية أخرى سواها . . ليس هناك قضية غنائم ، لأنه ليس هناك قضية جهاد ! بل ليس هناك قضية تنظيمية واحدة ، لا فى العلاقات الداخلية ولا فى العلاقات الخارجية ، وذلك لسبب بسيط:هو أنه ليس هناك مجتمع إسلامى ذو كيان قائم مستقل ، يحتاج إلى الأحكام التى تضبط العلاقات فيه والعلاقات بينه وبين غيره من المجتمعات الأخرى !!! إن الحكم العام الذى تضمنه النص القرآنى (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين , وابن السبيل) يتلخص فى رد أربعة أخماس كل شيء من الغنيمة إلى المقاتلين ، واستبقاء الخمس يتصرف فيه رسول الله ﷺ والأئمة المسلمون القائمون على شريعة الله المجاهدون فى سبيل الله ، من بعده فى هذه المصارف لله وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين , وابن السبيل . . بما يواجه الحاجة الواقعة عند وجود ذلك المغنم . . . وفى هذا كفاية . . أما

التوجيه الدائم بعد ذلك فهو ما تضمنه شطر الآية الأخير (إن كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير) إن للإيمان إمارات تدل عليه ؛ والله – سبحانه – يعلق الاعتراف لأهل بدر – وهم أهل بدر – بأنهم آمنوا بالله ، وبما أنزله على عبده يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . . يعلق الاعتراف لأهل بدر هؤلاء بالإيمان ، على قبولهم لما شرع الله لهم في أمر الغنائم في صدر الآية ؛ فيجعل هذا شرطاً لاعتبارهم عنده قد آمنوا بالله وبما أنزله على عبده من القرآن ؛ كما يجعله مقتضى لإعلانهم الإيمان لا بد أن يتحقق ليتحقق مدلول هذا الإعلان . وهذا نموذج من التقريرات الصريحة الواضحة الجازمة من قول الله سبحانه (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) ومثله سائر التقريرات الواضحة الجازمة الصريحة التى ترسم حقيقة الإيمان وحدوده فى كتاب الله . لقد نزع الله ملكية الغنيمة ممن يجمعونها في المعركة ؛ وردها الى الله والرسول – في أول السورة – ليخلص الأمر كله لله والرسول ؛ وليتجرد المجاهدون من كل ملابسة من ملابسات الأرض ؛ وليسلموا أمرهم كله – أوله وآخره – لله ربهم وللرسول قائدهم ؛ وليخوضوا المعركة لله وفي سبيل الله ، وتحت راية الله ، طاعة لله ؛ يحكمونه في أرواحهم , ويحكمونه في أموالهم ويحكمونه في أمرهم كله بلا تعقيب ولا اعتراض . فهم إنما يغزون لله ويفتحون لدين الله ؛ إنما هم يستحقونها بمنح الله لهم إياها ؛ كما أنه هو الذي يمنحهم النصر من عنده ؛ويدبر أمر المعركة وأمرهم كله . . وعاد كذلك ليذكرهم بأن الاستسلام لهذا الأمر الجديد هو الإيمان . . هو شرط الإيمان ، وهو مقتضى الإيمان (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) وهكذا تتواتر النصوص ، لتقرر أصلا واضحاً جازماً من أصول هذا الدين في اعتبار مدلول الإيمان وحقيقته وشرطه ومقتضاه .ثم نقف أمام وصف الله – سبحانه – لرسوله ﷺ بقوله (عبدنا) في هذا الموضع الذى يرد إليه فيه أمر الغنائم كلها ابتداء ، وأمر الخمس المتبقى أخيراً (إن كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) إنه وصف موح . . إن العبودية لله هى حقيقة الإيمان ؛ وهى في الوقت ذاته أعلى مقام للإنسان يبلغ إليه بتكريم الله له ؛ فهى تجلى وتذكر في المقام الذى يوكل فيه إلى رسول الله ﷺ التبليغ عن الله ، كما يوكل إليه فيه التصرف فيما خوله الله . وإنه لكذلك فى واقع الحياة ! إنه لكذلك مقام كريم . . أكرم مقام يرتفع إليه الإنسان . . إن العبودية لله وحده هى العاصم من العبودية للهوى ، والعاصم من العبودية للعباد . . وما يرتفع الإنسان إلى أعلى مقام مقدر له ، إلا حين يعتصم من العبودية لهواه كما يعتصم من العبودية لسواه . ثم نقف كذلك أمام وصف الله – سبحانه – ليوم بدر بأنه يوم الفرقان (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) لقد كانت غزوة بدر – التي بدأت وانتهت بتدبير الله وتوجيهه وقيادته ومدده – فرقاناً >> فرقاناً بين الحق والباطل – كما يقول المفسرون إجمالاً – وفرقاناً بمعنى أشمل وأوسع وأدق وأعمق كثيراً . . وهكذا كان يوم بدر (يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) بهذه المدلولات المنوعة الشاملة العميقة (والله على كل شيء قدير) وفى هذا اليوم مثل من قدرته على كل شيء . . مثل لا يجادل فيه مجادل ، ولا يمارى فيه ممار . . مثل من الواقع المشهود ، الذى لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرة الله . وأن الله على كل شيء قدير . وهنا يعود السياق إلى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . . يعود إلى المعركة ، فيعيد عرضها بأسلوب عجيب في استحضار مشاهدها ومواقفها ، كما لو كانت معروضة فعلاً ، ويكشف عن تدبير الله في إدارتها . حتى ليكاد الإنسان يرى يد الله – سبحانه – من وراء الأحداث والحركات كما يكشف عن غاية ذلك التدبير التى تحققت كما أرادها الله سبحانه (إذ أنتم بالعدوة الدنيا ، وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم . ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً . ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة ، وإن الله لسميع عليم . إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ، ولكن الله سلم ، إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وإلى الله ترجع الأمور) إن المعركة شاخصة بمواقع الفريقين فيها ؛ وشاهدة بالتدبير الخفى من ورائها . . إن يد الله تكاد ترى ، وهى توقف هؤلاء وهؤلاء هناك والقافلة من بعيد ! والكلمات تكاد تشف عن تدبير الله في رؤيا الرسول ﷺ وفي تقليل كل فريق في عين الفريق الآخر وفي إغراء كل منهما بالآخر . . وما يملك إلا الأسلوب القرآني الفريد ، عرض المشاهد وما وراء المشاهد بهذه الحيوية ، وبهذه الحركة المرئية ، وفي مثل هذه المساحة الصغيرة من التعبير ! وهذه المشاهد التى تستحضرها النصوص ، قد مر بنا في استعراض الوقعة من السيرة الإشارة إليها . . ذلك أن المسلمين حين خرجوا من المدينة نزلوا بضفة الوادى القريبة من المدينة ؛ ونزل جيش المشركين بقيادة أبى جهل بالضفة الأخرى البعيدة من المدينة ؛ وبين الفريقين ربوة تفصلهما . . أما القافلة فقد مال بها أبو سفيان إلى سيف البحر أسفل من الجيشين . ولم يكن كل من الجيشين يعلم بموقع صاحبه . وإنما جمعهما الله هكذا

على جانبي الربوة لأمر يريده . حتي لو أن بينهما موعداً على اللقاء ما اجتمعا بمثل هذه الدقة والضبط من ناحية المكان والموعد ! وهذا ما يذكر الله به العصبة المسلمة ليذكرها بتدبيره وتقديره (إذ أنتم بالعدوة الدنيا ، وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولا) إن وراء هذا التلاقي على غير موعد - بهذه الدقة وبهذا الضبط - لأمراً مقضياً يريد الله تحقيقه في عالم الواقع ، ويدبر له هذا التدبير الخفي اللطيف ؛ ويجعلكم أنتم أداة تحقيقه ، ويهيئ له جميع الظروف التي تيسر لكم القيام به ! أما هذا الأمر المقتضى الذي دبر الله الظروف لتحقيقه فهو الذي يقول عنه: ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حي عن بينة . . والهلاك يعبر به عن مدلوله المباشر ، كما يعبر به عن الكفر . وكذلك الحياة فإنها قد تفيد مدلولها المباشر وقد يعبر بها عن الإيمان . . وهذا المدلول الثاني أظهر هنا , وذلك كما قال الله سبحانه في مثل هذا المعنى: (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟). فعبر عن الكفر بالموت وعبر عن الإيمان بالحياة ؛ وجرى في هذا على نظرة الإسلام لحقيقة الكفر وحقيقة الإيمان . هذه النظرة التي أوضحناها بشيء من التفصيل عند استعراض هذه الآية من سورة الأنعام في الجزء الثامن .

ووجه ترجيح هذا المدلول هنا أن يوم بدر - كما قال الله سبحانه - كان (يوم الفرقان) وقد فرق الله فيه بين الحق والباطل - كما ذكرنا منذ قليل - ومن ثم فإن من يكفر بعدها فإنما يكفر في غير شبهة - يكفر عن بينة فيهلك عن بينة - ومن يؤمن بعدها فإنما يؤمن عن بينة واضحة تبرزها المعركة . . إن الموقعة - بظروفها التي صاحبتها - تحمل بينة لا تجحد ، وتدل دلالة لا تنكر ، على تدبير وراء تدبير البشر ، وعلى قوى وراءها غير قوة البشر . . إنها تثبت أن لهذا الدين رباً يتولى أصحابه متى أخلصوا له وجاهدوا في سبيله وصبروا وثبتوا ، وأنه له كان الأمر إلى القوى المادية الظاهرة ما هزم المشركون ولا انتصرت العصبة المسلمة هذا الانتصار العظيم . . ولقد قال المشركون أنفسهم لحليفهم الذي أراد أن يمدهم بالرجال وهم ذاهبون للقتال ":فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم ، ولئن كنا إنما نقاتل الله - كما يزعم محمد - فما لأحد بالله من طاقة " ! ولقد علموا - لو كان العلم يجدي - أنهم إنما يقاتلون الله كما قال لهم محمد الصادق الأمين ، وأنه ما لأحد بالله من طاقة . . فإذا هلكوا بعد ذلك بالكفر فإنما يهلكون عن بينة ! هذا ما يتبادر إلى الذهن من معنى هذا التعقيب: ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة . . ولكن يبقى وراءه إيحاء آخر: إن وقوع المعركة بين جند الحق وجند الباطل ؛ واستعلاء سلطان الحق في عالم الواقع - بعد استعلائه فيعالم الضمائر - إن هذا كله مما يعين على جلاء الحق للعيون والقلوب ؛ وعلى إزالة اللبس في العقول والنفوس ؛ بحيث يتبين الأمر بهذا الفتح ويتجلى ؛ فلا تعود لمن يختار الهلاك - أي الكفر - شبهة في الحق الذي استعلن واستعلى ; كما أن الذي يريد أن يحيا - أي يؤمن - لا يعود لديه شك في أن هذا هو الحق الذي ينصره الله ، ويخذل الطغاة .

وهذا يعود بنا إلى ما قدمناه في الجزء التاسع - في التعريف بسورة الأنفال - من الحديث عن ضرورة الجهاد لتحطيم قوى الشر وسلطان الطاغوت ؛ وإعلاء راية الحق وسلطان الله . . فهذا مما يعين على جلاء الحق: ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة . . كما أن هذه اللفتة تساعدنا على تفهم أبعاد الإيحاء الذي يعطيه قول الله تعالى ، في هذه السورة: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم(. . . فإعداد القوة والإرهاب بها مما يعين على جلاء الحق في أنماط من القلوب . لا تستيقظ ولا تتبين إلا على إيقاعات القوة التي تحمل الحق وتنطلق به لإعلان تحرير" الإنسان" في "الأرض" كما أسلفنا . والتعقيب على ذلك الجانب من التدبير الإلهي في المعركة ، وعلى غاية هذا التدبير التي تحققت فعلاً هو: (وإن الله لسميع عليم) فهو - سبحانه - لا يخفى عليه شيء مما يقول فريق الحق أو فريق الباطل ؛ ولا شيء مما يخفونه في صدورهم وراء الأقوال والأفعال ؛ وهو يدبر ويقدر باطلاعه على الظواهر وعلمه بالسرائر ، وهو السميع العليم ، وبعد هذا التعقيب الذي يتوسط استعراض المعركة وأحداثها وملابساتها يمضي السياق في هذا الاستعراض ؛ ويكشف التدبير الخفي اللطيف (إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر . ولكن الله سلم . إنه عليم بذات الصدور) ولقد كان من تدبير الله في المعركة أن يرى رسول الله ﷺ الكافرين في الرؤيا في منامه قليلاً لا قوة لهم ولا وزن . فينبئ أصحابه برؤياه ، فيستبشروا بها ويتشجعوا على خوض المعركة . . ثم يخبر الله هنا لم أراهم لنبيه قليلاً . فلقد علم - سبحانه - أنه لو أراهم له كثيراً ، لفت ذلك في قلوب القلة التي معه ، وقد خرجت على غير استعداد ولا توقع لقتال ، ولضعفوا عن لقاء عدوهم ؛ وتنازعوا فيما بينهم على ملاقاتهم:فريق يرى أن يقاتلهم وفريق يرى تجنب الالتحام بهم . . وهذا النزاع في هذا الظرف هو أبأس ما يصيب جيشاً يواجه عدواً ! (ولكن الله سلم . إنه عليم بذات الصدور) ولقد كان - سبحانه -

يعلم بذوات الصدور ؛ فلطف بالعصبة المسلمة أن يعرضها لما يعلمه من ضعفها في ذلك الموقف ؛ فأرى نبيه المشركين في رؤياه قليلاً ، ولم يرهم إياه كثيراً . . والرؤيا صادقة في دلالتها الحقيقية . فقد رآهم رسول الله ﷺ قليلاً . . وهم كثير عددهم ، ولكن قليل غناؤهم ، قليل وزنهم في المعركة ، قلوبهم خواء من الإدراك الواسع , والإيمان الدافع ، والزاد النافع . . وهذه الحقيقة الواقعة – من وراء الظاهر الخادع – هي التي أراها الله لرسوله ؛ فأدخل بها الطمأنينة على قلوب العصبة المسلمة . والله عليم بسرائرهم ، مطلع على قلة عددهم وضعف عدتهم ، وما تحدثه في نفوسهم لو عرفوا كثرة عدوهم ، من ضعف عن المواجهة ; وتنازع على الالتحام أو الإحجام . وكان هذا تدبيراً من تدبير الله العليم بذات الصدور . وحينما التقى الجمعان وجهاً لوجه ، تكررت الرؤيا النبوية الصادقة ، في صورة عيانية من الجانبين ؛ وكان هذا من التدبير الذي يذكرهم الله به ؛ عند استعراض المعركة وأحداثها وما وراءها (وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ، ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، وإلى الله ترجع الأمور) ولقد كان في هذا التدبير الإلهي ما أغرى الفريقين بخوض المعركة . . والمؤمنون يرون أعداءهم قليلاً ، لأنهم يرونهم بعين الحقيقة ! – والمشركون يرونهم قليلاً – وهم يرونهم بعين الظاهر – ومن وراء الحقيقتين اللتين رأى كل فريق منهما صاحبه بها ، تحققت غاية التدبير الإلهي ؛ ووقع الأمر الذي جرى به قضاؤه . . (وإلى الله ترجع الأمور) وهو التعقيب المناسب لتحقق التدبير ووقوع القضاء . . . فهو أمر من الأمور التي مرجعها لله وحده ، يصرفها بسلطانه ، ويوقعها بإرادته ، ولا تند عن قدرته وحكمه . ولا ينفذ شيء في الوجود إلا ما قضاه وأجرى به قدره . .. وإذ إن الأمر كذلك . . التدبير تدبير الله . والنصر من عند الله . والكثرة العددية ليست هي التي تكفل النصر . والعدة المادية ليست هي التي تقرر مصير المعركة . . فليثبت الذين آمنوا إذن حين يلقون الذين كفروا ؛ وليتزودوا بالعدة الحقيقية للمعركة ; وليأخذوا بالأسباب الموصولة بصاحب التدبير والتقدير ، وصاحب العون والمدد , وصاحب القوة والسلطان ؛ وليتجنبوا أسباب الهزيمة التي هزمت الكفار على كثرة العدد وكثرة العدة ؛ وليتجردوا من البطر والكبرياء والباطل ؛ وليحترزوا من خداع الشيطان ، الذي أهلك أولئك الكفار ؛ وليتوكلوا على الله وحده فهو العزيز الحكيم (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا . واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ؛ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم . واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله , والله بما يعملون محيط . وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال:لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم . فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال:إني بريء منكم , إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله ، والله شديد العقاب . إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض:غر هؤلاء دينهم ! ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) وفي هذه الفقرات القليلة تحتشد معان وإيحاءات ، وقواعد وتوجيهات ، وصور ومشاهد ؛ وتشخص مواقف من المعركة كأنها حية واقعة ، وتتكشف خواطر ومشاعر وضمائر وسرائر . . مما يحتاج تصويره إلى أضعاف هذه المساحة من التعبير ؛ ثم لا يبلغ ذلك شيئاً من هذا التصوير المدهش الفريد ! إنها تبدأ بنداء الذين آمنوا – في سلسلة النداءات المتكررة للعصبة المسلمة في السورة – وتوجيههم إلى الثبات عند لقاء الأعداء ، وإلى التزود بزاد النصر ؛ والتأهب بأهبته (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون , وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله , والله بما يعملون محيط) فهذه هي عوامل النصر الحقيقية:الثبات عند لقاء العدو . والاتصال بالله بالذكر . والطاعة لله والرسول . وتجنب النزاع والشقاق . والصبر على تكاليف المعركة . والحذر من البطر والرئاء والبغي . . فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر . فأثبت الفريقين أغلبهما . وما يدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون ؛ وأنه يألم كما يألمون ، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون ؛ فلا مدد له من رجاء في الله يثبت أقدامه وقلبه ! وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار ؛ وما الذي يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسنيين:الشهادة أو النصر ؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا ؛ وهو حريص على هذه الحياة التي لا أمل له وراءها ولا حياة له بعدها ، ولا حياة له سواها ؟ !وأما ذكر الله كثيراً عند لقاء الأعداء فهو التوجيه الدائم للمؤمن ؛ كما أنه التعليم المطرد الذي استقر في قلوب العصبة المؤمنة ، وحكاه عنها القرآن الكريم في تاريخ الأمة المسلمة في موكب الإيمان التاريخي . وأما طاعة الله ورسوله ، فلكي يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداء ؛ فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم). . فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه ؛ وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار . فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم – مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة – فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر ، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها ! وإنما هو وضع "الذات" في كفة ، والحق في كفة ؛ وترجيح الذات على الحق

ابتداء . . ! ومن ثم هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة . . إنه من عمليات" الضبط" التى لا بد منها فى المعركة . . إنها طاعة القيادة العليا فيها ، التى تنبثق منها طاعة الأمير الذى يقودها . وهى طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية فى الجيوش التى لا تجاهد لله ، ولا يقوم ولاؤها للقيادة على ولائها لله أصلاً . . والمسافة كبيرة كبيرة . . وأما الصبر . فهو الصفة التى لا بد منها لخوض المعركة . . أية معركة . . فى ميدان النفس أم فى ميدان القتال (واصبروا ، إن الله مع الصابرين) وهذه المعية من الله هى الضمان للصابرين بالفوز والغلب والفلاح . . ويبقى التعليم الأخير (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط) ولقد كانت صورة الخروج بطراً ورئاء الناس وصدا عن سبيل الله حاضرة أمام العصبة المسلمة ; يرونها فى خروج قريش بالصورة التى خرجت بها ؛ كما كانت صورة العاقبة لهذا الخروج حاضرة فيما أصاب قريشاً التى خرجت فى ذلك اليوم بفخرها وعزها وكبريائها تحاد الله ورسوله:وعادت فى آخر اليوم بالذل والخيبة والانكسار والهزيمة . . وكان الله سبحانه يذكر العصبة المسلمة بشىء حاضر له وقعه وله إيحاؤه (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله . والله بما يعملون محيط) والبطر والمراءاة والصد عن سبيل الله تتجلى كلها فى قولة أبى جهل ، وقد جاءه رسول أبى سفيان – بعد أن ساحل بالعير فنجت من رصد المسلمين – يطلب إليه الرجوع بالنفير , إذ لم تعد بهم حاجة لقتال محمد وأصحابه . وكانت قريش قد خرجت بالقيان والدفوف يغنون وينحرون الجزر على مراحل الطريق . فقال أبو جهل:" لا والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم ثلاثاً ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونشرب الخمر , وتعزف القيان علينا ، فلن تزال العرب تهابنا أبداً " . . فلما عاد الرسول إلى أبى سفيان برد أبى جهل قال:" واقوماه ! هذا عمل عمرو بن هشام [يعنى أبا جهل] كره أن يرجع ، لأنه ترأس على الناس فبغى ، والبغى منقصة وشؤم ، إن أصاب محمد النفير ذللنا . . " وصحت فراسة أبى سفيان ، وأصاب محمد ﷺ النفير ؛ وذل المشركون بالبطر والبغى والرياء والصد عن سبيل الله ؛ وكانت بدر قاصمة الظهر لهم (والله بما يعملون محيط) لا يفوته منهم شىء ، ولا يعجزه من قوتهم شىء ، وهو محيط بهم وبما يعملون . ويمضى السياق يصور وسوسة الشيطان للمشركين وإغراءهم بهذا الخروج الذى نالهم منه ما نالهم من الذل والخيبة والخسار والانكسار (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال:لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم . فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ، وقال:إنى برىء منكم ، إنى أرى ما لا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب) وفى هذا الحديث نص قرآنى يثبت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم ، وشجعهم على الخروج بإعلان إجارته لهم ونصرته إياهم ؛ وأنه بعد ذلك – لما تراءى الجمعان أى برىء منكم إنى رأى أحدهما الآخر (نكص على عقبيه وقال:إنى أرى ما لا ترون ، إنى أخاف الله , والله شديد العقاب) فخذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم ، ولم يوف بعهده معهم . . ولكننا لا نعلم الكيفية التى زين لهم بها أعمالهم ، والتى قال لهم بها:لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم . والتى نكص بها كذلك وقال ما قاله بعد ذلك . . الكيفية فقط هى التى لا نجزم بها . ذلك أن أمر الشيطان كله غيب ؛ ولا سبيل لنا إلى الجزم بشىء فى أمره إلا فى حدود النص المسلم . والنص هنا لا يذكر الكيفية إنما يثبت الحادث . . فإلى هنا ينتهى اجتهادنا . ولا نميل إلى المنهج الذى تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده فى التفسير من محاولة تأويل كل أمر غيبى من هذا القبيل تأويلاً معينا ينفى الحركة الحسية عن هذه العوالم . وذلك كقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير الآية (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال:لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم) أى واذكر أيها الرسول للمؤمنين ، إذ زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته , وقال لهم بما ألقاه فى هواجسهم:لا غالب لكم اليوم من الناس ، لا أتباع محمد الضعفاء ولا غيرهم من قبائل العرب ، فأنتم أعز نفرا وأكثر نفيرا وأعظم بأسا ، وإنى مع هذا – أو والحال أنى – جار لكم . قال البيضاوى فى تفسيره:وأوهمهم أن اتباعهم إياه , فيما يظنون أنها قربات ، مجير لهم ، حتى قالوا:اللهم انصر أهدى الفئتين وأفضل الدينين" (فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه) أى فلما قرب كل من الفريقين المتقاتلين من الآخر ، وصار بحيث يراه ويعرف حاله ، وقبل أن يلقاه فى المعركة ويصطلى نار القتال معه ، نكص:أى رجع القهقرى ، وتولى إلى الوراء وهو جهة العقبين [أى مؤخرى الرجلين] وأخطأ من قال من المفسرين:إن المراد بالترائى التلاقى – والمراد:أنه كف عن تزيينه لهم وتغريره إياهم ، فخرج الكلام مخرج التمثيل بتشبيه وسوسته بما ذكر بحال المقبل على الشىء ؛ وتركها بحال من ينكص عنه ويوليه دبره . ثم زاد على هذا ما يدل على براءته منهم ، وتركه إياهم وشأنهم وهو [وقال:إنى برىء منكم ، إنى أرى ما لا ترون ، إنى أخاف الله] أى تبرأ منهم وخاف عليهم ، وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المسلمين بالملائكة [والله شديد العقاب] يجوز أن يكون هذا من كلامه ويجوز أن يكون مستأنفاً" . أقول:معنى هذا أن جند الشيطان الخبيث كانوا منبثين فى المشركين يوسوسون لهم بملابستهم لأرواحهم الخبيثة ما يغريهم ويغرهم ؛ كما كان الملائكة منبثين فى المؤمنين يلهمونهم بملابستهم لأرواحهم الطيبة ما يثبتون به قلوبهم ويزيدهم ثقة بوعد الله بنصرهم . . . " . وهذا الميل الظاهر

إلى تفسير أفعال الملائكة بأنها مجرد ملابسة لأرواح المؤمنين ; وقد جزم فى موضع آخر بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر على الرغم من قول الله تعالى (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان)- وتفسير فعل الشيطان بأنه مجرد ملابسة لأرواح المشركين . . هو منهج تلك المدرسة بجملتها . .) وبعد , فإنه بينما كان الشيطان يخدع المشركين الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، ويشجعهم على الخروج ، ثم يتركهم لمصيرهم البائس . . . كان المنافقون والذين فى قلوبهم ضعف ، يظنون بالعصبة المؤمنة الظنون ؛ وهم يرونها تواجه جحافل المشركين ، وهى قليلة العدد ضعيفة العدة ؛ ويرون - بقلوبهم المدخولة ونظرتهم إلى الظواهر المادية الخادعة - أن المؤمنين أوردوا أنفسهم موارد التهلكة ، مخدوعين بدينهم ، ظانين أنه ينصرهم أو يقيهم (إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض:غر هؤلاء دينهم) والمنافقون والذين فى قلوبهم مرض قيل:إنهم مجموعة من الذين مالوا إلى الاسلام فى مكة - ولكن لم تصح عقيدتهم ولم تطمئن قلوبهم - خرجوا مع النفير مزعزعين ، فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين قالوا هذه المقالة ! والمنافقون والذين فى قلوبهم مرض لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة ؛ فهم يرون ظواهر الأمور ، دون أن تهديهم بصيرة إلى بواطنها ؛ ودون أن يشعروا بالقوة الكامنة فى العقيدة ، والثقة فى الله ، والتوكل عليه ، واستصغار شأن الجموع والقوى التى لا ترتكن إلى عقيدة فى الله تمنحها القوة الحقيقية . . فلا جرم يظنون المسلمين يومئذ مخدوعين فى موقفهم ، مغرورين بدينهم ، واردين موارد التهلكة بتعرضهم لجحافل المشركين التى يرونها ! إن الواقع المادى الظاهر لا يختلف من ناحية مظهره عند القلوب المؤمنة وعند القلوب الخاوية من الإيمان . ولكن الذى يختلف هو التقدير والتقويم لهذا الواقع المادى الظاهر . . فالقلوب الخاوية تراه ولا ترى شيئاً وراءه ؛ والقلوب المؤمنة ترى ما وراءه من "الواقع" الحقيقى ! الواقع الذى يشمل جميع القوى ، ويوازن بينها موازنة صحيحة (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) هذا ما تدركه القلوب المؤمنة وتطمئن إليه ؛ وما هو محجوب عن القلوب الخاوية فلا تحسب حسابه ! وهذا ما يرجح الكفة ، ويقرر النتيجة ، ويفصل فى القضية فى نهاية المطاف فى كل زمان وفى كل مكان . والعصبة المسلمة فى كل مكان وفى كل زمان مدعوة إلى أن تزن بميزان الإيمان والعقيدة ; وأن تدرك ببصيرة المؤمن وقلبه ، وأن ترى بنور الله وهداه ، وألا تتعاظمها قوى الطاغوت الظاهرة ، وألا تستهين بقوتها ووزنها فإن معها الله ، وأن تلقى بالها دائما إلى تعليم الله سبحانه للمؤمنين (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) وأخيراً يعرض السياق القرآنى مشهداً من مشاهد التدخل الإلهى فى المعركة ، والملأ الأعلى من الملائكة - بأمر الله وإذنه - يشارك فى أخذ الذين كفروا بالتعذيب والتأنيب ; والملائكة يقبضون أرواحهم فى صورة منكرة ، ويؤذونهم أذى مهيناً - جزاء على البطر والاستكبار - ويذكرونهم فى أشد اللحظات ضيقا وحرجا بسوء أعمالهم وبسوء مآلهم , جزاء وفاقا لا يظلمهم الله فيه شيئاً . . ويقرر السياق فى إثر عرض هذا المشهد أن أخذ الكفار بتكذيبهم سنة ماضية: (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم) (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)وأنه كذلك أخذ فرعون وملأه ، وكذلك يأخذ كل من يفعل فعله ويشرك شركه: (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله ، فأخذهم الله بذنوبهم ، إن الله قوى شديد العقاب . ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأن الله سميع عليم . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأغرقنا آل فرعون . وكل كانوا ظالمين)والآيتان الأوليان فى هذا المقطع (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، وذوقوا عذاب الحريق , ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد) قد تعنيان حال المشركين يوم بدر ؛ والملائكة تشترك فى المعركة - كما قال لهم الله سبحانه: (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله , ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب). وإن كنا - كما قلنا عند استعراض هذا النص فى الجزء التاسع - لا ندرى كيف تضرب الملائكة فوق الأعناق وكل بنان . ولكن جهلنا بالكيفية لا يدعونا إلى تأويل هذا النص عن مدلوله الظاهر ؛ وهو أن هناك أمراً من الله للملائكة بالضرب ، وأن الملائكة (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) . وتكون هاتان الآيتان هنا تذكيراً بما كان يوم بدر ؛ وتكملة لحكاية فعل الملائكة فيه بالذين كفروا . كما أن هاتين الآيتين قد تعنيان حالة دائمة كلما توفت الملائكة الذين كفروا . . فى يوم بدر وفى غيره . . ويكون قوله تعالى (ولو ترى) موجهاً توجيه الخطاب لكل من يرى ، كما يكثر مثل هذا الأسلوب فى التوجيه إلى المشاهد البارزة التى من شأنها أن يتوجه إليها كل من يرى . . وسواء كان هذا أو ذاك . فالتعبير القرآنى يرسم صورة منكرة للذين كفروا ، والملائكة تستل منهم أرواحهم فى مشهد مهين ؛ يضيف المهانة والخزى ، إلى العذاب والموت (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) ثم يتحول السياق من صيغة الخبر إلى صيغة الخطاب (وذوقوا عذاب الحريق) ليرد المشهد

حاضراً كأنه اللحظة مشهود ؛ وكأنما جهنم بنارها وحريقها فى المشهد وهم يدفعون إليها دفعاً مع التأنيب والتهديد (ذلك بما قدمت أيديكم) وأنتم إنما تلاقون جزاء عادلاً ، تستحقونه بما قدمت أيديكم (وأن الله ليس بظلام للعبيد) وهذا النص – بما يعرضه من مشهد "عذاب الحريق" – يثير فى النفس سؤالا:ترى هذا تهديد من الملائكة للذين كفروا بعذاب المستقبل المقرر لهم – كأنه واقع بهم – بعد البعث والحساب ؟ أم أنهم يلاقون عذاب الحريق بمجرد توفيهم ؟ . . وكلاهما جائز ، لا يمنع مانع من فهمه من النص القرآنى . . ولا نحب أن نزيد شيئاً على هذا التقرير . . فهو أمر من أمور الغيب الذى استأثر الله بعلمه ؛ وليس علينا فيه إلا اليقين بوقوعه . وهو واقع ماله من دافع . أما موعده فعلم ذلك عند علام الغيوب . وننتقل من هذه الوقفة الخاطفة ، مع السياق فى انتقاله إلى تقرير الحقيقة الكلية وراء هذا المشهد . . إن أخذ الذين كفروا بالمهانة والعذاب ، سنة ماضية لا تتخلف ولا تتبدل ؛ فهذا هو المصير المحتوم الذى جرت به السنة من قديم (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ؛ كفروا بآيات الله ، فأخذهم الله بذنوبهم ، إن الله قوى شديد العقاب) إن الله – سبحانه – لا يكل الناس إلى فلتات عابرة ، ولا إلى جزاف لا ضابط له . . إنما هى سنته يمضى بها قدره . وما أصاب المشركين فى يوم بدر ، هو ما يصيب المشركين فى كل وقت ؛ وقد أصاب آل فرعون والذين من قبلهم (كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم) ولم يعجزوه – سبحانه – ولم يتخلف عنهم عقابه (إن الله قوى شديد العقاب) ولقد آتاهم الله من نعمته ، ورزقهم من فضله ، ومكن لهم فى الأرض ، وجعلهم خلائف فيها . . وهذا كله إنما يعطيه الله للناس ابتلاء منه وامتحاناً ، لينظر أيشكرون أم يكفرون ؟ ولكنهم كفروا ولم يشكروا ؛ وطغوا وبغوا بما أعطوا ، وغيرتهم النعمة والقوة فصاروا جبابرة وطواغيت كفرة فجرة . . وجاءتهم آيات الله فكفروا بها . . وعندئذ حقت عليهم سنة الله فى أخذ الكافرين بعد أن تبلغهم آياته فيكذبوا بها . . وعندئذ غير الله النعمة ، وأخذهم بالعذاب ، ودمر عليهم تدميراً (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وأن الله سميع عليم . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم . كذبوا بآيات ربهم ، فأهلكناهم بذنوبهم , وأغرقنا آل فرعون . وكل كانوا ظالمين) لقد أهلكهم الله بعد التكذيب بآياته . ولم يهلكهم قبلها سبحانه – مع أنهم كانوا كافرين – لأن هذه سنته ورحمته. وهو يعبر هنا عن آل فرعون والذين من قبلهم من أمثالهم الذين كذبوا بآيات الله فأهلكهم . . بأنهم (كانوا ظالمين) مستخدماً لفظ "الظلم" بمعنى "الكفر" أو "الشرك" وهذا هو الاستعمال الغالب فى القرآن (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) إنه من جانب ، يقرر عدل الله فى معاملة العباد ؛ فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ، ويبدلوا سلوكهم ، ويقلبوا أوضاعهم ، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التى لم يقدروها ولم يشكروها . . ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنسانى أكبر تكريم ، حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجرى عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله ؛ ويجعل التغيير القدرى فى حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعى فى قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم ، وأوضاعهم التى يختارونها لأنفسهم . . ومن الجانب الثالث يلقى تبعة عظيمة – تقابل التكريم العظيم – على هذا الكائن . فهو يملك أن يستبقى نعمة الله عليه ويملك أن يزاد عليها ، إذا هو عرف فشكر ؛ كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر ، وانحرفت نواياه فانحرفت خطاه . كذلك تصور هذه الحقيقة ذلك التلازم بين العمل والجزاء فى حياة هذا الكائن ونشاطه ; وتصور عدل الله المطلق ، فى جعل هذا التلازم سنة من سننه يجرى بها قدره ، ولا يظلم فيها عبد من عبيده (وان الله ليس بظلام للعبيد) (فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين). .

هذا الدرس الأخير من سورة الأنفال يتضمن الكثير من قواعد التعامل مع المعسكرات المتنوعة فى السلم والحرب ؛ والتنظيمات الداخلية للمجتمع الإسلامى وعلاقته بالمنظمات الخارجية ؛ ونظرة الإسلام إلى العهود والمواثيق فى شتى الأحوال ؛ ونظرته كذلك إلى علاقات الدم والجنس والأرض وعلاقات العقيدة .ومنه تتبين عدة قواعد وأحكام بعضها نهائى فى موضوعه ; وبعضها مرحلى كان يواجه أحوالاً معينة واقعة ، ثم أدخلت عليه التعديلات النهائية المستقرة فى سورة التوبة قرب نهاية العهد المدنى . ومن بين هذه القواعد والأحكام حسب ورودها فى السياق القرآنى:

أن الذين يعاهدون المعسكر الإسلامى ، ثم يخلفون عهدهم معه هم شر الدواب . . ومن ثم ينبغى أن يؤدبهم المعسكر الإسلامى تأديباً يلحظ فيه الإرهاب الذى يشردهم ويشرد من وراءهم ممن تراودهم نية نقض العهد أو نية مهاجمة المعسكر الإسلامى .

أن المعاهدين الذين تخشى القيادة الإسلامية منهم نقض العهد والخيانة ؛ فإن لهذه القيادة أن تنبذ إليهم عهدهم ، وتعلنهم بإلغائه . ومن ثم تصبح فى حل من قتالهم وتأديبهم وإرهاب من وراءهم من أمثالهم .

أنه يجب على المعسكر الإسلامى إعداد العدة دائماً واستكمال القوة بأقصى الحدود الممكنة ; لتكون القوة المهتدية هى القوة العليا فى الأرض ؛ التى ترهبها جميع القوى المبطلة ; والتى تتسامع بها هذه القوى فى أرجاء الأرض ، فتهاب أولا أن تهاجم دار الاسلام ; وتستسلم كذلك لسلطان الله فلا تمنع داعية إلى الإسلام فى أرضها من الدعوة , ولا تصد أحداً من أهلها عن الاستجابة ، ولا تدعى حق الحاكمية وتعبيد الناس ، حتى يكون الدين كله لله .

أنه إذا جنح فريق من غير المسلمين إلى مسالمة المعسكر الإسلامى وموادعته وعدم الوقوف فى وجهه فإن القيادة الإسلامية تقبل منهم المسالمة ، وتعاهدهم عليها . فإن أضمروا الخديعة ولم يبد فى الظاهر ما يدل عليها ، ترك أمرهم إلى الله ، وهو يكفى المسلمين شر الخادعين .

أن الجهاد فريضة على المسلمين حتى لو كان عدد أعدائهم أضعاف عددهم . وأنهم منصورون بعون الله على أعدائهم ، وان الواحد منهم كفء لعشرة من الأعداء ، وكفء لاثنين فى أضعف الحالات وفريضة الجهاد إذن لا تنتظر تكافؤ القوى الظاهرة بين المؤمنين وعدوهم ؛ فحسب المؤمنين أن يعدوا ما استطاعوا من القوى ، وأن يثقوا بالله , وأن يثبتوا فى المعركة ، ويصبروا عليها ؛ والبقية على الله . ذلك أنهم يملكون قوة أخرى غير القوى المادية الظاهرة . .

أن المعسكر الإسلامى يجب أن يكون همه ابتداء القضاء على قوة الطاغوت بتحطيم كل أسباب القوة . فإذا كان أسر المقاتلين وفداؤهم لا يحقق هذه الغاية ، فان هذا الاجراء يستبعد . . ذلك أنه لا يكون للرسل وأتباعهم أسرى إلا بعد أن يثخنوا فى الأرض , فيدمروا قوة عدوهم ، ويستعلوا هم فى الأرض ويتمكنوا بقوتهم ؛ وعندئذ لا يكون هناك من بأس فى أخذ الأسرى وفدائهم . أما قبل ذلك فالتقتيل فى المعركة أولى وأجدى .

أن الغنائم حل للمسلمين فى المعركة من أموال المشركين . كما أحل لهم أن يأخذوا فدية الأسرى بعد أن يثخنوا فى الأرض ويتمكنوا فيها ويخضدوا شوكة عدوهم ويحطموها .

أن الأسرى فى المعسكر المسلم ينبغى أن يرغبوا فى الإسلام . بوعد الله لهم أن يعطيهم خيراً مما أخذ منهم من الغنيمة أو الفداء . مع تحذيرهم من الخيانة ببأس الله الذى أمكن منهم أول مرة .

أن آصرة التجمع فى المجتمع الإسلامى هى العقيدة ؛ ولكن الولاء فى هذا المجتمع لا يكون إلا على أساس العقيدة والتنظيم الحركى معاً ، فالذين آمنوا وهاجروا والذين آووا ونصروا بعضهم أولياء بعض . أما الذين آمنوا ولم يهاجروا إلى دار الاسلام ، فلا ولاء بينهم وبين المعسكر المسلم فى دار الاسلام . . أى لا تناصر ولا تكافل . . ولا ينصرهم المسلمون إلا إذا اعتدى عليهم فى عقيدتهم ؛ وكان هذا الاعتداء من قوم ليس بينهم وبين المسلمين عهد .

أن قيام التجمع والولاء فى المجتمع المسلم على آصرة العقيدة والتنظيم الحركى ، لا يمنع أن يكون أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ؛ فيكونوا أقرب فى الولاء – متى تحقق شرط العقيدة وشرط التنظيم الحركى – فأما قرابة الرحم وحدها فلا تنشئ أولوية ولا ولاء إذا انفصمت رابطة العقيدة ورابطة التنظيم الحركى .

هذه – على وجه الإجمال – هى المبادئ والقواعد التى يتضمنها هذا الدرس ؛ وهى تمثل جملة صالحة من قواعد النظام الإسلامى الداخلى والخارجى . . وسنحاول أن نتناولها بشىء من التفصيل فى مواجهة النصوص القرآنية:

(إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ، وهم لا يتقون . فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة

فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا ، إنهم لا يعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم , وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم)هذه الآيات كانت تواجه حالة قائمة بالفعل فى حياة الجماعة المسلمة ، عند نشأة الدولة المسلمة بالمدينة ؛ وتزود القيادة المسلمة بالأحكام التي تواجه بها هذه الحالة . وهي تمثل إحدى قواعد العلاقات الخارجية بين المعسكر المسلم وما حوله من المعسكرات الأخرى ، ولم تدخل عليها إلا تكملات وتعديلات جانبية فيما بعد ؛ ولكنها ظلت إحدى القواعد الأساسية في المعاملات الإسلامية الدولية . إنها تقرر إمكان إقامة عهود تعايش بين المعسكرات المختلفة ؛ ما أمكن أن تصان هذه العهود من النكث بها ؛ مع إعطاء هذه العهود الإحترام الكامل والجدية الحقيقية . فأما إذا اتخذ الفريق الآخر هذه العهود ستاراً يدبر من ورائه الخيانة والغدر ؛ ويستعد للمبادأة والشر ؛ فإن للقيادة المسلمة أن تنبذ هذه العهود ، وتعلن الفريق الآخر بهذا النبذ ؛ وتصبح مطلقة اليد فى اختيار وقت الضربة التالية للخائنين الغادرين . . على أن تكون هذه الضربة من العنف والشدة بحيث ترهب كل من تحدثه نفسه بالتعرض للمجتمع المسلم سرا أو جهراً ! . . فأما الذين يسالمون المعسكر الإسلامي ؛ ويريدون عدم التعرض للدعوة الإسلامية ، أو الحيلولة دون وصولها إلى كل سمع ؛ فإن للقيادة المسلمة أن توادعهم ما دام ظاهرهم يدل على أنهم يجنحون إلى السلم ويريدونها . وهذه - كما هو ظاهر - مواجهة عملية واقعية لحالات عملية واقعية فى العلاقات بين المعسكرات المتجاورة ؛ لا ترفض الموادعة - متى تحقق للدعوة الإسلامية الأمان الحقيقي وزوال العقبات المادية من طريقها وهى تتحرك لتبلغ الأسماع والقلوب - وفى الوقت ذاته لا تسمح أن تكون عهود الموادعة ستاراً للأعداء ، وترساً يتترسون به لضرب المجتمع المسلم غيلة وغدراً . أما الحالة الواقعة التي كانت هذه النصوص تواجهها في مجتمع المدينة يومذاك ، فقد نشأت من الظروف التي واجهتها القيادة المسلمة في أول العهد بالهجرة إلى المدينة ، والتي يلخصها الإمام ابن القيم فى زاد المعاد بقوله:"ولما قدم النبي ﷺ المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام:قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ولا يوالوا عليه عدوه - وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم - وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة . وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه . . ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره فى الباطن . ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم . ومنهم من دخل معه فى الظاهر ، وهو مع عدوه فى الباطن ليأمن الفريقين ، وهؤلاء هم المنافقون فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه تبارك وتعالى " . . وكان من بين من صالحهم ووادعهم طوائف اليهود الثلاث المقيمين حول المدينة ؛ وهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة . كما كان من بينهم قبائل من المشركين مجاورة للمدينة ، ومن مراجعة كلام إبن القيم حول الطوائف التى إستقر عليها الأمر مع الرسول ﷺ ، ومراجعة أحداث السيرة ، وتاريخ نزول السور والآيات التى تتضمن هذه الأحكام ، يتبين لنا أن آيات سورة الأنفال التي نحن بصددها هنا , تمثل مرحلة وسيطة بين ما كان عليه الحال أول العهد بالمدينة ، وما انتهى إليه الحال بعد نزول سورة براءة . ويجب أن تدرس هذه النصوص فى ضوء هذه الاعتبارات . . ومع أنها تقرر بعض القواعد الأساسية ، إلا أنها لا تمثلها في صورتها النهائية . فالصورة النهائية تمثلها نصوص سورة براءة ، والتطبيقات العملية لها فى أواخر حياة رسول الله ﷺ كما سيأتي . . (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون) ولفظ (الدواب) وإن كان يشمل كل ما دب على الأرض ، فيشمل الأناسى فيما يشمل ، إلا أنه - كما أسلفنا - يلقى ظلاً خاصاً حين يطلق على الآدميين . . ظل البهيمة . . ثم يصبح هؤلاء الآدميون شر البهيمة التى تدب على الأرض ! وهؤلاء هم الذين كفروا حتى بلغ بهم الكفر ألا يصير حالهم إلى الإيمان ! وهم الذين ينقضون عهدهم فى كل مرة ولا يتقون الله فى مرة ! وقد وردت روايات متعددة فى المقصودين بهذا النص . . قيل:إنهم بنو قريظة ، وقيل:إنهم بنو النضير . وقيل:إنهم بنو قينقاع . وقيل:إنهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة من المشركين . . والنص والواقع التاريخي كلاهما يحتمل أن يكونوا هؤلاء جميعاً . فلقد نقض اليهود عهودهم مع رسول الله ﷺ طائفة طائفة ، كما أنه قد تكرر نقض المشركين لعهودهم أيضاً . . والمهم أن نعلم أن هذه النصوص تتحدث عن حالة واقعة قبل بدر وبعدها ، إلى حين نزول هذه الآيات . ولكن الحكم الصادر فيها ، المصور لطبيعة الناقضين للعهد يصور حالة دائمة ، ويقرر صفة ثابتة . . فهؤلاء الذين كفروا ولّجوا فى الكفر (فهم لا يؤمنون). . ففسدت بذلك فطرتهم ، وباتوا بذلك شر الدواب عند الله . هؤلاء الذين ينقضون كل عهد أبرموه ، فتجردوا بذلك من خصيصة إنسانية أخرى - خصيصة التقيد بالعهد - وانطلقوا من كل قيد ، كما تنطلق البهيمة , لولا أن البهيمة مقيدة

بضوابط فطرتها ، وهؤلاء لا ضابط لهم . فهم بذلك شر الدواب عند الله ! هؤلاء الذين لا يستطيع أحد أن يطمئن إلى عهدهم وجوارهم . . جزاؤهم هو حرمانهم الأمن كما حرموا غيرهم الأمن ؛ وجزاؤهم هو تخويفهم وتشريدهم ، والضرب على أيديهم بشدة لا ترهبهم وحدهم ، إنما ترهب من يتسامع بهم ممن وراءهم من أمثالهم ، والرسول ﷺ ومن بعده من المسلمين ، مأمورون – إذا التقوا بأمثال هؤلاء فى القتال – أن يصنعوا بهم ذلك الصنيع (فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون) وإنه لتعبير عجيب ، يرسم صورة للأخذ المفزع ، والهول المرعب ، الذى يكفى السماع به للهرب والشرود . فما بال من يحل به هذا العذاب الرعيب ؟ إنها الضربة المروّعة يأمر الله تعالى رسوله [ص] أن يأخذ بها هؤلاء الذين مردوا على نقض العهد ، وانطلقوا من ضوابط الإنسان ، ليؤمن المعسكر الإسلامى أولاً ، وليدمر هيبة الخارجين عليه أخيراً ؛ وليمنع كائناً من كان أن يجرؤ على التفكير فى الوقوف فى وجه المد الإسلامى من قريب أو من بعيد . . وهذا هو الحكم الأول يتعلق بحالة نقض العهد فعلاً مع المعسكر الإسلامى ؛ وما ينبغى أن يتبع فى ضرب الناقضين للعهد وإرهابهم وإرهاب من وراءهم بالضربة القاصمة المروعة الهائلة . فأما الحكم الثانى فيتعلق بحالة الخوف من نقض العهد وتوقع الخيانة ؛ وذلك بظهور أفعال وأمارات تدل على أن القوم يهمون بنقض العهد فعلاً (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . إن الله لا يحب الخائنين)

إن الإسلام يعاهد ليصون عهده ؛ فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية ; ولم يخن ولم يغدر ؛ ولم يغش ولم يخدع ؛ وصارح الآخرين بأنه نفض يده من عهدهم . فليس بينه وبينهم أمان . . وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة , وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة . . إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر الفاجر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ ؛ ولا يروّع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم . . فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعة ، لأن كل خصم قد أخذ حذره ؛ فإذا جازت الخدعة عليه فهو غير مغدور به إنما هو غافل ! وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة لأنها ليست غادرة ! لأنه لا انفصال فى تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات . . إن الشط الممرع لا يغرى المسلم بخوض بركة من الوحل , فإن الشط الممرع لا بد أن تلوثه الأقدام الملوثة فى النهاية . . من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة (إن الله لا يحب الخائنين) ويجب أن نذكر أن هذه الأحكام كانت تتنزل والبشرية بجملتها لا تتطلع إلى مثل هذا الأفق المشرق . لقد كان قانون الغابة هو قانون المتحاربين حتى ذلك الزمان . قانون القوة التى لا تتقيد بقيد متى قدرت . ويجب أن نذكر كذلك أن قانون الغابة هو الذى ظل يحكم المجتمعات الجاهلية كلها بعد ذلك إلى القرن الثامن عشر الميلادى حيث لم تكن أوربا تعرف شيئاً عن المعاملات الدولية إلا ما تقتبسه فى أثناء تعاملها مع العالم الإسلامى . ثم هى لم ترتفع قط حتى اللحظة إلى هذا الأفق فى عالم الواقع ؛ حتى بعد ما عرفت نظرياً شيئاً اسمه القانون الدولى ! وعلى الذين يبهرهم "التقدم الفنى فى صناعة القانون" أن يدركوا حقيقة "الواقع" بين الإسلام والنظم المعاصرة جميعاً ! وفى مقابل هذه النصاعة وهذه النظافة يعد الله المسلمين النصر ، ويهوّن عليهم أمر الكفار والكفر ! (ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا ، إنهم لا يعجزون) فتبييتهم الغدر والخيانة لن يمنحهم فرصة السبق ، لأن الله لن يترك المسلمين وحدهم , ولن يفلت الخائنين لخيانتهم . والذين كفروا أضعف من أن يعجزوا الله حين يطلبهم , وأضعف من أن يعجزوا المسلمين والله ناصرهم . فليطمئن أصحاب الوسائل النظيفة – متى أخلصوا النية فيها لله – من أن يسبقهم أصحاب الوسائل الخسيسة . فإنما هم منصورون بالله الذى يحققون سنته فى الأرض ، ويعلون كلمته فى الناس ، وينطلقون باسمه . يجاهدون ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك . ولكن الإسلام يتخذ للنصر عدته الواقعية التى تدخل فى طوق العصبة المسلمة ؛ فهو لا يعلق أبصارها بتلك الآفاق العالية إلا وقد أمن لها الأرض الصلبة التى تطمئن عليها أقدامها ؛ وهيأ لها الأسباب العملية التى تعرفها فطرتها وتؤيدها تجاربها ؛ وإلا إذا أعدها هى للحركة الواقعية التى تحقق هذه الغايات العلوية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) فالاستعداد بما فى الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد ؛ والنص يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها ؛ ويخص (رباط الخيل) لأنه الأداة التى كانت بارزة عند من كان يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة . . ولو أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونها فى ذلك الحين مما سيجد مع الزمن لخاطبهم بمجهولات محيرة – تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا – والمهم هو عموم التوجيه (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة). إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها فى "الأرض" لتحرير "الإنسان" . . وأول ما تصنعه هذه القوة فى حقل الدعوة:أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم فى اختيارها ; فلا يصدوا عنها ، ولا يفتنوا كذلك بعد

اعتناقها . . والأمر الثاني:أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على "دار الإسلام" التى تحميها تلك القوة . . والأمر الثالث:أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا فى الوقوف فى وجه المد الإسلامى ، وهو ينطلق لتحرير "الإنسان" كله فى "الأرض" كلها . . والأمر الرابع:أن تحطم هذه القوة كل قوة فى الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية ، فتحكم الناس بشرائعها هى وسلطانها ؛ ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده ؛ ومن ثم فالحاكمية له وحده سبحانه . . هذه هى الحقيقة الكبيرة التى يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفون بالدين موقف الدفاع ; وهم يتمتمون ويجمجمون للاعتذار عن المد الإسلامى ! والجهاد الإسلامى . ويحسن أن نعرف حدود التكليف بإعداد القوة . فالنص يقول (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) فهى حدود الطاقة إلى أقصاها . بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل فى طاقتها . كذلك يشير النص إلى الغرض الأول من إعداد القوة (ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) فهو إلقاء الرعب والرهبة فى قلوب أعداء الله الذين هم أعداء العصبة المسلمة فى الأرض . الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون ؛ ومن وراءهم ممن لا يعرفونهم ، أو لم يجهروا لهم بالعداوة ، واللّه يعلم سرائرهم وحقائقهم . وهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد بالفعل إليهم . والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء ، وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين فى الأرض ؛ ولتكون كلمة اللّه هى العليا ، وليكون الدين كله للّه . ولما كان إعداد العدة يقتضى أموالا ، وكان النظام الإسلامى كله يقوم على أساس التكافل , فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال فى سبيل الله (وما تنفقوا من شيء - فى سبيل الله - يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) وهكذا يجرد الإسلام الجهاد والنفقة فى سبيله ، من كل غاية أرضية ، ومن كل دافع شخصى ; ومن كل شعور قومى أو طبقى ، ليتمحض خالصا للّه "فى سبيل الله" لتحقيق كلمة الله , ابتغاء رضوان اللّه .

والحكم الثالث فى هذه النصوص هو الحكم المتعلق بمن يريدون المهادنة والموادعة للمعسكر الإسلامى ؛ ويجنحون إلى السلم والمسالمة ؛ وتدل ظواهرهم وأفعالهم على رغبتهم فى السلم حقاً (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله . إنه هو السميع العليم) والتعبير عن الميل إلى السلم بالجنوح ، تعبير لطيف ، يلقى ظل الدعة الرقيق . فهى حركة جناح يميل إلى جانب السلم ، ويرخى ريشه فى وداعة ! كما أن الأمر بالجنوح إلى السلم مصحوب بالتوكل على الله السميع العليم الذى يسمع ما يقال ويعلم ما وراءه من مخبآت السرائر . وفى التوكل عليه الكفاية والأمان . ولكن النص كان له نوع من العموم فى الحكم فى حينه . فقد عمل رسول الله ﷺ به - حتى نزلت سورة براءة - ومن عمله به كان صلح الحديبية فى السنة السادسة للهجرة .

ولقد اتجه بعض الفقهاء إلى اعتبار الحكم نهائياً ودائماً ففسروا الجنوح إلى السلم بقبول أداء الجزية . . ولكن هذا لا يتفق مع الواقع التاريخى ؛ فإن أحكام الجزية نزلت فى سورة براءة بعد السنة الثامنة للهجرة ، وهذه الآية نزلت فى السنة الثانية بعد بدر ؛ ولم تكن أحكام الجزية موجودة . والأقرب إلى الصحة بمراجعة الأحداث وتواريخ النزول والطبيعة الحركية للمنهج الإسلامى ، أن يقال:إن هذا الحكم ليس نهائياً ؛ وأنه عدل أخيراً بالأحكام النهائية التى نزلت فى سورة براءة [التوبة] والتى انتهى بها الناس إلى أن يكونوا مع الإسلام:إما محاربين يحاربون . وإما مسلمين تحكمهم شريعة الله . وإما أهل ذمة يؤدون الجزية وهم على عهدهم ما استقاموا . . وهذه هى الأحكام النهائية التى تنتهى إليها حركة الجهاد الإسلامى . وكل ما عداها هو حالات واقعية يسعى الإسلام إلى تغييرها حتى تنتهى إلى هذه الأوضاع الثلاثة التى تمثل العلاقات النهائية ، وهى العلاقات التى يمثلها الحديث الذى أخرجه مسلم ورواه الإمام أحمد: قال أحمد:حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن علقمة بن مرثد ، عن سليمان بن يزيد ، عن أبيه , عنبزيد بن الخطيب الأسلمى - رضى الله عنه - قال:كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله , وبمن معه من المسلمين خيراً ، وقال:" اغزوا باسم الله . فى سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال ، أو خلال , فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم . ادعهم إلى الإسلام . فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين . فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم فى الفيء والغنيمة نصيب ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية . فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم . فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم " والمشكل فى هذا الحديث هو ذكر الهجرة ودار المهاجرين ، مع ذكر الجزية . . والجزية لم تفرض إلا بعد الفتح ؛ وبعد الفتح لم تعد هجرة [بالقياس إلى الجماعة المسلمة الاولى التى انتهت إلى دار إسلام وفتح وتمكن] والثابت أن

الجزية لم تفرض إلا بعد السنة الثامنة ؛ وأنها من ثم لم تؤخذ من المشركين العرب لأنهم أسلموا قبل نزول الجزية . فقبلت بعد ذلك من أمثالهم من المشركين المجوس ، وهم مثلهم فى الشرك ؛ ولو نزلت أحكام الجزية وفى الجزيرة مشركون لقبلت منهم كما يقرر الإمام ابن القيم . وهو فيما ذكر قول أبى حنيفة وأحد قولى الإمام أحمد [أما القرطبى فقد روى هذا القول عن الأوزاعى ومالك ، وروى غيره عن أبى حنيفة]وعلى أية حال فالذى ننتهى إليه ، أن قول الله تعالى (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم) لا يتضمن حكماً مطلقاً نهائياً فى الباب ، وأن الأحكام النهائية نزلت فيما بعد فى سورة براءة . إنما أمر الله رسوله أن يقبل مسالمة وموادعة ذلك الفريق الذى اعتزله فلم يقاتله سواء كان قد تعاهد ، أو لم يتعاهد معه حتى ذلك الحين . وأنه ظل يقبل السلم من الكفار وأهل الكتاب حتى نزلت أحكام سورة براءة . فلم يعد يقبل إلا الإسلام أو الجزية – وهذه هى حالة المسالمة التى تقبل ما استقام أصحابها على عهدهم – أو هو القتال ما استطاع المسلمون هذا ؛ ليكون الدين كله لله . وعندما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقبل موادعة من وادعوه ، وأن يجنح للسلم معهم متى جنحوا إليه ؛ وجهه إلى التوكل عليه ، وطمأنه إلى إحاطته سبحانه بسرائر القوم المخبوءة (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم) ثم أمنه من خداعهم ، إن هم أرادوا خيانته ، وبيتوا الغدر من وراء الجنوح إلى السلم . وقال له:إن الله حسبه وكافيه وحافظه ؛ وهو الذى أيده بنصره – فى بدر – وأيده بالمؤمنين وجمع قلوبهم على الود والإخاء فى الإسلام ؛ وكانت عصية على التآلف , لا يملك تأليفها إلا الله القدير الحكيم (وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم , إنه عزيز حكيم) حسبك الله ، فهو كافيك ، وهو الذى أيدك بنصره أول مرة ، وأيدك بالمؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ؛ وجعل منهم قوة موحدة ، بعد أن كانت قلوبهم شتى ، وعداواتهم جاهرة وبأسهم بينهم شديداً . سواء كان المقصود هم الأوس والخزرج – وهم الأنصار – فقد كان بينهم فى الجاهلية من الثارات والدماء والمنازعات ما يستحيل معه الالتئام فضلاً على هذا الإخاء الذى لم تعرف له الأرض نظيراً ولا شبيهاً . . أو كان المقصود هم المهاجرون ، وهم كانوا كالأنصار فى الجاهلية . . أو كان الجميع مقصودين , فقد كانت هذه هى حالة عرب الجزيرة جميعاً ! وهذه العقيدة تهتف للبشرية بنداء الحب فى الله ؛ وتوقع على أوتارها ألحان الخلوص له والالتقاء عليه ، فإذا استجابت وقعت تلك المعجزة التى لا يدرى سرها إلا الله ولا يقدر عليها إلا الله . يقول رسول الله ﷺ " إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى " قالوا:يا رسول الله تخبرنا من هم . قال:" هم قوم تحابوا بروح الله بينهم ، على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها , والله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور . لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس " . . [أخرجه أبو داود] بعد ذلك يمضى السياق يطمئن رسول الله ﷺ والعصبة المسلمة من ورائه ، إلى ولاية الله – سبحانه – له ولها ؛ وهو حسبه وحسبها ؛ ثم يأمره بتحريض المؤمنين على القتال فى سبيل الله ؛ فهم أكفاء لعشرة أمثالهم ممن لا يفقهون فقههم ؛ وهم على الأقل أكفاء لمثليهم فى أضعف الحالات (يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين . يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا ، بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفاً , فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله , والله مع الصابرين) ويقف الفكر ليستعرض القوة التى لا راد لها ، ولا معقب عليها – قوة الله القوى العزيز – وأمامها تلك القوة الضئيلة العاجزة الهزيلة – التى تتصدى لكتائب الله – فإذا الفرق شاسع ، والبون بعيد . وإذا هى معركة مضمونة العاقبة ، معروفة النهاية ، مقررة المصير . . وهذا كله يتضمنه قوله تعالى (يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) ومن ثم يأتى الأمر بتحريض المؤمنين على القتال – فى سبيل الله – وقد تهيأت كل نفس , واستعد كل قلب وشد كل عصب ، وتحفز كل عرق ؛ وانسكبت فى القلوب الطمأنينة والثقة واليقين (يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال) حرضهم وهم لعدوهم وعدو الله كفء ، وإن قل عددهم وكثر أعداؤهم وأعداء الله حولهم (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا) فأما تعليل هذا التفاوت فهو تعليل مفاجىء عجيب . ولكنه صادق عميق (بأنهم قوم لا يفقهون) فما صلة الفقه بالغلب فى ظاهر الأمر ؟ ولكنها صلة حقيقية ، وصلة قوية . . إن الفئة المؤمنة إنما تمتاز بأنها تعرف طريقها ، وتفقه منهجها ، وتدرك حقيقة وجودها وحقيقة غايتها . . إنها تفقه حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ؛ فتفقه أن الألوهية لا بد أن تنفرد وتستعلى ، وأن العبودية يجب أن تكون لله وحده بلا شريك . وتفقه أنها هى – الأمة المسلمة – المهتدية بهدى الله ، المنطلقة فى الأرض بإذن الله لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ؛ وأنها هى المستخلفة عن الله فى الأرض ; الممكنة فيها لا لتستعلى هى تستمع ؛ ولكن لتعلى كلمة الله وتجاهد فى سبيل الله ؛ ولتعمر الأرض بالحق ؛ وتحكم بين

الناس بالقسط ؛ وتقيم في الأرض مملكة الله التي تقوم على العدل بين الناس . . وكل ذلك فقه يسكب فى قلوب العصبة المسلمة النور والثقة والقوة واليقين ؛ ويدفع بها إلى الجهاد فى سبيل الله فى قوة وفى طمأنينة للعاقبة تضاعف القوة . بينما أعداؤها (قوم لا يفقهون) قلوبهم مغلقة ، وبصائرهم مطموسة ; وقوتهم كليلة عاجزة مهما تكن متفوقة ظاهرة . إنها قوة منقطعة معزولة عن الأصل الكبير ! وهذه النسبة . . واحد لعشرة . . هى الأصل فى ميزان القوى بين المؤمنين الذين يفقهون والكافرين الذين لا يفقهون . . وحتى فى أضعف حالات المسلمين الصابرين فإن هذه النسبة هى:واحد لاثنين (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين) وقد فهم بعض المفسرين والفقهاء أن هذه الآيات تتضمن أمراً للذين آمنوا ألا يفر الواحد منهم من عشرة فى حالة القوة ، وألا يفر الواحد من اثنين فى حالة الضعف . . وهناك خلافات فرعية كثيرة لا ندخل نحن فيها . . فالراجح عندنا أن الآيات إنما تتضمن حقيقة فى تقدير قوة المؤمنين فى مواجهة عدوهم فى ميزان الله وهو الحق ؛ وأنها تعريف للمؤمنين بهذه الحقيقة لتطمئن قلوبهم ، وتثبت أقدامهم ؛ وليست أحكاماً تشريعية – فيما نرجح – والله أعلم بما يريد . ومن التحريض على القتال ينتقل السياق إلى بيان حكم الأسرى – بمناسبة تصرف الرسولﷺ والمسلمين فى أسرى بدر – وإلى الحديث إلى هؤلاء الأسرى وترغيبهم فى الإيمان وما وراءه من حسن العوض عما فاتهم وعما لحقهم من الخسارة فى الموقعة (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة , والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ، واتقوا الله ، إن الله غفور رحيم) (يا أيها النبي قل لمن فى أيديكم من الأسرى:إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم ، والله غفور رحيم . وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ، والله عليم حكيم)

قال ابن إسحاق – وهو يقص أخبار الغزوة –:" فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله ﷺ فى العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله ﷺ متوشحاً السيف فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ يخافون عليه كرة العدو ، ورأى رسول الله ﷺ فيما ذكر لي ، في وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس , فقال له رسول الله ﷺ " والله لكأنك يا سعد تكره مايصنع القوم ! " قال:أجل والله يا رسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحب إليّ من استبقاء الرجال ! " والإثخان المقصود هو التقتيل حتى تضعف شوكة المشركين وتشتد شوكة المسلمين ، وهذا ما كان ينبغي قبل أن يكون للنبى والمسلمين أسرى يستبقونهم ويطلقونهم بالفدية كما حدث فى بدر . فعاتب الله المسلمين فيه . لقد كانت غزوة بدر هي المعركة الأولى بين المسلمين والمشركين . وكان المسلمون ما يزالون قلة والمشركون ما يزالون كثرة . وكان نقص عدد المحاربين من المشركين مما يكسر شوكتهم ويذل كبرياءهم ويعجزهم عن معاودة الكرة على المسلمين . وكان هذا هدفاً كبيراً لا يعدله المال الذى يأخذونه مهما يكونوا فقراء . وكان هنالك معنى آخر يراد تقريره فى النفوس وتثبيته فى القلوب . . ذلك هو المعنى الكبير الذى عبر عنه عمر رضى الله عنه في صرامة ونصاعة وهو يقول:" وحتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين " . . لهذين السببين البارزين نحسب – والله أعلم – أن الله – سبحانه – كره للمسلمين أن يأخذوا الأسرى يوم بدر وأن يفادوهم بمال . ولهذه الظروف الواقعية التى كان يواجهها النص – وهو يواجهها كلما تكررت هذه الظروف – قال الله تعالى (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) ولذلك عرض القرآن بالمسلمين الذين قبلوا الفداء في أسرى المعركة الأولى (تريدون عرض الدنيا) أى:فأخذتموهم أسرى بدل أن تقتلوهم ؛ وقبلتم فيهم الفداء وأطلقتموهم ! (والله يريد الآخرة) والمسلمون عليهم أن يريدوا ما يريد الله ، فهو خير وأبقى . والآخرة تقتضى التجرد من إرادة عرض الدنيا ! (والله عزيز حكيم) قدر لكم النصر ، وأقدركم عليه ، لحكمة يريدها من قطع دابر الكافرين(ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) ولقد سبق قضاء الله بأن يغفر لأهل بدر ما يفعلون ؛ فوقاهم سبق قضائه فيهم ما كان يستحقه أخذهم الفداء من العذاب العظيم ! ثم زادهم الله فضلاً ومنة ؛ فجعل غنائم الحرب حلالاً لهم – ومنها هذه الفدية التى عوتبوا فيها – وكانت محرمة فى الديانات قبلهم على أتباع الرسل – مذكراً إياهم بتقوى الله ، وهو يذكر لهم رحمته ومغفرته ، لتتوازن مشاعرهم تجاه ربهم ، فلا تغرهم المغفرة والرحمة ، ولا تنسيهم التقوى والتحرج والمخافة (فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ، واتقوا الله ، إن الله غفور رحيم) ثم يلمس قلوب الأسرى لمسة تحيي فيها الرجاء ، وتطلق فيها الأمل ، وتشيع فيها النور , وتعلقها بمستقبل خير من الماضي ، وبحياة أكرم مما كانوا فيه ، وبكسب أرجح مما فقدوا من مال وديار . وبعد ذلك كله بالمغفرة والرحمة من الله (يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى:إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ

منكم ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم) هذا الخير كله معلق بأن تصلح قلوبهم فتتفتح لنور الإيمان ؛ فيعلم الله أن فيها خيراً . . والخير هو الإيمان حتى ما يحتاج إلى ذكر وتنصيص . الخير محض الخير ، والذى لا يسمى شيء ما خيراً إلا أن يستمد منه وينبثق منه ويقوم عليه . إن الإسلام إنما يستبقى الأسرى لديه ، ليلمس فى قلوبهم مكامن الخير والرجاء والصلاح , وليوقظ فى فطرتهم أجهزة الاستقبال والتلقى والتأثر والاستجابة للهدى . لا ليستذلهم انتقاماً ، ولا ليسخرهم استغلالاً ؛ كما كانت تتجه فتوحات الرومان ؛ وكما تتجه فتوحات الأجناس والأقوام ! وفى الوقت الذى يفتح الله للأسارى نافذة الرجاء المشرق الرحيم ، يحذرهم خيانة الرسول] ص [كما خانوا الله من قبل فلاقوا هذا المصير (وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ، والله عليم حكيم) لقد خانوا الله فأشركوا به غيره ، ولم يفردوه سبحانه بالربوبية ، وهو قد أخذ العهد على فطرتهم فخانوا عهده . فإن أرادوا خيانة رسوله ﷺ وهم أسرى فى يديه ، فليذكروا عاقبة خيانتهم الأولى التى أوقعتهم فى الأسر ، ومكنت منهم رسول الله وأولياءه . . والله (عليم) بسرائرهم (حكيم) فى إيقاع العقاب بهم (والله عليم حكيم) قال القرطبى فى التفسير ، قال ابن العربى:لما أسر من أسر من المشركين ، تكلم قوم منهم بالإسلام ، ولم يمضوا فيه عزيمة ، ولا اعترفوا به اعترافاً جازماً . ويشبه أنهم أرادوا أن يقربوا من المسلمين ولا يبعدوا من المشركين – قال علماؤنا:إن تكلم الكافر بالإيمان فى قلبه وبلسانه ولم يمض فيه عزيمة لم يكن مؤمناً . وإذا وجد مثل ذلك من المؤمن كان كافراً . إلا ما كان من الوسوسة التى لا يقدر على دفعها ، فإن الله قد عفا عنها وأسقطها . وقد بين الله لرسوله ﷺ الحقيقة فقال: (وإن يريدوا خيانتك) أى إن كان هذا القول منهم خيانة ومكراً (فقد خانوا الله من قبل) بكفرهم ومكرهم بك وقتالهم لك . وإن كان هذا القول منهم خيراً ، ويعلمه الله ، فيقبل منهم ذلك ويعوضهم خيراً مما خرج عنهم:ويغفر لهم ما تقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم . وأخيراً يختم هذا الدرس ، وتختم السورة معه ، ببيان طبيعة العلاقات فى المجتمع المسلم , وطبيعة العلاقات بينه وبين المجتمعات الأخرى ؛ وبيان الأحكام المنظمة لهذه العلاقات وتلك ؛ ومنه تتبين طبيعة المجتمع المسلم ذاته ؛ والقاعدة التى ينطلق منها والتى يقوم عليها كذلك . . إنها ليست علاقات الدم ، ولا علاقات الأرض ، ولا علاقات الجنس , ولا علاقات التاريخ ، ولا علاقات اللغة ، ولا علاقات الاقتصاد . . ليست هى القرابة , وليست هى الوطنية ، وليست هى القومية ، وليست هى المصالح الاقتصادية . . إنما هى علاقة العقيدة ، وعلاقة القيادة ، وعلاقة التنظيم الحركى . . فالذين آمنوا وهاجروا إلى دار الهجرة والإسلام ، متجردين من كل ما يمسكهم بأرضهم وديارهم وقومهم ومصالحهم , وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ؛ والذين آووهم ونصروهم ودانوا معهم لعقيدتهم وقيادتهم فى تجمع حركى واحد ، أولئك بعضهم أولياء بعض . . والذين آمنوا ولم يهاجروا ليس بينهم وبين المجتمع المسلم ولاية ؛ لأنهم لم يتجردوا بعد للعقيدة , ولم يدينوا بعد للقيادة ؛ ولم يلتزموا بعد بتعليمات التجمع الحركى الواحد . . وفى داخل هذا التجمع الحركى الواحد تعتبر قرابة الدم أولى فى الميراث وغيره . . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض كذلك . . هذه هى الخطوط الرئيسية فى العلاقات والارتباطات , كما تصورها هذه النصوص الحاسمة (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض . والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا . وإن استنصروكم . . فى الدين . . فعليكم النصر – إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق – والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض:إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير . . والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم . وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إن الله بكل شيء عليم) والولاية بين المسلمين فى إبان نشأة المجتمع المسلم إلى يوم بدر ، كانت ولاية توارث وتكافل فى الديات وولاية نصرة وأخوة قامت مقام علاقات الدم والنسب والقرابة . . حتى إذا وجدت الدولة ومكن الله لها بيوم الفرقان فى بدر بقيت الولاية والنصرة ، ورد الله الميراث والتكافل فى الديات إلى قرابة الدم ، داخل المجتمع المسلم . . فأما الهجرة التى يشير إليها النص ويجعلها شرطاً لتلك الولاية – العامة والخاصة – فهى الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام – لمن استطاع – فأما الذين يملكون الهجرة ولم يهاجروا ، استمساكاً بمصالح أو قرابات مع المشركين ، فهؤلاء ليس بينهم وبين المجتمع المسلم ولاية ، كما كان الشأن فى جماعات من الأعراب أسلموا ولم يهاجروا لمثل هذه الملابسات ، وكذلك بعض أفراد فى مكة من القادرين على الهجرة . .وهؤلاء وأولئك أوجب الله على المسلمين نصرهم – إن استنصروهم فى الدين خاصة – على شرط ألا يكون الاعتداء عليهم من قوم بينهم وبين المجتمع المسلم عهد ، لأن عهود المجتمع المسلم وخطته الحركية أولى بالرعاية ! وهكذا وجد الإسلام . . هكذا وجد متمثلا فى قاعدة نظرية مجملة – ولكنها شاملة – يقوم عليها فى نفس اللحظة تجمع عضوى حركى مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلى ومواجه لهذا المجتمع . . ولم يوجد قط فى صورة "نظرية" مجردة عن هذا الوجود الفعلى . . وهكذا يمكن أن يوجد الإسلام مرة

أخرى . . ولا سبيل لإعادة نشأته فى ظل المجتمع الجاهلى فى أى زمان وفى أى مكان ، بغير الفقه الضرورى لطبيعة نشأته العضوية الحركية . وحين ندرك طبيعة هذه النشأة وأسرارها الفطرية ؛ وندرك معها طبيعة هذا الدين وطبيعة منهجه الحركى -على ما بينا فى مقدمة سورة الأنفال فى الجزء التاسع - ندرك معه مدلولات هذه النصوص والأحكام التى نواجهها فى ختام هذه السورة ، فى تنظيم المجتمع المسلم وتنظيم علاقاته مع المؤمنين المهاجرين المجاهدين - بطبقاتهم - والذين آووا ونصروا ؛ وعلاقاته مع الذين آمنوا إلى دار الإسلام التى تحكمها شريعة الله وتدبر أمرها القيادة المسلمة ؛ ولم ينضموا إلى المجتمع المسلم الذى أصبح يملك داراً يقيم فيها شريعة الله ؛ ويحقق فيها وجوده الكامل ؛ بعدما تحقق له وجوده فى مكة نسبيا ، بالولاء للقيادة الجديدة والتجمع فى تجمع عضوى حركى ، مستقل ومنفصل عن المجتمع الجاهلى ومواجه له بهذا الوجود المستقل المميز . .. وجد هؤلاء الأفراد سواء فى مكة ، أو فى الأعراب حول المدينة . يعتنقون العقيدة ، ولكنهم لا ينضمون للمجتمع الذى يقوم على هذه العقيدة ؛ ولا يدينون فعلا دينونة كاملة للقيادة القائمة عليه . . وهؤلاء لم يعتبروا أعضاء فى المجتمع المسلم ؛ ولم يجعل الله لهم ولاية - بكل أنواع الولاية - مع هذا المجتمع ، لأنهم بالفعل ليسوا من المجتمع الإسلامى . وفى هؤلاء نزل هذا الحكم (والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا . وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر ، إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) وهذا الحكم منطقى ومفهوم مع طبيعة هذا الدين - التى أسلفنا - ومع منهجه الحركى الواقعى . فهؤلاء الأفراد ليسوا أعضاء فى المجتمع المسلم ؛ ومن ثم لا تكون بينهم وبينه ولاية . . ولكن هناك رابطة العقيدة ؛ وهذه لا ترتب - وحدها - على المجتمع المسلم تبعات تجاه هؤلاء الأفراد ؛ اللهم إلا أن يعتدى عليهم فى دينهم ؛ فيفتنوا مثلاً عن عقيدتهم . فإذا استنصروا المسلمين - فى دار الإسلام - فى مثل هذا ، كان على المسلمين أن ينصروهم فى هذه وحدها . على شرط ألا يخل هذا بعهد من عهود المسلمين مع معسكر آخر . ولو كان هذا المعسكر هو المعتدى على أولئك الأفراد فى دينهم وعقيدتهم ! ذلك أن الأصل هو مصلحة المجتمع المسلم وخطته الحركية وما يترتب عليها من تعاملات وعقود . فهذه لها الرعاية أولاً ، حتى تجاه الاعتداء على عقيدة أولئك الذين آمنوا , ولكنهم لم ينضموا للوجود الفعلى لهذا الدين المتمثل فى التجمع الإسلامى . . وهذا يعطينا مدى الأهمية التى يعلقها هذا الدين على التنظيم الحركى الذى يمثل وجوده الحقيق ، والتعقيب الجميل (والله بما تعملون بصير). . فكل عملكم تحت بصره - سبحانه - يرى مداخله ومخارجه ، ومقدماته ونتائجه ، وبواعثه وآثاره . مجتمع عضوى حركى متناسق متكافل متعاون يتجمع فى ولاء واحد , فكذلك المجتمع الجاهلى (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) إن المجتمع الجاهلى لا يتحرك كأفراد ؛ إنما يتحرك ككائن عضوى ، تندفع أعضاؤه ، بطبيعة وجوده وتكوينه ، للدفاع الذاتى عن وجوده وكيانه . فهم بعضهم أولياء بعض طبعاً وحكماً . . ومن ثم لا يملك الإسلام أن يواجههم إلا فى صورة مجتمع آخر له ذات الخصائص ، ولكن بدرجة أعمق وأمتن وأقوى . فأما إذا لم يواجههم بمجتمع ولاؤه بعضه لبعض ، فستقع الفتنة لأفراده من المجتمع الجاهلى - لأنهم لا يملكون مواجهة المجتمع الجاهلى المتكافل أفراداً - وتقع الفتنة فى الأرض عامة بغلبة الجاهلية على الإسلام بعد وجوده . ويقع الفساد فى الأرض بطغيان الجاهلية على الإسلام ؛ وطغيان ألوهية العباد على ألوهية الله ؛ ووقوع الناس عبيداً للعباد مرة أخرى . وهو أفسد الفسا (إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) ولا يكون بعد هذا النذير نذير ، ولا بعد هذا التحذير تحذير . . والمسلمون الذين لا يقيمون وجودهم على أساس التجمع العضوى الحركى ذى الولاء الواحد والقيادة الواحدة , يتحملون أمام الله - فوق ما يتحملون فى حياتهم ذاتها - تبعة تلك الفتنة فى الأرض , وتبعة هذا الفساد الكبير . ثم يعود السياق القرآنى ليقرر أن الإيمان الحق إنما يتمثل فى هذه الصورة (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم) أولئك هم المؤمنون حقاً . . فهذه هى الصورة الحقيقية التى يتمثل فيها الإيمان . . هذه هى صورة النشأة الحقيقية والوجود الحقيقى لهذا الدين . . إنه لا يوجد حقيقة بمجرد إعلان القاعدة النظرية ؛ ولا بمجرد اعتناقها ؛ ولا حتى بمجرد القيام بالشعائر التعبدية فيها . . إن هذا الدين منهج حياة لا يتمثل فى وجود فعلى ، إلا إذا تمثل فى تجمع حركى . . أما وجوده فى صورة عقيدة فهو وجود حكمى ، لا يصبح [حقاً] إلا حين يتمثل فى تلك الصورة الحركية الواقعية . . وهؤلاء المؤمنون حقاً ، لهم مغفرة ورزق كريم . . والرزق يذكر هنا بمناسبة الجهاد والإنفاق والإيواء والنصرة وتكاليف هذا كله . . وفوقه المغفرة وهى من الرزق الكريم . بل هى أكرم الرزق الكريم . ثم يلحق بالطبقة الأولى من المهاجرين المجاهدين ، كل من يهاجر بعد ذلك ويجاهد - وإن كانت للسابقين درجتهم كما تقرر النصوص القرآنية الأخرى - إنما هذا إلحاق فى الولاء والعضوية فى المجتمع الإسلامى (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) ولقد ظل شرط الهجرة قائماً حتى فتح مكة ؛ حين دانت أرض العرب للإسلام ولقيادته ، وانتظم الناس فى مجتمعه . فلا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد وعمل . كما قال رسول الله ﷺ غير أن ذلك إنما كان

فى جولة الإسلام الأولى التى حكم فيها الأرض ألفا ومائتى عام تقريباً ؛ لم ينقطع فيها حكم شريعة الإسلام ، وقيام القيادة المسلمة على شريعة الله وسلطانه . . فأما اليوم وقد عادت الأرض إلى الجاهلية ؛ وارتفع حكم الله – سبحانه – عن حياة الناس فى الأرض ، وعادت الحاكمية إلى الطاغوت فى الأرض كلها ، ودخل الناس فى عبادة العباد بعد إذ أخرجهم الإسلام منها . . الآن تبدأ جولة جديدة أخرى للإسلام – كالجولة الأولى – تأخذ – فى التنظيم – كل أحكامها المرحلية ، حتى تنتهى إلى إقامة دار إسلام وهجرة ؛ ثم تمتد ظلال الإسلام مرة أخرى – بإذن الله – فلا تعود هجرة ولكن جهاد وعمل ؛ كما حدث فى الجولة الأولى . . ولقد كانت لفترة البناء الأولى للوجود الإسلامى أحكامها الخاصة ، وتكاليفها الخاصة . . قام الولاء فى العقيدة مقام الولاء فى الدم ، فى كل صوره وأشكاله ، وفى كل التزاماته ومقتضياته . بما فى ذلك الإرث والتكافل فى الديات والمغارم . . فلما أن استقر الوجود الإسلامى بيوم الفرقان فى بدر عدلت أحكام تلك الفترة الاستثنائية ، اللازمة لعملية البناء الأولى ، المواجهة لتكاليفها الاستثنائية . وكان من هذه التعديلات عودة التوارث والتكافل فى الديات وغيرها إلى القرابة – ولكنه فى إطار المجتمع المسلم فى دار الإسلام (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) فلا بأس بعد استقرار الوجود الفعلى للإسلام ، من أولوية ذوى القربى فى داخل الإطار العام . . إن هذا يلبى جانباً فطرياً فى النفس الإنسانية . ولا ضرر من تلبية المشاعر الفطرية فى النفس الإنسانية ، ما دام أن ليس هناك ما يعارض هذه المشاعر من تكاليف الوجود الإسلامى . . إن الإسلام لا يحطم المشاعر الفطرية ؛ ولكنه يضبطها . يضبطها لتستقيم مع الحاجات العليا للوجود الإسلامى ؛ فمتى انقضت هذه الحاجات عاد يلبيها – فى إطاره العام . ومن ثم تكون لبعض الفترات الاستثنائية فى الحركة تكاليفها الخاصة ، التى ليست واردة فى الأحكام النهائية للإسلام ، التى تحكم المجتمع الإسلامى المستقر الآمن فى حياته العادية . . وكذلك ينبغى أن نفقه تكاليف مرحلة البناء الأولى ؛ وطبيعة الإسلام العامة وأحكامه الأخرى (إن الله بكل شىء عليم) وهو التعقيب المناسب على هذه الأحكام والتنظيمات والمشاعر ، وتداخلها وتنظيمها وتنسيقها . فهى من العلم المحيط بكل شىء . علم الله تعالى . .

وبعد فإن الإسلام – وهو يبنى الأمة المسلمة على هذه القاعدة وفق هذا المنهج ؛ ويقيم وجودها على أساس التجمع العضوى الحركى ؛ ويجعل آصرة هذا التجمع هى العقيدة – إنما كان يستهدف إبراز "إنسانية الإنسان" وتقويتها وتمكينها ، وإعلاءها على جميع الجوانب الأخرى فى الكائن الإنسانى . وكان يمضى فى هذا على منهجه المطرد فى كل قواعده وتعليماته وشرائعه وأحكامه . . إن الكائن الإنسانى يشترك مع الكائنات الحيوانية – بل الكائنات المادية – فى صفات توهم أصحاب "الجهالة العلمية ! " مرة بأنه حيوان كسائر الحيوان ؛ ومرة بأنه مادة كسائر المواد ! ولكن الإنسان مع اشتراكه فى هذه "الصفات" مع الحيوان ومع المادة له "خصائص" تميزه وتفرده ؛ وتجعل منه كائناً فريداً – كما اضطر أصحاب" الجهالة العلمية ! " أخيراً أن يعترفوا والحقائق الواقعة تلوى أعناقهم ليا ، فيضطرون لهذا الاعتراف فى غير إخلاص ولا صراحة ! والإسلام – بمنهجه الربانى – يعمد إلى هذه الخصائص التى تميز "الإنسان" وتفرده بين الخلائق ؛ فيبرزها وينميها ويعليها . . وهو حين يجعل آصرة العقيدة هى قاعدة التجمع العضوى الحركى ، التى يقيم على أساسها وجود الأمة المسلمة ، إنما يمضى على خطته تلك . فالعقيدة تتعلق بأعلى ما فى "الإنسان" من "خصائص" . . إنه لا يجعل هذه الآصرة هى النسب ، ولا اللغة ، ولا الأرض ، ولا الجنس ، ولا اللون ، ولا المصالح ، ولا المصير الأرضى المشترك . . فهذه كلها أواصر يشترك فيها الحيوان مع الإنسان . وهى أشبه شىء وأقرب شىء إلى أواصر القطيع ، وإلى اهتمامات القطيع ، وإلى الحظيرة والمرعى والثغاء الذى يتفاهم به القطيع ! أما العقيدة التى تفسر للإنسان وجوده ، ووجود هذا الكون من حوله تفسيراً كلياً ؛ كما تفسر له منشأ وجوده ووجود الكون من حوله ، ومصيره ومصير الكون من حوله ؛ وترده إلى كائن أعلى من هذه المادة وأكبر وأسبق وأبقى ، فهى أمر آخر يتعلق بروحه وإدراكه المميز له من سائر الخلائق ، والذى ينفرد به عن سائر الخلائق ؛ والذى يقرر "إنسانيته" فى أعلى مراتبها ; حيث يخلف وراءه سائر الخلائق . ثم إن هذه الآصرة – آصرة العقيدة والتصور والفكرة والمنهج – هى آصرة حرة ؛ يملك الفرد الإنسانى اختيارها بمحض إرادته الواعية . فأما أواصر القطيع تلك فهى مفروضة عليه فرضاً ، لم يخترها ولا حيلة له كذلك فيها . . إنه لا يملك تغيير نسبه الذى نماه ; ولا تغيير الجنس الذى تسلسل منه ؛ ولا تغيير اللون الذى ولد به . فهذه كلها أمور قد تقررت فى حياته قبل أن يولد ، لم يكن له فيها اختيار ، ولا يملك فيها حيلة . . كذلك مولده فى أرض بعينها ، ونطقه بلغة بعينها بحكم هذا المولد ، وارتباطه بمصالح مادية معينة ومصير أرضى معين – ما دامت هذه هى أواصر تجمعه مع غيره – كلها مسائل عسيرة التغيير ؛ ومجال "الإرادة الحرة " فيها محدود . . ومن أجل هذا كله لا يجعلها الإسلام هى آصرة التجمع الإنسانى . . فأما العقيدة والتصور والفكرة والمنهج , فهى مفتوحة دائماً للاختيار الإنسانى ، ويملك فى كل لحظة أن يعلن فيها اختياره ؛ وأن يقرر التجمع الذى يريد أن ينتمى إليه بكامل حريته ؛ فلا يقيده فى هذه الحالة قيد

من لونه أو لغته أو جنسه أو نسبه ، أو الأرض التى ولد فيها ، أو المصالح المادية التى تتحول بتحول التجمع الذى يريده ويختاره .

وهنا كرامة الإنسان فى التصور الإسلامى . .

ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامى فى هذه القضية ؛ ولإقامة التجمع الإسلامى على أصرة العقيدة وحدها ، دون أواصر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضية القريبة والحدود الإقليمية السخيفة ! ولإبراز "خصائص الإنسان" فى هذا التجمع وتنميتها وإعلائها ، دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان . . كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات ، بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة ! وأن صبت فى بوتقة المجتمع الإسلامى خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها ؛ وانصهرت فى هذه البوتقة وتمازجت ؛ وأنشأت مركباً عضوياً فائقاً فى فترة تعد نسبياً قصيرة ; وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة تحوى خلاصة الطاقة البشرية فى زمانها مجتمعة . على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال فى ذلك الزمان .

لقد اجتمع فى المجتمع الإسلامى المتفوق:العربى والفارسى والشامى والمصرى والمغربى والتركى والصينى والهندى والرومانى والإغريقى والأندونسى والإفريقى . . . إلى آخر الأقوام والأجناس . وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة فى بناء المجتمع الإسلامى والحضارة الإسلامية . ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوماً ما" عربية " إنما كانت دائماً "إسلامية " . ولم تكن يوماً ما "قومية " إنما كانت دائماً" عقيدية " . . ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة ، وبآصرة الحب ، وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة . . فبذلوا جميعاً أقصى كفاياتهم ، وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم ؛ وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية التاريخية فى بناء هذا المجتمع الواحد الذى ينتسبون إليه جميعاً على قدم المساواة ؛ وتجمع فيه بينهم آصرة تتعلق بربهم الواحد ؛ وتبرز فيها" إنسانيتهم" وحدها بلا عائق . . وهذا ما لم يتجمع قط لأى تجمع آخر على مدار التاريخ . . !

لقد كان أشهر تجمع بشرى في التاريخ القديم هو تجمع الإمبراطورية الرومانية مثلاً . فقد ضمت بالفعل أجناساً متعددة ؛ ولغات متعددة ، وأرضين متعددة . . . ولكن هذا كله لم يقم على آصرة "إنسانية " ولم يتمثل فى قيمة عليا كالعقيدة . . لقد كان هناك تجمع طبقى على أساس سيادة الأشراف وطبقة العبيد فى الإمبراطورية كلها من ناحية ، وتجمع عنصرى على أساس سيادة الجنس الرومانى – بصفة عامة – وعبودية سائر الأجناس الأخرى . . ومن ثم لم يرتفع قط إلى أفق التجمع الإسلامى ؛ ولم يؤت الثمار التى آتاها التجمع الإسلامى . كذلك قامت فى التاريخ الحديث تجمعات أخرى . تجمع الإمبراطورية البريطانية مثلاً . . ولكنه كان كالتجمع الرومانى الذى هو وريثه ! تجمعاً قومياً استغلالياً ؛ يقوم على أساس سيادة القومية الإنجليزية ، واستغلال المستعمرات التى تضمها الإمبراطورية . . ومثله الإمبراطوريات الأوربية كلها:الإمبراطورية الأسبانية والبرتغالية فى وقت ما ، والإمبراطورية الفرنسية . . وكلها فى ذلك المستوى الهابط البشع المقيت ! وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعاً من نوع آخر ، يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون . ولكنها لم تقمه على قاعدة "إنسانية " عامة . إنما أقامته على القاعدة" الطبقية " . . فكان هذا التجمع هو الوجه الآخر للتجمع الرومانى القديم . . هذا تجمع على قاعدة طبقة "الأشراف" ؛ وذلك تجمع على قاعدة طبقة "الصعاليك" [البروليتريا] والعاطفة التى تسوده هى عاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى ! وما كان لمثل هذا التجمع الصغير أن يثمر إلا أسوأ ما فى الكائن الإنسانى . . فهو ابتداء قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها باعتبار أن" المطالب الأساسية " للإنسان هى "الطعام والمسكن والجنس" – وهى مطالب الحيوان الأولية – وباعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام !!! لقد تفرد الإسلام بمنهجه الربانى فى إبراز أخص خصائص الإنسان وتنميتها وإعلائها فى بناء المجتمع الإنسانى . . وما يزال مفرداً . . والذين يعدلون عنه إلى أى منهج آخر , يقوم على أية قاعدة أخرى من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة . . إلى آخر هذا النتن السخيف هم أعداء الإنسان حقاً ! هم الذين لا يريدون لهذا الإنسان أن يتفرد فى هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله ؛ ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها فى امتزاج وتناسق . . وهم فى الوقت ذاته يسبحون ضد التيار ؛ ويعملون ضد خط الصعود الإنسانى ؛ ليعودوا بالإنسان إلى التجمع على مثل ما تتجمع عليه "البهائم" من الحظيرة والكلأ !

بعد أن رفعه الله إلى ذلك المقام الكريم الذى يتجمع فيه على ما يليق أن تتجمع عليه "الناس" ! وأعجب العجب أن يسمى التجمع على خصائص الإنسان العليا تعصباً وجموداً ورجعية ، وأن يسمى التجمع على مثل خصائص الحيوان تقدماً ورقياً ونهضة ؛ وأن تقلب القيم والاعتبارات كلها ؛ لا لشىء إلا للهروب من التجمع على أساس العقيدة . . خصيصة الإنسان العليا . . ولكن الله غالب على أمره . . وهذه الانتكاسات الحيوانية الجاهلية فى حياة البشرية لن يكتب لها البقاء . . وسيكون ما يريده الله حتماً . . وستحاول البشرية ذات يوم أن تقيم تجمعاتها على القاعدة التى كرم الله الإنسان بها . والتى تجمع عليها المجتمع المسلم الأول فكان له تفرده التاريخى الفائق . وستبقى صورة هذا المجتمع تلوح على الأفق ، تتطلع إليها البشرية وهى تحاول مرة أخرى أن ترقى فى الطريق الصاعد إلى ذلك المرتقى السامى الذى بلغت إليه فى يوم من الأيام . .

سورة التوبة
مدنية و آياتها 129

هذه السورة مدنية من أواخر ما نزل من القرآن – إن لم تكن هي آخر ما نزل من القرآن – ومن ثم قد تضمنت أحكاما نهائية في العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم في الأرض ؛ كما تضمنت تصنيف المجتمع المسلم ذاته ، وتحديد قيمه ومقاماته ، وأوضاع كل طائفة فيه وكل طبقة من طبقاته ، ووصف واقع هذا المجتمع بجملته وواقع كل طائفة منه وكل طبقة وصفا دقيقا مصورا مبينا . والسورة – بهذا الاعتبار – ذات أهمية خاصة في بيان طبيعة المنهج الحركي للإسلام ومراحله وخطواته – حين تراجع الأحكام النهائية التي تضمنتها مع الأحكام المرحلية التي جاءت في السور قبلها – وهذه المراجعة تكشف عن مدى مرونة ذلك المنهج وعن مدى حسمه كذلك . وبدون هذه المراجعة تختلط الصور والأحكام والقواعد ، كما يقع كلما انتزعت الآيات التي تتضمن أحكاما مرحلية فجعلت نهائية ؛ ثم أريد للآيات التي تتضمن الأحكام النهائية أن تفسر وتؤول لتطابق تلك الأحكام المرحلية ؛ وبخاصة في موضوع الجهاد الإسلامي ، وعلاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى . مما نرجو أن يوفقنا الله لإيضاحه وبيانه في هذا التقديم ؛ وفي ثنايا استعراض النصوص القرآنية للسورة . ومن مراجعة نصوص السورة مراجعة موضوعية ؛ ومراجعة ما جاء في الروايات المأثورة عن أسباب النزول وملابساته ؛ ومراجعة أحداث السيرة النبوية كذلك . . يتبين أن السورة بجملتها نزلت في العام التاسع من الهجرة . . ولكنها لم تنزل دفعة واحدة . . ومع أننا لا نملك الجزم بالمواقيت الدقيقة التي نزلت فيها مقاطع السورة في خلال العام التاسع ، إلا أنه يمكن الترجيح بأنها نزلت في ثلاث مراحل . . المرحلة الأولى منها كانت قبل غزوة تبوك في شهر رجب من هذا العام . والمرحلة الثانية كانت في أثناء الاستعداد لهذه الغزوة ثم في ثناياها . والمرحلة الثالثة كانت بعد العودة منها . أما مقدمات السورة من أولها إلى نهاية الآية الثامنة والعشرين منها فقد نزلت متأخرة في نهاية السنة التاسعة قبيل موسم الحج في ذي القعدة أو في ذي الحجة . . وهذا – على الإجمال – هو كل ما يمكن ترجيحه والاطمئنان إليه . وقد تضمنت السورة في المقطع الأول منها – من أولها إلى ختام الآية الثامنة والعشرين – تحديدا للعلاقات النهائية بين المعسكر الإسلامي والمشركين عامة في الجزيرة ; مع إبراز الأسباب الواقعية والتاريخية والعقيدية التي يقوم عليها هذا التحديد , بالأسلوب القرآني الموحي المؤثر ، وفي تعبيرات قوية الإيقاع حاسمة الدلالة , عميقة التأثير ؛ هذه نماذج منها: (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر , واعلموا أنكم غير معجزي الله ، وأن الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ، فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم . وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء – إن استحبوا الكفر على الإيمان – ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل:إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها . . أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله . . فتربصوا حتى يأتي الله بأمره , والله لا يهدي القوم الفاسقين) (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله – إن شاء – إن الله عليم حكيم) وظاهر من الأسلوب القرآني في الآيات التي اقتطفناها هنا ، وفي آيات المقطع كله ؛ ومن القوة في التحضيض والتأليب على قتال المشركين ومقاطعتهم في الجزيرة قاطبة ، مدى ما كان يعتلج في نفوس الجماعة المسلمة – أو فريق منها على الأقل له وزنه – من التحرج والتخوف والتردد في اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة في ذلك الحين , بسبب عوامل شتى نرجو أن نكشف عنها في هذا التقديم وفي أثناء استعراض النصوص القرآنية قريبا .

أما المقطع الثاني – في السورة – فقد تضمن تحديدا للعلاقات النهائية كذلك بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب عامة ؛ مع بيان الأسباب العقيدية والتاريخية والواقعية التي تحتم هذا التحديد ؛ وتكشف كذلك

عن طبيعة الإسلام وحقيقته المستقلة ؛ وعن انحراف أهل الكتاب عن دين الله الصحيح عقيدة وسلوكا ؛ بما يجعلهم – فى اعتبار الإسلام – ليسوا على دين الله الذى نزله لهم ؛ والذى به صاروا أهل كتاب (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح إبن الله . . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . . قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ؟ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون) (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون) وظاهر كذلك من الأسلوب القرآنى فى هذا المقطع أنه مواجهة لما كان فى النفوس يومذاك من تهيب وتردد فى مواجهة أهل الكتاب عامة – أو الغالبية العظمى منهم – بهذا اللون من العلاقات التى تنص عليها الآية الأولى فى المقطع . . وحقيقة إن المقصود – كان – بالمواجهة ابتداء هم الروم وحلفاؤهم من نصارى العرب فى الشام وما وراءها ؛ وهذا وحده كان يكفى للتردد والتهيب ؛ لما كان للروم من بأس وسمعة تاريخية بين أهل الجزيرة . . ولكن النص عام فى أهل الكتاب عامة ؛ ممن تنطبق عليهم الأوصاف الواردة فى الآية كما سنفصل – إن شاء الله – عند مواجهة النصوص . وفى المقطع الثالث يبدأ النعى على المتثاقلين الذين دعوا إلى التجهز للغزوة فتثاقلوا إلى الأرض وتكاسلوا عن النفير . . وهؤلاء ليسوا كلهم من المنافقين كما سيتبين , مما يشى بمشقة هذه الخطوة ، وهذه الغزوة ، على النفوس فى ذلك الحين للأسباب التى نرجو أن نفصلها – بإذن الله – ونقف عندها فى حينها (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم: انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ? أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ، ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضروه شيئا . والله على كل شيء قدير . إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار , إذ يقول لصاحبه:لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم . انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) وظاهر من صيغ التأنيب والتهديد والتوكيد المكررة فى هذا المقطع ؛ ومن تذكير الذين آمنوا بنصر الله للرسول ﷺ إذ أخرجه الذين كفروا ؛ دون أن يكون لأحد من البشر مشاركة فى هذا النصر ؛ ومن الأمر الجازم لهم بأن ينفروا خفافا وثقالا . . ظاهر من هذا كله ما كان فى الموقف من مشقة ومن تخلف ومن قعود ومن تهيب ومن تردد ، اقتضى هذا الحشد من التأنيب والتهديد والتوكيد والتذكير والأمر الشديد . . ثم يجىء المقطع الرابع فى سياق السورة – وهو أطول مقاطعها ، وهو يستغرق أكثر من نصفها – فى فضح المنافقين وأفاعيلهم فى المجتمع المسلم ، ووصف أحوالهم النفسية والعملية , ومواقفهم فى غزوة تبوك وقبلها وفى أثنائها وما تلاها ، وكشف حقيقة نواياهم وحيلهم ومعاذيرهم فى التخلف عن الجهاد وبث الضعف والفتنة والفرقة فى الصف ، وإيذاء رسول الله ﷺ والخلص من المؤمنين . يصاحب هذا الكشف تحذير الخلصاء من المؤمنين من كيد المنافقين ، وتحديد العلاقات بين هؤلاء وهؤلاء ، والمفاصلة بين الفريقين وتمييز كل منهما بصفاته وأعماله . . وهذا القطاع يؤلف فى الحقيقة جسم السورة ; ويتجلى من خلاله كيف عاد النفاق بعد فتح مكة فاستشرى بعد ما كاد أن يتلاشى من المجتمع المسلم قبيل الفتح ، مما سنكشف عن أسبابه فى فقرة تالية . ولن نملك أن نستعرض هنا هذا القطاع بطوله فنكتفى بفقرات منه تدل على طبيعته (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون . . .) (ومنهم من يقول:ائذن لى ولا تفتنى ، ألا فى الفتنة سقطوا ، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . إن تصبك حسنة تسؤهم ، وإن تصبك مصيبة يقولوا:قد أخذنا أمرنا من قبل ، ويتولوا وهم فرحون) (ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون) (ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون . ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا:حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنا إلى الله راغبون) (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم ، إن المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ، ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم) (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا:لا تنفروا فى الحر ، قل:نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون . فإن رجعك الله إلى طائفة منهم , فاستأذنوك للخروج . فقل:لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين . ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون . ولا تعجبك أموالهم

وأولادهم , إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون) الخ . . . الخ ، وهذه الحملة الطويلة الكاشفة تشى بما كان للمنافقين فى هذه الفترة من محاولات كثيرة لإيذاء الصف المسلم وفتنته وشغله بشتى الفتن والدسائس والأكاذيب عن وجهته . كما أنها فى الوقت ذاته تكشف عن حالة من الخلخلة وعدم التناسق فى التكوين العضوى للمجتمع الإسلامى فى هذه الفترة ؛ يشير إليها قول الله سبحانه (وفيكم سماعون لهم) كما يشير إليها النهى المشدد عن الاستغفار للمنافقين أو الصلاة عليهم . . هذه الحالة التى نشأت عن دخول جماعات كثيرة فى الإسلام بعد الفتح لم يكن الإيمان قد استقر فى قلوبهم ، ولا كانوا قد انطبعوا بالطابع الإسلامى الصحيح ؛ مما سنفصل القول فيه بعد استعراض التصنيف القرآنى الوارد فى السورة لهذه الجماعات المتنوعة التى كان المجتمع المسلم يتألف منها فى هذه الفترة . والمقطع الخامس فى سياق السورة هو الذى يتولى هذا التصنيف . ومنه نعلم أنه كان إلى جوار السابقين المخلصين من المهاجرين والأنصار – وهم الذين كانوا يؤلفون قاعدة المجتمع المسلم الصلبة القوية – جماعات أخرى . . الأعراب وفيهم المخلصون والمنافقون والذين لم تخالط قلوبهم بشاشة الإيمان والمنافقون من أهل المدينة . وآخرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ولم يتم انطباعهم بالطابع الإسلامى ولم يصهروا فى بوتقة الإسلام تماما . وطائفة مجهولة الحال لا تعرف حقيقة مصيرها متروك أمرها لله وفق ما يعلمه من حقيقة حالها ومآلها . ومتآمرون يتسترون باسم الدين ! . . والنصوص القرآنية تتحدث عن هذه الجماعات كلها فى اختصار مفيد ؛ وتقرر كيف تعامل فى المجتمع المسلم ، وتوجه رسول الله ﷺ والخلص من المسلمين إلى طريقة التعامل مع كل منهم (الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ، ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء , والله سميع عليم . ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ؛ ألا إنها قربة لهم ، سيدخلهم الله فى رحمته ، إن الله غفور رحيم) (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم) (وآخرون مرجون لأمر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ، والله عليم حكيم) (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا , والله يحب المطهرين . .) وظاهر من تعدد الطوائف والطبقات والمستويات الإيمانية فى المجتمع المسلم – كما تصفه هذه النصوص – مدى الخلخلة التى وجدت فيه بعد الفتح ، مما كان المجتمع قد برئ منه أو كاد قبيل فتح مكة كما سيجىء . والمقطع السادس فى سياق السورة يتضمن تقريرا لطبيعة البيعة الإسلامية مع الله على الجهاد فى سبيله وطبيعة هذا الجهاد وحدوده ، وواجب أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب فيه ، وأنه لا يحل لهم أن يتخلفوا عنه وما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ؛ وضرورة المفاصلة مع المشركين والمنافقين . . وفى ثنايا هذا المقطع يرد بيان لما قضى الله به فى شأن بعض الذين تخلفوا عن الغزوة مخلصين غير منافقين ؛ ووصف لبعض أحوال المنافقين وموقفهم تجاه ما يتنزل من القرآن الكريم (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله , فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى ، من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرضبما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم) (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله , ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا , إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون . وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، لعلهم يحذرون) (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعملوا أن الله مع المتقين) (وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض:هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا ، صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) وفى النهاية تختم السورة بصفة رسول الله ﷺ وبتوجيهه من ربه إلى التوكل عليه وحده والاكتفاء بكفالته سبحانه (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا

فقل:حسبى الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ، ولقد أطلنا الاقتباس من نصوص السورة فى هذا الاستعراض الإجمالى – قبل التعرض لهذه النصوص فيما بعد بالتفصيل – عن قصد ! ذلك أن سياق السورة يرسم صورة كاملة للمجتمع المسلم فى فترة ما بعد الفتح ، ويصف تكوينه العضوى . . وفى هذه السورة يتجلى نوع من الخلخلة وقلة التناسق بين مستوياته الإيمانية ؛ كما تتكشف ظواهر وأعراض من الشح بالنفس والمال ، ومن النفاق والضعف ، والتردد فى الواجبات والتكاليف ، والخلط وعدم الوضوح فى تصور العلاقات بين المعسكر الإسلامى والمعسكرات الأخرى ، وعدم المفاصلة الكاملة على أساس العقيدة – وإن كان هذا كله لا يتعارض مع وجود القاعدة الصلبة الأمينة الخالصة من المهاجرين والأنصار – مما استدعى حملات طويلة مفصلة ومنوعة للكشف والتوعية والبيان والتقرير ، تفى بحاجة المجتمع إليها . ولقد سبق أن أشرنا إجمالا إلى أن سبب هذه الحالة هو دخول جماعات كثيرة متنوعة من الناس فى الإسلام بعد الفتح ؛ لم تتم تربيتها ؛ ولم تنطبع بعد بالطابع الإسلامى الأصيل . إلا أن هذه الإشارة المجملة لا يمكن فهمها بوضوح إلا بمراجعة الواقع التاريخى الحركى قبل الفتح وبعده . . وسنحاول أن نلم به هنا بأشد اختصار ممكن ؛ قبل التعليق بشىء على دلالة هذا الواقع التاريخى ومغزاه ، ودلالة النصوص القرآنية التى وردت فى سياق هذه السورة كذلك . لقد ولدت الحركة الإسلامية فى مكة على محك الشدة ؛ فلم تكد الجاهلية – ممثلة فى قريش – تحس بالخطرالحقيقى الذى يتهددها من دعوة:"أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضى لا يستمد من سلطان الله ; ومن تمرد نهائى على كل طاغوت فى الأرض والفرار منه إلى الله . ثم بالخطر الجدى من التجمع الحركى العضوى الجديد الذى أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول الله ﷺ هذا التجمع الذى يدين منذ اليوم الأول بالطاعة لله ورسوله الله ؛ ويتمرد ويخرج على القيادة الجاهلية الممثلة فى قريش والأوضاع السائدة فى هذه الجاهلية . لم تكد الجاهلية – ممثلة فى قريش أول الأمر – تحس بهذا الخطر وذاك حتى شنتها حربا شعواء على الدعوة الجديدة ، وعلى التجمع الجديد ، وعلى القيادة الجديدة ؛ وحتى أرصدت لها كل ما فى جعبتها من أذى ومن كيد ومن فتنة ومن حيلة . . لقد انتفض التجمع الجاهلى ليدفع عن نفسه الخطر الذى يتهدد وجوده بكل ما يدفع به الكائن العضوى خطر الموت عن نفسه . . وهذا هو الشأن الطبيعى الذى لا مفر منه كلما قامت دعوة إلى ربوبية الله للعالمين ؛ فى مجتمع جاهلى يقوم على أساس من ربوبية العباد للعباد ؛ وكلما تمثلت الدعوة الجديدة فى تجمع حركى جديد ، يتبع فى تحركه قيادة جديدة ، ويواجه التجمع الجاهلى القديم مواجهة النقيض للنقيض ! وعندئذ تعرض كل فرد فى التجمع الإسلامى الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها ، إلى حد إهدار الدم فى كثير من الأحيان . . ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، والانضمام إلى التجمع الإسلامى الوليد ، والدينونة لقيادته الجديدة ، إلا كل من نذر نفسه لله ؛ وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب والموت فى أبشع الصور فى بعض الأحيان . . بذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عوداً فى المجتمع العربى ؛ فأما العناصر التى لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى ; وكان هذا النوع قليلا ، فقد كان الأمر كله معروفا مكشوفا من قبل ؛ فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام ، وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين . وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة ، ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين فى مكة ؛ ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك فى المدينة ؛ مع السابقين من الأنصار الذين وإن كانوا لم يصطلوها فى أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون ، إلا أن بيعتهم لرسول الله ﷺ [بيعة العقبة] قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين ،ولقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول الله هذه البيعة ؛ ولا يرتقبون من ورائها شيئا إلا الجنة ؛ ويوثقون هذا البيع فيعلنون أنهم لا يقبلون أن يرجعوا فيه ولا أن يرجع فيه رسول الله ﷺ ! يعلمون أنهم لا يبايعون على أمر هين ؛ بل كانوا مستيقنين أن قريشا وراءهم ، وأن العرب كلها سترميهم ؛ وأنهم لن يعيشوا بعدها فى سلام مع الجاهلية الضاربة الأطناب من حولهم فى الجزيرة وبين ظهرانيهم فى المدينة . فقد كان الأنصار إذن يعلمون – عن يقين واضح – تكاليف هذه البيعة ؛ وكانوا يعلمون أنهم لم يوعدوا على هذه التكاليف شيئا فى هذه الحياة الدنيا – حتى ولا النصر والغلبة – وأنهم لم يوعدوا عليها إلا الجنة . . ثم كان هذا مدى وعيهم بها ومدى حرصهم عليها . . فلا جرم أن يكونوا – مع السابقين من المهاجرين الذين بنوا هذا البناء وأعدوا هذا الإعداد – هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة . . ولكن مجتمع المدينة لم يظل بهذا الخلوص والنقاء . . لقد ظهر الإسلام وفشا فى المدينة ; واضطر أفراد كثيرون – ومعظمهم من ذوى المكانة فى قومهم – أن يجاروا قومهم احتفاظا بمكانتهم فيهم . . حتى إذا كانت وقعة بدر قال كبير هؤلاء عبد الله بن أبى بن سلول:هذا أمر قد توجه ! وأظهر الإسلام نفاقا . ولا بد أن كثيرين قد جرفتهم الموجة فدخلوا فى الإسلام تقليدا – ولو لم يكونوا منافقين – ولكنهم لم يكونوا بعد قد فقهوا فى الإسلام ولا انطبعوا بطابعه .

. مما أنشأ تخلخلا فى بناء المجتمع المدنى ناشئا عن اختلاف مستوياته الإيمانية . وهنا أخذ المنهج القرآنى التربوى الفريد ، بقيادة رسول الله ﷺ يعمل عمله فى هذه العناصر الجديدة ؛ ويعمل كذلك على إعادة التناسق والتوافق بين المستويات العقيدية والخلقية والسلوكية للعناصر المختلفة الداخلة فى جسم المجتمع الوليد . وحين نراجع السور المدنية – بترتيب النزول التقريبى – فإننا نطلع على الجهد الكبير الذى بذل فى عملية الصهر الجديدة للعناصر المتنوعة فى المجتمع المسلم ؛ وبخاصة أن هذه العناصر ظلت تتوارد على هذا المجتمع – على الرغم من وقفة قريش العنيدة وتأليبها لكل قبائل الجزيرة ، ومن وقفة اليهود البشعة وتأليبهم كذلك للعناصر المعادية للدين الجديد والتجمع الجديد – وظلت الحاجة مستمرة لعمليات الصهر والتنسيق بصورة دائمة لا تفتر ولا تغفل لحظة . . ومع هذا الجهد كله كانت ما تزال تظهر بين الحين والحين – وبخاصة فى فترات الشدة – أعراض من الضعف ، والنفاق والتردد ، والشح بالنفس والمال ، والتهيب من مواجهة المخاطر . . وبصفة خاصة أعراض من عدم الوضوح العقيدى الذى يحسم فى العلاقة بين المسلم وقرابته من أهل الجاهلية . إلا أن قوام المجتمع المسلم فى المدينة كان يظل سليما فى جملته بسبب اعتماده أساسا على تلك القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين والأنصار ؛ وما تحدثه من تماسك وصلابة فى قوامه فى وجه جميع الأعراض والظواهر والخلخلة أحيانا ، والتعرض للمخاطر التى تكشف عن هذه العناصر التى لم يتم بعد صهرها ونضجها وتماسكها وتناسقها . وشيئا فشيئا كانت هذه العناصر تنصهر وتتطهر وتتناسق مع القاعدة ؛ ويقل عدد الناشزين من ضعاف القلوب ومن المنافقين ؛ ومن المترددين كذلك والمتهيبين ؛ وممن لم يتم فى نفوسهم الوضوح العقيدى الذى يقيمون على أساسه كل علاقاتهم مع الآخرين . . حتى إذا كان قبيل فتح مكة كان المجتمع الإسلامى أقرب ما يكون إلى التناسق التام مع قاعدته الصلبة الخالصة ؛ وأقرب ما يكون بجملته إلى النموذج الذى يهدف إليه المنهج التربوى الربانى الفريد . .

إن المهزومين فى هذا الزمان أمام الواقع البائس لذرارى المسلمين – الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان – وأمام الهجوم الاستشراقى الماكر على أصل الجهاد فى الإسلام ; يحاولون أن يجدوا فى النصوص المرحلية مهربا من الحقيقة التى يقوم عليها الانطلاق الإسلامى فى الأرض لتحرير الناس كافة من عبادة العباد ، وردهم جميعا إلى عبادة الله وحده ؛ وتحطيم الطواغيت والأنظمة والقوى التى تقهرهم على عبادة غير الله , والخضوع لسلطان غير سلطانه ، والتحاكم إلى شرع غير شرعه . . ومن ثم نراهم يقولون مثلا إن الله سبحانه يقول (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) ويقول: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم). . ويقول (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين). . . ويقول عن أهل الكتاب (قل:يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا:اشهدوا بأنا مسلمون) فالإسلام إذن لا يقاتل إلا الذين يقاتلون أهل دار الإسلام فى داخل حدود هذه الدار أو الذين يهددونها من الخارج ! وأنه قد عقد صلح الحديبية مع المشركين . وأنه قد عقد معاهدة مع يهود المدينة ومشركيها ! ومعنى ذلك – فى تصورهم المهزوم – أن لا علاقة للإسلام إذن بسائر البشر فى أنحاء الأرض . ولا عليه أن يعبدوا ما يعبدون من دون الله . ولا عليه أن يتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله فى الأرض كلها ما دام هو آمنا داخل حدوده الاقليمية ! وهو سوء ظن بالإسلام وسوء ظن بالله – سبحانه ! – تمليه الهزيمة أمام الواقع البائس النكد الذى يواجههم ؛ وأمام القوى العالمية المعادية التى لا طاقة لهم بها فى اللحظة الحاضرة ! وهان الأمر لو أنهم حين يهزمون روحيا أمام هذه القوى لا يحيلون هزيمتهم إلى الإسلام ذاته ؛ ولا يحملونه على ضعف واقعهم الذى جاءهم من بعدهم عن الإسلام أصلا ! ولكنهم يأبون إلا أن يحملوا ضعفهم هم وهزيمتهم على دين الله القوى المتين ! إن هذه النصوص التى يلتجئون إليها نصوص مرحلية تواجه واقعا معينا . وهذا الواقع المعين قد يتكرر وقوعه فى حياة الأمة المسلمة . وفى هذه الحالة تطبق هذه النصوص المرحلية لأن واقعها يقرر أنها فى مثل تلك المرحلة التى واجهتها تلك النصوص بتلك الأحكام . ولكن هذا ليس معناه أن هذه هى غاية المنى ؛ وأن هذه هى نهاية خطوات هذا الدين . . إنما معناه أن على الأمة المسلمة أن تمضى قدما فى تحسين ظروفها ؛ وفى إزالة العوائق من طريقها ، حتى تتمكن فى النهاية من تطبيق الأحكام النهائية الواردة فى السورة الأخيرة ، والتى كانت تواجه واقعا غير الواقع الذى واجهته النصوص المرحلية . إن النصوص الأخيرة تقول فى شأن المشركين (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله ، وأن الله مخزى الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم , وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا

، ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم .وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) وتقول في شأن أهل الكتاب (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله , ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) فإذا كان المسلمون اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام ؛ فهم – اللحظة وموقتا – غير مكلفين بتحقيقها – ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها – ولهم في الأحكام المرحلية سعة يتدرجون معها حتى ينتهوا إلى تنفيذ هذه الأحكام الأخيرة عندما يكونون في الحال التي يستطيعون معها تنفيذها . . ولكن عليهم ألا يلووا أعناق النصوص النهائية لتوافق أحكام النصوص المرحلية . وعليهم ألا يحملوا ضعفهم الحاضر على دين الله القوى المتين . وعليهم أن يتقوا الله في مسخ هذا الدين وإصابته بالهزال بحجة أنه دين السلم والسلام ! إنه دين السلم والسلام فعلا ، ولكن على أساس إنقاذ البشرية كلها من عبادة غير الله ، وإدخال البشرية كافة في السلم كافة . . إنه منهج الله هذا الذي يراد البشر على الارتفاع إليه ، والاستمتاع بخيره ؛ وليس منهج عبد من العبيد ؛ ولا مذهب مفكر من البشر ؛ حتى يخجل الداعون إليه من إعلان أن هدفهم الأخير هو تحطيم كل القوى التي تقف في سبيله ؛ لإطلاق الحرية للناس أفرادا في اختياره . . إنه حين تكون المذاهب التي يتبعها الناس مذاهب بشرية من صنع العبيد ؛ وحين تكون الأنظمة والشرائع التي تصرف حياتهم من وضع العبيد أيضا . فإنه في هذه الحالة يصبح لكل مذهب ولكل نظام الحق في أن يعيش داخل حدوده آمنا ، ما دام أنه لا يعتدي على حدود الآخرين ، ويصبح من حق هذه المذاهب والأنظمة والأوضاع المختلفة أن تتعايش وألا يحاول أحدها إزالة الآخر ! فأما حين يكون هناك منهج إلهي وشريعة ربانية ، ووضع العبودية فيه لله وحده ؛ وتكون إلى جانبه مناهج ومذاهب وأوضاع من صنع البشر العبودية فيها للعباد . . فإن الأمر يختلف من أساسه . ويصبح من حق المنهج الإلهي أن يجتاز الحواجز البشرية ؛ ويحرر البشر من العبودية للعباد ؛ ويتركهم أحرارا في اختيار العقيدة التي يختارونها في ظل الدينونة لله وحده .

وأخيرا فإن هذه السورة لم تكتب البسملة في أولها كبقية السور – في مصحف عثمان رضي الله عنه وهو عمدة المصاحف – وقد روى الترمذي – بإسناده – عن ابن عباس قال:" قلت لعثمان بن عفان ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال – وهي من المثاني – وإلى براءة – وهي من المئين – وقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر(بسم الله الرحمن الرحيم ؟) ووضعتموها في السبع الطوال ؟ ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان:كان رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان وهو تتنزل عليه السور ذات العدد . فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب ، فيقول:" ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا" . وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة . وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن . وكانت قصتها شبيهة بقصتها . وخشيت أنها منها . وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها . فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم) ووضعتهما في السبع الطوال" . وهذه الرواية أقرب الروايات إلى تقديم تفسير مقبول لوضع السورتين هكذا ، وعدم الفصل بينهما بسطر (بسم الله الرحمن الرحيم) كما أنها تفيدنا في تقرير أن وضع الآيات في السور ، وترتيبها في مواضعها ، كان يتم بأمر رسول الله ﷺ في حياته . وأن سورا متعددة كانت تظل مفتوحة في الوقت الواحد ؛ فإذا نزلت آية أو آيات في مناسبة واقعة تواجه واقعا قائما . أو تكمل حكما أو تعد له ، وفق المنهج ، الحركي الواقعي لهذا الدين ، أمر رسول الله [ص] أن توضع في موضعها من سورتها . . وبذلك كانت هناك حكمة معينة في أن تتضمن كل سورة ما تضمنته من الآيات ، وحكمة معينة كذلك في ترتيبها في مواضعها من السورة . ولقد لاحظنا – كما أثبتنا ذلك مرارا في التعريف بالسور – أن هناك "شخصية" خاصة لكل سورة ؛ وسمات معينة تحدد ملامح هذه الشخصية . كما أن هناك جوا معينا وظلالا معينة . ثم تعبيرات بعينها في السورة الواحدة . تؤكد هذه الملامح ، وتبرز تلك الشخصية ! والآن نكتفي بهذا القدر في التعريف المجمل بالسورة ؛ وننتقل إلى مواجهة النصوص القرآنية في سياقها . . وعلى الله التوفيق ومنه التيسير . .

(بَرِاءَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ{١} فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ{٢} وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{٣} إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ{٤} فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ

وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٥} وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ{٦} كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ{٧} كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ{٨} اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{٩} لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ{١٠} فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{١١} وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ{١٢} أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{١٣} قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ{١٤} وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{١٥} أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{١٦} مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ اللّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ{١٧} إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ{١٨} أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{١٩} الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ{٢٠} يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ {٢١}خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ{٢٢}(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{٢٣}قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ{٢٤} لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ{٢٥} ثُمَّ أَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ{٢٦} ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٢٧} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ){٢٨}

نستطيع أن نفهم لم كانت هذه الأحكام الأخيرة الواردة فى هذه السورة:من براءة الله ورسوله من عهود المشركين ؛ وإمهال ذوى العهود الموقوتة منهم – ممن لم ينقضوا مع المسلمين عهدا ، ولم يظاهروا عليهم أحدا – إلى مدتهم . وإمهال ذوى العهود غير الموقوتة – ممن لم ينقضوا مع المسلمين عهدا كذلك ولم يظاهروا عليهم أحدا – إلى أربعة أشهر ؛ ومثلهم من لم يكن لهم مع المسلمين عهد أصلا من المشركين . ونبذ عهود الناقضين لعهودهم ، مع إمهالهم أربعة أشهر يسيحون فى الأرض آمنين . فإذا انسلخت هذه الأشهر أخذوا وقتلوا حيث وجدوا وحوصروا ومنعوا من التنقل وهم آمنون . . كما نفهم الأحكام الواردة فيها عن قتال أهل الكتاب المنحرفين عن دين الله الصحيح ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . . ثم الأحكام الواردة بجهاد المنافقين مع الكافرين بالغلظة عليهم . وعدم الصلاة على موتاهم أو القيام على قبورهم . . وكلها أحكام تعدل الأحكام المرحلية السابقة فى السور التى نزلت قبل التوبة . وهذا التعديل نحسب أنه أصبح مفهوما لنا الآن ، فى ضوء ذلك البيان ! (براءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ{١} فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ{٢} وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{٣} إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ{٤} فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ){٥}والذين يتحدثون عن الجهاد فى الإسلام فيصمونه بأنه كان لإكراه الأفراد على الاعتقاد ! والذين يهولهم هذا الاتهام ممن يقفون بالدين موقف الدفاع ؛ فيروحون يدفعون هذه التهمة بأن الإسلام لا يقاتل إلا دفاعا عن أهله فى حدوده الإقليمية ! هؤلاء وهؤلاء فى حاجة إلى أن يتطلعوا إلى تلك القمة العالية التى يمثلها هذا التوجيه الكريم (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه

ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) إن هذا الدين إعلام لمن لا يعلمون ، وإجارة لمن يستجيرون ، حتى من أعدائه الذين شهروا عليه السيف وحاربوه وعاندوه . . ولكنه إنما يجاهد بالسيف ليحطم القوى المادية التى تحول بين الأفراد وسماع كلام الله ؛ وتحول بينهم وبين العلم بما أنزل الله ؛ فتحول بينهم وبين الهدى ، كما تحول بينهم وبين التحرر من عبادة العبيد ؛ وتلجئهم إلى عبادة غير الله . . ومتى حطم هذه القوى ، وأزال هذه العقبات ، فالأفراد – على عقيدتهم – آمنون فى كنفه ؛ يعلمهم ولا يرهبهم ويجيرهم ولا يقتلهم ؛ ثم يحرسهم ويكفلهم حتى يبلغوا مأمنهم . . هذا كله وهم يرفضون منهج الله ! وفى الأرض اليوم أنظمة ومناهج وأوضاع من صنع العبيد ؛ لا يأمن فيها من يخالفها من البشر على نفسه ولا على ماله ولا على عرضه ولا على حرمة واحدة من حرمات الإنسان ! ثم يقف ناس يرون هذا فى واقع البشر وهم يتمتمون ويجمجمون لدفع الاتهام الكاذب عن منهج الله بتشويه هذا المنهج وإحالته إلى محاولة هازلة قوامها الكلام فى وجه السيف والمدفع فى هذا الزمان وفى كل زمان ! (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ? فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا فى دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون) لما انتهى فى مجموعة الآيات السابقة إلى تقرير الأحكام النهائية الأخيرة بين المجتمع المسلم والباقين من المشركين فى الجزيرة ، وهى تعنى إنهاء حالة التعاهد والمهادنة معهم جميعا . . بعضهم بعد مهلة أربعة أشهر ، وبعضهم بعد انتهاء مدتهم . . حيث يؤول الأمر بعد هذه الأحكام إلى حالتين اثنتين:توبة وإقامة للصلاة وإيتاء للزكاة – أى دخول فى الإسلام وأداء لفرائضه – أو قتال وحصار وأسر وإرصاد . . لما انتهى إلى الأمر بإنهاء حالة التعاقد على ذلك الوجه أخذ فى هذه المجموعة الجديدة من الآيات يقرر – عن طريق الاستفهام الاستنكارى – أنه لا ينبغى ولا يجوز وليس من المستساغ أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله . وهو استنكار للمبدأ فى ذاته ؛ واستبعاد له من أساسه ! بقوله تعالى (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) ولما كان هذا الاستنكار فى هذه المجموعة التالية فى السياق للمجموعة الأولى ، قد يفهم منه نسخ ما كان قد تقرر فى المجموعة الأولى من إمهال ذوى العهود الموفين بعهودهم الذين لم ينقصوا المسلمين شيئا ولم يظاهروا عليهم أحدا إلى مدتهم . . فقد عاد يقرر هذا الحكم مرة أخرى بقوله (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين) وجاءت فى هذا التوكيد الجديد زيادة بيان . . إذ كان الأمر الأول مطلقا بالوفاء بعهود من استقاموا على عهودهم إلى مدتهم . . فجاء هذا التوكيد يقيد هذا الإطلاق بأن هذا الوفاء مرهون باستقامتهم فى المستقبل إلى نهاية المدة كذلك كما استقاموا فى الماضى . وهى دقة بالغة فى صياغة النصوص فى هذه العلاقات والمعاملات ، وعدم الاكتفاء بالمفهومات الضمنية ، وإتباعها بالمنطوقات القطعية (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ?) إن المشركين لا يدينون لله بالعبودية خالصة ، وهم كذلك لا يعترفون برسالة رسوله . فكيف يجوز أن يكون لهؤلاء عهد عند الله وعند رسوله ? إنهم لا يواجهون بالإنكار والجحود عبدا مثلهم ، ولا منهجا من مناهج العبيد من أمثالهم . إنما هم يواجهون بالجحود خالقهم ورازقهم ؛ وهم يحادون الله ورسوله بهذا الجحود إبتداء . . فكيف يجوز أن يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله ? هذه هى القضية التى يثيرها هذا السؤال الاستنكارى . . وهى قضية تنصب على مبدأ التعاهد ذاته ؛ لا على حالة معينة من حالاته . . وقد يستشكل على هذا بأنه كانت للمشركين عهود فعلا ؛ وبعض هذه العهود أمر الله بالوفاء بها . وأنه قد وقعت عهود سابقة منذ قيام الدولة المسلمة فى المدينة . عهود مع اليهود وعهود مع المشركين . وأنه وقع عهد الحديبية فى السنة السادسة للهجرة . وأن النصوص القرآنية فى سور سابقة كانت تجيز هذه العهود ؛ وإن كانت تجيز نبذها عند خوف الخيانة . . فإذا كان مبدأ التعاهد مع المشركين هو الذى يرد عليه الإنكار هنا ، فكيف إذن أبيحت تلك العهود وقامت حتى نزل هذا الاستنكار الأخير لمبدأ التعاهد ?! وهذا الاستشكال لا معنى له فى ظل الفهم الصحيح لطبيعة المنهج الحركى الإسلامى الذى أسلفنا الحديث عنه فى مطالع هذه السورة وفى مطالع سورة الأنفال قبلها . . لقد كانت تلك المعاهدات مواجهة للواقع فى حينه بوسائل مكافئة له ؛ أما الحكم النهائى فهو أنه لا ينبغى أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله . . كانت أحكاما مرحلية فى طريق الحركة الإسلامية التى تستهدف إبتداء ألا يكون فى الأرض شرك بالله ؛ وأن تكون الدينونة لله وحده . . ولقد أعلن الإسلام هدفه هذا منذ أول يوم ولم يخدع عنه أحدا . فإذا كانت الظروف الواقعية تقضى بأن يدع من يسالمونه ابتداء من المشركين ليتفرغ لمن يهاجمونه ؛ وأن يوادع من يريدون موادعته فى فترة من الفترات . وأن يعاهد من يريدون معاهدته فى مرحلة من المراحل . فإنه لا يغفل لحظة عن هدفه النهائى الأخير ؛ كما أنه لا يغفل عن

أن هذه الموادعات والمعاهدات من جانب بعض المشركين موقوتة من جانبهم هم أنفسهم . وأنهم لابد مهاجموه ومحاربوه ذات يوم ؛ وأنهم لن يتركوه وهم يستيقنون من هدفه ؛ ولن يأمنوه على أنفسهم إلا ريثما يستعدون له ويستديرون لمواجهته . . ولقد قال الله للمسلمين منذ أول الأمر (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) وهي قولة الأبد التي لا تتخصص بزمن ولا بيئة ! وقولة الحق التي لا تتعلق بظرف ولا حالة ! ومع استنكار الأصل، فقد أذن الله – سبحانه – بإتمام عهود ذوى العهود . الذين لم ينقصوا المسلمين شيئا ولم يظاهروا عليهم أحدا إلى مدتها ، مع اشتراط أن تكون الاستقامة على العهد – في هذه المدة – من المسلمين مقيدة باستقامة ذوى العهود عليها(إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين)

وهؤلاء الذين تشير الآية إلى معاهدتهم عند المسجد الحرام ليسوا طائفة أخرى غير التي ورد ذكرها من قبل في قوله تعالى (إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين) كما فهم بعض المفسرين المحدثين . . فهي طائفة واحدة ذكرت أول مرة بمناسبة عموم البراءة وإطلاقها ، لاستثنائها من هذا العموم . وذكرت مرة ثانية بمناسبة استنكار مبدأ التعاهد ذاته مع المشركين مخافة أن يظن أن هذا الحكم المطلق فيه نسخ للحكم الأول . . وذكرت التقوى وحب الله للمتقين هنا وهناك بنصها للدلالة على أن الموضوع واحد . كما أن النص الثاني مكمل للشروط المذكورة في النص الأول . ففي الأول اشتراط استقامتهم في الماضي ، وفي الثاني اشتراط استقامتهم في المستقبل . وهي دقة بالغة في صياغة النصوص – كما أسلفنا – لا تلحظ إلا بضم النصين الواردين في الموضوع الواحد ، كما هو ظاهر ومتعين . ثم يعود لاستنكار مبدأ التعاهد بأسبابه التاريخية والواقعية ؛ بعد استنكاره بأسبابه العقيدية والإيمانية ؛ ويجمع بين هذه وتلك في الآيات التالية (كيف ؟ وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ، اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون) كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، وهم لا يعاهدونكم إلا في حال عجزهم عن التغلب عليكم . ولو ظهروا عليكم وغلبوكم لفعلوا بكم الأفاعيل في غير مراعاة لعهد قائم بينهم وبينكم ، وفي غير ذمة يرعونها لكم ؛ أو في غير تحرج ولا تذمم من فعل يأتونه معكم ! فهم لا يرعون عهدا ، ولا يقفون كذلك عند حد في التنكيل بكم ؛ ولا حتى الحدود المتعارف عليها في البيئة والتي يذمون لو تجاوزوها . فهم لشدة ما يكنونه لكم من البغضاء يتجاوزون كل حد في التنكيل بكم ، لو أنهم قدروا عليكم . مهما يكن بينكم وبينهم من عهود قائمة . فليس الذي يمنعهم من أي فعل شائن معكم أن تكون بينكم وبينهم عهود ; إنما يمنعهم أنهم لا يقدرون عليكم ولا يغلبونكم ! . . وإذا كانوا اليوم – وأنتم أقوياء – يرضونكم بأفواههم بالقول اللين والتظاهر بالوفاء بالعهد . فإن قلوبهم تنغل عليكم بالحقد ؛ وتأبى أن تقيم على العهد ؛ فما بهم من وفاء لكم ولا ود ! (وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله . إنهم ساء ما كانوا يعملون) وهذا هو السبب الأصيل لهذا الحقد الدفين عليكم ، وإضمار عدم الوفاء بعهودكم ، والانطلاق في التنكيل بكم – لو قدروا – من كل تحرج ومن كل تذمم . . إنه الفسوق عن دين الله ، والخروج عن هداه ، فلقد آثروا على آيات الله التي جاءتهم ثمنا قليلا من عرض هذه الحياة الدنيا يستمسكون به ويخافون فوته . وقد كانوا يخافون أن يضيع عليهم الإسلام شيئا من مصالحهم ؛ أو أن يكلفهم شيئا من أموالهم ! فصدوا عن سبيل الله بسبب شرائهم هذا الثمن القليل بآيات الله . صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم . . [أما فعلهم هذا فهو الفعل السيء الذي يقرر الله سوءه الأصيل (إنهم ساء ما كانوا يعملون !) ثم إنهم لا يضمرون هذا الحقد لأشخاصكم ؛ ولا يتبعون تلك الخطة المنكرة معكم بذواتكم . . إنهم يضطغنون الحقد لكل مؤمن ؛ ويتبعون هذا المنكر مع كل مسلم . . إنهم يوجهون حقدهم وانتقامهم لهذه الصفة التي أنتم عليها . . للإيمان ذاته . . كما هو المعهود في كل أعداء الصفوة الخالصة من أهل هذا الدين ، على مدار التاريخ والقرون . ومن ثم هم يضطغنون الحقد لكل مؤمن , ولا يراعون فيه عهدا ولا يتذممون من منكر (لايرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون) فصفة الاعتداء أصيلة فيهم . . تبدأ من نقطة كرههم للإيمان ذاته وصدودهم عنه ؛ وتنتهي بالوقوف في وجهه ؛ وتربصهم بالمؤمنين ؛ وعدم مراعاتهم لعهد معهم ولا صلة ؛ إذا هم ظهروا عليهم ؛ وأمنوا بأسهم وقوتهم . وعندئذ يفعلون بهم الأفاعيل غير مراعين لعهد قائم ، ولا متحرجين ولا متذممين من منكر يأتونه معهم . . وهم آمنون . . ! ثم يبين الله كيف يقابل المؤمنون هذه الحال الواقعة من المشركين (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون) هذا التاريخ الطويل من الواقع العملي ؛ بالإضافة الى طبيعة المعركة المحتومة بين منهج الله الذي يخرج الناس من العبودية للعباد ويردهم إلى

عبادة الله وحده ، وبين مناهج الجاهلية التي تعبد الناس للعبيد . . يواجهه المنهج الحركي الإسلامي بتوجيه من الله سبحانه ، بهذا الحسم الصريح (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون ، وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون) فإما دخول فيما دخل فيه المسلمون ، وتوبة عما مضى من الشرك والاعتداء . وعندئذ يصفح الإسلام والمسلمون عن كل ما لقوا من هؤلاء المشركين المعتدين ؛ وتقوم الوشيجة على أساس العقيدة ، ويصبح المسلمون الجدد إخوانا للمسلمين القدامى ؛ ويسقط ذلك الماضي كله بمساءاته من الواقع ومن القلوب ! (ونفصل الآيات لقوم يعلمون) فهذه الأحكام إنما يدركها ويدرك حكمتها الذين يعلمون وهم المؤمنين . وإما نكث لما يبايعون عليه من الإيمان بعد الدخول فيه ، وطعن في دين المسلمين . فهم إذن أئمة في الكفر ، لا أيمان لهم ولا عهود . وعندئذ يكون القتال لهم ؛ لعلهم حينئذ أن يثوبوا إلى الهدى . . كما سبق أن قلنا:إن قوة المعسكر المسلم وغلبته في الجهاد قد ترد قلوبا كثيرة إلى الصواب ؛ وتريهم الحق الغالب فيعرفونه ؛ ويعلمون أنه إنما غلب لأنه الحق ؛ ولأن وراءه قوة الله ؛ وأن رسول الله ﷺ صادق فيما أبلغهم من أن الله غالب هو ورسله . فيقودهم هذا كله إلى التوبة والهدى . لا كرها وقهرا ، ولكن اقتناعا بالقلب بعد رؤية واضحة للحق الغالب . كما وقع وكما يقع في كثير من الأحايين .

تعقيب على الدرس الثانى

وبعد . . فما المدى الذى تعمل فيه هذه النصوص ؟ ما المدى التاريخى والبيئى ؟ أهى خاصة بأهل الجزيرة العربية في ذلك الزمان المحدد ؟ أم إن لها أبعادا أخرى في الزمان والمكان ؟ إن هذه النصوص كانت تواجه الواقع في الجزيرة العربية بين المعسكر الإسلامي ومعسكرات المشركين . وما من شك أن الأحكام الواردة بها مقصود بها هذا الواقع . وأن المشركين المعنيين فيها هم مشركوا الجزيرة . . هذا حق في ذاته . . ولكن ترى هذا هو المدى النهائي لهذه النصوص ؟ إن علينا أن نتتبع موقف المشركين – على مدى التاريخ – من المؤمنين . ليتكشف لنا المدى الحقيقي لهذه النصوص القرآنية ؛ ولنرى الموقف بكامله على مدار التاريخ: فأما في الجزيرة العربية فلعل ذلك معلوم من أحداث السيرة المشهورة . ولعل في هذا الجزء من الظلال وحده ما يكفي لتصوير مواقف المشركين من هذا الدين وأهله منذ الأيام الأولى للدعوة في مكة حتى هذه الفترة التي تواجهها نصوص هذه السورة . وحقيقة إن المعركة الطويلة الأمد لم تكن بين الإسلام والشرك بقدر ما كانت بين الإسلام وأهل الكتاب من اليهود والنصارى . ولكن هذا لا ينفي أن موقف المشركين من المسلمين كان دائما هو الذي تصوره آيات هذا المقطع من السورة (كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ! يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم , وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون) لقد كان هذا هو الموقف الدائم للمشركين وأهل الكتاب من المسلمين . فأما أهل الكتاب فندع الحديث عنهم إلى موعده في المقطع الثاني من السورة ؛ وأما المشركون فقد كان هذا دأبهم من المسلمين على مدار التاريخ . . وإذا نحن اعتبرنا أن الإسلام لم يبدأ برسالة محمد ﷺ إنما ختم بهذه الرسالة . وأن موقف المشركين من كل رسول ومن كل رسالة من قبل إنما يمثل موقف الشرك من دين الله على الإطلاق ؛ فإن أبعاد المعركة تترامى ؛ ويتجلى الموقف على حقيقته ؛ كما تصوره تلك النصوص القرآنية الخالدة ، على مدار التاريخ البشرى كله بلا استثناء ! ماذا صنع المشركون مع نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، وشعيب ، وموسى ، وعيسى ، عليهم صلوات الله وسلامه والمؤمنين بهم في زمانهم ؟ ثم ماذا صنع المشركون مع محمد ﷺ والمؤمنين به كذلك ؟ . . إنهم لم يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة متى ظهروا عليهم وتمكنوا منهم . . وماذا صنع المشركون بالمسلمين أيام الغزو الثاني للشرك على أيدى التتار ؟ ثم ما يصنع المشركون والملحدون اليوم بعد أربعة عشر قرنا بالمسلمين في كل مكان ؟ . . . إنهم لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة ، كما يقرر النص القرآني الصادق الخالد . . عندما ظهر الوثنيون التتار على المسلمين في بغداد وقعت المأساة الدامية التي سجلتها الروايات التاريخية كلا ! إن الواقع التاريخي الحديث لا تختلف صوره عن تلك الصور !. . إن ما وقع من الوثنيين الهنود عند انفصال باكستان لا يقل شناعة ولا بشاعة عما وقع من التتار في ذلك الزمان البعيد . . إن ثمانية ملايين من المهاجرين المسلمين من الهند – ممن أفزعتهم الهجمات البربرية المتوحشة على المسلمين الباقين في الهند فآثروا الهجرة على البقاء – قد وصل منهم إلى أطراف باكستان ثلاثة ملايين فقط ! أما الملايين الخمسة الباقية فقد قضوا بالطريق . . طلعت عليهم العصابات الهندية الوثنية المنظمة المعروفة للدولة الهندية جيدا والتي يهيمن عليها ناس من الكبار في الحكومة الهندية , فذبحتهم كالخراف على طول الطريق ، وتركت جثثهم نهبا للطير والوحش ، بعد التمثيل بها ببشاعة منكرة ، لا تقل – إن لم تزد – على ما صنعه التتار بالمسلمين من أهل بغداد . . . ! أما المأساة

البشعة المروعة المنظمة فكانت فى ركاب القطار الذى نقل الموظفين المسلمين فى أنحاء الهند إلى باكستان ، حيث تم الاتفاق على هجرة من يريد الهجرة من الموظفين المسلمين فى دوائر الهند إلى باكستان واجتمع فى هذا القطار خمسون ألف موظف . . ودخل القطار بالخمسين ألف موظف فى نفق بين الحدود الهندية الباكستانية يسمى [ممر خيبر] . . وخرج من الناحية الأخرى وليس به إلا أشلاء ممزقة متناثرة فى القطار ! . . لقد أوقفت العصابات الهندية الوثنية المدربة الموجهة ، القطار فى النفق . ولم تسمح له بالمضى فى طريقه إلا بعد أن تحول الخمسون ألف موظف إلى أشلاء ودماء ! . . وصدق قول الله سبحانه: (كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة). وما تزال هذه المذابح تتكرر فى صور شتى . ثم ماذا فعل خلفاء التتار فى الصين الشيوعية وروسيا الشيوعية بالمسلمين هناك ؟ . . . لقد أبادوا من المسلمين فى خلال ربع قرن ستة وعشرين مليونا . . بمعدل مليون فى السنة . . وما تزال عمليات الإبادة ماضية فى الطريق . . ذلك غير وسائل التعذيب الجهنمية التى تقشعر لهولها الأبدان . وفى هذا العام وقع فى القطاع الصينى من التركستان المسلمة ما يغطى على بشاعات التتار . . لقد جىء بأحد الزعماء المسلمين ، فحفرت له حفرة فى الطريق العام . وكلف المسلمون تحت وطأة التعذيب والإرهاب ، أن يأتوا بفضلاتهم الآدمية [التى تتسلمها الدولة من الأهالى جميعا لتسخدمها فى السماد مقابل ما تصرفه لهم من الطعام !!!] فيلقوها على الزعيم المسلم فى حفرته . . وظلت العملية ثلاثة أيام والرجل يختنق فى الحفرة على هذا النحو حتى مات ! كذلك فعلت يوغسلافيا الشيوعية بالمسلمين فيها . حتى أبادت منهم مليونا منذ الفترة التى صارت فيها شيوعية بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم . وما تزال عمليات الإبادة والتعذيب الوحشى – التى من أمثلتها البشعة إلقاء المسلمين رجالا ونساء فى "مفارم" اللحوم التى تصنع لحوم [البولوبيف] ليخرجوا من الناحية الأخرى عجينة من اللحم والعظام والدماء – ماضية إلى الآن !!! وما يجرى فى يوغسلافيا يجرى فى جميع الدول الشيوعية والوثنية . . الآن . . فى هذا الزمان . . ويصدق قول الله سبحانه: (كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ؟).(لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون). إنها لم تكن حالة طارئة ولا وقتية فى الجزيرة العربية . ولم تكن حالة طارئة ولا وقتية فى بغداد . . إنها الحالة الدائمة الطبيعية الحتمية ؛ حيثما وجد مؤمنون يدينون بالعبودية لله وحده ؛ ومشركون أو ملحدون يدينون بالعبودية لغير الله . فى كل زمان وفى كل مكان . ومن ثم فإن تلك النصوص – وإن كانت قد نزلت لمواجهة حالة واقعة فى الجزيرة ، وعنت بالفعل تقرير أحكام التعامل مع مشركى الجزيرة – إلا أنها أبعد مدى فى الزمان والمكان . لأنها تواجه مثل هذه الحالة دائما فى كل زمان وفى كل مكان . والأمر فى تنفيذها إنما يتعلق بالمقدرة على التنفيذ فى مثل الحالة التى نفذت فيها فى الجزيرة العربية , ولا يتعلق بأصل الحكم ولا بأصل الموقف الذى لا يتبدل على الزمان (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ، وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدأوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم . أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ؟ والله خبير بما تعملون .) تجىء هذه الفقرة بعد الفقرة السابقة التى تقرر فيها الاستنكار من ناحية المبدأ لأن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ؛ والأمر بتخيير المشركين فى الجزيرة بين الدخول فيما دخل فيه المسلمون أو قتالهم – إلا من استجار فيجار حتى يسمع كلام الله ثم يبلغ مأمنه خارج دار الإسلام – وبيان علة هذا الاستنكار ؛ وهى أنهم لا يرعون إلا ولا ذمة فى مؤمن متى ظهروا على المؤمنين . تجىء هذه الفقرة لمواجهة ما حاك فى نفوس الجماعة المسلمة – بمستوياتها المختلفة التى سبق الحديث عنها – من تردد وتهيب للإقدام على هذه الخطوة الحاسمة ! ومن رغبة وتعلل فى أن يفىء المشركون الباقون إلى الإسلام دون اللجوء إلى القتال الشامل ! ومن خوف على النفوس والمصالح وركون إلى أيسر الوسائل ! والنصوص القرآنية تواجه هذه المشاعر والمخاوف والتعلات باستجاشة قلوب المسلمين بالذكريات والأحداث القريبة والبعيدة . تذكرهم بنقض المشركين لما أبرموه معهم من عهود وما عقدوه معهم من أيمان . وتذكرهم بما هم به المشركون من إخراج الرسول ﷺ من مكة قبل الهجرة . وتذكرهم بأن المشركين هم الذين بدأوهم بالاعتداء فى المدينة . . ثم تثير فيهم الحياء والنخوة أن يكونوا إنما يخشون لقاء المشركين . والله أولى أن يخشوه إن كانوا مؤمنين . . ثم تشجعهم على قتال المشركين لعل الله أن يعذبهم بأيديهم ، فيكونوا هم ستارا لقدرة الله فى تعذيب أعدائه وأعدائهم ، وخزيانهم وقهرهم . وشفاء صدور المؤمنين الذين أوذوا فى الله منهم . . ثم تواجه التعلات التى تحيك فى صدور البعض من الأمل فى دخول المشركين الباقين فى الإسلام دون حرب ولا قتال . تواجه هذه التعلات بأن الرجاء الحقيقى فى أن يفىء هؤلاء إلى الإسلام أولى أن يتعلق بانتصار المسلمين ، وهزيمة المشركين . فيومئذ قد يفىء بعضهم – ممن يقسم الله له التوبة – إلى الإسلام المنتصر الظاهر الظافر ! . . وفى النهاية تلفتهم الآيات إلى أن سنة الله هى ابتلاء الجماعات بمثل هذه التكاليف ليظهر حقيقة ما هم عليه . وأن السنة

لا تتبدل ولا تحيد (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ، وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدأوكم أول مرة ؟ أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ، إن كنتم مؤمنين) إن تاريخ المشركين مع المسلمين كله نكث للأيمان ، ونقض للعهود . وأقرب ما كان من هذا نقضهم لعهدهم مع رسول الله ﷺ في الحديبية . ولقد قبل ﷺ من شروطهم – بإلهام من ربه وهداية – ما حسبه بعض أفاضل أصحابه قبولا للدنية ! ووفى لهم بعهده أدق ما يكون الوفاء وأسماه . ولكنهم هم لم يفوا ، وخاسوا بالعهد بعد عامين اثنين ، عند أول فرصة سنحت . . كما أن المشركين هم الذين هموا بإخراج الرسول ﷺ من قبل في مكة ؛ وبيتوا أمرهم في النهاية على قتله قبل الهجرة . وكان هذا في بيت الله الحرام الذي يأمن فيه القاتل منهم على دمه وماله ؛ حتى لكان الواحد يلقى قاتل أخيه أو أبيه في الحرم فلا يمسه بسوء . أما محمد رسول الله ﷺ الداعي إلى الهدى والإيمان وعبادة الله وحده ، فلم يرعوا معه هذه الخصلة ؛ وهموا بإخراجه ؛ ثم تآمروا على حياته ; وبيتوا قتله في بيت الله الحرام ، بلا تحرج ولا تذمم مما يتحرجون منه ويتذممون مع أصحاب الثارات ! . . كذلك كانوا هم الذين هموا بقتال المسلمين وحربهم في المدينة . فهم الذين أصروا – بقيادة أبي جهل – على ملاقاة المسلمين بعد أن نجت القافلة التي خرجوا لها ؛ ثم قاتلوهم بادئين في أحد وفي الخندق . ثم جمعوا لهم في حنين كذلك . . وكلها وقائع حاضرة أو ذكريات قريبة ؛ وكلها تنم عن الإصرار الذي يصفه قول الله تعالى (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) كما تنم عن طبيعة العلاقة بين المعسكر الذي يعبد آلهة من دون الله تجاه المعسكر الذي لا يعبد إلا الله .وحين يستعرض السياق هذا الشريط الطويل من الذكريات والمواقف والأحداث ، في هذه اللمسات السريعة العميقة الإيقاع في قلوب المسلمين ، يخاطبهم (أتخشونهم ؟) فإنهم لا يقعدون عن قتال المشركين هؤلاء إلا أن تكون هي الخشية والخوف والتهيب ! ويعقب على السؤال بما هو أشد استجاشة للقلوب من السؤال (فالله أحق أن تخشوه ، إن كنتم مؤمنين) إن المؤمن لا يخشى أحدا من العبيد . فالمؤمن لا يخشى إلا الله . فإذا كانوا يخشون المشركين فالله أحق بالخشية ، وأولى بالمخافة ؛ وما يجوز أن يكون لغيره في قلوب المؤمنين مكان ! وإن مشاعر المؤمنين لتثور ؛ وهي تستجاش بتلك الذكريات والوقائع والأحداث . . وهم يذكرون بتآمر المشركين على نبيهم ﷺ . وهم يستعرضون نكث المشركين لعهودهم معهم وتبييتهم لهم الغدر كلما التمسوا منهم غرة ، أو وجدوا في موقفهم ثغرة . وهم يتذكرون مبادأة المشركين لهم بالعداء والقتال بطرا وطغيانا . . وفي غمرة هذه الثورة يحرض المؤمنين على القتال (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم ، وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم) قاتلوهم يجعلكم الله ستار قدرته ، وأداة مشيئته ، فيعذبهم بأيديكم ويخزهم بالهزيمة وهم يتخايلون بالقوة ، وينصركم عليهم ويشف صدور جماعة من المؤمنين ممن آذاهم وشردهم المشركون . يشفها من غيظها المكظوم ، بانتصار الحق كاملا ، وهزيمة الباطل , وتشريد المبطلين . . وليس هذا وحده ولكن خيرا آخر ينتظر وثوابا آخر ينال (ويتوب الله على من يشاء) فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان ، ويفتح بصيرتهم على الهدى حين يرون المسلمين ينصرون ، ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم ، ويرون آثار الإيمان في مواقفهم – وهذا ما كان فعلا – وعندئذ ينال المسلمون المجاهدون أجر جهادهم , وأجر هداية الضالين بأيديهم ؛ وينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين (والله عليم حكيم) عليم بالعواقب المخبوءة وراء المقدمات . حكيم يقدر نتائج الأعمال والحركات . ثم إنه لم يكن بد أن يجاهد المسلمون المشركين كافة ، وأن تنبذ عهود المشركين كافة ; وأن يقف المسلمون إزاءهم صفا . . لم يكن بد من ذلك لكشف النوايا و الخبايا ، ولإزالة الأستار التي يقف خلفها من لم يتجرد للعقيدة ، والأعذار التي يحتج بها من يتعاملون مع المشركين للكسب ، ومن يوادونهم لآصرة من قربى أو مصلحة . . لم يكن بد من إزالة هذه الأستار والمعاذير ، وإعلان المفاصلة للجميع ، لينكشف الذين يخبئون في قلوبهم خبيئة ، ويتخذون من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة ، يلجون منها إلى مصالحهم وروابطهم مع المشركين ، في ظل العلاقات غير المتميزة أو الواضحة بين المعسكرات المختلفة (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ، والله خبير بما تعملون) لقد كان في المجتمع المسلم – كما هو الحال عادة – فئة تجيد المداورة ، وتنفذ من الأسوار . وتتقن استخدام الأعذار . وتدور من خلف الجماعة ، وتتصل بخصومها استجلابا للمصلحة ولو على حساب الجماعة ، مرتكنة إلى ميوعة العلاقات ووجود ثغرات في المفاصلة بين المعسكرات . فإذا وضحت المفاصلة وأعلنت قطعت الطريق على تلك الفئة ، وكشفت المداخل والمسارب للأنظار . وإنه لمن مصلحة الجماعة ، ومن مصلحة العقيدة ، أن تهتك الأستار وتكشف الولائج ، وتعرف المداخل ، فيمتاز المكافحون المخلصون ، ويكشف المداورون الملتوون ، ويعرف الناس كلا الفريقين على حقيقته ، وإن كان الله يعلمهم من قبل (والله خبير بما تعملون) ولكنه سبحانه يحاسب الناس على ما يتكشف من حقيقتهم بفعلهم وسلوكهم . وكذلك جرت سنته بالابتلاء لينكشف الخبيء وتتميز الصفوف ، وتتمحص القلوب . ولا يكون ذلك كما يكون بالشدائد والتكاليف والمحن والابتلاءات (ما كان للمشركين

أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ؛ أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد فى سبيل الله ؟ لا يستوون عند الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ، وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم) وبعد البراءة والإعلان لم يبق عذر ولا حجة لمن لا يقاتل المشركين ؛ ولم يعد هنالك تردد فى حرمانهم زيارة البيت أو عمارته ، وقد كانوا يقومون بهما فى الجاهلية , وهنا ينكر السياق على المشركين أن يكون لهم الحق فى أن يعمروا بيوت الله ، فهو حق خالص للمؤمنين بالله ، القائمين بفرائضه ؛ وما كانت عمارة البيت فى الجاهلية وسقاية الحاج لتغير من هذه القاعدة . . وهذه الآيات كانت تواجه ما يحيك فى نفوس بعض المسلمين الذين لم تتضح لهم قاعدة هذا الدين (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) فهو أمر مستنكر منذ الابتداء ، ليس له مبرر لأنه مخالف لطبائع الأشياء . إن بيوت الله خالصة لله ، لا يذكر فيها إلا اسمه ، ولا يدعى معه فيها أحد غيره ، فكيف يعمرها من لا يعمر التوحيد قلوبهم ، ومن يدعون مع الله شركاء ، ومن يشهدون على أنفسهم بالكفر هادة الواقع الذى لا يملكون إنكاره ، ولا يسعهم إلا إقراره ؟ إقراره ؟ أولئك حبطت أعمالهم). فهى باطلة أصلا ، ومنها عمارة بيت الله التى لا تقوم إلا على قاعدة من توحيد الله (وفى النار هم خالدون) بما قدموا من الكفر الواضح الصريح . إن العبادة تعبير عن العقيدة ؛ فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة ؛ وأداء الشعائر وعمارة المساجد ليست بشىء ما لم تعمر القلوب بالاعتقاد الإيمانى الصحيح ، وبالعمل الواقع الصريح ، وبالتجرد لله فى العمل والعبادة على السواء (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) والنص على خشية الله وحده دون سواه بعد شرطى الإيمان الباطن والعمل الظاهر ، لا يجىء نافلة . فلا بد من التجرد لله ؛ ولابد من التخلص من كل ظل للشرك فى الشعور أو السلوك ; وخشية أحد غير الله لون من الشرك الخفى ينبه إليه النص قصدا فى هذا الموضع ليتمحض الاعتقاد والعمل كله لله . وعندئذ يستحق المؤمنون أن يعمروا مساجد الله ، ويستحقون أن يرجوا الهداية من الله (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) فإنما يتوجه القلب وتعمل الجوارح ، ثم يكافئ الله على التوجه والعمل بالهداية والوصول والنجاح . هذه هى القاعدة فى استحقاق عمارة بيوت الله ؛ وفى تقويم العبادات والشعائر على السواء يبينها الله للمسلمين والمشركين ، فما يجوز أن يسوى الذين كانوا يعمرون الكعبة ويسقون الحجيج فى الجاهلية ، وعقيدتهم ليست خالصة لله ، ولا نصيب لهم من عمل أو جهاد ، لا يجوز أن يسوى هؤلاء – لمجرد عمارتهم للبيت وخدمتهم للحجيج – بالذين آمنوا إيمانا صحيحا وجاهدوا فى سبيل الله وإعلاء كلمته (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ؟) ثم يمضى السياق فى تجريد المشاعر والصلات فى قلوب الجماعة المؤمنة ، وتمحيصها لله ولدين الله ؛ فيدعو إلى تخليصها من وشائج القربى والمصلحة واللذة ، ويجمع كل لذائذ البشر ، وكل وشائج الحياة ، فيضمها فى كفة ، ويضع حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيله فى الكفة الأخرى ، ويدع للمسلمين الخيار (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء – إن استحبوا الكفر على الإيمان – ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل:إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها . . أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . والله لا يهدى القوم الفاسقين) إن هذه العقيدة لا تحتمل لها فى القلب شريكا ؛ فإما تجرد لها ، وإما انسلاخ منها . وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة ؛ ولا أن يترهبن ويزهد فى طيبات الحياة . . كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب ، ويخلص لها الحب ، وأن تكون هى المسيطرة والحاكمة ، وهى المحركة والدافعة . فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة ; على أن يكون مستعدا لنبذها كلها فى اللحظة التى تتعارض مع مطالب العقيدة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء – إن استحبوا الكفر على الإيمان) وهكذا تتقطع أواصر الدم والنسب ، إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة . وتبطل ولاية القرابة فى الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة فى الله . فلله الولاية الأولى ، وفيها ترتبط البشرية جميعا ، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك ، والحبل مقطوع والعروة منقوضة (ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) (الظالمون) هنا تعنى المشركين . فولاية الأهل والقوم – إن استحبوا الكفر على الإيمان – شرك لا يتفق مع الإيمان . ولا يكتفى السياق بتقرير المبدأ ، بل يأخذ فى استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ ; ليضعها كلها فى كفة ويضع العقيدة ومقتضياتها فى الكفة الأخرى:الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة [وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج] والأموال والتجارة [مطمع الفطرة ورغبتها] والمساكن المريحة [متاع الحياة

ولذتها . . [وفى الكفة الأخرى:حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيله . الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته . الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب ، وما يتبعه من تضييق وحرمان ، وما يتبعه من ألم وتضحية ، وما يتبعه من جراح واستشهاد . . وهو - بعد هذا كله - "الجهاد فى سبيل الله" مجردا من الصيت والذكروالظهور . مجردا من المباهاة ، والفخر والخيلاء . مجردا من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم بصاحبه . وإلا فلا أجر عليه ولا ثواب (قل:إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله . . فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . . .) ألا إنها لشاقة . ألا وإنها لكبيرة . ولكنها هى ذاك . . وإلا (فتربصوا حتى يأتى الله بأمره) وإلا فتعرضوا لمصير الفاسقين (والله لا يهدى القوم الفاسقين) وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده ، إنما تطالب به الجماعة المسلمة ، والدولة المسلمة . فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع على مقتضيات العقيدة فى الله ومقتضيات الجهاد فى سبيل الله . وما يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف ، إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه - فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها - وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال ؛ وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها . . لذة الشعور بالاتصال بالله ، ولذة الرجاء فى رضوان الله , ولذة الاستعلاء على الضعفوالهبوط ، والخلاص من ثقلة اللحم والدم ، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء . فإذا غلبتها ثقلة الأرض ففى التطلع إلى الأفق ما يجدد الرغبة الطامعة فى الخلاص والفكاك . ثم لمسة للمشاعر بالذكرى ، وباستعراض صفحة من الواقع الذى عاشه المسلمون إذ ذاك منذ قريب . . المواطن التى نصرهم الله فيها ، ولم تكن لهم قوة ولا عدة . ويوم حنين الذى هزموا فيه بكثرتهم ثم نصرهم الله بقوته . يوم أن انضم إلى جيش الفتح ألفان فقط من الطلقاء ! يوم أن غفلت قلوب المسلمين لحظات عن الله مأخوذة بالكثرة فى العدد والعتاد . ليعلم المؤمنون أن التجرد لله ، وتوثيق الصلة به هى عدة النصر التى لا تخذلهم حين تخذلهم الكثرة فى العدد والعتاد ؛ وحين يخذلهم المال والإخوان والأولاد (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا , وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ؛ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وبذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم) ولقد كان نصر الله لهم فى المواطن الكثيرة قريبا من ذاكرتهم لا يحتاج إلى أكثر من الإشارة . فأما وقعة حنين فكانت بعد فتح مكة فى شوال سنة ثمان من الهجرة ــ وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة ، وتمهدت أمورها ، وأسلم عامة أهلها ، وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه ، وأن أميرهم مالك بن عوف النضرى ، ومعه ثقيف بكمالها ، وبنو جشم ، وبنو سعد ابن بكر ، وأوزاع من بنى هلال - وهم قليل - وناس من بنى عمرو بن عامر وعوف بن عامر ؛ وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم ؛ وجاءوا بقضهم وقضيضهم . فخرج إليهم رسول الله ﷺ فى جيشه الذى جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة ، وهم الطلقاء ، فى ألفين ؛ فسار بهم إلى العدو ؛ فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له "حنين" فكانت فيه الواقعة فى أول النهار فى غلس الصبح . انحدروا فى الوادى وقد كمنت فيه هوازن ، فلما توجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال ، وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم . فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين - كما قال الله عز وجل - وثبت رسول الله ﷺ يومئذ وهو راكب بغلته الشهباء ، يسوقها إلى نحر العدو , والعباس آخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب آخذ بركابها الأيسر ، يثقلانها لئلا تسرع السير ، وهو ينوه باسمه - عليه الصلاة والسلام - ويدعو المسلمين إلى الرجعة ، ويقول:" إلى يا عباد الله . إلى أنا رسول الله " ويقول فى تلك الحال:" أنا النبى لا كذب . أنا ابن عبدالمطلب " وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ،ومنهم من قال ثمانون ؛ فمنهم أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - والعباس وعلى والفضل بن عباس ، وأبو سفيان بن الحارث ، وأيمن بن أم أيمن ، وأسامة بن زيد ، وغيرهم - رضى الله عنهم - ثم أمر النبى ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادى بأعلى صوته:يا أصحاب الشجرة - يعنى شجرة بيعة الرضوان التى بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على ألا يفروا عنه - فجعل ينادى بهم:يا أصحاب السمرة ، ويقول تارة:يا أصحاب سورة البقرة . فجعلوا يقولون:يا لبيك ، يا لبيك . وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول - الله ﷺ - حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم رسول الله ﷺ أن يصدقوا الحملة . . . وانهزم المشركون فأتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدى رسول الله ﷺهذه هى المعركة التى اجتمع فيها للمسلمين - للمرة الأولى - جيش عدته اثنا عشر ألفا فأعجبتهم كثرتهم ، وغفلوا بها عن سبب النصر الأول ، فردهم الله بالهزيمة فى أول المعركة إليه ؛ ثم نصرهم بالقلة

المؤمنة التى ثبتت مع رسول الله ﷺ والتصقت به . والنص يعيد عرض المعركة بمشاهدها المادية ، وبانفعالاتها الشعورية (إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) فمن إنفعال الإعجاب بالكثرة ، إلى زلزلة الهزيمة الروحية ، إلى انفعال الضيق والحرج حتى لكأن الأرض كلها تضيق بهم وتشد عليهم . إلى حركة الهزيمة الحسية ، وتولية الأدبار والنكوص على الأعقاب (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) وكأنما السكينة رداء ينزل فيثبت القلوب الطائرة ويهدئ الإنفعالات الثائرة (وأنزل جنودا لم تروها) فلا نعلم ماهيتها وطبيعتها . . وما يعلم جنود ربك إلا هو (وعذب الذين كفروا) بالقتل والأسر والسلب والهزيمة (وذلك جزاء الكافرين) (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم) فباب المغفرة دائما مفتوح لمن يخطئ ثم يتوب . إن معركة حنين التى يذكرها السياق هنا ليعرض نتائج الإنشغال عن الله ، والإعتماد على قوة غير قوته ، لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية . حقيقة القوى التى تعتمد عليها كل عقيدة . إن الكثرة العددية ليست بشئ ، إنما هى القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة . وإن الكثرة لتكون أحيانا سببا فى الهزيمة ، لأن بعض الداخلين فيها , التائهين فى غمارها ، ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التى ينساقون فى تيارها ، تتزلزل أقدامهم وترتجف فى ساعة الشدة ؛ فيشيعون الإضطراب والهزيمة فى الصفوف ، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون فى توثيق صلتهم بالله ، إنشغالا بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر فى الحياة . لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة ، لا بالزبد الذى يذهب جفاء ، ولا بالهشيم الذى تذروه الرياح ! عندما يبلغ السياق إلى هذا المقطع ، ويلمس وجدان المسلمين بالذكرى القريبة من التاريخ ,ينهى القول فى شأن المشركين . ويلقى الكلمة الباقية فيهم إلى يوم الدين (يا أيها الذين امنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ; وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء . إن الله عليم حكيم) إنما المشركون نجس . يجسم التعبير نجاسة أرواحهم فيجعلها ماهيتهم وكيانهم . فهم بكليتهم وبحقيقتهم نجس ، يستقذره الحس ، ويتطهر منه المتطهرون ! وهو النجس المعنوى لا الحسى فى الحقيقة ، فأجسامهم ليست نجسة بذاتها . إنما هى طريقة التعبير القرآنية بالتجسيم (نجس . فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) وتلك غاية فى تحريم وجودهم بالمسجد الحرام ، حتى لينصب النهى على مجرد القرب منه , ويعلل بأنهم نجس وهو الطهور ! ولكن الموسم الاقتصادى الذى ينتظره أهل مكة ؛ والتجارة التى يعيش عليها معظم الظاهرين فى الجزيرة ؛ ورحلة الشتاء والصيف التى تكاد تقوم عليها الحياة ، أنها كلها ستتعرض للضياع بمنع المشركين من الحج ؛ وبإعلان الجهاد العام على المشركين كافة ، نعم ! ولكنها العقيدة . والله يريد أن تخلص القلوب كلها للعقيدة ! وبعد ذلك ، فالله هو المتكفل بأمر الرزق من وراء الأسباب المعهودة المألوفة (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) وحين يشاء الله يستبدل أسبابا بأسباب ؛ وحين يشاء يغلق بابا ويفتح الأبواب (إن الله عليم حكيم) يدبر الأمر كله عن علم وعن حكمة ، وعن تقدير وحساب ، لقد كان المنهج القرآنى يعمل ، فى المجتمع المسلم الذى نشأ من الفتح ؛ والذى لم تكن مستوياته الإيمانية قد تناسقت بعد ، وكما أننا نلمح من خلال السياق فى هذا المقطع ما كان يعتور هذا المجتمع من ثغرات . فكذلك نلمح عمل المنهج القرآنى فى سد هذه الثغرات . ونلمح الجهد الطويل المبذول لتربية هذه الأمة بهذا المنهج القرآنى الفريد . إن القمة التى كان المنهج القرآنى ينقل خطى هذه الأمة لتبلغ إليها ، هى قمة التجرد لله ، والخلوص لدينه . وقمة المفاصلة على أساس العقيدة مع كل أواصر القربى وكل لذائذ الحياة . وكان هذا يتم من خلال ما يبثه المنهج القرآنى من وعى لحقيقة الفوارق والفواصل بين منهج الله الذى يجعل الناس كلهم عبيدا لله وحده ، ومنهج الجاهلية الذى يجعل الناس أربابا بعضهم لبعض . . وهما منهجان لا يلتقيان . . ولا يتعايشان . . وبدون هذا الفقه الضرورى لطبيعة هذا الدين وحقيقته ، وطبيعة الجاهلية وحقيقتها ؛ لا يملك إنسان أن يقوم الأحكام الإسلامية ، التى تقرر قواعد المعاملات والعلاقات بين المعسكر المسلم وسائر المعسكرات .

(قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ{٢٩} وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ{٣٠} اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ{٣١} يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ{٣٢} هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ{٣٣} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{٣٤} يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ

فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ{٣٥} إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ{٣٦} إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ{٣٧}

هذا المقطع الثانى فى سياق السورة ؛ يستهدف تقرير الأحكام النهائية فى العلاقات بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب ؛ كما استهدف المقطع الأول منها تقرير الأحكام النهائية فى العلاقات بين هذا المجتمع والمشركين فى الجزيرة . وإذا كانت نصوص المقطع الأول فى منطوقها تواجه الواقع فى الجزيرة يومئذ ؛ وتتحدث عن المشركين فيها ؛ وتحدد صفات ووقائع وأحداثا تنطبق عليهم انطباقا مباشرا . فإن النصوص فى المقطع الثانى – الخاصة بأهل الكتاب – عامة فى لفظها ومدلولها ؛ وهى تعنى كل أهل الكتاب . سواء منهم من كان فى الجزيرة ومن كان خارجها كذلك . هذه الأحكام النهائية التى يتضمنها هذا المقطع تحتوى تعديلات أساسية فى القواعد التى كانت تقوم عليها العلاقات من قبل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب – وبخاصة النصارى منهم – فلقد كانت وقعت المواقع قبل ذلك مع اليهود ؛ ولكن حتى هذا الوقت لم يكن قد وقع منها شىء مع النصارى . والتعديل البارز فى هذه الأحكام الجديدة هو الأمر بقتال أهل الكتاب المنحرفين عن دين الله حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . . فلم تعد تقبل منهم عهود موادعة ومهادنة إلا على هذا الأساس . . أساس إعطاء الجزية . . وفى هذه الحالة تتقرر لهم حقوق الذمى المعاهد ؛ ويقوم السلام بينهم وبين المسلمين . فأما إذا اقتنعوا بالإسلام عقيدة فاعتنقوه فهم من المسلمين . . إنهم لا يكرهون على اعتناق الإسلام عقيدة . فالقاعدة الإسلامية المحكمة هى (لا إكراه فى الدين). . ولكنهم لا يتركون على دينهم إلا إذا أعطوا الجزية ، وقام بينهم وبين المجتمع المسلم عهد على هذا الأساس . وهذا التعديل الأخير فى قواعد التعامل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب لا يفهم على طبيعته إلا بالفقه المستنير لطبيعة العلاقات الحتمية بين منهج الله ومناهج الجاهلية من ناحية . ثم لطبيعة المنهج الحركى الإسلامى ، ومراحله المتعددة ، ووسائله المتجددة المكافئة للواقع البشرى المتغير من الناحية الأخرى . وطبيعة العلاقة الحتمية بين منهج الله ومناهج الجاهلية هى عدم إمكان التعايش إلا فى ظل أوضاع خاصة وشروط خاصة ؛ قاعدتها ألا تقوم فى وجه الإعلان العام الذى يتضمنه الإسلام لتحرير الإنسان بعبادة الله وحده والخروج من عبادة البشر للبشر ، أية عقبات مادية من قوة الدولة ، ومن نظام الحكم ، ومن أوضاع المجتمع على ظهر الأرض ! ذلك أن منهج الله يريد أن يسيطر ، ليخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده – كما هو الإعلان العام للإسلام – ومناهج الجاهلية تريد – دفاعا عن وجودها – أن تسحق الحركة المنطلقة بمنهج الله فى الأرض ، وأن تقضى عليها . . وطبيعة المنهج الحركى الإسلامى أن يقابل هذا الواقع البشرى بحركة مكافئة له ومتفوقة عليه ، فى مراحل متعددة ذات وسائل متجددة . . والأحكام المرحلية والأحكام النهائية فى العلاقات بين المجتمع المسلم والمجتمعات الجاهلية تمثل هذه الوسائل فى تلك المراحل . ومن أجل أن يحدد السياق القرآنى فى هذا المقطع من السورة طبيعة هذه العلاقات ، حدد حقيقة ما عليه أهل الكتاب ؛ ونص على أنه "شرك" و"كفر" و"باطل" وقدم الوقائع التى يقوم عليها هذا الحكم ، سواء من واقع معتقدات أهل الكتاب والتوافق والتضاهى بينها وبين معتقدات (الذين كفروا من قبل). أو من سلوكهم وتصرفهم الواقعى كذلك .

والنصوص الحاضرة تقرر:

أولا:أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .

ثانيا:أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله .

ثالثا:أنهم لا يدينون دين الحق .

رابعا:أن اليهود منهم قالت: عزير ابن الله . وأن النصارى منهم قالت:المسيح ابن الله وأنهم فى هذين القولين يضاهئون قول الذين كفروا من قبل سواء من الوثنيين الإغريق , أو الوثنيين الرومان ، أو الوثنيين الهنود ، أو الوثنيين الفراعنة ، أو غيرهم من الذين كفروا [وسنفصل فيما بعد أن التثليث عند النصارى ، وادعاء البنوة لله منهم أو من اليهود مقتبس من الوثنيات السابقة وليس من أصل النصرانية ولا اليهودية . [

خامسا:أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . كما اتخذوا المسيح ربا . وأنهم بهذا خالفوا عما أمروا به من توحيد الله والدينونة له وحده ، وأنهم لهذا (مشركون)!

سادسا:أنهم محاربون لدين الله يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، وأنهم لهذا)كافرون)!

سابعا:أن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله .

وعلى أساس هذه الأوصاف وهذا التحديد لحقيقة ما عليه أهل الكتاب ، قرر الأحكام النهائية التى تقوم عليها العلاقات بينهم وبين المؤمنين بدين الله ، القائمين على منهج الله . . ولقد يبدو أن هذا التقرير لحقيقة ما عليه أهل الكتاب ، مفاجئ ومغاير للتقريرات القرآنية السابقة عنهم ؛ كما يحلو للمستشرقين والمبشرين وتلاميذهم أن يقولوا ، زاعمين أن رسول الله ﷺ قد غير أقواله وأحكامه عن أهل الكتاب عندما أحس بالقوة والقدرة على منازلتهم ! ولكن المراجعة الموضوعية للتقريرات القرآنية – المكية والمدنية – عن أهل الكتاب , تظهر بجلاء أنه لم يتغير شىء فى أصل نظرة الإسلام إلى عقائد أهل الكتاب التى جاء فوجدهم عليها ، وانحرافها وبطلانها ؛ وشركهم وكفرهم بدين الله الصحيح – حتى بما أنزل عليهم منه وبالنصيب الذى أوتوه من قبل – أما التعديلات فهى محصورة فى طريقة التعامل معهم . . وهذه – كما قلنا مراراً – تحكمها الأحوال والأوضاع الواقعية المتجددة . أما الأصل الذى تقوم عليه – وهو حقيقة ما عليه أهل الكتاب – فهو ثابت منذ اليوم الأول فى حكم الله عليهم . ونضرب هنا بعض الأمثلة من التقريرات القرآنية عن أهل الكتاب وحقيقة ما هم عليه . . ثم نستعرض مواقفهم الواقعية من الإسلام وأهله ، تلك المواقف التى انتهت إلى هذه الأحكام النهائية فى التعامل معهم ، فى مكة لم تكن توجد جاليات يهودية أو نصرانية ذات عدد أو وزن فى المجتمع . . إنما كان هناك أفراد ، يحكى القرآن عنهم أنهم استقبلوا الدعوة الجديدة إلى الإسلام بالفرح والتصديق والقبول ؛ ودخلوا فى الإسلام ، وشهدوا له ولرسوله بأنه الحق المصدق لما بين أيديهم . . ولا بد أن يكون هؤلاء ممن كان قد بقى على التوحيد من النصارى واليهود ; وممن كان معهم شىء من بقايا الكتب المنزلة . . وفى أمثال هؤلاء وردت مثل هذه الآيات (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا:آمنا به ، إنه الحق من ربنا ، إنا كنا من قبله مسلمين). . . [القصص:٥٢ – ٥٣] (قل:آمنوا به أولا تؤمنوا ، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ، ويقولون:سبحان ربنا ، إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) [الإسراء:١٠٧ – ١٠٩] وقد تكررت هذه الاستجابة من أفراد كذلك فى المدينة ؛ حكى عنهم القرآن بعض المواقف فى السور المدنية ؛ مع النص فى بعضها على أنهم من النصارى ، ذلك أن اليهود كانوا قد اتخذوا موقفاً آخر غير ما كان يتخذه أفراد منهم فى مكة ، عندما أحسوا خطر الإسلام فى المدينة (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن باللّه وما انزل اليكم وما أنزل إليهم ، خاشعين للّه لا يشترون بآيات اللّه ثمناً قليلاً ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم ، إن اللّه سريع الحساب)] آل عمران:١٩٩] (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا:إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً ، وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق , يقولون:ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن باللّه وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ؟ فأثابهم اللّه بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين) [المائدة:٨٢ – ٨٥] ولكن موقف هؤلاء الأفراد لم يكن يمثل موقف الغالبية من أهل الكتاب فى الجزيرة – ومن اليهود منهم بصفة خاصة – فقد جعل هؤلاء يشنون على الإسلام ، منذ أن احسوا خطره عليهم فى المدينة ، حرباً خبيثة ، يستخدمون فيها كل الوسائل التى حكاها القرآن عنهم فى نصوص كثيرة ؛ كما أنهم فى الوقت ذاته رفضوا الدخول فى الإسلام طبعاً ؛ وأنكروا وجحدوا ما فى كتبهم من البشارة بالرسول ﷺ ومن تصديق القرآن لما بين أيديهم من بقايا كتبهم الحقة ، مما كان أولئك الأفراد الطيبون يعترفون به ويقرونه ويجاهرون به فى وجه المنكرين الجاحدين ! . . . كذلك أخذ القرآن يتنزل بوصف هذا الجحود وتسجيله ؛ وبتقرير ما عليه أهل الكتاب هؤلاء من الانحراف والفساد والبطلان فى شتى السور المدنية . . على أن القرآن المكى لم يخل من تقريرات عن حقيقة ما عليه أهل الكتاب . نذكر من ذلك (ولما جاء عيسى بالبينات قال:قد جئتكم بالحكمة ، ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه , فاتقوا اللّه وأطيعون . إن اللّه هو ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم). [الزخرف:٦٣ – ٦٥ . [(وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم – بغياً بينهم). . . (ولولا حكمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب). الشورى:١٤] . أما القرآن المدنى فقد تضمن

الكلمة الأخيرة في حقيقة ما عليه أهل الكتاب ؛ كما حكى عنهم أشنع الوسائل وأبشع الطرق في حرب هذا الدين وأهله في قطاعات طويلة من سور البقرة , وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، وغيرها . قبل أن يقرر الكلمة النهائية في أمرهم كله في سورة التوبة . وسنكتفي هنا بنماذج محدودة من هذه التقريرات القرآنية الكثيرة: (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام اللّه ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ؟ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا:آمنا . وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا:أتحدثونهم بما فتح اللّه عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ أو لا يعلمون أن اللّه يعلم ما يسرون وما يعلنون ؟ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ , وإن هم إلا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون:هذا من عند اللّه ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون . . .( )]البقرة:٧٥ – ٧٩] .

ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ؟ وقالوا:قلوبنا غلف . بل لعنهم اللّه بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند اللّه مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين . بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل – اللّه – بغياً أن ينزل اللّه من فضله على من يشاء من عباده – فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذابمهين . وإذا قيل لهم:آمنوا بما أنزل اللّه ، قالوا:نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم . قل:فلم تقتلون أنبياء اللّه من قبل إن كنتم مؤمنين !). .] البقرة:٨٧ – ٩١] (قل:يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات اللّه ؟ واللّه شهيد على ما تعملون . قل:يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل اللّه من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء ؟ وما اللّه بغافل عما تعملون) [آل عمران:٩٨ – ٩٩] .

أما الذى وقع فيه التعديل فعلاً فهو أحكام التعامل مع أهل الكتاب . فترة بعد فترة . ومرحلة بعد مرحلة . وواقعة بعد واقعة . وفق المنهج الحركى الواقعى لهذا الدين فى مواجهة أحوال أهل الكتاب وتصرفاتهم ومواقفهم مع المسلمين .

ولقد جاء زمان كان يقال فيه للمسلمين:

)ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن – إلا الذين ظلموا منهم – وقولوا:آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد , ونحن له مسلمون). . . [العنكبوت:٤٦] (قولوا آمنا باللّه وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط , وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق , فسيكفيكهم اللّه ، وهو السميع العليم). . . [البقرة:١٣٦ – ١٣٧] (قل:يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم:ألا نعبد إلا اللّه ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللّه . فإن تولوا فقولوا:اشهدوا بأنا مسلمون). . . [آل عمران:٦٤] .

ثم أتى اللّه بأمره الذى وكل المؤمنين إليه ؛ فوقعت أحداث ، وتعدلت أحكام ، وجرى المنهج الحركى الواقعى الإيجابى فى طريقه حتى كانت هذه الأحكام النهائية الأخيرة ، فى هذه السورة ، على النحو الذى رأينا إنه لم يتغير شىء فى نظرة هذا الدين إلى حقيقة ما عليه أهل الكتاب من فساد العقيدة ; ومن الشرك باللّه والكفر بآياته . . إنما الذى تغير هو قاعدة التعامل . . وهذه إنما تحكمها تلك الأصول التى أسلفنا الحديث عنها فى مطلع هذا الفصل التمهيدى لهذا المقطع من سياق السورة ، فى هذه الفقرات:" وهذا التعديل الأخير فى قواعد التعامل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب لا يفهم على طبيعته ، إلا بالفقه المستنير لطبيعة العلاقات الحتمية بين منهج اللّه ومناهج الجاهلية من ناحية . ثم لطبيعة المنهج الحركى الإسلامى ومراحله المتعددة ، ووسائله المتجددة , المكافئة للواقع البشرى المتغير ، من الناحية الأخرى . . . الخ" . والآن نأخذ فى شىء من استعراض طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم سواء من الناحية الموضوعية الثابتة ، أو من ناحية المواقف التاريخية الواقعة . . . فهذه هى العناصر الرئيسية التى انتهت إلى هذه الأحكام النهائية . إن طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم يجب البحث عنها اولاً:فى تقريرات اللّه – سبحانه – عنها ، باعتبار أن هذه هى الحقيقة النهائية التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ؛ وباعتبار أن هذه التقريرات – بسبب كونها ربانية – لا تتعرض لمثل ما تتعرض له

الاستنباطات والاستدلالات البشرية من الأخطاء . . وثانياً:فى المواقف التاريخية المصدقة لتقريرات اللّه سبحانه ! إن اللّه سبحانه يقرر طبيعة موقف أهل الكتاب من المسلمين في عدة مواضع من كتابه الكريم . . وهو تارة يتحدث عنهم – سبحانه – وحدهم ، وتارة يتحدث عنهم مع الذين كفروا من المشركين ؛ باعتبار أن هنالك وحدة هدف – تجاه الإسلام والمسلمين – تجمع الذين كفروا من أهل الكتاب والذين كفروا من المشركين . وتارة يتحدث عن مواقف واقعية لهم تكشف عن وحدة الهدف ووحدة التجمع الحركى لمواجهة الإسلام والمسلمين . . والنصوص التى تقرر هذه الحقائق من الوضوح والجزم بحيث لا تحتاج منا إلى تعليق .

وإذا نحن راجعنا الأهداف النهائية للمشركين تجاه الإسلام والمسلمين كما يقررها اللّه – سبحانه – فى قوله تعالى (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا). . . [البقرة:٢١٧] (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة). . . [النساء:١٠٢] (وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة). . . [التوبة:٨] (لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة). . . [التوبة:١٠] إذا نحن راجعنا هذه التقريرات الربانية عن المشركين ، وجدنا أن الأهداف النهائية لهم تجاه الإسلام والمسلمين ، هى بعينها – وتكاد تكون بألفاظها – هى الأهداف النهائية لأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين كذلك . . مما يجعل طبيعة موقفهم مع الإسلام والمسلمين هي ذاتها طبيعة موقف المشركين . وإذا نحن لاحظنا أن التقريرات القرآنية الواردة فى هؤلاء وهؤلاء ترد فى صيغ نهائية , تدل بصياغتها على تقرير طبيعة دائمة ، لا على وصف حالة مؤقتة ، كقوله تعالى فى شأن المشركين (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) وقوله تعالى فى شأن أهل الكتاب (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) إذا نحن لاحظنا ذلك تبين لنا بغير حاجة إلى أى تأويل للنصوص ، أنها تقرر طبيعة أصيلة دائمة للعلاقات ؛ ولا تصف حالة مؤقتة ولا عارضة ! فإذا نحن ألقينا نظرة سريعة على الواقع التاريخي لهذه العلاقات ، متمثلة فى مواقف أهل الكتاب – من اليهود والنصارى – من الإسلام وأهله ، على مدار التاريخ ، تبين لنا تماماً ماذا تعنيه تلك النصوص والتقريرات الإلهية الصادقة ؛ وتقرر لدينا أنها كانت تقرر طبيعة مطردة ثابتة ، ولم تكن تصف حالة مؤقتة عارضة . إننا إذا استثنينا حالات فردية – أو حالات جماعات قليلة – من التى تحدث القرآن عنها وحواها الواقع التاريخى بدت فيها الموادة للإسلام والمسلمين ؛ والاقتناع بصدق رسول الله ﷺ وصدق هذا الدين . ثم الدخول فيه والانضمام لجماعة المسلمين . . وهى الحالات التى أشرنا إليها فيما تقدم . . فإننا لا نجد وراء هذه الحالات الفردية أو الجماعية القليلة المحدودة ، إلا تاريخاً من العداء العنيد ، والكيد الناصب ، والحرب الدائبة ، التى لم تفتر على مدار التاريخ . . ثم ينتقل السياق القرآني إلى صفحة أخرى من صحائف الانحراف الذى عليه أهل الكتاب ; تتمثل فى هذه المرة لا فى القول والاعتقاد وحدهما ؛ ولكن كذلك فى الواقع القائم على الاعتقاد الفاسد (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللّه والمسيح ابن مريم . وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون) وفى هذه الآية استمرار فى وجهة السياق فى هذا المقطع من السورة . من إزالة الشبهة فى أن هؤلاء أهل كتاب . . فهم إذن على دين اللّه . . فهى تقرر أنهم لم يعودوا على دين اللّه ، بشهادة واقعهم – بعد شهادة اعتقادهم – وأنهم أمروا بأن يعبدوا اللّه وحده ، فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللّه – كما اتخذوا المسيح ابن مريم رباً – وأن هذا منهم شرك باللّه . . تعالى اللّه عن شركهم . . فهم إذن ليسوا مؤمنين باللّه اعتقاداً وتصوراً ؛ كما أنهم لا يدينون دين الحق واقعاً وعملاً . وقبل أن نقول:كيف اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً ، نحب أن نعرض الروايات الصحيحة التى تضمنت تفسير رسول اللّه ﷺ للآية . وهو فصل الخطاب . الأحبار جمع حَبر أو حِبر بفتح الحاء أو بكسرها ، وهو العالم من أهل الكتاب وكثر إطلاقه على علماء اليهود . . والرهبان جمع راهب ، وهو عند النصارى المتبتل المنقطع للعبادة ; وهو عادة لا يتزوج ، ولا يزاول الكسب ، ولا يتكلف للمعاش . وفي" الدر المنثور" . . روى الترمذى [وحسنه] وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى سننه وغيرهم عن عدى بن حاتم – رضى اللّه عنه – قال:أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ فى سورة براءة: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللّه) فقال:" أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه . وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه " وقال الألوسى فى التفسير (الأكثرون من المفسرين قالوا:ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا أنهم آلهة العالم . بل المراد أنهم أطاعوهم فى أوامرهم ونواهيهم) . ومن النص القرآني الواضح الدلالة ؛ ومن تفسير رسول اللّه ﷺ وهو فصل الخطاب , ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين ، تخلص لنا حقائق فى العقيدة والدين ذات أهمية بالغة نشير إليها هنا بغاية الاختصار . ن العبادة هى الاتباع فى الشرائع بنص القرآن وتفسير رسول اللّه ﷺ فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً بمعنى الاعتقاد بألوهيتهم أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم . . ومع هذا فقد حكم اللّه – سبحانه – عليهم بالشرك فى هذه

الآية – وبالكفر في آية تالية فى السياق – لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها . . فهذا وحده – دون الاعتقاد والشرائع – يكفى لاعتبار من يفعله مشركا بالله ، الشرك الذى يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله فى عداد الكافرين . وهذه الحقائق – وإن كان المقصود الأول بها فى السياق هو مواجهة الملابسات التى كانت قائمة فى المجتمع المسلم يومذاك من التردد والتهيب للمعركة مع الروم ، وجلاء شبهة أنهم مؤمنون بالله لأنهم أهل كتاب – هى كذلك حقائق مطلقة تفيدنا فى تقرير" حقيقة الدين" عامة . . إن دين الحق الذى لا يقبل الله من الناس كلهم ديناً غيره هو "الإسلام" . . والإسلام لا يقوم إلا باتباع الله وحده فى الشريعة – بعد الاعتقاد بألوهيته وحده وتقديم الشعائر التعبدية له وحده – فإذا اتبع الناس شريعة غير شريعة الله صح فيهم ما صح فى اليهود والنصارى من أنهم مشركون لا يؤمنون بالله – مهما كانت دعواهم فى الإيمان – لأن هذا الوصف يلحقهم بمجرد اتباعهم لتشريع العباد لهم من دون الله ، بغير إنكار منهم يثبت منه أنهم لا يتبعون إلا عن إكراه واقع بهم ، لا طاقة لهم بدفعه , وأنهم لا يقرون هذا الافتئات على الله . . ثم يمضى السياق خطوة أخرى فى تحريض المؤمنين على القتال (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون) إن أهل الكتاب هؤلاء لا يقفون عند حد الانحراف عن دين الحق ، وعبادة أرباب من دون الله . وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر – وفق المفهوم الصحيح للإيمان بالله واليوم الآخر – إنما هم كذلك يعلنون الحرب على دين الحق ؛ ويريدون إطفاء نور الله فى الأرض المتمثل فى هذا الدين ، وفى الدعوة التى تنطلق به فى الأرض ، وفى المنهج الذى يصوغ على وفقه حياة البشر (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم) فهم محاربون لنور الله . سواء بما يطلقونه من أكاذيب ودسائس وفتن ؛ أو بما يحرضون به أتباعهم وأشياعهم على حرب هذا الدين وأهله ، والوقوف سداً فى وجهه – كما كان هو الواقع الذى تواجهه هذه النصوص وكما هو الواقع على مدار التاريخ . وهذا التقرير – وإن كان يراد به استجاشة قلوب المسلمين إذ ذاك – هو كذلك يصور طبيعة الموقف الدائم لأهل الكتاب من نور الله المتمثل فى دينه الحق الذى يهدى الناس بنور الله (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) وهو الوعد الحق من الله ، الدال على سنته التى لا تتبدل ، فى إتمام نوره بإظهار دينه ولو كره الكافرون ، وهو وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا ؛ فيدفعهم هذا إلى المضى فى الطريق على المشقة واللأواء فى الطريق ؛ وعلى الكيد والحرب من الكافرين [والمراد بهم هنا هم أهل الكتاب السابق ذكرهم] . . كما أنه يتضمن فى ثناياه الوعيد لهؤلاء الكافرين وأمثالهم على مدار الزمان ! ويزيد السياق هذا الوعيد وذلك الوعد توكيداً (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون) وفى هذا النص يتبين أن المراد بدين الحق ، هو هذا الدين الذى أرسل الله به رسوله الأخير . وأن الذين لا يدينون بهذا الدين هم الذين يشملهم الأمر بالقتال ، وهذا صحيح على أى وجه أوّلنا الآية . فالمقصود إجمالاً بدين الحق هو الدينونة لله وحده فى الاعتقاد والشعائر والشرائع – وهذه هى قاعدة دين الله كله ، وهو الدين الممثل أخيراً فيما جاء به محمد ﷺ فأيما شخص أو قوم لم يدينوا لله وحده فى الاعتقاد والشعائر والشرائع مجتمعة ؛ انطبق عليهم أنهم لا يدينون دين الحق , ودخلوا فى مدلول آية القتال . . مع مراعاة طبيعة المنهج الحركى للإسلام ، ومراحله المتعددة , ووسائله المتجددة كما قلنا مراراً (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون) وهذا توكيد لوعد الله الأول (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) ولكن فى صورة أكثر تحديداً . فنور الله الذى قرر سبحانه أن يتمه ، هو دين الحق الذى أرسل به رسوله ليظهره على الدين كله . والله سبحانه يقول:إنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . . ويجب أن نفهم "الدين" بمدلوله الواسع الذى بيناه ، لندرك أبعاد هذا الوعد الإلهى ومداه ، إن" الدين" هو "الدينونة" . . فيدخل فيه كل منهج وكل مذهب وكل نظام يدين الناس له بالطاعة والاتباع والولاء . . ثم يخطو السياق الخطوة الأخيرة فى هذا المقطع من السورة ، مصوراً كيف أن أهل الكتاب لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، بعد ما أشار إلى هذه الحقيقة فى قوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) التى فسرها رسول الله ﷺ بأنهم" أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم" . . فبين أنهم إذن لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، إنما يحرمون ما حرمه عليهم الأحبار والرهبان ! يخطو السياق الخطوة الأخيرة فى بيان هذه الحقيقة مخاطباً بها الذين آمنوا كاشفاً لهم فى هذا الخطاب عن حقيقة أهل الكتاب (يا أيها الذين آمنوا ، إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل , ويصدون عن سبيل الله . والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون) وفى الآية الأولى استطراد فى بيان دور الأحبار والرهبان الذين اتخذهم أهل الكتاب أرباباً من دون الله ، فاتبعوهم فيما يشرعون لهم من المعاملات ومن العبادات سواء . فهؤلاء الأحبار والرهبان يجعلون من أنفسهم ويجعلهم قومهم أرباباً تتبع وتطاع ؛ وهم

فيما يشرعون يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . وأكل أموال الناس كان يتمثل في صور شتى وما يزال ، منها ما يأخذونه على فتاوى تحليل الحرام وتحريم الحلال لصالح من يملكون المال أو السلطان . ومنها ما يأخذه القسيس أو الكاهن مقابل الإعتراف له بالخطايا وغفرانه – بالسلطان المخول للكنيسة فى زعمهم – لتلك الخطايا ! ومنها الربا – وهو أوسع أبوابها وأبشعها – وغيرها كثير . كذلك ما يجمعونه من أموال الناس لمحاربة دين الحق ؛ وقد كان الرهبان والأساقفة والكرادلة والبابوات يجمعون مئات الملايين فى الحروب الصليبية ، وما يزالون يجمعونها للتبشير والاستشراق للصد عن سبيل الله . ولابد أن نلحظ الدقة القرآنية والعدل الإلهى فى قول الله تعالى فى ذلك (إن كثيراً من الأحبار والرهبان .) للاحتراز من الحكم على القليل منها الذى لا يزاول هذه الخطيئة . ولا بد من أفراد فى أية جماعة من الناس فيهم بقية خير . . ولا يظلم ربك احداً . . والكثير من الأحبار والرهبان يكنزون هذه الأموال التى يأكلونها بالباطل . وقد شهد تاريخ هؤلاء الناس أموالاً ضخمة تنتهى إلى أيدى رجال الدين وتؤول إلى الكنائس والأديرة . وقد جاء عليهم زمان كانوا أكثر ثراء من الملوك المتسلطين والأباطرة الطغاة ! والسياق القرآنى يصور عذابهم فى الآخره بما كنزوا ، وعذاب كل من يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها فى سبيل الله ، فى مشهد من المشاهد التصويرية الرائعة المروع (إوالذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) إن رسم المشهد هكذا فى تفصيل ؛ وعرض مشهد العملية منذ خطواتها الأولى إلى خطواتها الأخيرة ، ليطيل المشهد فى الخيال والحس . . وهى إطالة مقصودة (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) ويسكت السياق: وتنتهى الآية على هذا الإجمال والإبهام فى العذاب ، ثم يأخذ فى التفصيل بعد الإجمال (يوم يحمى عليها فى نار جهنم) وينتظر السامع عملية الإحماء ! ثم ها هى ذى حميت واحمرت . وها هى ذى معدة مهيأة . فليبدأ العذاب الأليم . . . ها هى ذى الجباه تكوى . . . لقد انتهت عملية الكى فى الجباه ، فليداروا على الجنوب . . . ها هى ذى الجنوب تكوى . . . لقد انتهت هذه فليداروا على الظهور . . . ها هى ذى الظهور تكوى . . . لقد انتهى هذا اللون من العذاب ؛ فليتبعه الترذيل والتأنيب (هذا ما كنزتم لأنفسكم) هذا هو بذاته الذى كنزتموه للذة ، فانقلب أداة لهذا اللون الأليم من العذاب ! (فذوقوا ما كنتم تكنزون)! ذوقوه بذاته ، فهو هو الذى تذوقون منه مسه للجنوب والظهور والجباه ! ألا إنه لمشهد مفزع مروع ، يعرض فى تفصيل وتطويل وأناة ! وهو يعرض أولاً لتصوير مصائر الكثير من الأحبار والرهبان . . ثم لتصوير مصائر الكانزين للذهب والفضة لا ينفقونها فى سبيل الله . . والسياق يمهد لغزوة العسرة كذلك حينذاك ! هذا المقطع فى السياق استطراد فى إزالة المعوقات التى كانت قائمة فى طريق النفرة إلى جهاد الروم وحلفائهم من نصارى العرب فى شمال الجزيرة . . ذلك أن الاستنفار لهذه الغزوة – تبوك – كان فى رجب من الأشهر الحرم . ولكن كانت هناك ملابسة واقعة . وهى أن رجب فى هذا العام لم يكن فى موعده الحقيقى ! وذلك بسبب "النسيء " الذى ورد ذكره فى الآية الثانية – كما سنبين – فقد ورد أن ذا الحجة فى هذا العام لم يكن فى موعده كذلك , إنما كان فى ذى القعدة ! فكأن رجب كان فى جمادى الآخرة . . وسر هذا الاضطراب كله هو اضطراب الجاهلية فى تقاليدها ؛ وعدم التزامها بالحرمات إلا شكلاً ؛ والتأويلات والفتاوى التى تصدر عن البشر ، ما دام أن أمر التحليل والتحريم يوكل فى الجاهلية إلى البشر ! وبيان هذه القضية:أن الله حرم الأشهر الحرم الأربعة وهى الثلاثة المتوالية:ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، والشهر الرابع المفرد:رجب . . والواضح أن هذا التحريم كان مع فرض الحج فى أشهره المعلومات منذ إبراهيم وإسماعيل . . وعلى كثرة ما حرف العرب فى دين إبراهيم ، وعلى شدة ما انحرفوا عنه فى جاهليتهم قبل الإسلام ؛ فإنهم بقوا يعظمون الأشهر الحرم هذه ؛ لارتباطها بموسم الحج ؛ الذى كانت تقوم عليه حياة الحجازيين , وبخاصة سكان مكة . كيما يكون هناك السلام الشامل فى الجزيرة الذى يسمح بالموسم , والانتقال إليه ، والتجارة فيه ! ثم كانت – بعد ذلك – تعرض حاجات لبعض القبائل العربية تتعارض مع تحريم هذه الأشهر . . وهنا تلعب الأهواء ؛ ويقوم من يفتى باستحلال أحد الأشهر الحرم عن طريق تأخيره فى عام وتقديمه فى عام آخر ، فتكون عدة الأشهر المحرمة أربعة ، ولكن أعيان هذه الأشهر تتبدل (ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله). . فلما كان هذا العام التاسع كان رجب الحقيقى غير رجب ، وكان ذو الحجة الحقيقى غير ذي الحجة ! كان رجب هو جمادى الآخرة ، وكان ذو الحجة هو ذا القعدة ! وكان النفير فى جمادى الاخرة فعلا وواقعاً ، ولكنه كان فى رجب اسماً بسبب هذا النسيء ! فجاءت هذه النصوص تبطل النسيء ; وتبين مخالفته ابتداء لدين الله ، الذى يجعل التحليل والتحريم [والتشريع كله [حقاً خالصاً لله ؛ وتجعل مزاولته من البشر – بغير ما أذن الله – كفراً . . بل زيادة فى الكفر . . ومن ثم تزيل العقبة التي تحيك فى بعض النفوس من استحلال رجب . وفى الوقت ذاته تقرر أصلاً من أصول العقيدة الأساسية ؛ وهو قصر حق التشريع فى الحل والحرمة على الله وحده . وتربط هذه الحقيقة بالحق الأصيل فى بناء الكون كله ، يوم

خلق اللّه السماوات والأرض . فتشريع اللّه للناس إنما هو فرع عن تشريعه للكون كله بما فيه هؤلاء الناس . والحيدة عنه مخالفة لأصل تكوين هذا الكون وبنائه ؛ فهو زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا . . وحقيقة أخرى تقررها هذه النصوص ، تتعلق بما سبق تقريره فى المقطع السابق مباشرة , من اعتبار أهل الكتاب مشركين ، وضمهم فى العداوة والجهاد إلى المشركين . والأمر بقتالهم كافة . . المشركين وأهل الكتاب . . كما أنهم يقاتلون المسلمين كافة . . الأمر الذى يقرره الواقع التاريخى كله ؛ كما تقرره من قبل كلمات اللّه – سبحانه – وهى تعبر عن وحدة الهدف تماماً بين المشركين وأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين ، وعن وحدة الصف التى تجمعهم كذلك عند ما تكون المعركة مع الإسلام والمسلمين ، مهما يكن بينهم هم من عداوات قبل ذلك وثارات واختلافات فى تفصيلات العقيدة كذلك ، لا تقدم شيئاً ولا تؤخر فى تجمعهم جميعاً فى وجه الانطلاق الإسلامى ؛ وفى عملهم متجمعين لسحق الوجود الإسلامى . وهذه الحقيقة الأخيرة الخاصة بأن أهل الكتاب مشركون كالمشركين ، وأن المشركين هؤلاء وهؤلاء يقاتلون المسلمين كافة فوجب على المسلمين أن يقاتلوهم كافة . . بالإضافة إلى الحقيقة الأولى:وهى أن النسىء زيادة فى الكفر ، لأنه مزاولة للتشريع بغير ما أنزل اللّه ، فهو كفر يضاف إلى الكفر الاعتقادى ويزيد فيه . . هاتان الحقيقتان هما المناسبة التى تربط هاتين الآيتين بما قبلهما وما بعدهما فى السياق ؛ الذى يعالج المعوقات دون النفير العام ، والانطلاق الإسلامى تجاه المشركين وأهل الكتاب (إن عدة الشهور عند اللّه اثنا عشر شهراً فى كتاب اللّه يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم) إن هذا النص القرآنى يرد معيار الزمن ، وتحديد دورانه إلى طبيعة الكون التى فطره اللّه عليها . وإلى أصل الخلقة . خلقة السماوات والأرض . ويشير إلى أن هناك دورة زمنية ثابتة ، مقسمة إلى اثنى عشر شهراً . يستدل على ثباتها بثبات عدة الأشهر ؛ فلا تزيد فى دورة وتنقص فى دورة . وأن ذلك فى كتاب اللّه – أى فى ناموسه الذى أقام عليه نظام هذا الكون . فهى ثابتة على نظامها ، لا تتخلف ولا تتعرض للنقص والزيادة . لأنها تتم وفق قانون ثابت ، هو ذلك الناموس الكونى الذى أراده اللّه يوم خلق السماوات والأرض ، هذه الإشارة إلى ثبات الناموس يقدم بها السياق لتحريم الأشهر الحرم وتحديدها ، ليقول:إن هذا التحديد والتحريم جزء من نواميس اللّه ثابت كثباتها ، لا يجوز تحريفه بالهوى , ولا يجوز تحريكه تقديماً وتأخيراً ، لأنه يشبه دورة الزمن التى تتم بتقدير ثابت , وفق ناموس لا يتخلف (ذلك الدين القيم) فهذا الدين مطابق للناموس الأصيل ، الذى تقوم به السماوات والأرض ، منذ أن خلق اللّه السماوات والأرض (ذلك الدين القيم . فلا تظلموا فيهن أنفسكم) لا تظلموا أنفسكم فى هذه الأشهر الحرم التى يتصل تحريمها بناموس كونى تقوم عليه السماوات والأرض . ذلك الناموس هو أن اللّه هو المشرع للناس كما أنه هو المشرع للكون . . لا تظلموا أنفسكم بإحلال حرمتها التى أرادها اللّه لتكون فترة أمان وواحة سلام ; فتخالفوا عن إرادة اللّه . وفى هذه المخالفة ظلم للأنفس بتعريضها لعذاب اللّه فى الآخرة ، وتعريضها للخوف والقلق فى الأرض ، حين تستحيل كلها جحيماً حربية , لا هدنة فيها ولا سلام (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) ذلك فى غير الأشهر الحرم ، ما لم يبدأ المشركون بالقتال فيتعين رد الاعتداء فى تلك الأشهر ، لأن الكف عن القتال من جانب واحد يضعف القوة الخيرة ، المنوط بها حفظ الحرمات , ووقف القوة الشريرة المعتدية ؛ ويشيع الفساد فى الأرض ؛ والفوضى فى النواميس . فرد الاعتداء فى هذه الحالة وسيلة لحفظ الأشهر الحرم ، فلا يعتدى عليها ولا تهان (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) قاتلوهم جميعاً بلا استثناء أحد منهم ولا جماعة ، فهم يقاتلونكم جميعاً لا يستثنون منكم أحداً ، ولا يبقون منكم على جماعة . والمعركة فى حقيقتها إنما هى معركة بين الشرك والتوحيد . وبين الكفر والإيمان وبين الهدى والضلال . معركة بين معسكرين متميزين لا يمكن أن يقوم بينهما سلام دائم ، ولا أن يتم بينهما اتفاق كامل . لأن الخلاف بينهما ليس عرضياً ولا جزئياً . ليس خلافاً على مصالح يمكن التوفيق بينها , ولا على حدود يمكن أن يعاد تخطيطها . وإن الأمة المسلمة لتخدع عن حقيقة المعركة بينها وبين المشركين – وثنيين وأهل كتاب – إذا هى فهمت أو أفهمت أنها معركة اقتصادية أو معركة قومية ، أو معركة وطنية ، أو معركة استراتيجية . . كلا . إنها قبل كل شىء معركة العقيدة . والمنهج الذى ينبثق من هذه العقيدة . . أى الدين . . وهذه لا تجديفيها أنصاف الحلول . ولا تعالجها الاتفاقات والمناورات . ولا علاج لها إلا بالجهاد والكفاح الجهاد الشامل والكفاح الكامل . سنة اللّه التى لا تتخلف ، وناموسه الذى تقوم عليه السماوات والأرض , وتقوم عليه العقائد والأديان ، وتقوم عليه الضمائر والقلوب . فى كتاب اللّه يوم خلق اللّه السماوات والأرض (واعلموا أن اللّه مع المتقين) فالنصر للمتقين الذين يتقون أن ينتهكوا حرمات اللّه . وأن يحلوا ما حرم اللّه ، وأن يحرفوا نواميس اللّه . فلا يقعد المسلمون عن جهاد المشركين كافة ، ولا يتخوفوا من الجهاد الشامل . فهو جهاد فى سبيل اللّه يقفون فيه عند حدوده وآدابه ؛ ويتوجهون به إلى اللّه يراقبونه فى السر والعلانية . فلهم النصر ، لأن اللّه معهم ، ومن كان اللّه معه فهو المنصور بلا جدال (إنما النسىء زيادة فى الكفر . يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً , ليواطئوا عدة ما حرم اللّه ، فيحلوا ما

حرم اللّه . زين لهم سوء أعمالهم . واللّه لا يهدى القوم الكافرين) قال مجاهد – رضى اللّه عنه –:كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول:أيها الناس . إنى لا أعاب ولا أخاب ، ولا مرد لما أقول . أنا قد حرمنا المحرم وأخرنا صفر . ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ، ويقول:إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله: (ليواطئوا عدة ما حرم اللّه)قال:يعنى الأربعة . فيحلوا ما حرم اللّه تأخير هذا الشهر الحرام . وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم:هذا رجل من بنى كنانة يقال له القلمس ، وكان فى الجاهلية وكانوا فى الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام ، يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يمد إليه يده ؛ فلما كان هو قال:اخرجوا بنا . قالوا له:هذا المحرم . قال:ننسئه العام . هما العام صفران . فإذا كان العام القابل قضينا . . جعلناهما محرمين . . قال ففعل ذلك . فلما كان عام قابل قال لا تغزوا فى صفر . حرموه مع المحرم . هما محرمان . . فهذان قولان فى الآية ، وصورتان من صور النسىء . فى الصورة الأولى يحرم صفر بدل المحرم فالشهور المحرمة أربعة فى العدد ، ولكنها ليست هى التى نص عليها اللّه ، بسبب إحلال شهر المحرم . وفى الصورة الثانية يحرم فى عام ثلاثة أشهر وفى عام آخر خمسة أشهر فالمجموع ثمانية فى عامين بمتوسط أربعة فى العام ولكن حرمة المحرم ضاعت فى أحدهما ، وحل صفر ضاع فى ثانيهما ! وهذه كتلك فى إحلال ما حرم اللّه ؛ والمخالفة عن شرع اللّه (زيادة فى الكفر) ذلك أنه – كما أسلفنا – كفر مزاولة التشريع إلى جانب كفر الاعتقاد (يضل به الذين كفروا) ويخدعون بما فيه من تلاعب وتحريف وتأويل (زين لهم سوء أعمالهم) فإذا هم يرون السوء حسناً ، ويرون قبح الانحراف جمالاً ، ولا يدركون ما هم فيه من ضلال ولجاج فى الكفر بهذه الأعمال .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ{٣٨} إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٣٩} إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{٤٠} انفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ){٤١}

هذا المقطع من سياق السورة يرجح أنه نزل بعد الأمر بالنفير العام لغزوة تبوك . ذلك حين بلغ رسول اللّه – ﷺ أن الروم قد جمعوا له على أطراف الجزيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه رزق سنة ، وانضمت إليهم لخم وجذام وعاملة وغسان من قبائل العرب . وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء من أعمال الشام . فاستنفر الناس إلى قتال الروم . وكان ﷺ قلما يخرج إلى غزوة إلا ورّى بغيرها مكيدة فى الحرب ، إلا ما كان من هذه الغزوة . فقد صرح بها لبعد الشقة وشدة الزمان . إذ كان ذلك فى شدة الحر , حين طابت الظلال ، وأينعت الثمار ، وحبب إلى الناس المقام . . عندئذ بدأت تظهر فى المجتمع المسلم تلك الأعراض التى تحدثنا عنها فى تقديم السورة . كما وجد المنافقون فرصتهم للتخذيل . فقالوا:لا تنفروا فى الحر . وخوفوا الناس بعد الشقة ، وحذروهم بأس الروم . . وكان لهذه العوامل المختلفة أثرها فى تثاقل بعض الناس عن النفرة . . وهذا ما تعالجه هذه الفقرة (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل اللّه اثاقلتم إلى الأرض)ذلك بدء العتاب للمتخلفين والتهديد بعاقبة التثاقل عن الجهاد فى سبيل اللّه ، والتذكير لهم بما كان من نصر اللّه لرسوله ، قبل أن يكون معه منهم أحد ، وبقدرته على إعادة هذا النصر بدونهم ، فلا ينالهم عندئذ إلا إثم التخلف والتقصير . إنها ثقلة الأرض ، ومطامع الأرض ، وتصورات الأرض . . ثقلة الخوف على الحياة ، والخوف على المال ، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع . . ثقلة الدعة والراحة والاستقرار . . ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب . . . ثقلة اللحم والدم والتراب . . والتعبير يلقى كل هذه الظلال بجرس ألفاظه (اثاقلتم) . وهى بجرسها تمثل الجسم المسترخى الثقيل ، يرفعه الرافعون فى جهد فيسقط منهم فى ثقل ! ويلقيها بمعنى ألفاظه (اثاقلتم إلى الأرض) وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق . إن النفرة للجهاد فى سبيل اللّه انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم ; وتحقيق للمعنى العلوى فى الإنسان ، وتغليب لعنصر الشوق المجنح فى كيانه على عنصر القيد والضرورة ؛ وتطلع إلى الخلود الممتد ، وخلاص من الفناء المحدود (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) وما يحجم ذو عقيدة فى اللّه عن النفرة للجهاد فى سبيله ، إلا وفى هذه العقيدة دخل , وفى إيمان صاحبها بها وهن . لذلك يقول الرسول ﷺ " من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق " . فالنفاق – وهو دخل فى العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال – هو الذى يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد فى سبيل اللّه خشية الموت أو الفقر ، والآجال بيد اللّه ، والرزق من عند اللّه . وما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ،

ومن ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد (إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ، ولا تضروه شيئاً ، والله على كل شيء قدير) والخطاب لقوم معينين في موقف معين . ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله . والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده ، فهو كذلك عذاب الدنيا . عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح ، والغلبة عليهم للأعداء ، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين ؛ وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد ؛ ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء . وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل ، فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء (ويستبدل قوماً غيركم) يقومون على العقيدة ، ويؤدون ثمن العزة ، ويستعلون على أعداء الله (ولا تضروه شيئاً) ولا يقام لكم وزن ، ولا تقدمون أو تؤخرون في الحساب ! (والله على كل شيء قدير) لا يعجزه أن يذهب بكم ، ويستبدل قوماً غيركم ، ويغفلكم من التقدير والحساب ! إن الاستعلاء على ثقلة الأرض وعلى ضعف النفس ، إثبات للوجود الإنساني الكريم . فهو حياة بالمعنى العلوي للحياة:وإن التثاقل إلى الأرض والاستسلام للخوف إعدام للوجود الإنساني الكريم . فهو فناء في ميزان الله وفي حساب الروح المميزة للإنسان . ويضرب الله لهم المثل من الواقع التاريخي الذي يعلمونه ، على نصرة الله لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء ، والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ، ثاني اثنين إذ هما في الغار . إذ يقول لصاحبه:لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم)ذلك حين ضاقت قريش بمحمد ذرعاً ، كما تضيق القوة الغاشمة دائماً بكلمة الحق ، لا تملك لها دفعاً ، ولا تطيق عليها صبراً ، فائتمرت به ، وقررت أن تتخلص منه ؛ فأطلعه الله على ما ائتمرت ، وأوحى إليه بالخروج ، فخرج وحيداً إلا من صاحبه الصدّيق ، لا جيش ولا عدة ، وأعداؤه كثر ، وقوتهم إلى قوته ظاهرة . والسياق يرسم مشهد الرسول ﷺ وصاحبه (إذ هما في الغار) والقوم على إثرهما يتعقبون ، والصديق – رضى الله عنه – يجزع – لا على نفسه ولكن على صاحبه – أن يطلعوا عليهما فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب ، يقول له:لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه . والرسول ﷺ وقد أنزل الله سكينته على قلبه ، يهدئ من روعه ويطمئن من قلبه فيقول له:" يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ . " ثم كانت النتيجة هي النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس . وكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) وظلت كلمة الله في مكانها العالي منتصرة قوية نافذة (وكلمة الله هي العليا) وقد قرئ (وكلمة الله) بالنصب . ولكن القراءة بالرفع أقوى في المعنى . لأنها تعطي معنى التقرير . فكلمة الله هي العليا طبيعة وأصلاً ، بدون تصيير متعلق بحادثة معينة . والله(عزيز) لا يذل أولياؤه(حكيم)يقدر النصر في حينه لمن يستحقه . ذلك مثل على نصرة الله لرسوله ولكلمته ؛ والله قادر على أن يعيده على أيدي قوم آخرين غير الذين يتثاقلون ويتباطأون . وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجة بعد قول الله إلى دليل ! وفي ظلال هذا المثل الواقع المؤثر يدعوهم إلى النفرة العامة ، لا يعوقهم معوق . ولا يقعد بهم طارئ ، إن كانوا يريدون لأنفسهم الخير في هذه الأرض وفي الدار الاخرة (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) انفروا في كل حال ، وجاهدوا بالنفوس والأموال ، ولا تتلمسوا الحجج والمعاذير ، ولا تخضعوا للعوائق والتعلات (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) وأدرك المؤمنون المخلصون هذا الخير ، فنفروا والعوائق في طريقهم ، والأعذار حاضرة لو أرادوا التمسك بالأعذار . ففتح الله عليهم القلوب والأرضين ، وأعز بهم كلمة الله ، وأعزهم بكلمة الله ، وحقق على أيديهم ما يعد خارقة في تاريخ الفتوح . قرأ أبو طلحة – رضى الله عنه – سورة براءة فأتى على هذه الآية فقال:أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً ، جهزوني يا بني . فقال بنوه:يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم حتى مات ، ومع أبي بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك . فأبى فركب البحر فمات ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام , فلم يتغير ، فدفنوه بها . وروى ابن جرير بإسناده – عن أبي راشد الحراني قال:" وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة ، وقد فضل عنها من عظمه يريد الغزو ؛ فقلت له قد قد أعذر الله إليك . فقال:أتت علينا سورة البعوث . " (انفروا خفافاً وثقالاً) وبمثل هذا الجد في أخذ كلمات الله انطلق الإسلام في الأرض ، يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وتمت تلك الخارقة في تلك الفتوح التحريرية الفريدة .

(لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَّاتَّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{٤٢} عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ{٤٣} لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ{٤٤} إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي

رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ{٤٥} وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ
الْقَاعِدِينَ{٤٦} لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ{٤٧} لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ
كَارِهُونَ{٤٨} وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ{٤٩}
إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ{٥٠} قُل
لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ{٥١} قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى
الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ{٥٢}
قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ{٥٣} وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ
أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ{٥٤} فَلاَ تُعْجِبْكَ
أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ{٥٥}
وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ{٥٦} لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً
لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ{٥٧} وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطَوْاْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَا
إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ{٥٨} وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ
وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ{٥٩} إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي
الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{٦٠} وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ
النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ
يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{٦١} يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن
كَانُواْ مُؤْمِنِينَ{٦٢} أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ
الْعَظِيمُ{٦٣} يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا
تَحْذَرُونَ{٦٤} وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ
تَسْتَهْزِئُونَ{٦٥} لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ
مُجْرِمِينَ{٦٦} الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ
أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{٦٧} وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ{٦٨} كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ
أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي
خَاضُواْ أُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{٦٩} أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{٧٠} وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ{٧١} وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً
فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{٧٢} يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ
وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{٧٣} يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ
إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن
يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ{٧٤} وَمِنْهُم مَّنْ
عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ{٧٥} فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ
وَّهُم مُّعْرِضُونَ{٧٦} فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ
يَكْذِبُونَ{٧٧} أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ{٧٨} الَّذِينَ يَلْمِزُونَ
الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ{٧٩} اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ{٨٠} فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُواْ
أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُواْ
يَفْقَهُونَ{٨١} فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{٨٢} فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ
مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ
فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ{٨٣} وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ{٨٤} وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ
أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ{٨٥} وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللَّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ
مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ{٨٦} رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ
يَفْقَهُونَ{٨٧} لَـكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَـئِكَ

هُمُ الْمُفْلِحُونَ{٨٨} أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{٨٩} وَجَاء الْمُعَذِّرُونَ مِن الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{٩٠} لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٩١} وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِن الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ) {٩٢}

من هنا يبدأ الحديث عن الطوائف التى ظهرت عليها أعراض الضعف في الصف . وبخاصة جماعة المنافقين ، الذين اندسوا في صفوف المسلمين باسم الإسلام ، بعد أن غلب وظهر ، فرأى هؤلاء أن حب السلامة وحب الكسب يقتضيان أن يحنوا رؤوسهم للإسلام ، وأن يكيدوا له داخل الصفوف بعد أن عز عليهم أن يكيدوا له خارج الصفوف . وسنرى في هذا المقطع كل الظواهر التى تحدثنا عنها فى تقديم السورة كما يصورها السياق القرآني . ونحسب أنها ستكون مفهومة واضحة في ضوء ذلك التقديم الذى أسلفنا (لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لا تبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ؛ وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، والله يعلم إنهم لكاذبون) لو كان الأمر أمر عرض قريب من أعراض هذه الأرض ، وأمر سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك ! ولكنها الشقة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة . ولكنه الجهد الخطر الذى تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب المنخوبة . ولكنه الأفق العالى الذى تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة . وإنه لنموذج مكرور فى البشرية ذلك الذى ترسمه تلك الكلمات الخالدة (لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة) فكثيرون هم أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة . كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب ويميلون إلى عرض تافه أو مطلب رخيص . كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان وفى كل مكان ، فما هي قلة عارضة ، إنما هى النموذج المكرور . وإنهم ليعيشون على حاشية الحياة ، وإن خيل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب ، واجتنبوا أداء الثمن الغالى ، فالثمن القليل لا يشترى سوى التافه الرخيص ! (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم) فهو الكذب المصاحب للضعف أبداً . وما يكذب إلا الضعفاء . أجل ما يكذب إلا ضعيف ولو بدا في صورة الأقوياء الجبارين في بعض الأحايين . فالقوى يواجه والضعيف يداور . وما تتخلف هذه القاعدة في موقف من المواقف ولا في يوم من الأيام (يهلكون أنفسهم) بهذا الحلف وبهذا الكذب ، الذي يخيل إليهم أنه سبيل النجاة عند الناس ، والله يعلم الحق ، ويكشفه للناس ، فيهلك الكاذب في الدنيا بكذبه ، ويهلك فى الآخرة يوم لا يجدى النكران (والله يعلم إنهم لكاذبون) (عفا الله عنك . لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) إنه لطف الله برسوله ، فهو يعجل له بالعفو قبل العتاب . فلقد تدارى المتخلفون خلف إذن الرسول ﷺ لهم بالقعود حين قدموا له المعاذير . وقبل أن ينكشف صدقهم من كذبهم فى هذه المعاذير . وكانوا سيتخلفون عن الركب حتى ولو لم يأذن لهم . فعندئذ تتكشف حقيقتهم ، ويسقط عنهم ثوب النفاق ، ويظهرون للناس على طبيعتهم ، ولا يتوارون خلف إذن الرسول . وإذا لم يكن ذلك فإن القرآن يتولى كشفهم ، ويقرر القواعد التى يمتاز بها المؤمنون والمنافقون (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم , فهم في ريبهم يترددون) وهذه هى القاعدة التى لا تخطئ . فالذين يؤمنون بالله ، ويعتقدون بيوم الجزاء ، لا ينتظرون أن يؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد ؛ ولا يتلكأون في تلبية داعي النفرة فى سبيل الله بالأموال والأرواح ؛ بل يسارعون إليها خفافاً وثقالاً كما أمرهم الله , طاعة لأمره ، ويقيناً بلقائه ، وثقة بجزائه ، وابتغاء لرضاه . وإنهم ليتطوعون تطوعاً فلا يحتاجون إلى من يستحثهم ، فضلاً عن الإذن لهم . إنما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلكأون ويتلمسون المعاذير ، لعل عائقاً من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها ، وهم يرتابون فيها ويترددون . إن الطريق إلى الله واضحة مستقيمة ، فما يتردد ويتلكأ إلا الذى لا يعرف الطريق , أو الذى يعرفها ويتنكبها اتقاء لمتاعب الطريق ! ولقد كان أولئك المتخلفون ذوى قدرة على الخروج ، لديهم وسائله ، وعندهم عدته (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة) وقد كان فيهم عبدالله بن أبى بن أبى سلول ، وكان فيهم الجد بن قيس ، وكانوا أشرافاً فى قومهم أثرياء (ولكن كره الله انبعاثهم) لما يعلمه من طبيعتهم ونفاقهم ، ونواياهم المنطوية على السوء للمسلمين كما سيجيء (فثبطهم) ولم يبعث فيهم الهمة للخروج (وقيل:اقعدوا مع القاعدين) وتخلفوا مع العجائز والنساء والأطفال الذين لا يستطيعون الغزو ، ولا ينبعثون للجهاد . فهذا مكانكم اللائق بالهمم الساقطة والقلوب المرتابة والنفوس الخاوية من اليقين . وكان ذلك خيراً للدعوة وخيراً للمسلمين (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين) والقلوب الحائرة تبث الخور والضعف فى الصفوف ،

والنفوس الخائنة خطر على الجيوش ؛ ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطراباً وفوضى . ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل . وفى المسلمين من يسمع لهم فى ذلك الحين . ولكن اللّه الذى يرعى دعوته ويكلأ رجالها المخلصين ، كفى المؤمنين الفتنة , فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين (واللّه عليم بالظالمين) والظالمون هنا معناهم (المشركون) فقد ضمهم كذلك إلى زمرة المشركين ! وإن ماضيهم ليشهد بدخل نفوسهم ، وسوء طويتهم ، فلقد وقفوا فى وجه الرسول ﷺ وبذلوا ما فى طوقهم ، حتى غلبوا على أمرهم فاستسلموا وفى القلب ما فيه (لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر اللّه وهم كارهون) وكان ذلك عند مقدم الرسول ﷺ إلى المدينة ، قبل أن يظهره اللّه على أعدائه . ثم جاء الحق وانتصرت كلمة اللّه فحنوا لها رؤوسهم وهم كارهون ، وظلوا يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين . ثم يأخذ السياق فى عرض نماذج منهم ومن معاذيرهم المفتراة ؛ ثم يكشف عما تنطوى عليه صدورهم من التربص بالرسول ﷺ والمسلمين (ومنهم من يقول:ائذن لى ولا تفتنى . ألا فى الفتنة سقطوا ، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا:قد أخذنا أمرنا من قبل ، ويتولوا وهم فرحون . قل:لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا هو مولانا وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون . قل:هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ؟ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم اللّه بعذاب من عنده أو بأيدينا . فتربصوا إنا معكم متربصون) روى محمد بن إسحاق عن الزهرى ويزيد بن رومان وعبد اللّه بن أبى بكر وعاصم بن قتادة قالوا:قال رسول اللّه ﷺ ذات يوم ، وهو فى جهازه [أى لغزوة تبوك] للجد بن قيس أخى بنى سلمة:" هل لك يا جد فى جلاد بنى الأصفر ؟ " [يعنى الروم] فقال:يا رسول اللّه أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فو اللّه لقد عرف قومى ما رجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول اللّه ﷺ وقال:" قد أذنت لك " ففى الجد بن قيس نزلت هذه الآية . بمثل هذه المعاذير كان المنافقون يعتذرون . والرد عليهم (ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) والتعبير يرسم مشهداً كأن الفتنة فيه هاوية يسقط فيها المفتونون ؛ وكأن جهنم من ورائهم تحيط بهم ، وتأخذ عليهم المنافذ والمتجهات فلا يفلتون . كناية عن مقارفتهم للخطيئة كاملة وعن انتظار العقاب عليها حتماً ، جزاء الكذب والتخلف والهبوط إلى هذا المستوى المنحط من المعاذير . وتقريراً لكفرهم وإن كانوا يتظاهرون بالإسلام وهم فيه منافقون . إنهم لا يريدون بالرسول خيراً ولا بالمسلمين ؛ وإنهم ليسوؤهم أن يجد الرسول والمسلمون خيراً (إن تصبك حسنة تسؤهم) وإنهم ليفرحون لما يحل بالمسلمين من مصائب وما ينزل بهم من مشقة (وإن تصبك مصيبة يقولوا:قد أخذنا أمرنا من قبل) واحتطنا ألا نصاب مع المسلمين بشر ، وتخلفنا عن الكفاح والغزو ! (ويتولوا وهم فرحون) بالنجاة وبما أصاب المسلمين من بلاء . ذلك أنهم يأخذون بظواهر الأمور ، ويحسبون البلاء شراً فى كل حال ، ويظنون أنهم يحققون لأنفسهم الخير بالتخلف والقعود . وقد خلت قلوبهم من التسليم للّه ، والرضى بقدره , واعتقاد الخير فيه . والمسلم الصادق يبذل جهده ويقدم لا يخشى ، اعتقاداً بأن ما يصيبه من خير أو شر معقود بإرادة اللّه ، وأن اللّه ناصر له ومعين (قل:لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا هو مولانا وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون) واللّه قد كتب للمؤمنين النصر ، ووعدهم به فى النهاية ، فمهما يصبهم من شدة ، ومهما يلاقوا من ابتلاء ، فهو إعداد للنصر الموعود ، لينالوه المؤمنون عن بينة ، وبعد تمحيص ، وبوسائله التى اقتضتها سنة اللّه ، نصراً عزيزاً لا رخيصاً ، وعزة تحميها نفوس عزيزة مستعدة لكل ابتلاء ، صابرة على كل تضحية . واللّه هو الناصر وهو المعين (وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون) والاعتقاد بقدر اللّه ، والتوكل الكامل على اللّه ، لا ينفيان اتخاذ العدة بما فى الطوق . فذلك أمر اللّه الصريح (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . .) وما يتكل على اللّه حق الاتكال من لا ينفذ أمر اللّه ، ومن لا يأخذ بالأسباب ، ومن لا يدرك سنة اللّه الجارية التى لا تحابى أحداً , ولا تراعى خاطر إنسان ! على أن المؤمن أمره كله خير . سواء نال النصر أو نال الشهادة . والكافر أمره كله شر سواء أصابه عذاب اللّه المباشر أو على أيدى المؤمنين (قل:هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم اللّه بعذاب من عنده أو بأيدينا . فتربصوا إنا معكم متربصون) فماذا يتربص المنافقون بالمؤمنين ؟ إنها الحسنى على كل حال . النصر الذى تعلو به كلمة اللّه ، فهو جزاؤهم فى هذه الأرض . أو الشهادة فى سبيل الحق عليا الدرجات عند اللّه . وماذا يتربص المؤمنون بالمنافقين ؟ إنه عذاب اللّه يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذبين ؛ أو ببطش المؤمنين بهم كما وقع من قبل للمشركين . . (فتربصوا إنا معكم متربصون(والعاقبة معروفة . . والعاقبة معروفة للمؤمنين . ولقد كان بعض هؤلاء المعتذرين المتخلفين المتربصين ، قد عرض ماله ، وهو يعتذر عن الجهاد ,ذلك ليمسك العصا من الوسط على طريقة المنافقين فى كل زمان ومكان . فرد اللّه عليهم مناورتهم ، وكلف رسوله أن يعلن أن إنفاقهم غير مقبول عند اللّه ، لأنهم إنما ينفقون عن رياء وخوف ، لا عن إيمان وثقة ، وسواء بذلوه عن رضا منهم بوصفه ذريعة يخدعون بها المسلمين ، أو عن كره خوفاً من انكشاف أمرهم ، فهو فى الحالتين مردود , لا ثواب له ولا يحسب لهم عند اللّه (قل:أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل

منكم ، إنكم كنتم قوماً فاسقين . وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله ورسوله ، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى , ولا ينفقون إلا وهم كارهون) إنها صورة المنافقين فى كل آن . خوف ومداراة ، وقلب منحرف وضمير مدخول . ومظاهر خالية من الروح ، وتظاهر بغير ما يكنه الضمير . والتعبير القرآنى الدقيق (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) فهم يأتونها مظهراً بلا حقيقة ، ولا يقيمونها إقامة واستقامة . يأتونها كسالى لأن الباعث عليها لا ينبثق من أعماق الضمير ، إنما يدفعون إليها دفعاً ، فيحسون أنهم عليها مسخرون ! وكذلك ينفقون ما ينفقون كارهين مكرهين . وما كان الله ليقبل هذه الحركات الظاهرة التى لا تحدو إليها عقيدة ، ولا يصاحبها شعور دافع . فالباعث هو عمدة العمل والنية هى مقياسه الصحيح . ولقد كان هؤلاء المنفقون وهم كارهون ذوى مال وذوى أولاد ، وذوى جاه فى قومهم وشرف . ولكن هذا كله ليس بشىء عند الله . وكذلك يجب ألا يكون شيئاً عند الرسول والمؤمنين . فما هى بنعمة يسبغها الله عليهم ليهنأوا بها ، إنما هى الفتنة يسوقها الله إليهم ويعذبهم بها (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا , وتزهق أنفسهم وهم كافرون) إن الأموال والأولاد قد تكون نعمة يسبغها الله على عبد من عباده ، حين يوفقه إلى الشكر على النعمة ، والإصلاح بها فى الأرض ، والتوجه بها إلى الله ، فإذا هو مطمئن الضمير ، ساكن النفس ، واثق من المصير . كلما أنفق احتسب وشعر أنه قدم لنفسه ذخراً , وكلما أصيب فى ماله أو بنيه احتسب ، فإذا السكينة النفسية تغمره . والأمل فى الله يسرى عنه . . وقد تكون نقمة يصيب الله بها عبداً من عباده ، لأنه يعلم من أمره الفساد والدخل ، فإذا القلق على الأموال والأولاد يحول حياته جحيماً ، وإذا الحرص عليها يؤرقه ويتلف أعصابه ، وإذا هو ينفق المال حين ينفقه فيما يتلفه ويعود عليه بالأذى ، وإذا هو يشقى بأبنائه إذا مرضوا ويشقى بهم إذا صحوا . وكم من الناس يعذبون بأبنائهم لسبب من الأسباب ! وهؤلاء الذين كانوا على عهد الرسول ﷺ وأمثالهم فى كل زمان ، يملكون الأموال ويرزقون الأولاد ، يعجب الناس ظاهرها ، وهى لهم عذاب على نحو من الأنحاء . عذاب فى الحياة الدنيا ، وهم – بما علم الله من دخيلتهم – صائرون إلى الهاوية . هاوية الموت على الكفر والعياذ بالله من هذا المصير والتعبير(وتزهق أنفسهم) يلقى ظل الفرار لهذه النفوس أو الهلاك . ظلاً مزعجاً لا هدوء فيه ولا اطمئنان ، فيتسق هذا الظل مع ظل العذاب فى الحياة الدنيا بالأموال والأولاد . فهو القلق والكرب فى الدنيا والآخرة . وما يحسد أحد على هذه المظاهر التى تحمل فى طياتها البلاء ! ولقد كان أولئك المنافقون يدسون أنفسهم فى الصف ، لا عن إيمان واعتقاد ، ولكن عن خوف وتقية ، وعن طمع ورهب . ثم يحلفون أنهم من المسلمين ، أسلموا اقتناعاً ، وآمنوا اعتقاداً . . فهذه السورة تفضحهم وتكشفهم على حقيقتهم ، فهى الفاضحة التى تكشف رداء المداورة وتمزق ثوب النفاق (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون) إنهم جبناء . والتعبير يرسم لهذا الجبن مشهداً ويجسمه فى حركة . حركة النفس والقلب , يبرزها فى حركة جسد وعيان (لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون) فهم متطلعون أبداً إلى مخبأ يحتمون به ، ويأمنون فيه . حصناً أو مغارة أو نفقاً . إنهم مذعورون مطاردون يطاردهم الفزع الداخلى والجبن الروحى . ومن هنا (يحلفون بالله إنهم لمنكم) بكل أدوات التوكيد ، ليداروا ما فى نفوسهم ، وليتقوا انكشاف طويتهم ، وليأمنوا على ذواتهم . . وإنها لصورة زرية للجبن والخوف والملق والرياء . لا يرسمها إلا هذا الاسلوب القرآنى العجيب . الذى يبرز حركات النفس شاخصة للحس على طريقة التصوير الفنى الموحى العميق . ثم يستمر سياق السورة فى الحديث عن المنافقين ، وما يند منهم من أقوال وأعمال ، تكشف عن نواياهم التى يحاولون سترها ، فلا يستطيعون . فمنهم من يلمز النبى ﷺفى توزيع الصدقات ، ويتهم عدالته فى التوزيع , وهو المعصوم ذو الخلق العظيم ، ومنهم من يقول:هو أذن يستمع لكل قائل ، ويصدق كل ما يقال ، وهو النبى الفطن البصير ، المفكر المدبر الحكيم . ومنهم من يتخفى بالقولة الفاجرة الكافرة ، حتى إذا انكشف أمره استعان بالكذب والحلف ليبرئ نفسه من تبعة ما قال . ومنهم من يخشى أن ينزل الله على رسوله سورة تفضح نفاقهم وتكشفهم للمسلمين . ويعقب على استعراض هذه الصنوف من المنافقين ، ببيان طبيعة النفاق والمنافقين ، ويربط بينهم وبين الكفار الذين خلوا من قبل ، فأهلكهم الله بعد ما استمتعوا بنصيبهم إلى أجل معلوم . ذلك ليكشف عن الفوارق بين طبيعتهم هذه وطبيعة المؤمنين الصادقين , الذين يخلصون العقيدة ولا ينافقون (ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون . ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا:حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنا إلى الله راغبون . إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله وابن السبيل , فريضة من الله والله عليم حكيم) من المنافقين من يغمزك بالقول ، ويعيب عدالتك فى توزيع الصدقات ، ويدعى أنك تحابى فى قسمتها . وهم لا يقولون ذلك غضباً للعدل ، ولا حماسة للحق ، ولا غيرة على الدين , إنما يقولونه لحساب ذواتهم وأطماعهم ، وحماسة لمنفعتهم وأنانيتهم (فإن أعطوا منها رضوا) ولم

يبالوا الحق والعدل والدين ! (وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون)! وقد وردت روايات متعددة عن سبب نزول الآية ، تقص حوادث معينة عن أشخاص بأعيانهم لمزوا الرسول ﷺ في عدالة التوزيع . روى البخارى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال:بينما النبى ﷺ يقسم قسماً إذ جاءه ذو الخويصر التميمى ، فقال:أعدل يا رسول الله . فقال:" ويلك ! ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ " فقال عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – ائذن لى فأضرب عنقه . فقال رسول الله ﷺ " دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم , وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم فى الرمية . . . " قال أبو سعيد ، فنزلت فيهم: (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) وعلى أية حال فالنص القرآنى يقرر أن القولة قولة فريق من المنافقين . يقولونها لا غيرة على الدين ، ولكن غضباً على حظ أنفسهم ، وغيظاً أن لم يكن لهم نصيب . . وهى آية نفاقهم الصريحة ، فما يشك فى خلق الرسول ﷺ مؤمن بهذا الدين ، وهو المعروف حتى قبل الرسالة بأنه الصادق الأمين . والعدل فرع من أمانات الله التى ناطها بالمؤمنين فضلاً على نبى المؤمنين . . وواضح أن هذه النصوص تحكى وقائع وظواهر وقعت من قبل ، ولكنها تتحدث عنها فى ثنايا الغزوة لتصوير أحوال المنافقين الدائمة المتصلة قبل الغزوة وفى ثناياها . وبهذه المناسبة يرسم السياق الطريق اللائق بالمؤمنين الصادقى الإيمان (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا:حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله . إنا إلى الله راغبون) فهذا هو أدب النفس وأدب اللسان ، وأدب الإيمان:الرضا بقسمة الله ورسوله ، رضا التسليم والاقتناع لا رضا القهر والغلب . والاكتفاء بالله ، والله كاف عبده . والرجاء فى فضل الله ورسوله والرغبة فى الله خالصة من كل كسب مادى ، وبعد بيان هذا الأدب اللائق فى حق الله وحق رسوله ، تطوعاً ورضا وإسلاماً ، يقرر أن الأمر –مع ذلك – ليس أمر الرسول ؛ إنما هو أمر الله وفريضته وقسمته ، وما الرسول فيها إلا منفذ للفريضة المقسومة من رب العالمين . فهذه الصدقات – أى الزكاة – تؤخذ من الأغنياء فريضة من الله ، وترد على الفقراء فريضة من الله . وهى محصورة فى طوائف من الناس يعينهم القرآن ، وليست متروكة لاختيار أحد ، حتى ولا اختيار الرسول (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل . فريضة من الله والله عليم حكيم) وبذلك تأخذ الزكاة مكانها فى شريعة الله ، ومكانها فى النظام الإسلامى ، لا تطوعاً ولا تفضلاً ممن فرضت عليهم . فهى فريضة محتمة . ولا منحة ولا جزافاً من القاسم الموزع . فهى فريضة معلومة . إنها إحدى فرائض الإسلام تجمعها الدولة المسلمة بنظام معين لتؤدى بها خدمة اجتماعية محددة . وهى ليست إحساناً من المعطى وليست شحاذة من الآخذ . . كلا فما قام النظام الاجتماعى فى الإسلام على التسول ، ولن يقوم ! إن قوام الحياة فى النظام الإسلامى هو العمل – بكل صنوفه وألوانه – وعلى الدولة المسلمة أن توفر العمل لكل قادر عليه ، وأن تمكنه منه بالإعداد له ، وبتوفير وسائله , وبضمان الجزاء الأوفى عليه ، وليس للقادرين على العمل من حق فى الزكاة ، فالزكاة ضريبة تكافل إجتماعى بين القادرين والعاجزين ، تنظمها الدولة وتتولاها فى الجمع والتوزيع ; متى قام المجتمع على أساس الإسلام الصحيح ، منفذاً شريعة الله ، لا يبتغى له شرعاً ولا منهجاً سواه عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال:قال رسول الله ﷺ :" لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى " إن الزكاة فرع من فروع نظام التكافل الاجتماعى فى الإسلام . وهذا النظام أشمل وأوسع كثيراً من الزكاة ؛ لأنه يتمثل فى عدة خطوط تشمل فروع الحياة كلها ، ونواحى الارتباطات البشرية بأكملها ، والزكاة خط أساسى من هذه الخطوط : والزكاة تجمع بنسبة العشر ونصف العشر وربع العشر من أصل المال حسب أنواع الأموال . وهى تجمع من كل من يملك حوالى عشرين جنيهاً فائضة عن حاجته يحول عليها الحول . وبذلك يشترك فى حصيلتها معظم أفراد الأمة . ثم تنفق فى المصارف التى بينتها الآية هنا , وأول المستحق لها هم الفقراء والمساكين . والفقراء هم الذين يجدون دون الكفاية , والمساكين مثلهم ولكنهم هم الذين يتجملون فلا يبدون حاجتهم ولا يسألون . إنما الصدقات للفقراء والمساكين) الفقير هو من ليس لديه قوت يومه و المسكين هو الذى لا يكفيه دخله الشهرى أو العكس (والعاملين عليها). أى الذين يقومون على تحصيلها (والمؤلفة قلوبهم) وهم طوائف ، منهم الذين دخلوا حديثاً فى الإسلام ويراد تثبيتهم عليه . ومنهم الذين يرجى أن تتألف قلوبهم فيسلموا . ومنهم الذين أسلموا وثبتوا ويرجى تأليف قلوب أمثالهم فى قومهم ليثوبوا إلى الإسلام حين يرون إخوانهم يرزقون ويزادون . . وهناك خلاف فقهى حول سقوط سهم هؤلاء المؤلفة قلوبهم بعد غلبة الإسلام . . ولكن المنهج الحركى لهذا الدين سيظل يواجه فى مراحله المتعددة كثيراً من الحالات ، تحتاج إلى إعطاء جماعة من الناس على هذا الوجه ؛ إما إعانة لهم على الثبات على الإسلام إن كانوا يحاربون فى أرزاقهم لإسلامهم ، وإما تقريباً لهم من الإسلام كبعض الشخصيات غير المسلمة التى يرجى أن تنفع الإسلام بالدعوة له والذب عنه هنا وهناك . ندرك هذه الحقيقة ، فنرى مظهراً لكمال حكمة الله فى تدبيره لأمر المسلمين على اختلاف الظروف والأحوال (وفى الرقاب) ذلك حين كان الرق نظاماً عالمياً ، تجرى المعاملة فيه على المثل فى استرقاق الأسرى بين المسلمين وأعدائهم . ولم

يكن للإسلام بد من المعاملة بالمثل حتى يتعارف العالم على نظام آخر غير الاسترقاق . . وهذا السهم كان يستخدم في إعانة من يكاتب سيده على الحرية في نظير مبلغ يؤديه له ، ليحصل على حريته بمساعدة قسطه من الزكاة . أو بشراء رقيق وإعتاقهم بمعرفة الدولة من هذا المال (والغارمين) وهم المدينون في غير معصية . يعطون من الزكاة ليوفوا ديونهم ، بدلاً من إعلان إفلاسهم كما تصنع الحضارة المادية بالمدينين من التجار مهما تكن الأسباب ! فالإسلام نظام تكافلي ، لا يسقط فيه الشريف ، ولا يضيع فيه الأمين ، ولا يأكل الناس بعضهم بعضاً في صورة قوانين نظامية ، كما يقع في شرائع الأرض أو شرائع الغاب ! (وفي سبيل الله) وذلك باب واسع يشمل كل مصلحة للجماعة ، تحقق كلمة الله (وابن السبيل) و هو المسافر الذي نفذ ماله و لم يقض مصلحته و لم يعد له مال يكفيه للعودة الي دياره أو وطنه ، هذه هي الزكاة التي يتقول عليها المتقولون في هذا الزمان ، ويلمزونها بأنها نظام تسول وإحسان . . هذه هي فريضة اجتماعية ، تؤدى في صورة عبادة إسلامية . ذلك ليطهر الله بها القلوب من الشح ؛ وليجعلها وشيجة تراحم وتضامن بين أفراد الأمة المسلمة ، تندّى جو الحياة الإنسانية ، وتمسح على جراح البشرية ؛ وتحقق في الوقت ذاته التأمين الاجتماعي والضمان الاجتماعي في أوسع الحدود . وتبقي لها صفة العبادة التي تربط بين القلب البشري وخالقه ، كما تربط بينه وبين الناس (فريضة من الله) الذي يعلم ما يصلح لهذه البشرية ، ويدبر أمرها بالحكمة (والله عليم حكيم) وبعد بيان قواعد الصدقات ، التي يرجع إليها التوزيع والتقسيم . ذلك البيان الذي يكشف عن جهل الذين يلمزون الرسول ﷺ فوق سوء أدبهم حين يلمزون الرسول الأمين . بعد هذا يمضي السياق يعرض صنوف المنافقين ، وما يقولون وما يفعلون (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون:هو أذن . قل:إذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين , ورحمة للذين آمنوا منكم ، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم . يحلفون بالله لكم ليرضوكم ، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين . ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم خالداً فيها . ذلك الخزى العظيم . يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم . قل:استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون . ولئن سألتهم ليقولن:إنما كنا نخوض ونلعب . قل:أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ؛ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) إنه سوء الأدب في حق الرسول ، يبدو في صورة أخرى غير صورة اللمز في الصدقات . إنهم يجدون من النبي ﷺ أدباً رفيعاً في الاستماع إلى الناس بإقبال وسماحة ؛ ويعاملهم بظاهرهم حسب أصول شريعته ؛ ويهش لهم ويفسح لهم من صدره . فيسمون هذا الأدب العظيم بغير اسمه ، ويصفونه بغير حقيقته ، ويقولون عن النبي ﷺ (هو أذن) أي سماع لكل قول ، يجوز عليه الكذب والخداع والبراعة ، ولا يفطن إلى غش القول وزوره . من حلف له صدقه ، ومن دس عليه قولاً قبله . يقولون هذا بعضهم لبعض تطميناً لأنفسهم أن يكشف النبي ﷺ حقيقة أمرهم ، أو يفطن إلى نفاقهم . أو يقولونه طعناً على النبي في تصديقه للمؤمنين الخلص الذين ينقلون له ما يطلعون عليه من شؤون المنافقين وأعمالهم وأقوالهم عن الرسول وعن المسلمين . وقد وردت الروايات بهذا وذلك في سبب نزول الآية . وكلاهما يدخل في عمومها . وكلاهما يقع من المنافقين . ويأخذ القرآن الكريم كلامهم ليجعل منه رداً عليهم (ويقولون:هو أذن) نعم . . ولكن (قل:أذن خير لكم) أذن خير يستمع إلى الوحي ثم يبلغه لكم وفيه خيركم وصلاحكم . وأذن خير يستمع إليكم في أدب ولا يجبهكم بنفاقكم ، ولا يرميكم بخادعكم ، ولا يأخذكم بريائكم (يؤمن بالله) فيصدق كل ما يخبره به عنكم وعن سواكم (ويؤمن للمؤمنين) فيطمئن إليهم ويثق بهم ، لأنه يعلم منهم صدق الإيمان الذي يعصمهم من الكذب والالتواء والرياء (ورحمة للذين آمنوا منكم) يأخذ بيدهم إلى الخير (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) من الله غيرة على الرسول أن يؤذى وهو رسول الله (يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين) يحلفون بالله لكم ليرضوكم ، على طريقة المنافقين في كل زمان ، الذين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من وراء الظهور ؛ ثم يجبنون عن المواجهة ، ويضعفون عن المصارحة , فيتضاءلون ويتخاذلون للناس ليرضوهم (والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين) فماذا يكون الناس ؟ وماذا تبلغ قوتهم ؟ ولكن الذي لا يؤمن بالله عادة ولا يعنو له , يعنو لإنسان مثله ويخشاه ؛ ولقد كان خيراً أن يعنو لله الذي يتساوى أمامه الجميع , ولا يذل من يخضع له ، إنما يذل من يخضع لعباده ، ولا يصغر من يخشاه ، إنما يصغر من يعرضون عنه فيخشون من دونه من عباد الله . (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالداً فيها ، ذلك الخزى العظيم) سؤال للتأنيب والتوبيخ ، فإنهم ليدعون الإيمان ، ومن يؤمن يعلم أن حرب الله ورسوله كبرى الكبائر ، وأن جهنم في انتظار من يرتكبها من العباد ، وأن الخزى هو الجزاء المقابل للتمرد . فإذا كانوا قد آمنوا كما يدعون ، فكيف لا يعلمون ؟ إنهم يخشون عباد الله فيحلفون لهم ليرضوهم ، ولينفوا ما بلغهم عنهم . فكيف لا يخشون خالق العباد ، وهم يؤذون رسوله ، ويحاربون دينه . فكأنما يحاربون الله ، تعالى الله أن يقصده أحد بحرب ! إنما هو تفظيع ما يرتكبون من إثم ، وتجسيم ما يقارفون من خطيئة ، وتخويف

من يؤذون رسول الله ، ويكيدون لدينه في الخفاء . وإنهم لأجبن من أن يواجهوا الرسول والذين معه ، وإنهم ليخشون أن يكشف الله سترهم , وأن يطلع الرسول ﷺ على نواياهم (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم . قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون . ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب . قل:أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ؛ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) إن النص عام في حذر المنافقين أن ينزل الله قرآناً يكشف خبيئتهم ، ويتحدث عما في قلوبهم ، فينكشف للناس ما يخبئونه . وعندما يصل السياق إلى هذا الحد في استعراض تلك النماذج من أقوال المنافقين وأعمالهم وتصوارتهم ، يعمد إلى تقرير حقيقة المنافقين بصفة عامة ، وعرض الصفات الرئيسية التي تميزهم عن المؤمنين الصادقين ، وتحديد العذاب الذي ينتظرهم أجمعين (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{٦٧} إن المنافقين هم الفاسقون . المنافقون والمنافقات من طينة واحدة ، وطبيعة واحدة . المنافقون في كل زمان وفي كل مكان . تختلف أفعالهم وأقوالهم ، ولكنها ترجع إلى طبع واحد ، وتنبع من معين واحد . سوء الطوية ولؤم السريرة ، والغمز والدس ، والضعف عن المواجهة ، والجبن عن المصارحة . تلك سماتهم الأصيلة (إن المنافقين هم الفاسقون) فهم خارجون عن الإيمان ، منحرفون عن الطريق ، وقد وعدهم الله مصيراً كمصير الكفار(وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها ، هي حسبهم) وفيها كفايتهم وهي كفاء إجرامهم (ولعنهم الله) فهم مطرودون من رحمته (ولهم عذاب مقيم) عذاب ثابت و خالد هذه الطبيعة الفاسقة المنحرفة الضالة ، ليست جديدة ، ففي تاريخ البشرية لها نظائر وأمثال . ولقد حوى تاريخ البشرية من قبل هؤلاء نماذج كثيرة من هذا الطراز . ولقد لاقى السابقون مصائر تليق بفسوقهم عن الفطرة المستقيمة والطريق القويمة ، بعدما استمتعوا بنصيبهم المقدر لهم في هذه الأرض . وكانوا أشد قوة وأكثر أموالاً و أولاداً فلم يغن عنهم من ذلك كله شيء . والقرآن يذكر القوم بما كان من أسلافهم ، ويبصرهم بأنهم يسلكون طريقهم ، ويحذرهم أن يلاقوا مصيرهم . لعلهم يهتدون (كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً ، فاستمتعوا بخلاقهم . فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ، وخضتم كالذي خاضوا . أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) إنها الفتنة بالقوة ، والفتنة بالأموال والأولاد . فأما الذين اتصلت قلوبهم بالقوة الكبرى فهم لا يفتنون بالقوة العارضة التي تخول لهم في الأرض ، لأنهم يخشون من هو أقوى ، فينفقون قوتهم في طاعته وإعلاء كلمته . وهم لا يفتنون بالأموال والأولاد , لأنهم يذكرون من أنعم عليهم بالأموال والأولاد ، فيحرصون على شكر نعمته , وتوجيه أموالهم وأولادهم إلى طاعته . . وأما الذين انحرفت قلوبهم عن مصدر القوة والنعمة فهم يبطرون ويفجرون في الأرض ، ويتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام (أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة) وبطلت بطلانا أساسياً ، لأنها كالنبتة بلا جذور ، لا تستقر ولا تنمو ولا تزدهر . (وأولئك هم الخاسرون) الذين خسروا كل شيء على وجه الإجمال بلا تحديد ولا تفصيل . ويلتفت السياق من خطابهم إلى خطاب عام ، كأنما يعجب من هؤلاء الذين يسيرون في طريق الهالكين ولا يعتبرون (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ؟ أتتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) هؤلاء الذين يستمتعون غير شاعرين ، ويسيرون في طريق الهلكى ولا يتعظون . . هؤلاء (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم) ممن ساروا في نفس الطريق ؟ (قوم نوح) وقد غمرهم الطوفان وطواهم اليم في تيار الفناء المرهوب (وعاد) وقد أهلكوا بريح صرصر عاتية (وثمود) وقد أخذتهم الصيحة (وقوم إبراهيم) وقد أهلك طاغيتهم المتجبر وأنجى إبراهيم (وأصحاب مدين) وقد أصابتهم الرجفة وخنقتهم الظلة (والمؤتفكات) قرى قوم لوط وقد قطع الله دابرهم إلا الأقلين . . ألم يأتهم نبأ هؤلاء الذين (أتتهم رسلهم بالبينات) فكذبوا بها ، فأخذهم الله بذنوبهم (فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) إن النفس المنحرفة تبطرها القوة فلا تذكر ، وتعميها النعمة فلا تنظر . وما تنفع عظات الماضي ولا عبره إلا من تتفتح بصائرهم لإدراك سنة الله التي لا تتخلف ، ولا تتوقف , ولا تحابي أحداً من الناس . وإن كثيراً ممن يبتليهم الله بالقوة وبالنعمة لتغشى أبصارهم وبصائرهم غشاوة ، فلا يبصرون مصارع الأقوياء قبلهم ، إنها الغفلة والعمى والجهالة نراها تصاحب القوة والنعمة والرخاء ، نراها في كل زمان وفي كل مكان . إلا من رحم الله من عباده المخلصين . وفي مقابل المنافقين والكفار ، يقف المؤمنون الصادقون . طبيعة غير الطبيعة ، وسلوكاً غير السلوك ، ومصيراً غير المصير (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ؛ ويطيعون الله ورسوله . أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم . وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها , ومساكن طيبة في جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر . ذلك هو الفوز العظيم) إذا كان المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض . إذا كانوا جبلة واحدة وطبيعة واحدة . .

فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . إن المنافقين والمنافقات مع وحدة طبيعتهم لا يبلغون أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض . فالولاية تحتاج إلى شجاعة وإلى نجدة وإلى تعاون وإلى تكاليف . وطبيعة النفاق تأبى هذا كله ولو كان بين المنافقين أنفسهم . إن المنافقين أفراد ضعاف مهازيل ، وليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة ، على ما يبدو بينهم من تشابه فى الطبيعة والخلق والسلوك . والتعبير القرآنى الدقيق لا يغفل هذا المعنى فى وصف هؤلاء وهؤلاء (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض). . (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) إن طبيعة المؤمن هى طبيعة الأمة المؤمنة . طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل ، وطبيعة التضامن , ولكنه التضامن فى تحقيق الخير ودفع الشر (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وتحقيق الخير ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون . ومن هنا تقف الأمة المؤمنة صفاً واحداً . لا تدخل بينها عوامل الفرقة . وحيثما وجدت الفرقة فى الجماعة المؤمنة فثمة ولا بد عنصر غريب عن طبيعتها ، وعن عقيدتها ، هو الذى يدخل بالفرقة . ثمة غرض أو مرض يمنع السمة الأولى ويدفعها . السمة التى يقررها العليم الخبير (بعضهم أولياء بعض) يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر , وإعلاء كلمة اللّه ، وتحقيق الوصاية لهذه الأمة فى الأرض (ويقيمون الصلاة) الصلة التى تربطهم باللّه (ويؤتون الزكاة) الفريضة التى تربط بين الجماعة المسلمة ، وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن (ويطيعون اللّه ورسوله) فلا يكون لهم هوى غير أمر اللّه وأمر رسوله ، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة اللّه ورسوله . ولا يكون لهم منهج إلا دين اللّه ورسوله ، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى اللّه ورسوله . . وبذلك يوحدون نهجهم ويوحدون هدفهم ويوحدون طريقتهم , فلا تتفرق بهم السبل عن الطريق الواحد الواصل المستقيم (أولئك سيرحمهم اللّه) والرحمة لا تكون فى الآخرة وحدها ، إنما تكون فى هذه الأرض أولاً ورحمة اللّه تشمل الفرد الذى ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح . رحمة اللّه فى اطمئنان القلب ، وفى الاتصال باللّه ، وفى الرعاية والحماية من الفتن والأحداث . ورحمة اللّه فى صلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها واطمئنان كل فرد للحياة واطمئنانه لرضاء اللّه . إن هذه الصفات الأربع فى المؤمنين:الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإقامة الصلاة , وإيتاء الزكاة ، لتقابل من صفات المنافقين:الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ونسيان اللّه وقبض الأيدى . . وإن رحمة اللّه للمؤمنين لتقابل لعنته للمنافقين والكفار . . وإن تلك الصفات لهى التى وعد اللّه المؤمنين عليها بالنصر والتمكين فى الأرض ليحققوها فى وصايتهم الرشيدة على البشرية (إن اللّه عزيز حكيم) قادر على إعزاز الفئة المؤمنة ليكون بعضها أولياء بعض فى النهوض بهذه التكاليف ، حكيم فى تقدير النصر والعزة لها ، لتصلح فى الأرض ، وتحرس كلمة اللّه بين العباد . وإذا كان عذاب جهنم ينتظر المنافقين والكافرين ، وكانت لعنته لهم بالمرصاد ، وكان نسيانه لهم يدمغهم بالضآلة والحرمان . فإن نعيم الجنة ينتظر المؤمنين (جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن) للإقامة المطمئنة . ولهم فوقها ما هو أكبر وأعظم (ورضوان من اللّه أكبر) وإن الجنة بكل ما فيها من نعيم لتتضاءل وتتوارى فى هالات ذلك الرضوان الكريم . إن لحظة اتصال باللّه . لحظة شهود لجلاله . لحظة انطلاق من حبسة هذه الأمشاج ، ومن ثقلة هذه الأرض وهمومها القريبة . لحظة تنبثق فيها فى أعماق القلب البشرى شعاعه من ذلك النور الذى لا تدركه الأبصار . لحظة إشراق تنير فيها حنايا الروح بقبس من روح اللّه . . إن لحظة واحدة من هذه اللحظات التى تتفق للندرة القليلة من البشر فى ومضة صفاء ، ليتضاءل إلى جوارها كل متاع ، وكل رجاء . . فكيف برضوان من اللّه يغمر هذه الأرواح ، وتستشعره بدون انقطاع ؟ (ذلك هو الفوز العظيم) وبعد بيان صفة المؤمنين الصادقين وصفة المنافقين الذين يدّعون الإيمان . . يأمر اللّه نبيه أن يجاهد الكفار والمنافقين . ويقرر القرآن الكريم أن هؤلاء المنافقين قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم ، وهموا بأمر خيبهم اللّه فيه ، وهو من وحى الكفر الذى صاروا إليه . ويعجب من نقمتهم على رسول اللّه ﷺ وما كان لهم من بعثته إلا الخير والغنى . ويرغبهم فى التوبة ويخوفهم التمادى فى الكفر والنفاق (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير . يحلفون باللّه ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم ، وهموا بما لم ينالوا . وما نقموا إلا أن أغناهم اللّه ورسوله من فضله . فإن يتوبوا يك خيراً لهم ، وإن يتولوا يعذبهم اللّه عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة ، وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير) لقد كان الرسول ﷺ لاين المنافقين كثيراً ، وأغضى عنهم كثيراً ، وصفح عنهم كثيراً . . فها هو ذا يبلغ الحلم غايته ، وتبلغ السماحة أجلها ، ويأمره ربه أن يبدأ معهم خطة جديدة ، ويلحقهم بالكافرين فى النص ، ويكلفه جهاد هؤلاء وهؤلاء جهاداً عنيفا غليظا لا رحمة فيه ولا هوادة . إن للين مواضعه وللشدة مواضعها . فإذا انتهى أمد اللين فلتكن الشدة ؛ وإذا انقضى عهد المصابرة فليكن الحسم القاطع . . وللحركة مقتضياتها ، وللمنهج مراحله . واللين فى بعض الأحيان قد يؤذى ، والمطاولة قد تضر . وقد اختلف فى الجهاد والغلظة على المنافقين . أتكون بالسيف كما روى عن على – كرم اللّه وجهه – واختاره ابن جرير –

رحمه الله – أم تكون فى المعاملة والمواجهة وكشف خبيئاتهم للأنظار كما روى عن ابن عباس – رضى الله عنه – والذى وقع – كما سيجيء – أن رسول الله ﷺ لم يقتل المنافقين (يحلفون بالله ما قالوا . ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا) والنص فى عمومه يستعرض حالة المنافقين فى كثير من مواقفهم ، ويشير إلى ما أرادوه مراراً من الشر للرسول ﷺ وللمسلمين . . وهناك روايات تحدد حادثة خاصة لسبب نزول الآية قال قتادة: نزلت فى عبد الله بن أبى . وذلك أنه اقتتل رجلان ، جهنى وأنصارى ، فعلا الجهنى على الأنصارى ، فقال عبد الله للأنصارى:ألا تنصرون أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل:سمن كلبك يأكلك . وقال:لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبى ﷺ فأرسل إليه فسأله ، فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله فيه هذه الآية . هذه الحادثة تكشف عن دخيلة القوم . وسواء كانت هى أو شىء مثلها هو الذى تعنيه الآية , فإنه ليبدو عجيبا أن تنطوى صدور القوم على مثل هذه الخيانة . والنص يعجب هنا منهم (وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) فما من سيئة قدمها الإسلام لهم ينقمون عليه هذه النقمة من أجلها . . اللهم إلا أن يكون الغنى الذى غمرهم بعد الإسلام ، والرخاء الذى أصابهم بسببه هو ما ينقمون ! ثم يعقب على هذا التعجيب من أمرهم ، بعد كشف خبيئاتهم بالحكم الفاصل (فإن يتوبوا يک خيراً لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة , وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير) بعد هذا كله يظل باب التوبة مفتوحاً على مصراعيه . فمن شاء لنفسه الخير فليدلف إلى الباب المفتوح . ومن أراد أن يمضى فى طريقه الأعوج ، فالعاقبة كذلك معروفة:العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة . وانعدام الناصر والمعين فى هذه الأرض . ولمن شاء أن يختار ، وهو وحده الملوم (فإن يتوبوا يک خيراً لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة , وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير) ثم يمضى السياق فى عرض نماذج من المنافقين وأحوالهم وأقوالهم من قبل الغزوة وفى ثناياها (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه , بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) من المنافقين من عاهد الله لئن أنعم الله عليه ورزقه ، ليبذلن الصدقة ، وليصلحن العمل . ولكن هذا العهد إنما كان فى وقت فقره وعسرته .فى وقت الرجاء والطمع . فلما أن استجاب الله له ورزقه من فضله نسى عهده ، وتنكر لوعده ، وأدركه الشح والبخل فقبض يده ، وتولى معرضاً عن الوفاء بما عاهد . فكان هذا النكث بالعهد مع الكذب على الله فيه سبباً فى التمكين للنفاق فى قلبه ، والموت مع هذا النفاق ، ولقاء الله به . والنفس البشرية ضعيفة شحيحة ، إلا من عصم الله ؛ ولا تطهر من هذا الشح إلا أن تعمر بالإيمان ، وترتفع على ضرورات الأرض ، وتنطلق من قيود الحرص على النفع القريب , لأنها تؤمل فى خلف أعظم ، وتؤمل فى رضوان من الله أكبر . والقلب المؤمن يطمئن بالإيمان , فلا يخشى الفقر بسبب الإنفاق ، لأنه يثق بأن ما عند الناس ينفد وما عند الله باق . وهذا الاطمئنان يدفع به إلى إنفاق المال فى سبيل الله تطوعاً ورضى وتطهراً , وهو آمن مغبته . فحتى لو فقد المال وافتقر منه ، فإن له عوضاً أعظم عند الله . والذى يعاهد الله ثم يخلف العهد ، والذى يكذب على الله فلا يفى بما وعد ، لا يسلم قلبه من النفاق ، آية المنافق ثلاث:إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان " . فلا جرم يعقب إخلاف العهد والكذب على الله نفاقاً دائماً فى قلوب تلك الطائفة التى تشير إليها الآية (فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ؟) ألم يعلموا – وهم يدعون الإيمان – أن الله مطلع على السرائر ، عالم بما يدور بينهم من أحاديث ، يحسبونها سراً بينهم لأنهم يتناجون بها فى خفية عن الناس ؟ وأن الله يعلم الغيب الخافى المستور ، فيعلم حقيقة النوايا فى الصدور ؟ ولقد كان من مقتضى علمهم بهذا ، ألا يستخفوا عن الله بنية ، وألا تحدثهم نفوسهم بإخلاف ما عاهدوا الله عليه ، والكذب عليه فى إعطاء العهود . أن نقض العهد والكذب على الله قد أورث المخلفين نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ، يكون هو الذى منعه من قبول صدقة ثعلبة وتوبته التى ظهر بها ، ولم يعامله بالظاهر حسب الشريعة . إنما عامله بعلمه بحاله الذى لا شك فيه ، لأنه إخبار من العليم الخبير . وكان تصرفه ﷺ تصرفاً تأديبياً برد صدقته . مع عدم اعتباره مرتداً فيؤخذ بعقوبة الردة ولا مسلماً فتقبل منه زكاته . ولا يعنى هذا إسقاط الزكاة عن المنافقين شريعة . إن الشريعة تأخذ الناس بظاهرهم . فيما ليس فيه علم يقينى ، كالذى كان فى هذا الحادث الخاص ، فلا يقاس عليه . غير أن رواية الحادث تكشف لنا كيف كان المسلمون الأوائل ينظرون إلى الزكاة المفروضة . إنهم كانوا يحتسبونها نعمة عليهم ، من يحرم أداءها أو يحرم قبولها منه ، فهو الخاسر الذى يستحق الترحم مما أصابه من رفض زكاته ! مدركين لحقيقة المعنى الكامن فى قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فكانت لهم غنما ينالونه لا غرماً يحملونه . وهذا هو الفارق بين فريضة تؤدى ابتغاء رضوان الله وضريبة تدفع لأن القانون يحتمها ويعاقب عليها الناس ! والآن يعرض السياق لونا آخر من تصورات المنافقين للزكاة يخالفون به ذلك التصور الحق

عند المؤمنين الصادقين ؛ ويكشف عن لون من طبيعة الغمز فيهم واللمز ، النابعين من طبعهم المنحرف المدخول (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم ، فيسخرون منهم . سخر الله منهم ولهم عذاب أليم) والقصة المروية عن سبب نزول هذه الآية ، تصور نظرة المنافقين المنحرفة لطبيعة الإنفاق في سبيل الله وبواعثه في النفوس . أخرج ابن جرير من طريق يحيى بن أبي كثير ، ومن طريق سعيد عن قتادة وابن أبي حاتم من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة - بألفاظ مختلفة - قال:حث رسول الله ﷺ على الصدقة [يعني في غزوة تبوك] فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف فقال:يا رسول الله مالي ثمانية آلاف ، جئتك بنصفها وأمسكت نصفها . فقال:" بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت " . وجاء أبو عقيل بصاع من تمر فقال:يا رسول الله أصبت صاعين من تمر صاع أقرضه لربي وصاع لعيالي . قال:فلمزه المنافقون ، وقالوا:ما الذي أعطى ابن عوف إلا رياء . وقالوا:ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟ وهكذا تقولوا على المؤمنين الذين انبعثوا إلى الصدقة عن طواعية نفس ، ورضا قلب ، واطمئنان ضمير ، ورغبة في المساهمة في الجهاد كل على قدر طاقته ، وكل على غاية جهده . ذلك أنهم لا يدركون بواعث هذا التطوع في النفوس المؤمنة . لا يدركون حساسية الضمير التي لا تهدأ إلا بالبذل عن طيب خاطر . لا يدركون المشاعر الرفرافة التي تنبعث انبعاثاً ذاتياً ، لتلبي دواعي الإيمان والتضحية والمشاركة . ومن ثم يجبههم الرد الحاسم الجازم (سخر الله منهم ولهم عذاب اليم) ويالهولها سخرية . ويالهولها عاقبة . فمن شرذمة صغيرة هزيلة من البشر الضعاف الفانين وسخرية الخالق الجبار تنصب عليهم وعذابه يترقبهم ؟! ألا إنه للهول المفزع الرهيب ! (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لا يهدي القوم الفاسقين) هؤلاء المنافقون الذين يلمزون المتطوعين بالصدقات على هذا النحو ، قد تقرر مصيرهم , فما عاد يتبدل (فلن يغفر الله لهم) لن يجديهم استغفار ، فإنه وعدم الاستغفار لهم سواء . ويبدو أن الرسول ﷺ كان يستغفر للمخطئين عسى أن يتوب الله عليهم . فأما هؤلاء فقد أخبر بأن مصيرهم قد تقرر ، فلا رجعة فيه (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) . . (والله لا يهدي القوم الفاسقين) أولئك الذين انحرفوا عن الطريق فلم تعد ترجى لهم أوبة . وفسدت قلوبهم فلم يعد يرجى لها صلاح (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) والسبعون تذكر عادة للتكثير ، لا على أنها رقم محدد . والمعنى العام أن لا رجاء لهم في مغفرة ، لأنه لا سبيل لهم إلى توبة . والقلب البشري حين يصل إلى حد معين من الفساد لا يصلح ، والضلال حين ينتهي إلى أمد معين لا يرجى بعده اهتداء . والله أعلم بالقلوب . وينتقل السياق - مرة أخرى - إلى الحديث عن المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا:لا تنفروا في الحر . قل:نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون . فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل:لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً . إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين . ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره , إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون . ولا تعجبك أموالهم وأولادهم ، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون) هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض . ثقلة الحرص على الراحة ، والشح بالنفقة . وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة ، وخواء القلب من الإيمان . . هؤلاء المخلفون - والتعبير يلقي ظل الإهمال كما لو كانوا متاعاً يخلف أو هملا يترك - فرحوا بالسلامة والراحة (خلاف رسول الله) وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد ، وحسبوا أن السلامة العامة غاية يحرص عليها الرجال ! (وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) (وقالوا:لا تنفروا في الحر) وهي قولة المسترخي الناعم الذي لا يصلح لشيء مما يصلح له الرجال . إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة ، وطراوة الإرادة ؛ وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب , وينفرون من الجهد ، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم ، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز . وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات . ولكن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك , لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان ، وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال . والنص يرد عليهم بالتهكم المنطوي على الحقيقة (وقالوا:لا تنفروا في الحر . قل:نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون) فإن كانوا يشفقون من حر الأرض ، ويؤثرون الراحة المسترخية في الظلال . فكيف بهم في حر جهنم وهي أشد حراً ، وأطول أمداً ؟ وإنها لسخرية مريرة ، ولكنها كذلك حقيقة . فإما كفاح في سبيل الله فترة محدودة في حر الأرض ، وإما انطراح في جهنم لا يعلم مداه إلا الله (فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون) وإنه لضحك في هذه الأرض وأيامها المعدودة ، وإنه لبكاء في أيام الآخرة الطويلة . وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما يعدون (جزاء بما كانوا يكسبون) فهو الجزاء من جنس العمل ، وهو الجزاء العادل الدقيق ، هؤلاء الذين آثروا الراحة على الجهد - في ساعة العسرة -

وتخلفوا عن الركب فى أول مرة . هؤلاء لا يصلحون لكفاح ، ولا يُرجون لجهاد ، ولا يجوز أن يؤخذوا بالسماحة والتغاضى , ولا أن يتاح لهم شرف الجهاد الذى تخلوا عنه راضين (فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل:لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ، فاقعدوا مع الخالفين) إن الدعوات فى حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد فى الكفاح الطويل الشاق . والصف الذى يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد لأنهم يخذلونه فى ساعة الشدة فيشيعون فيه الخذلان والضعف والاضطراب . فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيداً عن الصف وقاية له من التخلخل والهزيمة . والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف فى ساعة الشدة , ثم يعودون إليه فى ساعة الرخاء ، جناية على الصف كله ، وعلى الدعوة التى يكافح فى سبيلها كفاحه المرير (فقل:لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً) لماذا ؟ ؟ (إنكم رضيتم بالقعود أول مرة) ففقدتم حقكم فى شرف الخروج ، وشرف الانتظام فى الكتيبة ، والجهاد عبء لا ينهض به إلا من هم له أهل . فلا سماحة فى هذا ولا مجاملة (فاقعدوا مع الخالفين) المتجانسين معكم فى التخلف والقعود . هذا هو الطريق الذى رسمه الله تعالى لنبيه الكريم ، وإنه لطريق هذه الدعوة ورجالها أبداً . فليعرف أصحابها فى كل زمان وفى كل مكان ذلك الطريق . . وكما أمر الله رسوله ﷺ بألا يسمح للمتخلفين فى ساعة العسرة أن يعودوا فينتظموا فى الصفوف ، كذلك أمره ألا يخلع عليهم أى ظلال من ظلال التكريم (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره . إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) ولقد ذكر المفسرون حوادث خاصة عنتها هذه الآية . ولكن دلالة الآية أعم من الحوادث الخاصة . فهى تقرر أصلاً من أصول التقدير فى نظام الجماعة المكافحة فى سبيل العقيدة , هو عدم التسامح فى منح مظاهر التكريم لمن يؤثرون الراحة المسترخية على الكفاح الشاق ؛ وعدم المجاملة فى تقدير منازل الأفراد فى الصف . ومقياس هذا التقدير هو الصبر والثبات والقوة والإصرار والعزيمة التى لا تسترخى ولا تلين . والنص يعلل هذا النهى فى موضعه هنا (إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وهو تعليل خاص بعدم الصلاة أو قيام الرسول ﷺ على قبر منافق . . ولكن القاعدة – كما ذكرنا – أوسع من المناسبة الخاصة . فالصلاة والقيام تكريم . والجماعة المسلمة يجب ألا تبذل هذا التكريم لمن يتخلف عن الصف فى ساعة الجهاد ، لتبقى له قيمته ، ولتظل قيم الرجال منوطة بما يبذلون فى سبيل الله , وبما يصبرون على البذل ، ويثبتون على الجهد ، ويخلصون أنفسهم وأموالهم لله لا يتخلفون بهما فى ساعة الشدة ، ثم يعودون فى الصف مكرمين ! لا التكريم الظاهر ينالونه فى أعين الجماعة ، ولا التكريم الباطن ينالونه فى عالم الضمير (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم . إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) والمعنى العام للآية قد سبق فى السياق . أما مناسبة ورودها فتختلف . فالمقصود هنا ألا يقام وزن لأموالهم وأولادهم ، لأن الإعجاب بها نوع من التكريم الشعورى لهم . وهم لا يستحقونه لا فى الظاهر ولا فى الشعور . إنما هو الاحتقار والإهمال لهم ولما يملكون (وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم ، وقالوا:ذرنا نكن مع القاعدين: رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وأولئك لهم الخيرات , وأولئك هم المفلحون ، أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها , ذلك الفوز العظيم) إنهما طبيعتان . . طبيعة النفاق والضعف والاستخذاء . وطبيعة الإيمان والقوة والبلاء . وإنهما خطتان . . خطة الالتواء والتخلف والرضى بالدون . وخطة الاستقامة والبذل والكرامة . فإذا أنزلت سورة تأمر بالجهاد جاء أولوا الطول ، الذين يملكون وسائل الجهاد والبذل . جاءوا لا ليتقدموا الصفوف كما تقتضيهم المقدرة التى وهبها الله لهم ، وشكر النعمة التى أعطاها الله إياهم ، ولكن ليتخاذلوا ويعتذروا ويطلبوا أن يقعدوا مع النساء لا يذودون عن حرمة ولا يدفعون عن سكن . دون أن يستشعروا ما فى هذه القعدة الذليلة من صغار وهوان ، ما دام فيها السلامة ، وطلاب السلامة لا يحسون العار ، فالسلامة هدف الراضين بالدون (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . . ولو كانوا يفقهون لأدركوا ما فى الجهاد من قوة وكرامة وبقاء كريم ، وما فى التخلف من ضعف ومهانة وفناء ذميم (وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) (لكن الرسول والذين آمنوا معه) وهم طراز آخر غير ذلك الطراز . . جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) . . فنهضوا بتكاليف العقيدة ، وأدوا واجب الإيمان ؛ وعملوا للعزة التى لا تنال بالقعود (وأولئك لهم الخيرات). . خيرات الدنيا والآخرة ، فى الدنيا لهم العزة ولهم الكرامة ولهم المغنم ولهم الكلمة العالية . وفى الآخرة لهم الجزاء الأوفى , ولهم رضوان الله الكريم (وأولئك هم المفلحون). . الفلاح فى الدنيا بالعيش الكريم القويم والفلاح فى الآخرة بالأجر العظيم (أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها). . (ذلك الفوز العظيم) (وجاء المعذّرون من الأعراب ليؤذن لهم ، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ، سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) فأما الأولون فهم ذوو الأعذار الحقيقية فلهم عذرهم إن استأذنوا فى التخلف ، وأما الآخرون فقعدوا بلا عذر . قعدوا كاذبين على الله والرسول . وهؤلاء ينتظر الذين كفروا

منهم عذاب أليم . أما الذين يتوبون ولا يكفرون فمسكوت عنهم لعل لهم مصيراً غير هذا المصير . وأخيرا يحدد التبعة . فليس الخروج ضربة لازب على من يطيقون ومن لا يطيقون . فالإسلام دين اليسر ولا يكلف اللّه نفسا إلا وسعها . والذين عجزوا عن النفرة لا تثريب عليهم ولا مؤاخذة لهم ، لأنهم معذورون (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله . ما على المحسنين من سبيل ، واللّه غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون) ليس على الضعفاء العاجزين عن القتال لعلة فى تكوينهم ، أو لشيخوخة تقعدهم ؛ ولا على المرضى الذين لا يستطيعون الحركة والجهد ؛ ولا على المعدمين الذين لا يجدون ما يتزودون به . . ليس على هؤلاء حرج إذا تخلفوا عن المعركة فى الميدان ، وقلوبهم مخلصة للّه ورسوله ، لا يغشون ولا يخدعون ، ويقومون بعد ذلك بما يستطيعونه – دون القتال – من حراسة أو صيانة أو قيام على النساء والذرية فى دار الإسلام ، أو أعمال أخرى تعود بالنفع على المسلمين . ليس عليهم جناح ، وهم يحسنون بقدر ما يستطيعون ، فلا جناح على المحسنين ، إنما الجناح على المسيئين . ولا جناح كذلك على القادرين على الحرب ، ولكنهم لا يجدون الرواحل التى تحملهم إلى أرض المعركة . فإذا حرموا المشاركة فيها لهذا السبب ، ألمت نفوسهم حتى لتفيض أعينهم دموعاً ، لأنهم لا يجدون ما ينفقون . وإنها لصورة مؤثرة للرغبة الصحيحة فى الجهاد ، والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه .وإنها لصورة واقعة حفظتها الروايات عن جماعة من المسلمين فى عهد الرسول ﷺ تختلف الروايات فى تعيين أسمائهم ، ولكنها تتفق على الواقعة الصحيحة . روى العوفي عن ابن عباس:" وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد اللّه بن مغفل بن مقوى المازنى ، فقالوا:يا رسول اللّه احملنا ، فقال لهم:" واللّه لا أجد ما أحملكم عليه " فتولوا وهم يبكون ، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً:فلما رأى اللّه حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم فى كتابه . وقال ابن إسحاق فى سياق غزوة تبوك: ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول اللّه ﷺ وهم الباكون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بنى عمرو بن عوف: سالم بن عمير , وعلية بن زيد أخو بنى حارثة ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بنى مازن وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بنى سلمة ، وعبد اللّه بن المغفل المزنى ، وبعض الناس يقول: بل هو عبد اللّه بن عمرو المزنى وحرمي بن عبد اللّه أخو بنى واقف وعياض بن سارية الفزارى , فاستحملوا رسول اللّه ﷺ وكانوا أهل حاجة: فقال:" لا أجد ما أحملكم عليه " تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون . بمثل هذه الروح انتصر الإسلام ، وبمثل هذه الروح عزت كلمته . فلننظر أين نحن من هؤلاء . ولننظر أين روحنا من تلك العصبة . ثم لنطلب النصر والعزة إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر . وإلا فلنسدد ولنقارب واللّه المستعان .

(إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{٩٣} يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٩٤} سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{٩٥} يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ{٩٦} الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{٩٧} وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{٩٨} وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٩٩} وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٠٠} وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ{١٠١} وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{١٠٢} خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{١٠٣} أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{١٠٤} وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{١٠٥} وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{١٠٦} وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{١٠٧} لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ{١٠٨} أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ

بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{١٠٩} لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{١١٠}

ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون ، ولا يجد لهم الرسول ﷺ ما يحملهم عليه إلى أرض المعركة . . من جناح ولا حرج إذا هم تخلفوا عن المعركة . . إنما الجناح والحرج على الذين يستأذنون رسول الله ﷺ فى القعود وهم أغنياء قادرون ، لا يقعدهم عذر حقيقى عن الخروج . . إنما الجناح والحرج على هؤلاء القادرين الذين يرضون أن يقعدوا قعدة الخوالف فى الدور . . هؤلاء هم المؤاخذون بتخلفهم عن الخروج ، والاستئذان فى القعود ، ذلك أنهم ناكلون متثاقلون , ولا يؤدون حق الله عليهم وقد أغناهم وأقدرهم ؛ ولا يؤدون حق الإسلام وقد حماهم وأعزهم ؛ ولا يؤدون حق المجتمع الذى يعيشون فيه وقد أكرمهم وكفلهم . . ومن ثم يختار الله – سبحانه – لهم هذا الوصف (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) فهو سقوط الهمة ، وضعف العزيمة ، والرضا بأن يكونوا مع النساء والأطفال والعجزة الذين يخلفون فى الدور لعجزهم عن تكاليف الجهاد . . وهم معذورون . . فأما أولئك فما هم بمعذورين ! (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) فقد أغلق الله فيهم منافذ الشعور والعلم ، وعطل فيهم أجهزة الاستقبال والإدراك , بما ارتضوه هم لأنفسهم من الخمول والبلادة والوخم ، والاحتجاب عن مزاولة النشاط الحركى الحى المتفتح المنطلق الوثاب ! وما يؤثر الإنسان السلامة الذليلة والراحة البليدة إلا وقد فرغت نفسه من دوافع التطلع والتذوق والتجربة والمعرفة ، فوق ما فرغت من دوافع الوجود والشهود والتأثر والتأثير فى واقع الحياة . وإن بلادة الراحة لتغلق المنافذ والمشاعر ، وتطبع على القلوب والعقول . والحركة دليل الحياة ، ومحرك فى الوقت ذاته للحياة . ومواجهة الخطر تستثير كوامن النفس وطاقات العقل ، وتشد العضل , وتكشف عن الاستعدادات المخبوءة التى تنتفض عند الحاجة ، وتدرب الطاقات البشرية على العمل وتشحذها للتلبية والاستجابة . . وكل أولئك ألوان من العلم والمعرفة والتفتح يحرمها طلاب الراحة البليدة والسلامة الذليلة . ويمضى السياق يصف حال هؤلاء الأغنياء القادرين الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف . .إن وراء حب الدعة وإيثار السلامة ، سقوط الهمة ، وذلة النفس ، وانحناء الهامة ، والتهرب من المواجهة والمصارحة: (يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم) وهذا من إنباء الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين الخلص بما سيكون من أمر هؤلاء المتخلفين من المنافقين بعد الرجوع من الغزوة . مما يدل على أن هذه الآيات نزلت فى أثناء العودة وقبل الوصول إلى المدينة . يعتذرون إليكم عن تخلفهم وقعودهم ، ذلك أنهم يخجلون من الظهور بفعلتهم هذه عارية , ومن الكشف عن أسبابها الحقيقية ؛ وهى ضعف الإيمان ، وإيثار السلامة ، والإشفاق من الجهاد ! (قل:لا تعتذروا . لا نؤمن لكم . قد نبأنا الله من أخباركم) ! قل:وفروا عليكم معاذيركم . فلن نطمئن إليكم ، ولن نصدقكم ، ولن نأخذ بظاهر إسلامكم كما كنا نفعل . ذلك أن الله قد كشف لنا حقيقتكم ، وما تنطوى عليه صدوركم ؛ وقص علينا دوافع أعمالكم ؛ وحدثنا عن حالكم ، فلم تعد مستورة لا نرى إلا ظاهرها كما كنا من قبل معكم . والتعبير عن عدم التصديق والثقة والائتمان والاطمئنان بقوله تعالى (لن نؤمن لكم) ذو دلالة خاصة . فالإيمان تصديق وثقة وائتمان واطمئنان . تصديق بالقول وائتمان بالعقل واطمئنان بالقلب , وثقة من المؤمن بربه ، وثقة متبادلة بينه وبين المؤمنين معه . وللتعبير القرآنى دائماً دلالته وايحاؤه . قل:لا تعتذروا . فلا جدوى للقول ولا معول على الكلام . ولكن اعملوا فإن صدق عملكم ما تقولون فذاك ، وإلا فلا ثقة بالقول ولا ائتمان ولا اطمئنان (وسيرى الله عملكم ورسوله) والله لا تخفى عليه الأعمال ولا النوايا المخبوءة وراءها ؛ ورسول الله ﷺ سيزن قولكم بعملكم . وعلى أساسه سيكون التعامل معكم فى المجتمع المسلم . ولن ينتهى الأمر – على كل حال – بما يجرى فى هذه الأرض فى فترة الحياة الدنيا . فوراء ذلك حساب وجزاء , يقومان على علم الله المطلق بالظواهر والسرائر (ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) والغيب ما غاب عن الناس علمه ، والشهادة ما يشهدونه ويعرفونه . والله سبحانه عالم الغيب والشهادة بهذا المعنى . وبمعنى أشمل وأكبر . فهو سبحانه يعلم ما فى هذا العالم المشهود ويعلم ما وراءه من العوالم المغيبة . . وفى قوله تعالى لأولئك المخاطبين (فينبئكم بما كنتم تعملون). . إيماءة مقصودة . فهم يعلمون ما كانوا يعملون . ولكن الله – سبحانه – أعلم منهم بها حتى لينبئهم هو بها ! وكم من دافع خفى للعمل يخفى حتى على صاحبه وهو يفعله ، والله أعلم به منه ! وكم من نتيجة لهذا العمل لا يدرى صاحبه وقوعها ، والله يعلمها دون صاحبها ! . . والمقصود – بطبيعة الحال – هو نتيجة الإنباء . وهى الحساب والجزاء الحق على الأعمال . ولكن هذه النتيجة لا ينص عليها ، إنما ينص على الإنباء ذاته لمناسبة هذه الإيماءة فى هذا السياق .سيحلفون بالله لكم – إذا إنقلبتم إليهم – لتعرضوا عنهم . فأعرضوا عنهم ، إنهم رجس ,ومأواهم جهنم ، جزاء بما كانوا يكسبون . . وهذا إنباء آخر من الله سبحانه لنبيه [ص] ، عما سيكون من أمر القوم عندما يعود إليهم هو والمؤمنون الخلص معه سالمين آمنين . وكان المنافقون قد ظنوا أنهم لا يعودون من لقاء

الروم ! فقد علم اللّه وأخبر نبيه أنهم سيؤكدون معاذيرهم بالحلف باللّه ؛ لعل المسلمين يعرضون عن فعلتهم وتخلفهم عفواً وصفحاً ؛ ولا يحاسبونهم عليها ويجازونهم بها . ثم يوجهه ربه إلى الإعراض عنهم فعلاً ، لكن لا بمعنى العفو والصفح ؛ إنما بمعنى الإهمال والإجتناب . معللاً ذلك بأنهم دنس يتجنب ويتوقى (فأعرضوا عنهم ، إنهم رجس) وهو التجسيم الحسى للدنس المعنوى . فهم ليسوا رجساً – أى دنساً – بأجسادهم وذواتهم ; إنما هم رجس بأرواحهم وأعمالهم . ولكنها الصورة المجسمة أشد بشاعة وأبين قذارة ,وأدعى إلى التقزز والإشمئزاز ، وإلى الإحتقار كذلك والإزدراء ! والقاعدون فى الجماعة المكافحة – وهم قادرون على الحركة – الذين يقعد بهم إيثار السلامة عن الجهاد . . رجس ودنس . ما فى ذلك شك ولا ريب . . رجس خبيث يلوث الأرواح , ودنس قذر يؤذى المشاعر ؛ كالجثة المنتنة فى وسط الأحياء تؤذى وتعدى ! (ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون) وهم يحسبون أنهم يكسبون بالتخلف ؛ ويربحون بالقعود ؛ ويجنون السلامة والراحة ؛ ويحتفظون بالعافية والمال . . ولكن الحقيقة أنهم دنس فى الدنيا ، وأنهم يضيعون نصيبهم فى الآخرة . فهى الخسارة المطبقة بكل ألوانها وأشكالها . . ومن أصدق من اللّه حديثاً ؟ . ثم يمضى السياق ينبئ عما سيقع من هؤلاء القاعدين بعد عودة المجاهدين (يحلفون لكم لترضوا عنهم . فإن ترضوا عنهم فإن اللّه لا يرضى عن القوم الفاسقين) إنهم يطلبون إبتداء من المسلمين أن يعرضوا عن فعلتهم صفحاً وعفواً . ثم يتدرجون من هذا إلى طلب رضى المسلمين عنهم ليضمنوا السلامة فى المجتمع المسلم بهذا الرضى ! ويضمنوا أن يظل المسلمون يعاملونهم بظاهر إسلامهم كما كانوا يعاملونهم ؛ ولا يجاهدونهم ويغلظون عليهم كما أمرهم اللّه فى هذه السورة أن يفعلوا ؛ محدداً بذلك العلاقات النهائية بين المسلمين والمنافقين فيهم . ولكن اللّه سبحانه يقرر أنهم فسقوا عن دين اللّه بهذا القعود الناشئ عن النفاق ؛ وأن اللّه لا يرضى عن القوم الفاسقين . حتى ولو استطاعوا أن يحلفوا ويعتذروا حتى يرضى عنهم المسلمون ! . . وحكم اللّه فيهم هو الحكم . ورضا الناس – ولو كانوا هم المسلمين – فى هذه الحالة لا يغير من غضب اللّه عليهم ، ولا يجديهم فتيلاً . إنما السبيل إلى إرضاء اللّه هو الرجوع عن هذا الفسق ، والعودة إلى دين اللّه القويم ! وهكذا كشف اللّه هؤلاء القاعدين – من غير عذر – فى الجماعة المسلمة ؛ وقرر العلاقات النهائية بين المسلمين والمنافقين . كما قررها من قبل بين المسلمين والمشركين , وبين المسلمين وأهل الكتاب . وكانت هذه السورة هى الحكم النهائى الأخير .

...

هذا الدرس الأخير بجملته تصنيف للمجتمع الإسلامى فى ذلك الحين – إبان غزوة تبوك – يصور طوائفه وطبقاته الإيمانية الداخلة فى تركيبه العضوى العام ، مع تميز كل منها بصفاته وأعماله . ولقد فصلنا القول عند تقديم السورة عن الأسباب التاريخية التى أنشأت هذه المستويات الإيمانية المتعددة فى الجماعة المسلمة فى المدينة . فقلنا: لقد كانت وقفة قريش العنيدة الطويلة حاجزاً قوياً دون انسياح الإسلام فى الجزيرة العربية . فقد كانت قريش هى صاحبة الكلمة العليا فى الشؤون الدينية فى الجزيرة – فوق ما كان لها من نفوذ إقتصادى وسياسى وأدبى كذلك – فكانت وقفتها فى وجه الدين الجديد ، بهذه الصورة العنيدة ، مدعاة لصرف العرب فى أنحاء الجزيرة عن الدخول فيه , أو على الأقل مدعاة للتردد والإنتظار حتى تنجلى المعركة بين قريش وهذا النبى من أبنائها ! . . . فلما دانت قريش بالفتح ، ودانت بعدها هوازن وثقيف فى الطائف ؛ وكانت قبائل اليهود الثلاث القوية فى المدينة قد خضدت شوكتها نهائياً ، فأجليت بنو قينقاع وبنو النضير إلى الشام ، وأبيدت بنو قريظة ، واستسلمت خيبر الإستسلام الأخير . . كان ذلك إيذاناً بدخول الناس فى دين اللّه أفواجاً ، وانسياح الإسلام فى أرجاء الجزيرة كلها فى خلال عام واحد . غير أن هذا الاتساع الأفقى فى رقعة الإسلام قد أعاد معه جميع الأعراض والظواهر التى ظهرت فى المجتمع بعد إنتصار بدر – ولكن على نطاق أوسع – بعدما كاد المجتمع يبرأ منها بتأثير التربية الطويلة المدى ، المستمرة التأثير ، فى خلال السنوات السبع بعد بدر الكبرى ! ولولا أن المجتمع المدنى بجملته كان قد تحول إلى أن يكون هو القاعدة الصلبة الخالصة لهذه العقيدة ، والأساس الركين لهذا المجتمع ؛ لكان هناك خطر كبير من هذا الإتساع الأفقى السريع فى رقعة الإسلام فى الجزيرة . . ولكن اللّه الذى كان يدبر لهذا الأمر ويرعاه ، كان قد أعد العصبة المؤلفة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لتكون هى القاعدة الأمينة لهذا الدين بعد التوسع النسبى الذى جاء به انتصار بدر ! كما أنه – سبحانه – كان قد أعد المجتمع المدنى بجملته ليكون هو القاعدة الأمينة بعد التوسع الشديد السريع الذى جاء به فتح مكة . . واللّه أعلم حيث يجعل رسالته . . وأول ما ظهر من ذلك كان يوم حنين الذى جاء عنه فى هذه السورة:"التوبة ":(لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل اللّه سكينته على رسوله وعلى المؤمنين , وأنزل جنوداً لم

تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين). . وكان من الأسباب الظاهرة لهذه الهزيمة في أول الأمر أن ألفين من "الطلقاء" الذين أسلموا يوم الفتح ، قد خرجوا مع الآلاف العشرة من جند المدينة الذين فتحوا مكة . فكان وجود هذين الألفين - مع عشرة الآلاف - سبباً فى اختلال التوازن في الصف - بالإضافة إلى عامل المفاجأة من هوازن - ذلك أن الجيش لم يكن كله من القاعدة الصلبة الخالصة التى تمت تربيتها وتناسقها في الزمن الطويل ما بين بدر والفتح . كذلك كان ما ظهر في أثناء غزوة تبوك من الأعراض والظواهر المؤذية ثمرة طبيعية لهذا الإتساع الأفقي السريع ؛ ودخول تلك الأفواج الجديدة ، بمستوياتها الإيمانية والتنظيمية المخلخلة . . هذه الظواهر والأعراض التى تحدثت عنها سورة التوبة ، والتى اقتضت تلك الحملات الطويلة المفصلة المنوعة الأساليب ، التى أشرنا إليها فى المقتطفات الممثلة لكل مقاطع السورة " . .

وفى ضوء هذا البيان المجمل نملك المضى مع نصوص هذا الدرس تفصيلاً (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله ، واللّه عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء ، واللّه سميع عليم . ومن الأعراب من يؤمن باللّه واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند اللّه وصلوات الرسول . ألا إنها قربة لهم ، سيدخلهم اللّه فى رحمته , إن اللّه غفور رحيم) بدأ بتصنيف الأعراب - وهم البدو - وقد كانت قبائل منهم حول المدينة ، وكانت لهم أدوار في الهجوم على دار الإسلام في المدينة - قبل إسلامهم - فلما أسلموا كانوا بوجه عام داخلين في الفئتين اللتين ورد وصفهما في هذه الآيات . وقد بدأ الحديث عنهما بتقرير قاعدة كلية عن طبيعة الأعراب (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله ، واللّه عليم حكيم) والتعبير بهذا العموم يعطى وصفاً ثابتاً متعلقاً بالبدو وبالبداوة . فالشأن فى البدو أن يكونوا أشد كفراً ونفاقاً ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله . والجدارة بعدم العلم بما أنزل اللّه على رسوله ناشئة من ظروف حياتهم ، وما تنشئه فى طباعهم من جفوة ، ومن بعد عن المعرفة وعن الوقوف عند الحدود ، ومن مادية حسية تجعل القيم المادية هى السائدة . وإن كان الإيمان يعدل من هذه الطباع ، ويرفع من تلك القيم ، ويصلهم بالأفق الوضيء المرتفع على الحسية . وقد وردت روايات كثيرة عن جفوة الأعراب . . ومما أورده ابن كثير في التفسير: قال الأعمش عن إبراهيم قال:جلس أعرابى إلى زيد بن صوحان ، وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم "نهاوند" ، فقال الأعرابى:واللّه إن حديثك ليعجبنى ، وإن يدك لتريبنى ! فقال زيد:وما يريبك من يدى ؟ إنها الشمال ! فقال الأعرابى:واللّه ما أدرى اليمين يقطعون أم الشمال ! فقال زيد ابن صوحان: صدق اللّه ورسوله: (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله)" . وقال الإمام أحمد:حدثنا عبدالرحمن بن مهدي ، حدثنا سفيان ، عن أبى موسى ، عن وهب بن منبه ، عن ابن عباس ، عن رسول اللّه - [ص] - قال:" من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن " ولما كانت الغلظة والجفاء فى أهل البوادى لم يبعث اللّه منهم رسولاً ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى)

""قال حديث مسلم:حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وأبو كريب قالا:حدثنا أبو أسامة وابن نمير , عن هشام , عن أبيه , عن عائشة , قالت:قدم ناس من الأعراب على رسول اللّه ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم ؟ قالوا:نعم ! قالوا:لكنا واللّه ما نقبل ! فقال رسول اللّه - [ص " - [وما أملك إن كان اللّه نزع منكم الرحمة ؟ "وكثير من الروايات يكشف عن طابع الجفوة والفظاظة فى نفوس الأعراب . حتى بعد الإسلام . فلا جرم يكون الشأن فيهم أن يكونوا أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله ، لطول ما طبعتهم البداوة بالجفوة والغلظة عندما يقهرون غيرهم ؛ أو بالنفاق والالتواء عندما يقهرهم غيرهم ؛ وبالاعتداء وعدم الوقوف عند الحدود بسبب مقتضيات حياتهم فى البادية (واللّه عليم حكيم) عليم بأحوال عباده وصفاتهم وطباعهم . حكيم فى توزيع المواهب والخصائص والاستعدادات , وتنويع الأجناس والشعوب والبيئات . وبعد الوصف الرئيسى العام للأعراب يجيئ التصنيف حسبما أحدث الإيمان فى النفوس من تعديلات ; وما انشأه كذلك من فروق بين القلوب التى خالطتها بشاشته والقلوب التى بقيت على ما فيها من كفر ونفاق ؛ مما يمثل الواقع فى المجتمع المسلم حينذاك (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ، ويتربص بكم الدوائر , عليهم دائرة السوء , واللّه سميع عليم) وربما عجل بذكر المنافقين من الأعراب قبل المؤمنين منهم ، إلحاقاً لهم بمنافقى المدينة الذين كان يتحدث عنهم فى المقطع السالف كله ؛ وليتصل جو الحديث عن المنافقين من هؤلاء ومن هؤلاء (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً) فهو مضطر لأن ينفق من ماله فى الزكاة ، وفى غزوات المسلمين ؛ تظاهراً بالإسلام ، ليستمتع بمزايا الحياة فى

المجتمع المسلم ، ومداراة للمسلمين وهم أصحاب السلطان اليوم فى الجزيرة ! وهو يعد ما ينفقه غرامة وخسارة يؤديها كارهاً ، لا مساعدة للغزاة المجاهدين ، ولا حباً فى انتصار الإسلام والمسلمين (ويتربص بكم الدوائر) وينتظر متى تدور الدائرة على المسلمين ، ويتمنى ألا يعودوا من غزاة سالمين ! وهنا يعاجلهم السياق بدعاء من الله – سبحانه – عليهم ؛ ودعاء الله معناه وقوع مدلول الدعاء عليهم (عليهم دائرة السوء) كأن للسوء دائرة تطبق عليهم فلا تفلتهم ؛ وتدور عليهم فلا تدعهم . وذلك من باب تجسيم المعنوى وتخييله ، الذى يعمق وقع المعنى ويحييه (والله سميع عليم) والسمع والعلم يتناسبان هنا مع جو التربص بالسوء من أعداء الجماعة المسلمة ، والنفاق الذى تحتويه جوانحهم ، وتخفيه ظواهرهم . . والله سميع لما يقولون عليم بما يظهرون وما يكتمون . وهناك الفريق الآخر ممن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول . ألا إنها قربة لهم . سيدخلهم الله فى رحمته . إن الله غفور رحيم)فهو الإيمان بالله واليوم الآخر باعث الإنفاق عند هذا الفريق ، لا الخوف من الناس , ولا الملق للغالبين ، ولا حساب الربح والخسارة فى دنيا الناس ! وهذا الفريق المؤمن بالله واليوم الآخر يبتغي بما ينفق أن يكون قربى من الله ؛ ويتطلب صلوات الرسول . . أى دعواته . . الدالة على رضاه [ص] ، المقبولة عند الله , وهو يدعو بها للمؤمنين بالله واليوم الآخر ، المنفقين ابتغاء القربى من الله ورضاه . لذلك يبادر السياق فيقرر لهم أنها قربى مقبولة عند الله (ألا إنها قربة لهم) ويبشرهم بحسن العاقبة وعداً من الله حقاً (سيدخلهم الله فى رحمته) ويجسم الرحمة كأنها دار يدخلونها فتحتويهم ؛ وذلك فى مقابل تجسيم (دائرة السوء) على الفريق الاخر ، الذى يتخذ ما ينفق مغرماً ، ويتربص بالمؤمنين الدوائر (إن الله غفور رحيم) يقبل التوبة ، ويتقبل النفقة ، ويغفر ما كان من ذنب ، ويرحم من يبتغون الرحمة ، وبعد تصنيف الأعراب على وجه الإجمال يستطرد السياق فى تصنيف المجتمع كله حاضره وباديه إلى أربع طبقات إيمانية: السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . والمنافقين الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة ومن الأعراب . والذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . والذين أرجئ الحكم فى أمرهم حتى يقضى الله فيهم بقضائه (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم) (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة ، مردوا على النفاق ، لا تعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم) (وآخرون اعترفوا بذنوبهم . خلطوا عملاً صالحا وآخر سيئا . عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم . ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات , وان الله هو التواب الرحيم ؟ وقل:اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون , وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون (وآخرون مُرجون لأمر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ، والله عليم حكيم) والظاهر أن هذا التصنيف قد نزلت به هذه الآيات بعد العودة من تبوك ؛ وبعد اعتذار من اعتذر من المنافقين المتخلفين ؛ ومن المؤمنين المتخلفين كذلك . سواء منهم من اعتذر صادقا ومن ربط نفسه بسارية المسجد حتى يحله رسول الله ﷺ ومن لم يعتذر بشيء راجياً أن يقبل الله توبته بصدقه ، وهم الثلاثة الذين خلفوا فلم يحكم فى شأنهم بشيء حتى تاب الله عليهم وقبل توبتهم – كما سيجيء – وكان مجموع هؤلاء يمثل صنوف الناس من حول الدعوة فى الجزيرة بعد غزوة تبوك . وكان الله – سبحانه – يكشف أرض الحركة كلها وما عليها ومن عليها لرسوله ﷺ ومن معه من المؤمنين الخلص , هذا الكشف النهائى الكامل قرب نهاية المطاف فى الجولة الأولى لهذا الدين ، فى موطنه الأول ، قبل أن ينطلق إلى الأرض كلها بإعلانه العام بالعبودية لله وحده والدينونة له وحده ، وتحرير "الإنسان" فى "الأرض" من العبودية للعباد فى شتى الصور والأشكال (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، ذلك الفوز العظيم) وهذه الطبقة من المسلمين – بمجموعاتها الثلاث: (السابقون الأولون من المهاجرين . والأنصار . والذين اتبعوهم بإحسان) كانت تؤلف القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم فى الجزيرة بعد الفتح – كما أسلفنا فى تقديم السورة وكانت هى التى تمسك هذا المجتمع كله فى كل شدة ، وفى كل رخاء كذلك:فابتلاء الرخاء كثيراً ما يكون أصعب وأخطر من ابتلاء الشدة ! والسابقون من المهاجرين نميل نحن إلى اعتبار أنهم هم الذين هاجروا قبل بدر ، وكذلك السابقون من الأنصار . أما الذين اتبعوهم بإحسان – الذين يعنيهم هذا النص وهو يتحدث عما كان واقعاً إبان غزوة تبوك – فهم الذين اتبعوا طريقهم وآمنوا إيمانهم وأبلوا بلاءهم بعد ذلك ، وارتفعوا إلى مستواهم الإيمانى – وإن بقيت للسابقين سابقتهم بسبقهم فى فترة الشدة قبل بدر ، وهى أشد الفترات طبعاً . وقد وردت أقوال متعددة فى اعتبار من هم السابقون من المهاجرين والأنصار . فقيل:هم الذين هاجروا ونصروا قبل بدر وقيل:هم الذين صلوا للقبلتين . وقيل:هم أهل بدر . وقيل:هم الذين هاجروا

ونصروا قبل الحديبية . وقيل:هم أهل بيعة الرضوان . . ونحن نرى من تتبعنا لمراحل بناء المجتمع المسلم وتكون طبقاته الإيمانية ، أن الاعتبار الذى اعتبرناه أرجح . . والله أعلم . . ولعله يحسن أن نعيد هنا فقرات مما سبق أن فصلناه عن مراحل بناء المجتمع المسلم وتكون طبقاته الإيمانية ، يكون حاضراً بين يدى قارئ هذا الجزء ، خيراً من إحالته إلى الجزء السابق ؛ لتكون هذه الحقيقة قريبة منه يتتبع على ضوئها ذلك التصنيف النهائى للمجتمع فى الآيات التى نواجهها هنا:

"لقد ولدت الحركة الإسلامية فى مكة على محك الشدة ، فلم تكد الجاهلية – ممثلة فى قريش – تحس بالخطر الحقيقى الذى يتهددها من دعوة:"أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله" وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضى لا يستمد من سلطان الله ؛ ومن تمرد نهائى على كل طاغوت فى الأرض والفرار منه إلى الله . ثم بالخطر الجدى من التجمع الحركى العضوى الجديد الذى أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول الله ﷺ هذا التجمع الذى يدين منذ اليوم الأول بالطاعة لله ولرسول الله ؛ ويتمرد ويخرج على القيادة الجاهلية الممثلة فى قريش والأوضاع السائدة فى هذه الجاهلية . لم تكد الجاهلية – ممثلة فى قريش أول الأمر – تحس بهذا الخطر وذاك حتى شنتها حرباً شعواء على الدعوة الجديدة . . وعلى التجمع الجديد ، وعلى القيادة الجديدة ؛ وحتى أرصدت لها كل ما فى جعبتها من أذى ومن كيد ومن فتنة ومن حيلة . . لقد انتفض التجمع الجاهلى ليدفع عن نفسه الخطر الذى يتهدد وجوده بكل ما يدفع به الكائن العضوى خطر الموت عن نفسه . وهذا هو الشأن الطبيعى الذى لا مفر منه كلما قامت دعوة إلى ربوبية الله للعالمين ، فى مجتمع جاهلى يقوم على أساس من ربوبية العباد للعباد ؛ وكلما تمثلت الدعوة الجديدة فى تجمع حركى جديد ، يتبع فى تحركه قيادة جديدة ، ويواجه التجمع الجاهلى القديم مواجهة النقيض للنقيض . . وعندئذ تعرض كل فرد فى التجمع الإسلامى الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها ، إلى حد إهدار الدم فى كثير من الأحيان . . ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والانضمام إلى التجمع الإسلامى الوليد ، والدينونة لقيادته الجديدة ، إلا كل من نذر نفسه لله ؛ وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب ، والموت فى أبشع الصور فى بعض الأحيان . بذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عوداً فى المجتمع العربى ؛ فأما العناصر التى لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى ; وكان هذا النوع قليلاً ؛ فقد كان الأمر كله معروفا مكشوفا من قبل ؛ فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام ، وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب ؛ إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين . وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة ، ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين فى مكة ؛ ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك فى المدينة مع السابقين من الأنصار ،الذين وإن كانوا لم يصطلوها فى أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون ، إلا أن بيعتهم لرسول الله – [ص] – [بيعة العقبة] قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين . . قال ابن كثير فى التفسير:"وقال محمد بن كعب القرظى وغيره:قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه لرسول الله ﷺ يعنى ليلة العقبة]:اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال:" أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ؛ وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " . قالوا:فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك ؟ قال ":الجنة " . قالوا:ربح البيع ، ولا نقيل ولا نستقيل" . ولقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول الله هذه البيعة ؛ ولا يرتقبون من ورائها شيئاً إلا الجنة ؛ ويوثقون هذا البيع ، فيعلنون أنهم لا يقبلون أن يرجعوا فيه ولا أن يرجع فيه رسول الله ﷺ ! يعلمون أنهم لا يبايعون على أمر هين ؛ بل كانوا مستيقنين أن قريشا وراءهم ، وأن العرب كلها سترميهم ؛ وأنهم لن يعيشوا فى سلام مع الجاهلية الضاربة الأطناب من حولهم فى الجزيرة ، وبين ظهرانيهم فى المدينة " . فقد كان الأنصار إذن يعلمون – عن يقين واضح – تكاليف هذه البيعة ؛ وكانوا يعلمون أنهم لم يوعدوا على هذه التكاليف شيئاً فى هذه الحياة الدنيا – حتى ولا النصر والغلبة – وأنهم لم يوعدوا عليها إلا الجنة . . ثم كان هذا مدى وعيهم بها ومدى حرصهم عليها . . فلا جرم أن يكونوا – مع السابقين من المهاجرين الذين بُنوا هذا البناء وأعدوا هذا الإعداد – هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة . ولكن مجتمع المدينة لم يظل بهذا الخلوص والنقاء . . لقد ظهر الإسلام وفشا فى المدينة واضطر أفراد كثيرون – ومعظمهم من ذوى المكانة فى قومهم – أن يجاروا قومهم احتفاظاً بمكانتهم فيهم . . حتى إذا كانت وقعة بدر قال كبير هؤلاء:عبد الله بن أبى بن سلول:هذا أمر قد توجه ! وأظهر الإسلام نفاقا . ولا بد أن كثيرين قد جرفتهم الموجة فدخلوا فى الإسلام تقليداً – ولو لم يكونوا منافقين – ولكنهم لم يكونوا بعد قد فقهوا فى الإسلام ولا انطبعوا بطابعه . . مما أنشأ تخلخلاً فى بناء المجتمع المدنى , ناشئاً عن اختلاف مستوياته الإيمانية . " وهنا أخذ المنهج القرآنى التربوى الفريد ، بقيادة رسول الله ﷺ يعمل عمله فى هذه العناصر الجديدة ؛ ويعمل كذلك على إعادة التناسق والتوافق بين المستويات العقيدية والخلقية والسلوكية للعناصر

المختلفة الداخلة في جسم المجتمع الوليد . وحين نراجع السور المدنية – بترتيب النزول التقريبى – فإننا نطلع على الجهد الكبير الذى بذل فى عملية الصهر الجديدة المستمرة للعناصر المتنوعة فى المجتمع المسلم ;وبخاصة أن هذه العناصر ظلت تتوارد على هذا المجتمع – على الرغم من وقفة قريش العنيدة وتأليبها لكل قبائل الجزيرة ؛ ومن وقفة اليهود البشعة وتأليبهم كذلك للعناصر المعادية للدين الجديد والتجمع الجديد – وظلت الحاجة مستمرة لعمليات الصهر والتنسيق بصورة دائمة لا تفتر ولا تغفل لحظة . ومع هذا الجهد كله كانت ما تزال تظهر بين الحين والحين – وبخاصة فى فترات الشدة – أعراض من الضعف والنفاق والتردد ، والشح بالنفس والمال ، والتهيب من مواجهة المخاطر . . وبصفة خاصة أعراض من عدم الوضوح العقيدى الذى يحسم فى العلاقة بين المسلم وقرابته من أهل الجاهلية . . والنصوص القرآنية فى السور المتوالية تكشف لنا عن طبيعة هذه الأعراض التى كان المنهج القرآنى يتعرض لها بالعلاج بشتى أساليبه الربانية الفريدة . إلا أن قوام المجتمع المسلم فى المدينة كان يظل سليماً فى جملته بسبب اعتماده أساساً على تلك القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين والأنصار ; وما تحدثه من تماسك وصلابه فى قوامه فى وجه جميع الأعراض والظواهر والخلخلة أحياناً , والتعرض للمخاطر التى تكشف عن هذه العناصر التى لم يتم بعد صهرها ونضجها وتماسكها وتناسقها .وشيئاً فشيئاً كانت هذه العناصر تنصهر وتتطهر وتتناسق مع القاعدة ، ويقل عدد الناشزين من ضعاف القلوب ومن المنافقين ، ومن المترددين كذلك والمتهيبين ومن لم يتم فى نفوسهم الوضوح العقيدى الذى يقيمون على أساسه كل علاقاتهم مع الآخرين . حتى إذا كان قبيل فتح مكة كان المجتمع الإسلامى أقرب ما يكون إلى التناسق التام مع قاعدته الصلبة الخالصة ، وأقرب ما يكون بجملته إلى النموذج الذى يهدف إليه المنهج التربوى الربانى الفريد . .نعم إنه كانت فى هذا المجتمع ما تزال هناك أقدار متفاوتة أنشأتها الحركة العقيدية ذاتها ؛ فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلائها فى الحركة وسبقها وثباتها . . تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . وتميز أهل بدر . وتميز أصحاب بيعة الرضوان فى الحديبية . ثم تميز بصفة عامة الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا . وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، والأوضاع العملية فى المجتمع المسلم ، تؤكد هذه الأقدار التى أنشأتها الحركة بالعقيدة ، وتنص عليها . ." . ولكن تميز هذه الطبقات بأقدارها الإيمانية التى أنشأتها الحركة الإسلامية , لم يكن مانعاً أن تتقارب المستويات الإيمانية وتتناسق فى مجتمع المدينة قبيل الفتح ; وأن يتوارى الكثير من أعراض الخلخلة فى الصف ، والكثير من ظواهر الضعف والتردد , والشح بالنفس والمال ، وعدم الوضوح العقيدى ، والنفاق . . . من ذلك المجتمع . بحيث يمكن اعتبار المجتمع المدني بجملته هو القاعدة الإسلامية . إلا أن فتح مكة فى العام الثامن الهجرى ، وما أعقبه من استسلام هوازن وثقيف فى الطائف – وهما آخر قوتين كبيرتين بعد قريش فى الجزيرة – قد عاد فصب فى المجتمع المسلم أفواجاً جديدة كثيرة دخلت فى الدين مستسلمة على درجات متفاوتة من المستويات الإيمانية وفيهم كارهون للإسلام منافقون ؛ وفيهم المنساقون إلى الإسلام الظاهر القاهر ; وفيهم المؤلفة قلوبهم دون انطباع بحقائق الإسلام الجوهرية ولا امتزاج بروحه الحقيقية . . . " .

ومن هذه المقتطفات يتضح لنا مركز السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بعد ذلك (بإحسان) يصل بهم إلى مستواهم الإيماني وبلائهم الحركى . وندرك حقيقة دورهم الباقى فى بناء الإسلام وترجمته إلى واقع عملى يبقى مؤثراً فى التاريخ البشرى كله , كما نستشرف حقيقة قول الله سبحانه فيهم:

(رضى اللّه عنهم ورضوا عنه). . ورضى اللّه عنهم هو الرضى الذى تتبعه المثوبة ، وهو فى ذاته أعلى وأكرم مثوبة ؛ ورضاهم عن اللّه هو الاطمئنان إليه سبحانه ، والثقة بقدره ، وحسن الظن بقضائه ، والشكر على نعمائه ، والصبر على ابتلائه . . ولكن التعبير بالرضى هنا وهناك يشيع جو الرضى الشامل الغامر ، المتبادل الوافر ، الوارد الصادر ، بين اللّه سبحانه وهذه الصفوة المختارة من عباده ؛ ويرفع من شأن هذه الصفوة – من البشر – حتى ليبادلون ربهم الرضى ؛ وهو ربهم الأعلى ، وهم عبيده المخلوقون . . وهو حال وشأن وجو لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه ؛ ولكن يُتنسم ويُستشرف ويستجلى من خلال النص القرآنى بالروح المتطلع والقلب المتفتح والحس الموصول ! ذلك حالهم الدائم مع ربهم: (رضى اللّه عنهم ورضوا عنه). وهناك تنتظرهم علامة هذا الرضى(وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً). . (ذلك الفوز العظيم). وأى فوز بعد هذا وذلك عظيم ؟ ؟ ؟ ذلك مستوى . . وفى مقابله مستوى (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة ، مردوا على النفاق ، لا تعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم) ولقد سبق الحديث والكشف عن المنافقين عامة – سواء من منافقى المدينة أو منافقى الأعراب – ولكن الحديث هنا عن صنف خاص من المنافقين . صنف حذق النفاق ومرن عليه ، ولجّ فيه ومرد ، حتى ليخفى أمره على رسول اللّه ﷺ مع كل فراسته وتجربته ! فكيف يكون ؟ واللّه

سبحانه يقرر أن هذه الفئة من الناس موجودة في أهل المدينة وفي الأعراب المحيطين بالمدينة . ويطمئن رسول الله ﷺ والمؤمنين معه ، من كيد هذه الفئة الخفية الماكرة الماهرة ؛ كما ينذر هؤلاء الماكرين المهرة في النفاق بأنه سبحانه لن يدعهم , فسيعذبهم عذابا مضاعفا فى الدنيا والآخرة (لا تعلمهم نحن نعلمهم . سنعذبهم مرتين . ثم يردون إلى عذاب عظيم) والعذاب مرتين في الدنيا ، الأقرب في تأويله أنه عذاب القلق النازل بهم من توقع انكشاف أمرهم فى المجتمع المسلم ؛ وعذاب الموت والملائكة تسألهم أرواحهم وتضرب وجوههم وأدبارهم . أو هو عذاب الحسرات التي تصيبهم بانتصار المسلمين وغلبتهم ؛ وعذاب الخوف من انكشاف نفاقهم وتعرضهم للجهاد الغليظ . . والله أعلم بما يريد . وبين المستويين المتقابلين ، مستويان بين بين . . أولهما (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحا وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم , إن الله غفور رحيم . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم . ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ؟ وأن الله هو التواب الرحيم ؟ وقل:اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . .). وأمر الله لرسوله بإجراء معين مع هذه الطائفة دليل على أنها كانت معينة بأشخاصها لرسول الله ﷺ كما هو ظاهر . وقد روى أن الآيات نزلت فى جماعة خاصة معينة فعلاً ، ممن تخلفوا عن رسول الله فى غزوة تبوك ، ثم أحسوا وطأة الذنب ، فاعترفوا بذنوبهم ، ورجوا التوبة . فكان منهم التخلف وهو العمل السيء . وكان منهم الندم والتوبة وهو العمل الصالح . قال أبو جعفر بن جرير الطبرى:حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال:سمعت أبا معاذ قال:أخبرنا نزلت فى أبى لبابة وأصحابه ، تخلفوا عن نبى الله ﷺ فى غزوة تبوك . فلما قفل رسول الله ﷺ من غزوته ، وكان قريباً من المدينة , ندموا على تخلفهم عن رسول الله ، وقالوا:نكون فى الظلال والأطعمة والنساء , ونبى الله فى الجهاد واللأواء ! والله لنوثقن أنفسنا بالسوارى ، ثم لا نطلقها حتى يكون نبى الله ﷺ يطلقنا ويعذرنا ! وأوثقوا أنفسهم ، وبقى ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم بالسوارى . فقدم رسول الله ﷺ من غزوته ، فمر فى المسجد ، وكان طريقه ، فأبصرهم ! فسأل عنهم ، فقيل له:أبو لبابة وأصحابه ، تخلفوا عنك ، يا نبى الله ، فصنعوا بأنفسهم ما ترى ، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم ! فقال نبى الله ﷺ لا أطلقهم حتى أومر بإطلاقهم ، ولا أعذرهم حتى يعذرهم الله ، قد رغبوا بأنفسهم عن غزوة المسلمين ! فأنزل الله: (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) إلى (عسى الله أن يتوب عليهم) و (عسى) من الله واجب . . فأطلقهم نبى الله وعذرهم . ولما ذكر الله – سبحانه – صفة هذه الجماعة من الناس المتخلفين المعتذرين التائبين عقب عليها بقوله (عسى الله أن يتوب عليهم , إن الله غفور رحيم) ثم قال الله لنبيه ﷺ (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم) ولقد كانت تلك الحساسية التى بعثت الندم والتوبة فى تلك القلوب ، جديرة بالطمأنينة , حقيقة بالعطف الذى يسكب فيها الأمل ، ويفتح لها أبواب الرجاء . . وإن كان رسول الله ﷺ وهو يقود حركة , ويربى أمة ، وينشئ نظاماً ، قد رأى الأخذ بالحزم فى أمرهم حتى يأتيه أمر من ربه فى شأنهم . . قال ابن جرير: حدثنى محمد بن سعد قال:حدثنى أبى قال ، حدثنى عمى قال ، حدثنى أبى عن أبيه ، عن ابن عباس قال: لما أطلق رسول الله ﷺ أبا لبابة وصاحبيه ، انطلق أبو لبابة وصاحباه بأموالهم ، فأتوا بها رسول الله ﷺ فقالوا: خذ من أموالنا فتصدق بها عنا وصل علينا . . يقولون:استغفر لنا . . وطهرنا . فقال رسول الله ﷺ لا آخذ منها شيئاً حتى أومر . فأنزل الله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) يقول:استغفر لهم من ذنوبهم التى كانوا أصابوا . فلما نزلت الآية أخذ رسول الله ﷺ جزءا من أموالهم ، فتصدق به عنهم" .

وهكذا من الله عليهم لما علمه سبحانه من حسن سريرتهم ، وصدق توبتهم ، فأمر رسوله ﷺ أن يأخذ بعض أموالهم يتصدق بها عنهم ، وأن يصلى عليهم – أى يدعو لهم , فالأصل فى الصلاة الدعاء – ذلك أن أخذ الصدقة منهم يرد إليهم شعورهم بعضويتهم الكاملة فى الجماعة المسلمة ، فهم يشاركون في واجباتها ، وينهضون بأعبائها ، وهم لم ينبذوا منها ولم ينبتوا عنها ؛ وفى تطوعهم بهذه الصدقات تطهير لهم وتزكية ، وفي دعاء الرسول ﷺ لهم طمأنينة وسكن (والله سميع عليم) يسمع الدعاء ، ويعلم ما فى القلوب . ويقضى بما يسمعه ويعلمه قضاء السميع العليم . وهو وحده الذى يقضى فى شأن العباد ، فيقبل منهم توبتهم ويأخذ منهم صدقاتهم ، ورسول الله ﷺ ينفذ ما يأمره به ربه ، ولا ينشئ شيئاً من هذا من عنده . . وتقريراً لهذه الحقيقة يقول تعالى فى الآية التالية (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ، وأن الله هو التواب الرحيم ؟) وهو استفهام تقريرى يفيد:فليعلموا أن الله هو يقبل التوبة ؛ والله هو يأخذ الصدقة , والله هو يتوب ويرحم عباده . . وليس شيء من هذا لأحد غيره سبحانه . . " وأن نبى الله حين أبى أن يطلق من ربط نفسه بالسوارى من المتخلفين عن الغزو معه ؛ وحين ترك قبول صدقتهم بعد أن أطلق الله عنهم حين أذن له فى ذلك ، إنما فعل ذلك من أجل أن ذلك لم يكن إليه ﷺ وأن ذلك إلى

اللّه تعالى ذكره دون محمد . وان محمداً إنما يفعل ما يفعل من ترك وإطلاق وأخذ صدقة وغير ذلك من أفعاله بأمر اللّه" . . كما يقول ابن جرير . . وفى النهاية يتوجه الحديث إلى المتخلفين التائبين (وقل:اعملوا فسيرى اللّه عملكم ورسوله والمؤمنون ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) إن الندم والتوبة ليسا نهاية المطاف . ولكنه العمل الذى يعقب الندم والتوبة . فيصدق أو يكذب تلك المشاعر النفسية ويعمقها أو يكتسحها بعد أن تكون ! والفريق الأخير هو الذى لم يبت فى أمره ، وقد وكل أمره إلى ربه (وآخرون مُرجَون لأمر اللّه ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ، واللّه عليم حكيم) وهؤلاء هم القسم الأخير من المتخلفين عن غزوة تبوك - غير المنافقين والمعتذرين والمخطئين التائبين - وهذا القسم لم يكن حتى نزول هذه الآية قد بت فى أمره بشىء . وكان أمرهم موكولا إلى اللّه ، لم يعلموه ولم يعلمه الناس بعد . . وقد روى أن هذه الآية نزلت فى الثلاثة الذين خلفوا - أى أجل إعلان توبتهم والقضاء فى أمرهم - وهم مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال ابن أمية ، الذين قعدوا عن غزوة تبوك كسلاً وميلاً إلى الدعة واستروحاً للظلال فى حر الهاجرة ! ثم كان لهم شأن مع رسول اللّه ﷺ (والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً ، وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب اللّه ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، واللّه يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، واللّه يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من اللّه ورضوان خير ؟ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ؟ واللّه لا يهدى القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ، إلا أن تقطع قلوبهم , واللّه عليم حكيم) وقصة مسجد الضرار قصة بارزة فى غزوة تبوك ، لذلك أفرد المنافقون الذين قاموا بها من بين سائر المنافقين ، وخصص لهم حديث مستقل بعد انتهاء الاستعراض العام لطوائف الناس فى المجتمع المسلم حينذاك . قال ابن كثير فى التفسير: سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول اللّه ﷺإليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب . وكان قد تنصر فى الجاهلية . وقرأ علم أهل الكتاب ؛ وكان فيه عبادة فى الجاهلية ، وله شرف فى الخزرج كبير . فلما قدم رسول اللّه ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمة عالية . وأظهرهم اللّه يوم بدر ، شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركى قريش يمالئهم على حرب رسول اللّه ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أحد فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم اللّه عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين . وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين ، فوقع فى إحداهن رسول اللّه ﷺ وأصيب فى ذلك اليوم ، فجرح وجهه ، وكسرت رباعيته اليمنى السفلى ، وشج رأسه - صلوات اللّه وسلامه عليه - وتقدم أبو عامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه قالوا:لا أنعم اللّه بك عيناً يا فاسق يا عدو اللّه ! ونالوا منه وسبوه ، فرجع وهو يقول:واللّه لقد أصاب قومى بعدى شر ! وكان رسول اللّه ﷺ قد دعاه إلى اللّه قبل فراره ، وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول اللّه ﷺ أن يموت بعيداً طريداً ، فنالته هذه الدعوة . . وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ، ورأى أمر رسول اللّه ﷺ فى ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبى ﷺفوعده ومناه وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول اللّه ﷺ ويغلبه ، ويرده عما هو فيه ؛ وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ؛ فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه , وفرغوا منه قبل خروج رسول اللّه ﷺ إلى تبوك ؛ وجاءوا فسألوا رسول اللّه ﷺ أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم ، فيحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ; وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الشاتية ! فعصمه اللّه من الصلاة فيه ، فقال:" إنا على سفر ، ولكن إذا رجعنا - إن شاء الله - " فلما قفل - عليه السلام - راجعاً إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل جبريل بخبر مسجد الضرار ، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم - مسجد قباء - الذى أسس من أول يوم على التقوى . فبعث رسول اللّه ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة . . [وكذلك روى - بإسناده - عن ابن عباس وعن سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة] فهذا هو مسجد الضرار الذى أمر اللّه رسوله ﷺ ألا يقوم فيه ، وأن يقوم فى المسجد الأول - مسجد قباء - الذى أقيم على التقوى من أول يوم ، والذى يضم رجالاً يحبون أن يتطهروا (واللّه يحب المطهرين) هذا المسجد ما يزال يتخذ فى صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التى يتخذها أعداء هذا الدين . تتخذ فى صورة نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام ، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه ! وتتخذ فى صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتتترس وراءها وهى ترمى هذا الدين ! وتتخذ فى صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق ، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك

الكتب إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق ! . . . وتتخذ فى صور شتى كثيرة . ومن أجل مساجد الضرار الكثيرة هذه يتحتم كشفها وإنزال اللافتات الخادعة عنها ؛ وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها . ولنا أسوة فى كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله ﷺ بذلك البيان القوى الصريح (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا ، وكفراً ، وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل . وليحلفن:إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبداً . لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ؟ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ؟ والله لا يهدى القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ، إلا أن تقطع قلوبهم , والله عليم حكيم) والتعبير القرآنى الفريد يرسم هنا صورة حافلة بالحركة ، تنبئ عن مصير كل مسجد ضرار يقام إلى جوار مسجد التقوى ، ويراد به ما أريد بمسجد الضرار ؛ وتكشف عن نهاية كل محاولة خادعة تخفى وراءها نية خبيثة ؛ وتطمئن العاملين المتطهرين من كل كيد يراد بهم , مهما لبس أصحابه مسوح المصلحين (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ؟ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ؟ والله لا يهدى القوم الظالمين) فلنقف نتطلع لحظة إلى بناء التقوى الراسى الراسخ المطمئن ثم لنتطلع بعد إلى الجانب الآخر ! لنشهد الحركة السريعة العنيفة فى بناء الضرار إنه قائم على شفا جرف هار . . قائم على حافة جرف منهار . . قائم على تربة مخلخلة مستعدة للانهيار ، إننا نبصره اللحظة يتأرجح ويتزحلق وينزلق ! إنه ينهار ! إنه ينزلق ! إنه يهوى ! إن الهوة تلتهمه ! يا للهول ! إنها نار جهنم (والله لا يهدى القوم الظالمين) الكافرين المشركين . الذين بنوا هذه البنية ليكيدوا بها هذا الدين ! إنه مشهد عجيب ، حافل بالحركة المثيرة ترسمه وتحركه بضع كلمات ! . . ذلك ليطمئن دعاة الحق على مصير دعوتهم ، فى مواجهة دعوات الكيد والكفر والنفاق ! وليطمئن البناة على أساس من التقوى ، ومشهد آخر يرسمه التعبير القرآنى الفريد لآثار مسجد الضرار فى نفوس بُناته الأشرار ، وبناة كل مساجد الضرار(لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ، إلا أن تقطع قلوبهم ، والله عليم حكيم) لقد انهار الجرف المنهار . انهار ببناء الضرار الذى أقيم عليه . انهار به فى نار جهنم وبئس القرار ! ولكن ركام البناء بقى فى قلوب بناته . بقى فيها (ريبة) وشكا وقلقا وحيرة . وسيبقى كذلك لا يدع تلك القلوب تطمئن أو تثبت أو تستقر . إلا أن تتقطع وتسقط هى الأخرى من الصدور ! وإن صورة البناء المنهار لهى صورة الريبة والقلق وعدم الاستقرار . . تلك صورة مادية وهذه صورة شعورية . . وهما تتقابلان فى اللوحة الفنية العجيبة التى يرسمها التعبير القرآنى الفريد . وتتقابلان فى الواقع البشرى المتكرر فى كل زمان . فما يزال صاحب الكيد الخادع مزعزع العقيدة ، حائر الوجدان ، لا يطمئن ولا يستقر ، وهو من انكشاف ستره فى قلق دائم ، وريبة لا طمأنينة معها ولا استقرار . وهذا هو الإعجاز الذى يرسم الواقع النفسى بريشة الجمال الفنى ، فى مثل هذا التناسق ; بمثل هذا اليسر فى التعبير والتصوير على السواء . . وتبقى وراء ذلك كله حكمة المنهج القرآنى فى كشف مسجد الضرار وأهله ؛ وفى تصنيف المجتمع إلى تلك المستويات الإيمانية الواضحة ؛ وفى كشف الطريق للحركة الإسلامية ، ورسم طبيعة المجال الذى تتحرك فيه من كل جوانبه ، لقد كان القرآن الكريم يعمل فى قيادة المجتمع المسلم ، وفى توجيهه ، وفى توعيته , وفى إعداده لمهمته الضخمة ، ولن يفهم هذا القرآن إلا وهو يدرس فى مجاله الحركى الهائل ; ولن يفهمه إلا أناس يتحركون به مثل هذه الحركة

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١١١} التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ{١١٢} مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ{١١٣} وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ{١١٤} وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{١١٥} إِنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ{١١٦} لَّقَد تَّابَ اللّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{١١٧} وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{١١٨} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ{١١٩} مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ

يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ{١٢٠} وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{١٢١} وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوَاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ{١٢٢} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ{١٢٣} وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ{١٢٤} وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ{١٢٥} أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ{١٢٦} وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ{١٢٧} لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{١٢٨} فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ){١٢٩}

هذا المقطع الأخير من السورة بقية فى الأحكام النهائية فى طبيعة العلاقات بين المجتمع المسلم وغيره ؛ تبدأ من تحديد العلاقة بين المسلم وربه , وتحديد طبيعة "الإسلام" الذى أعلنه ؛ ومن بيان تكاليف هذا الدين ، ومنهج الحركة به فى مجالاته الكثيرة . إن الدخول فى الإسلام صفقة بين متبايعين . . الله – سبحانه – فيها هو المشترى والمؤمن فيها هو البائع . فهى بيعة مع الله لا يبقى بعدها للمؤمن شىء فى نفسه ولا فى ماله يحتجزه دون الله – سبحانه – ودون الجهاد فى سبيله لتكون كلمة الله هى العليا ، وليكون الدين كله لله . فقد باع المؤمن لله فى تلك الصفقة نفسه وماله مقابل ثمن محدد معلوم ، هو الجنة:وهو ثمن لا تعدله السلعة ، ولكنه فضل الله ومَنّه (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) والذين باعوا هذه البيعة ، وعقدوا هذه الصفقة هم صفوة مختارة ، ذات صفات مميزة . . منها ما يختص بذوات أنفسهم فى تعاملها المباشر مع الله فى الشعور والشعائر ؛ ومنها ما يختص بتكاليف هذه البيعة فى أعناقهم من العمل خارج ذواتهم لتحقيق دين الله فى الأرض من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقيام على حدود الله فى أنفسهم وفى سواهم (التائبون ، العابدون ، الحامدون ، السائحون ، الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله . وبشر المؤمنين) والآيات التالية فى السياق تقطع ما بين المؤمنين الذين باعوا هذه البيعة وعقدوا هذه الصفقة ، وبين كل من لم يدخلوا معهم فيها – ولو كانوا أولى قربى – فقد اختلفت الوجهتان , واختلف المصيران ، فالذين عقدوا هذه الصفقة هم أصحاب الجنة ، والذين لم يعقدوها هم أصحاب الجحيم . ولا لقاء فى دنيا ولا فى آخرة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم . وقربى الدم والنسب إذن لا تنشئ رابطة ، ولا تصلح وشيجة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين – ولو كانوا أولى قربى – من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . إن إبراهيم لأواه حليم) وولاء المؤمن يجب أن يتمحض لله الذى عقد معه تلك الصفقة ؛ وعلى أساس هذا الولاء الموحد تقوم كل رابطة وكل وشيجة – وهذا بيان من الله للمؤمنين يحسم كل شبهة ويعصم من كل ضلالة – وحسب المؤمنين ولاية الله لهم ونصرته ؛ فهم بها فى غنى عن كل ما عداه , وهو مالك الملك ولا قدرة لأحد سواه (وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ، إن الله بكل شىء عليم ، إن الله له ملك السماوات والأرض ، يحيى ويميت ، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) ولما كانت هذه طبيعة تلك البيعة ؛ فقد كان التردد والتخلف عن الغزوة فى سبيل الله أمراً عظيماً ، تجاوز الله عنه لمن علم من نواياهم الصدق والعزم بعد التردد والتخلف ; فتاب عليهم رحمة منه وفضلاً (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ؛ ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ؛ ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم) ومن ثم بيان محدد لتكاليف البيعة فى أعناق أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ؛ أولئك القريبون من رسول الله ﷺ الذين يؤلفون القاعدة الإسلامية ، ومركز الانطلاق الإسلامى ؛ واستنكار لما وقع منهم من تخلف ؛ مع بيان ثمن الصفقة فى كل خطوة وكل حركة فى تكاليف البيعة (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه . ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) ومع هذا التحضيض العميق على النفرة

للجهاد بيان لحدود التكليف بالنفير العام . وقد اتسعت الرقعة وكثر العدد ، وأصبح في الإمكان أن ينفر البعض ليقاتل ويتفقه فى الدين ; ويبقى البعض للقيام بحاجيات المجتمع كله من توفير للأزواد ومن عمارة للأرض , ثم تتلاقى الجهود فى نهاية المطاف وما كان المؤمنون لينفروا كافة . فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، لعلهم يحذرون !) وفي الآية التالية تحديد لطريق الحركة الجهادية – بعدما أصبحت الجزيرة العربية بجملتها قاعدة للإسلام ونقطة لانطلاقه – وأصبح الخط يتجه إلى قتال المشركين كافة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . . وقتال أهل الكتاب كافة كذلك حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين) وعقب هذا البيان المفصل لبيان طبيعة البيعة ومقتضياتها وتكاليفها وخطها الحركى . . يعرض السياق مشهداً من صفحتين تصوران موقف المنافقين وموقف المؤمنين من هذا القرآن وهو يتنزل بموجيات الإيمان القلبية ، وبالتكاليف والواجبات العملية . ويندد بالمنافقين الذين لا تهديهم التوجيهات والآيات ، ولا تعظهم النذر والابتلاءات (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول:أيكم زادته هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون . أو لا يرون أنهم يُفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ؟ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض:هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا .صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) و يختم الدرس وتختم معه السورة بآيتين تصوران طبيعة رسول الله ﷺ وحرصه على المؤمنين ورأفته بهم ورحمته . مع توجيهه ﷺ إلى الاعتماد على الله وحده , والاستغناء عن المعرضين الذين لا يهتدون (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم) ولعله من خلال هذا العرض الإجمالى لمحتويات هذا المقطع الأخير فى السورة يتجلى مدى التركيز على الجهاد ؛ وعلى المفاصلة الكاملة على أساس العقيدة ؛ وعلى الانطلاق بهذا الدين فى الأرض – وفقاً للبيعة على النفس والمال بالجنة للقتل والقتال – لتقرير حدود الله والمحافظة عليها ؛ أى لتقرير حاكمية الله للعباد , ومطاردة كل حاكمية مغتصبة معتدية ! كذلك يتجلى مدى التهافت والهزيمة التى تسيطر على شراح آيات الله وشريعة الله فى هذا الزمان ؛ وهم يحاولون جاهدين أن يحصروا الجهاد الإسلامى فى حدودالدفاع الإقليمى عن "أرض الإسلام "بينما كلمات الله – سبحانه – تعلن فى غير مواربة عن الزحف المستمر على من يلون" أرض الإسلام" هذه من الكفار ؛ دون ذكر لأنهم معتدون ! فالاعتداء الأساسى متمثل فى اعتدائهم على ألوهية الله – سبحانه – بتعبيد أنفسهم وتعبيد العباد لغير الله . وهذا الاعتداء هو الذى يقتضى جهادهم ما استطاع المسلمون الجهاد ! (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون ، الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين) هذا النص الذى تلوته من قبل وسمعته ما لا أستطيع عده من المرات ، فى أثناء حفظى للقرآن ,وفى أثناء تلاوته ، وفى أثناء دراسته بعد ذلك فى أكثر من ربع قرن من الزمان . . هذا النص – حين واجهته فى "الظلال" أحسست أننى أدرك منه ما لم أدركه من قبل فى المرات التى لا أملك عدها على مدى ذلك الزمان ! إنه نص رهيب ! إنه يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين بالله ، وعن حقيقة البيعة التى أعطوها – بإسلامهم – طوال الحياة . فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذى ينطبق عليه وصف [المؤمن] وتتمثل فيه حقيقة الإيمان .وإلا فهى دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق ! حقيقة هذه البيعة – أو هذه المبايعة كما سماها الله كرماً منه وفضلاً وسماحة – أن الله – سبحانه – قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم ؛ فلم يعد لهم منها شىء . . لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها فى سبيله . لم يعد لهم خيار فى أن يبذلوا أو يمسكوا . . كلا . . إنها صفقة مشتراة ، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء , وفق ما يفرض ووفق ما يحدد ، وليس للبائع فيها من شىء سوى أن يمضى فى الطريق المرسوم , لا يتلفت ولا يتخير ، ولا يناقش ولا يجادل ، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام . . والثمن:هو الجنة . . والطريق:هو الجهاد والقتل والقتال . . والنهاية:هى النصر أو الاستشهاد (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون) من بايع على هذا . من أمضى عقد الصفقة . من ارتضى الثمن ووفى . فهو المؤمن . . فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا . . ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمناً , وإلا فهو واهب الأنفس والأموال ، وهو مالك الأنفس والأموال . ولكنه كرم هذا الإنسان فجعله مريداً ؛ وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها – حتى مع الله – وكرمه فقيده بعقوده وعهوده ؛ وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة ؛ ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة:. شر البهيمة . .(إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم

ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون). . كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء .وإنها لبيعة رهيبة – بلا شك – ولكنها فى عنق كل مؤمن – قادر عليها – لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه . ومن هنا تلك الرهبة التى أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات (إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل اللّه فيقتلون ويقتلون) عونك اللهم ! فإن العقد رهيب . . وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم "مسلمين" فى مشارق الأرض ومغاربها ، قاعدون ، لا يجاهدون لتقرير ألوهية اللّه فى الأرض ، وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها فى حياة العباد . ولا يقتلون . ولا يقتلون . ولا يجاهدون جهاداً ما دون القتل والقتال ! ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين – على عهد رسول اللّه ﷺ فتتحول من فورها فى القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم ؛ ولم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم ، أو يحسونها مجردة فى مشاعرهم . كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها . لتحويلها إلى حركة منظورة ، لا إلى صورة متأملة . . هكذا أدركها عبد اللّه بن رواحة – رضى اللّه عنه – فى بيعة العقبة الثانية . قال محمد بن كعب القرظى وغيره:قال عبد اللّه بن رواحة رضى اللّه عنه ، لرسول اللّه ﷺ [يعنى ليلة العقبة:-] اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال:" أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ; وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " . قال:فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك ؟ قال: الجنة " . قالوا: ربح البيع ، ولا نقيل ولا نستقيل . . هكذا " . . ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل " . . لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين ؛ انتهى أمرها ، وأمضى عقدها ، ولم يعد إلى مرد من سبيل:" لا نقيل ولا نستقيل " فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار ؛ والجنة:ثمن مقبوض لا موعود ! أليس الوعد من اللّه ؟ أليس اللّه هو المشترى ؟ أليس هو الذى وعد الثمن . وعداً قديماً فى كل كتبه (وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن) (ومن أوفى بعهده من اللّه ؟) أجل ! ومن أوفى بعهده من اللّه ؟ إن الجهاد فى سبيل اللّه بيعة معقودة بعنق كل مؤمن . . كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين اللّه . . إنها السنة الجارية التى لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها (ولولا دفع اللّه الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) ولولا دفع اللّه الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم اللّه كثيراً) إن الحق لا بد أن ينطلق فى طريقه . ولا بد أن يقف له الباطل فى الطريق ! . . بل لا بد أن يأخذ عليه الطريق . . إن دين اللّه لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية للّه وحده . ولا بد أن يقف له الطاغوت فى الطريق . . بل لا بد أن يقطع عليه الطريق . . ولا بد لدين اللّه أن ينطلق فى "الأرض" كلها لتحرير "الإنسان" كله . ولا بد للحق أن يمضى فى طريقه ولا ينثنى عنه ليدع للباطل طريقاً ! . . وما دام فى "الأرض" كفر . وما دام فى "الأرض" باطل . وما دامت فى "الأرض" عبودية لغير اللّه تذل كرامة "الإنسان" فالجهاد فى سبيل اللّه ماض ، والبيعة فى عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء . وإلا فليس بالإيمان:و " من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من النفاق " . . . [رواه الإمام أحمد ، وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائى] (فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم للّه ، وأخذ الجنة عوضاً وثمناً ، كما وعد اللّه . . وما الذى فات ؟ ما الذى فات المؤمن الذى يسلم للّه نفسه وماله ويستعيض الجنة ? واللّه ما فاته شيء . فالنفس إلى موت ، والمال إلى فوت . سواء أنفقهما صاحبهما فى سبيل اللّه أم فى سبيل سواه ! والجنة كسب . كسب بلا مقابل فى حقيقة الأمر ولا بضاعة ! فالمقابل زائل فى هذا الطريق أو ذاك ! ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش للّه . ينتصر – إذا انتصر – لإعلاء كلمته ، وتقرير دينه ، وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه . ويستشهد – إذا استشهد – فى سبيله , ليؤدى لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة . ويستشعر فى كل حركة وفى كل خطوة – أنه أقوى من قيود الأرض وأنه أرفع من ثقلة الأرض ، والإيمان ينتصر فيه على الألم , والعقيدة تنتصر فيه على الحياة . إن هذا وحده كسب . كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التى لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق الضرورة ؛ وانتصار الإيمان فيه على الألم ، وانتصار العقيدة فيه على الحياة . . فإذا أضيفت إلى ذلك كله . . الجنة . . فهو بيع يدعو إلى الاستبشار ؛ وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال (فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) ثم نقف وقفة قصيرة أمام قوله تعالى فى هذه الآية (وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن) فوعد اللّه للمجاهدين فى سبيله فى القرآن معروف مشهور مؤكد مكرور . . وهو لا يدع مجالا للشك فى إصالة عنصر الجهاد فى سبيل اللّه فى طبيعة هذا المنهج الربانى ؛ باعتباره الوسيلة المكافئة للواقع البشرى – لا فى زمان بعينه ولا فى مكان بعينه – ما دام أن الجاهلية لا تتمثل فى نظرية تقابل بنظرية ولكنها تتمثل فى تجمع عضوى حركى , يحمى نفسه بالقوة المادية ؛ ويقاوم دين اللّه وكل تجمع إسلامى على أساسه بالقوة المادية كذلك ؛ ويحول دون الناس والاستماع لإعلان الإسلام العام بألوهية اللّه وحده للعباد , وتحرير "الإنسان" فى "الأرض" من العبودية للعباد . كما يحول دونهم ودون الانضمام العضوى إلى التجمع الإسلامى المتحرر من عبادة الطاغوت بعبوديته لله وحده دون العباد . . ومن

ثم يتحتم على الإسلام فى انطلاقه فى "الأرض" لتحقيق إعلانه العام بتحرير "الإنسان" أن يصطدم بالقوة المادية التى تحمى التجمعات الجاهلية ؛ والتى تحاول بدورها – فى حتمية لا فكاك منها – أن تسحق حركة البعث الإسلامى وتخفت إعلانه التحريرى ، لاستبقاء العباد فى رق العبودية للعباد ! فأما وعد الله للمجاهدين فى التوراة والإنجيل . فهو الذى يحتاج إلى شىء من البيان . إن التوراة والإنجيل اللذين فى أيدى اليهود والنصارى اليوم لا يمكن القول بأنهما هما اللذان أنزلهما الله على نبيه موسى وعلى نبيه عيسى عليهما السلام ! وحتى اليهود والنصارى أنفسهم لا يجادلون فى أن النسخة الأصلية لهذين الكتابين لا وجود لها ; وأن ما بين أيديهم قد كتب بعد فترة طويلة ضاعت فيها معظم أصول الكتابين ؛ ولم يبق إلا ما وعته ذاكرة بعد ذاكرة . . وهو قليل . . أضيف إليه الكثير ! ومع ذلك فما تزال فى كتب العهد القديم إشارات إلى الجهاد ، والتحريض لليهود على قتال أعدائهم الوثنيين ، لنصر إلههم وديانته وعبادته ! وإن كانت التحريفات قد شوهت تصورهم لله – سبحانه – وتصورهم للجهاد فى سبيله . فأما فى الأناجيل التى بين أيدى النصارى اليوم فلا ذكر ولا إشارة إلى جهاد . . ولكننا فى حاجة شديدة إلى تعديل المفهومات السائدة عن طبيعة النصرانية ؛ فهذه المفهومات إنما جاءت من هذه الأناجيل التى لا أصل لها – بشهادة الباحثين النصارى أنفسهم – ! وقبل ذلك بشهادة الله سبحانه كما وردت فى كتابه المحفوظ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والله سبحانه يقول فى كتابه المحفوظ:إن وعده بالجنة لمن يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ؛ ثابت فى التوراة والإنجيل والقرآن . . فهذا إذن هو القول الفصل الذى ليس بعده لقائل مقال ! إن الجهاد فى سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن . كل مؤمن على الإطلاق . منذ كانت الرسل ، ومنذ كان دين الله . ولكن الجهاد فى سبيل الله ليس مجرد اندفاعة إلى القتال ؛ إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل فى مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال . والمؤمنون الذين عقد الله معهم البيعة ، والذين تتمثل فيهم حقيقة الإيمان هم قوم تتمثل فيهم صفات إيمانية أصيلة (التائبون . العابدون . الحامدون . السائحون . الراكعون الساجدون . الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر . والحافظون لحدود الله) (التائبون) مما أسلفوا ، العائدون إلى الله مستغفرين . والتوبة شعور بالندم على ما مضى ، وتوجه إلى الله فيما بقى ، وكف عن الذنب ، وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك . فهى طهارة وزكاة وتوجه وصلاح (العابدون) المتوجهون إلى الله وحده بالعبادة وبالعبودية ، إقراراً بالربوبية . . صفة هذه ثابتة فى نفوسهم تترجمها الشعائر ، كما يترجمها التوجه إلى الله وحده بكل عمل وبكل قول وبكل طاعة وبكل اتباع . فهى إقرار بالألوهية والربوبية لله فى صورة عملية واقعية (الحامدون) الذين تنطوى قلوبهم على الاعتراف للمنعم بالنعمة ؛ وتلهج ألسنتهم بحمد الله فى السراء والضراء . فى السراء للشكر على ظاهر النعمة ، وفى الضراء للشعور بما فى الابتلاء من الرحمة . وليس الحمد هو الحمد فى السراء وحدها ، ولكنه الحمد فى الضراء حين يدرك القلب المؤمن أن الله الرحيم العادل ما كان ليبتلى المؤمن إلا لخير يعلمه ، مهما خفى على العباد إدراكه (السائحون) وتختلف الروايات فيهم . فمنها ما يقول:إنهم المهاجرون . ومنها ما يقول:إنهم المجاهدون . ومنها ما يقول:إنهم المتنقلون فى طلب العلم . ومنهم من يقول:إنهم الصائمون . . ونحن نميل إلى اعتبارهم المتفكرين فى خلق الله وسننه ، ممن قيل فى أمثالهم فى موضع آخر: (إن فى خلق السماوات والأرض . واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض:ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك !.) فهذه الصفة أليق هنا بالجو بعد التوبة والعبادة والحمد . فمع التوبة والعبادة والحمد يكون التدبر فى ملكوت الله على هذا النحو الذى ينتهى بالإنابة إلى الله ، وإدراك حكمته فى خلقه ، وإدراك الحق الذى يقوم عليه الخلق . لا للاكتفاء بهذا الإدراك وإنفاق العمر فى مجرد التأمل والاعتبار . ولكن لبناء الحياة وعمرانها بعد ذلك على أساس هذا الإدراك (الراكعون الساجدون) الذين يقيمون الصلاة ويقومون بالصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاتهم ; وكأن الركوع والسجود طابع مميز بين الناس لهم (الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) وحين يقوم المجتمع المسلم الذى تحكمه شريعة الله ، فيدين لله وحده ولا يدين لسواه ، يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى داخل هذا المجتمع ؛ ويتناول ما يقع فيه من أخطاء وانحرافات عن منهج الله وشرعه . . ولكن حين لا يكون فى الأرض مجتمع مسلم ؛ وذلك حين لا يكون فى الأرض مجتمع الحاكمية فيه لله وحده ، وشريعة الله وحدها هى الحاكمة فيه ، فإن الأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولاً إلى الأمر بالمعروف الأكبر ، وهو تقرير ألوهية الله وحده سبحانه وتحقيق قيام المجتمع المسلم . والنهى عن المنكر يجب أن يتجه أولاً إلى النهى عن المنكر الأكبر . وهو حكم الطاغوت وتعبيد الناس لغير الله عن طريق حكمهم بغير شريعة الله . . والذين آمنوا بمحمد ﷺ هاجروا وجاهدوا ابتداء لإقامة الدولة المسلمة الحاكمة بشريعة الله ، وإقامة المجتمع المسلم المحكوم بهذه الشريعة . فلما تم لهم ذلك كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فى الفروع المتعلقة بالطاعات والمعاصى . ولم ينفقوا قط جهدهم ، قبل قيام الدولة المسلمة والمجتمع المسلم فى شىء من هذه التفريعات التى لا تنشأ

إلا بعد قيام الأصل الأصيل ! ومفهوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا بد أن يدرك وفق مقتضى الواقع . فلا يبدأ بالمعروف الفرعى والمنكر الفرعى قبل الانتهاء من المعروف الأكبر والمنكر الأكبر ، كما وقع أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم ! (والحافظون لحدود الله) وهو القيام على حدود الله لتنفيذها فى النفس وفى الناس . ومقاومة من يضيعها أو يعتدى عليها . . ولكن هذه كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر , لا يقام عليها إلا فى مجتمع مسلم . ولا مجتمع مسلم إلا المجتمع الذى تحكمه شريعة الله وحدها فى أمره كله ؛ وإلا الذى يفرد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والحاكمية والتشريع ؛ ويرفض حكم الطاغوت المتمثل فى كل شرع لم يأذن به الله . والجهد كله يجب أن ينفق ابتداء لإقامة هذا المجتمع . ومتى قام كان هناك مكان للحافظين لحدود الله فيه . كما وقع كذلك أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم ! هذه هى الجماعة المؤمنة التى عقد الله معها بيعته . وهذه هى صفاتها ومميزاتها:توبة ترد العبد إلى الله ، وتكفه عن الذنب ، وتدفعه إلى العمل الصالح . وعبادة تصله بالله وتجعل الله معبوده وغايته ووجهته . وحمد لله على السراء والضراء نتيجة الاستسلام الكامل لله والثقة المطلقة برحمته وعدله . وسياحة فى ملكوت الله مع آيات الله الناطقة فى الكون الدالة على الحكمة والحق فى تصميم الخلق . وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر يتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة . وحفظ لحدود الله يرد عنها العادين والمضيعين ، ويصونها من التهجم والانتهاك . هذه هى الجماعة المؤمنة التى بايعها الله على الجنة ، واشترى منها الأنفس والأموال , لتمضى مع سنة الله الجارية منذ كان دين الله ورسله ورسالاته . قتال فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ؛ وقتل لأعداء الله الذين يحادون الله ؛ أو استشهاد فى المعركة التى لا تفتر بين الحق والباطل ، وبين الإسلام والجاهلية ، وبين الشريعة والطاغوت , وبين الهدى والضلال . والمؤمنون الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، أمة وحدهم ، العقيدة فى الله بينهم هى وشيجة الارتباط والتجمع الوحيدة . وهذه السورة التى تقرر العلاقات الأخيرة بين الجماعة المسلمة ومن عداها ، تحسم فى شأن العلاقات التى لا تقوم على هذه الوشيجة . وبخاصة بعد ذلك التخلخل الذى أنشأه التوسع الأفقى الشديد فى المجتمع المسلم عقب فتح مكة ، ودخول أفواج كثيرة فى الإسلام لم يتم انطباعها بطابعه ;وما تزال علاقات القربى عميقة الجذور فى حياتها . والآيات التالية تقطع ما بين المؤمنين الذين باعوا تلك البيعة وبين من لم يدخلوا معهم فيها – ولو كانوا أولى قربى – بعد ما اختلفت الوجهتان واختلفت العاقبتان فى الدنيا والآخرة (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين – ولو كانوا أولى قربى – من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم . وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ، إن الله بكل شىء عليم . إن الله له ملك السماوات والأرض ، يحيى ويميت ، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير)والظاهر أن بعض المسلمين كانوا يستغفرون لآبائهم المشركين ويطلبون إلى رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم ؛ فنزلت الآيات تقرر أن فى هذا الاستغفار بقية من تعلق بقرابات الدم ، فى غير صلة بالله ، لذلك ما كان للنبى والذين آمنوا أن يفعلوه . . ما كان لهم قطعاً وليس من شأنهم أصلاً . . أما كيف يتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم , فالأرجح أن يكون ذلك بموتهم على الشرك ، وانقطاع الرجاء من أن تكون لهم هداية إلى الإيمان . إن العقيدة هى العروة الكبرى التى تلتقى فيها سائر الأواصر البشرية والعلاقات الإنسانية . فإذا انبتت وشيجة العقيدة انبتّت الأواصر الأخرى من جذورها ، فلا لقاء بعد ذلك فى نسب ، ولا لقاء بعد ذلك فى صهر . ولا لقاء بعد ذلك فى قوم . ولا لقاء بعد ذلك فى أرض . . إما إيمان بالله فالوشيجة الكبرى موصولة ، والوشائج الأخرى كلها تنبع منها وتلتقى بها . أو لا إيمان فلا صلة إذن يمكن أن تقوم بين إنسان وإنسان (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم) فلا أسوة بإبراهيم فى استغفاره لأبيه . فإنما كان استغفار إبراهيم لأبيه بسبب وعده له أن يستغفر له الله لعله يهديه ، ذلك إذ قال له (سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفياً ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً) فلما أن مات أبوه على الشرك ، وتبين إبراهيم أن أباه عدو لله لا رجاء فى هداه ، (تبرأ منه) وقطع صلته به (إن إبراهيم لأواه حليم) كثير التضرع لله ، حليم على من آذاه . ولقد آذاه أبوه فكان حليماً ؛ وتبين أنه عدو لله فتبرأ منه وعاد لله ضارعاً . وقد ورد أنه لما نزلت الآيتان خشى الذين كانوا يستغفرون لآبائهم المشركين أن يكونوا قد ضلوا لمخالفتهم عن أمر الله فى هذا فنزلت الآية التالية تطمئنهم من هذا الجانب , وتقرر القاعدة الإسلامية: أنه لا عقوبة بغير نص ؛ ولا جريمة بغير بيان سابق على الفعل (وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون . إن الله بكل شىء عليم) إن الله لا يحاسب الناس إلا على ما بين لهم أن يتقوه ويحذروه ولا يأتوه . وليس من شأنه أن يذهب بهدى قوم بعد إذ هداهم ويكلهم إلى الضلال لمجرد الفعل ، ما لم يكن هذا الفعل مما نهاهم عنه قبلا . ذلك أن الإنسان قاصر والله هو العليم بكل شىء . ومنه البيان والتعليم . ولقد جعل الله هذا الدين يسراً لا عسراً ، فبين ما نهى عنه بياناً

واضحاً ، كما بين ما أمر به بياناً واضحاً . وسكت عن أشياء لم يبين فيها بياناً – لا عن نسيان ولكن عن حكمة وتيسير – ونهى عن السؤال عما سكت عنه ، لئلا ينتهي السؤال إلى التشديد . ومن ثم فليس لأحد أن يحرم شيئاً من المسكوت عنه ، ولا أن ينهى عما لم يبينه الله . تحقيقاً لرحمة الله بالعباد . . وفي نهاية هذه الآيات ، وفي جو الدعوة إلى التجرد من صلات الدم والنسب ، بعد التجرد من الأنفس والأموال يقرر أن الولي الناصر هو الله وحده . وأنه مالك السماوات والأرض ومالك الموت والحياة (إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت ، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) فالأموال والأنفس ، والسماوات والأرض ، والحياة والموت ، والولاية والنصرة . . كلها بيد الله دون سواه . وفي الصلة بالله وحده كفاية وغناء . وهذه التوكيدات المتوالية ، وهذا الحسم القاطع في علاقات القرابة تدل على ما كان يعتور بعض النفوس من اضطراب وأرجحة بين الروابط السائدة في البيئة ، ورابطة العقيدة الجديدة . مما اقتضى هذا الحسم الأخير ، في السورة التي تتولى الحسم في كل علاقات المجتمع المسلم بما حوله . . حتى الاستغفار للموتى على الشرك قد لقى هذا التشديد في شأنه . . ذلك لتخلص القلوب من كل وشيجة إلا تلك الوشيجة . ولما كانت تلك طبيعة البيعة ، كان التخلف عن الجهاد للقادرين – أياً كانت الأسباب – أمراً مستنكراً عظيماً ؛ وكان ما بدا في الغزوة من التردد والتخلف ظاهرة لا بد من تتبعها والتركيز عليها . . وفي الآيات التالية يبين مدى فضل الله ورحمته بالمؤمنين إذ يتجاوز عما بدا من التردد والتخلف من المؤمنين المخلصين ، ويتوب عليهم فيما وقع منهم من اخطاء صغرت أم كبرت . . كذلك يبين عن مصير الثلاثة الذين خلفوا بغير حكم في أمرهم – وهم المرجون لأمر الله الذين سبق ذكرهم – حتى نزل هذا الحكم بعد فترة من الزمان (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ، من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ؛ ثم تاب عليهم ليتوبوا . إن الله هو التواب الرحيم) وتوبة الله على النبي ﷺ تفهم بالرجوع إلى ما كان في أحداث الغزوة بجملتها ; والظاهر أنها متعلقة بما سبق أن قال الله عنه لنبيه (عفا الله عنك . لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) ذلك حين إستأذنه جماعة من أولى الطول بأعذار منتحلة فأذن لهم . وقد عفا الله عنه في اجتهاده ﷺ مع تنبيهه إلى أن الأولى كان هو التريث حتى يتبين الصادقين في أعذارهم من الكاذبين المتمحلين ! وتوبته على المهاجرين والأنصار يشير النص الذى بين أيدينا إلى ملابساتها في قوله تعالى (الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) وقد كان بعضهم تثاقل في الخروج ثم لحق بالركب كما سنفصل – وهم من خلص المؤمنين – وبعضهم استمع للمنافقين المرجفين بهول لقاء الروم ! ثم ثبت الله قلبه ومضى بعد تردد . ويحسن أن نستعرض بعض ظروف الغزوة وملابساتها لنعيش في جوها الذى يقرر الله – سبحانه – أنه كان (ساعة العسرة) ولندرك طبيعة الانفعالات والحركات التي صاحبتها [ونحن نلخص في هذا من السيرة لابن هشام ، ومن إمتاع الأسماع للمقريزى ، ومن البداية والنهاية لابن كثير ، ومن تفسير ابن كثير]: لما نزل قوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . . .) أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم] ويلاحظ أن الاشتباك بالروم كان قد سبق نزول هذه الآيات في غزوة مؤتة فهذا الأمر الأخير إنما جاء تقريراً للخطة الدائمة المستقرة في آخر ما نزل من القرآن] وذلك في زمن عسرة من الناس ، وشدة من الحر ، وجدب من البلاء ، وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال والزمان الذى هم عليه . وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصمد له [أى يقصد إليه] إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس ، لبعد الشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذى يصمد له ، ليتأهب الناس لذلك أهبته . فأمر الناس بالجهاز ، وأخبرهم أنه يريد الروم . واستأذن بعض المنافقين رسول الله ﷺ في التخلف مخافة الفتنة ببنات الروم ! فأذن ! وفي هذا نزل عتاب الله لنبيه في الإذن مصدراً بالعفو عنه في اجتهاده ﷺ فأما العسرة التي لقيها المسلمون في الغزوة فقد وردت بعض الروايات بشواهد منها . . قال ابن كثير في التفسير: قال مجاهد وغير واحد نزلت هذه الآية (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم) في غزوة تبوك . وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر , في سنة مجدبة ، وحر شديد ، وعسر من الزاد والماء . . قال قتادة: خرجوا إلى الشام على تبوك في لهبان الحر ، على ما يعلم الله من الجهد ، فأصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما , وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم . وروى ابن جرير – بإسناده – إلى عبد الله بن عباس:أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة , فقال عمر بن الخطاب:خرجنا مع رسول الله ﷺ

إلى تبوك ، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه , ويجعل ما بقي على كبده . وقال ابن جرير في قوله تعالى (لقد تاب اللّه على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) أى من النفقة والظهر والزاد والماء (من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) أى عن الحق ، ويشك في دين الرسول ﷺ ويرتاب للذى نالهم من المشقة ولشدة فى سفرهم وغزوهم (ثم تاب عليهم) يقول ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه (إنه بهم رؤوف رحيم) ولعل هذا الاستعراض أن يصور لنا اليوم كيف كانت (العسرة) كما ينقل لنا لمحة من الجو الذى عاشه المجتمع المسلم فى تلك الفترة ؛ يتجلى فيها تفاوت المقامات الإيمانية ; من اليقين الجاد عند طائفة . إلى الزلزلة والأرجحة تحت مطارق العسرة عند طائفة . إلى القعود والتخلف - بغير ريبة - عند طائفة . إلى النفاق الناعم عند طائفة . إلى النفاق الفاجر عند طائفة . إلى النفاق المتآمر عند طائفة . . مما يشي أولاً بالحالة العامة للتركيب العضوى للمجتمع فى هذه الفترة ؛ ويشي ثانياً بمشقة الغزوة - فى مواجهة الروم ومع العسرة - هذه المشقة الممحصة . الممتحنة الكاشفة ؛ والتى لعل اللّه سبحانه قد قدرها من أجل التمحيص والكشف والتمييز (وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) {١١٨}قال كعب رضي اللّه عنه:فلما سلمت على رسول اللّه ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور ":أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك " قلت:أمن عندك يا رسول اللّه أم من عند اللّه ؟ قال:" لا بل من عند اللّه " وكان رسول اللّه ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت:يا رسول اللّه , إن من توبتي أن أنخلع من مالى صدقة إلى اللّه وإلى رسوله ﷺ قال:" أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك " فقلت:إنى أمسك سهمي الذى بخيبر . وقلت يا رسول اللّه إنما أنجانى اللّه بالصدق ، وإن من توبتى ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت . فواللّه ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه اللّه من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول اللّه ﷺ أحسن مما أبلانى اللّه تعالى ، واللّه ما تعمدت كلمة منذ قلت ذلك لرسول اللّه ﷺ إلى يومي هذا كذباً ، وإنى لأرجو أن يحفظني اللّه فيما بقى . وأنزل اللّه: لقد تاب اللّه على النبى والمهاجرين والأنصار - إلى قوله - وكونوا مع الصادقين . قال كعب: فواللّه ما أنعم اللّه علي من نعمة قط بعد أن هدانى اللّه للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول اللّه - ﷺ يومئذ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه . فإن اللّه قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، فقال (سيحلفون باللّه لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس - إلى قوله الفاسقين) هذه هى قصة الثلاثة الذين خلفوا - كما رواها أحدهم كعب بن مالك - وفى كل فقرة منها عبرة ، وفيها كلها صورة بارزة الخطوط عن القاعدة الصلبة للمجتمع الإسلامى ، ومتانة بنائها ، وصفاء عناصرها ، ونصاعة تصورها لمعنى الجماعة ، ولتكاليف الدعوة ، ولقيمة الأوامر ، ولضرورة الطاعة . فهذا كعب بن مالك - وزميلاه - يتخلفون عن ركب رسول اللّه ﷺ في ساعة العسرة . يدركهم الضعف البشرى الذى يحبب إليهم الظل والراحة ، فيؤثرونهما على الحر والشدة والسفر الطويل والكد الناصب . ولكن كعباً ما يلبث بعد خروج رسول اللّه ﷺ أن يحس ما فعل ، يشعره به كل ما حوله:" فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول اللّه ﷺ يحزننى أننى لا أرى لى أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه فى النفاق ، أو رجلاً ممن عذر اللّه " - يعنى بمن عذر اللّه الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون . فالعسرة لم تقعد بالمسلمين عن تلبية دعوة رسول اللّه ﷺ إلى الغزوة البعيدة الشقة . لم يقعد إلا المطعون فيهم المظنون بهم النفاق ، وإلا العاجزون الذين عذرهم اللّه . أما القاعدة الصلبة للجماعة المسلمة فكانت أقوى روحاً من العسرة , وأصلب عوداً من الشدة هذه واحدة . والثانية هى التقوى . التقوى التى تلجئ المخطئ إلى الصدق والإقرار . والأمر بعد ذلك للّه:" فقلت:يا رسول اللّه ، واللّه لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر . لقد أعطيت جدلاً . ولكنى واللّه لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عنى به ليوشكن اللّه أن يسخطك علي . ولئن حدثتك بحديث صدق تجد علي فيه إنى لأرجو فيه عقبى من اللّه . واللّه ما كان لى عذر . واللّه ما كنت أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك " فاللّه حاضر فى ضمير المؤمن المخطئ . ومع حرصه البالغ على رضى رسول اللّه ﷺ وهذا الرضى يومئذ يعز ويذل ويرفع ويخفض ويترك المسلم مرموقاً بالأنظار أو مهملاً لا ينظر إليه إنسان - مع هذا فإن مراقبة اللّه أقوى وتقوى اللّه أعمق ؛ والرجاء فى اللّه أوثق . ونهى رسول اللّه ﷺ الناس عن كلامنا . أيها الثلاثة . من بين من تخلف عنه , فاجتنبنا الناس - أو قال:تغيروا لنا - حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى كنت أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة . فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما ; وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم . فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمنى أحد . وآتى رسول اللّه ﷺ فأسلم عليه فى مجلسه بعد الصلاة ، وأقول فى

نفسى:هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، فإذا التفت نحوه أعرض عنى . حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة – وهو ابن عمى وأحب الناس إلى – فسلمت عليه فواللّه ما رد على السلام . فقلت له:يا أبا قتادة أنشدك اللّه تعالى . هل تعلم أنى أحب اللّه ورسوله ؟ قال:فسكت . قال:فعدت فنشدته فسكت ، فعدت فنشدته . قال:" اللّه ورسوله أعلم " . ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار " هكذا كان الضبط ، وهكذا كانت الطاعة فى الجماعة المسلمة – على الرغم من كل ما وقع من خلخلة بعد الفتح ومن بلبلة فى ساعة العسرة – . . نهى رسول اللّه ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة . فلا مخلوق يفتح فمه بكلمة ، ولا مخلوق يلقى كعباً بأنس ، ولا مخلوق يأخذ منه أو يعطى . حتى ابن عمه وأحب الناس إليه ، وقد تسور عليه داره ، لا يرد عليه السلام ، ولا يجيبه عن سؤال . فإذا أجاب بعد الإلحاح لم يطمئن لهفته ولم يسكن قلقه ، إنما قال:" اللّه ورسوله أعلم " . وكعب فى لهفته – وقد تنكرت له الأرض فلم تعد الأرض التى كان يعرف – يتلمس حركة من بين شفتى الرسول ﷺ ويخالسه النظر لعله يعلم أن رسول اللّه قد ألقى إليه بنظرة يحيا على الأمل فيها ، ويطمئن إلى أنه لم يقطع من تلك الشجرة ، ولم يكتب له الذبول والجفاف ! وبينما هو طريد شريد ، لا يلقى إليه مخلوق من قومه بكلمة – ولو على سبيل الصدقة – يجيئه من قبل ملك غسان كتاب يمنيه بالعزة والكرامة والمجد والجاه . . ولكنه بحركة واحدة يعرض عن هذا كله ، وما يزيد على أن يلقى بالكتاب إلى النار ، ويعد هذا بقية من البلاء ، ويصبر على الابتلاء . وتمتد المقاطعة فتعزل عنه زوجه . لتدعه فريدا طريدا من الأنس كله ، مخلفاً بين الأرض والسماء . فيخجل أن يراجع رسول اللّه ﷺ فى امرأته ، لأنه لا يدرى كيف يكون الجواب . هذه صفحة . والصفحة الأخرى هى صفحة البشرى . بشرى القبول . بشرى العودة إلى الصف . بشرى التوبة من الذنب . بشرى البعث والعودة إلى الحياة . "فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر اللّه منا . قد ضاقت على نفسى ، وضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته:يا كعب بن مالك أبشر . فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج . فآذن رسول اللّه ﷺ بتوبة اللّه علينا حين صلى الفجر , فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبىّ مبشرون ، وركض إلى رجل فرساً ، وسعى ساع من أسلم قبلى وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاء الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته . واللّه ما أملك غيرهما يومئذ , فاستعرت ثوبين فلبستهما ، فانطلقت أؤم رسول اللّه ﷺ يتلقانى الناس فوجا بعد فوج يهنئوننى بالتوبة ،ويقولون:ليهنك توبة اللّه عليك . حتى دخلت المسجد فإذا رسول اللّه ﷺ جالس فى المسجد وحوله الناس ، فقام إلى طلحة بن عبيد يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، واللّه ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره . قال:فكان كعب لا ينساها لطلحة " هكذا كانت الأحداث تقدر وتقوّم فى هذه الجماعة . وهكذا كانت توبة مقبولة تستقبل وتعظم ; كانت بشرى يركض بها الفارس إلى صاحبها ، ويهتف بها راكب الجبل ليكون أسرع بشارة . وكانت التهنئة بها والاحتفاء بصاحبها جميلاً لا ينساه الطريد الذى رد إلى الجماعة واتصلت بها وشائجه ، فهو فى يوم كما قال عنه رسول اللّه ﷺ " أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك " قالها ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور ، كما قال كعب ، فهذا القلب الكبير الكريم الرحيم قد فاض به السرور أن تقبل اللّه توبة ثلاثة من أصحابه وردهم مكرمين إلى جماعته . تلك هى قصة الثلاثة الذين خلفوا ثم تاب اللّه عليهم ، وهذه هى بعض لمحات من دلالتها الواضحة على حياة الجماعة الإسلامية ، وعلى القيم التى كانت تعيش بها . والقصة كما رواها أحد أصحابها ، تقرب إلى نفوسنا معنى الآية (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من اللّه إلا إليه . .) (ضاقت عليهم الأرض بما رحبت). . فما الأرض ؟ إن هى إلا بأهلها . إن هى إلا بالقيم السائدة فيها . إن هى إلا بالوشائج والعلاقات بين أصحابها . فالتعبير صادق فى مدلوله الواقعى فوق صدقه فى جماله الفنى ، الذى يرسم هذه الأرض تضيق بالثلاثة المخلفين , وتتقاصر أطرافها ، وتنكمش رقعتها ، فهم منها فى حرج وضيق (وضاقت عليهم أنفسهم) فكأنما هى وعاء لهم تضيق بهم ولا تسعهم ، وتضغطهم فيتكرب أنفاسهم . (وظنوا أن لا ملجأ من اللّه إلا إليه) وليس هناك ملجأ من اللّه لأحد ، وهو آخذ بأقطار الأرض والسماوات . ولكن ذكر هذه الحقيقة هنا فى هذا الجو المكروب يخلع على المشهد ظلاً من الكربة واليأس والضيق ، لا مخرج منه إلا بالالتجاء إلى اللّه مفرج الكروب .ثم يجىء الفرج . . (ثم تاب عليهم ليتوبوا إن اللّه هو التواب الرحيم) تاب عليهم من هذا الذنب الخاص ، ليتوبوا توبة عامة عن كل ما مضى ، ولينيبوا إلى اللّه إنابة كاملة فى كل ما سيأتى . ومصداق هذا فى قول كعب:قلت:يا رسول اللّه ، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى اللّه وإلى رسوله . قال:" أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك " قال فقلت:فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر . وقلت:يا رسول اللّه إنما نجانى اللّه بالصدق وإن من توبتى ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت . قال: فواللّه ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه اللّه من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول اللّه ﷺ أحسن مما أبلانى اللّه تعالى . واللّه ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول اللّه

ﷺإلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله عز وجل فيما بقى . وفى ظل قصة التوبة على الذين ترددوا والذين تخلفوا ؛ وفى ظل عنصر الصدق البادى فى قصة الثلاثة الذين خلفوا ؛ يجىء الهتاف للذين آمنوا جميعاً أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين فى إيمانهم من أهل السابقة ؛ ويجىء التنديد بتخلف أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ، مع الوعد بالجزاء السخى للمجاهدين (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين . ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار , ولا ينالون من عدو نيلاً ، إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وادياً ، إلا كتب لهم , ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) إن أهل المدينة هم الذين تبنوا هذه الدعوة وهذه الحركة ، فهم أهلها الأقربون . وهم بها ولها . وهم الذين آووا رسول الله ﷺ وبايعوه ؛ وهم الذين باتوا يمثلون القاعدة الصلبة لهذا الدين فى مجتمع الجزيرة كله . وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة وقد أسلمت ؛ وباتت تؤلف الحزام الخارجى للقاعدة . . فهؤلاء وهؤلاء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ، وليس لهم أن يؤثروا أنفسهم على نفسه . . وحين يخرج رسول الله ﷺ فى الحر أوالبرد . فى الشدة أو الرخاء . فى اليسر أو العسر . ليواجه تكاليف هذه الدعوة وأعباءها ، فإنه لا يحق لأهل المدينة ، أصحاب الدعوة ، ومن حولهم من الأعراب ، وهم قريبون من شخص رسول الله ﷺ ولا عذر لهم فى ألا يكونوا قد علموا ، أن يشفقوا على أنفسهم مما يحتمله رسول الله ﷺ من أجل هذه الاعتبارات يهتف بهم أن يتقوا الله وأن يكونوا مع الصادقين ، الذين لم يتخلفوا ، ولم تحدثهم نفوسهم بتخلف ، ولم يتزلزل إيمانهم فى العسرة ولم يتزعزع . . وهم الصفوة المختارة من السابقين والذين اتبعوهم بإحسان (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) ثم يمضى السياق بعد هذا الهتاف مستنكراً مبدأ التخلف عن رسول الله (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) وفى التعبير تأنيب خفى . فما يؤنب أحد يصاحب رسول الله ﷺ بأوجع من أن يقال عنه:إنه يرغب بنفسه عن نفس رسول الله ، وهو معه ، وهو صاحبه ! وإنها لإشارة تلحق أصحاب هذه الدعوة فى كل جيل . فما كان لمؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول الله فى سبيل هذه الدعوة ؛ وهو يزعم أنه صاحب دعوة ؛ وأنه يتأسى فيها برسول الله ﷺ ! إنه الواجب الذى يوجبه الحياء من رسول الله – فضلاً على الأمر الصادر من الله ومع هذا فالجزاء عليه ما أسخاه ! (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلاً ، إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وادياً ، إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) إنه على الظمأ جزاء ، وعلى النصب جزاء ، وعلى الجوع جزاء . وعلى كل موطئ قدم يغيظ الكفار جزاء . وعلى كل نيل من العدو جزاء . يكتب به للمجاهد عمل صالح ، ويحسب به من المحسنين الذين لا يضيع لهم الله أجراً . وإنه على النفقة الصغيرة والكبيرة أجر . وعلى الخطوات لقطع الوادى أجر . . أجر كأحسن ما يعمل المجاهد فى الحياة . ألا والله ، إن الله ليجزل لنا العطاء . وإنها والله للسماحة فى الأجر والسخاء . وإنه لما يخجل أن يكون ذلك كله على أقل مما احتمله رسول الله ﷺ من الشدة واللأواء . فى سبيل هذه الدعوة التى نحن فيها خلفاء ، وعليها بعده أمناء ! ويبدو أن تنزل القرآن فى هذه السورة بالنكير على المتخلفين ؛ والتنديد بالتخلف وبخاصة من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ؛ قد جعل الناس يتزاحمون فى المدينة ليكونوا رهن إشارة رسول الله ﷺ وبخاصة من القبائل المحيطة بالمدينة . مما اقتضى بيان حدود النفير العام – فى الوقت المناسب للبيان من الناحية الواقعية – فقد اتسعت رقعة الأرض الإسلامية حتى كادت الجزيرة كلها تدين للإسلام ، وكثر عدد الرجال المستعدين للجهاد ، وقد بلغ من عددهم – بعد تخلف المتخلفين فى تبوك – نحواً من ثلاثين ألفاً ، الأمر الذى لم يتهيأ من قبل فى غزوة من غزوات المسلمين . وقد آن أن تتوزع الجهود فى الجهاد وفى عمارة الأرض وفى التجارة وفى غيرها من شؤون الحياة التى تقوم بها أمة ناشئة ؛ وهى تختلف عن مطالب القبيلة الساذجة ، وعن حاجات المجتمع القبلى الأولية . . ونزلت الآية التالية تبين هذه الحدود فى جلاء (وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) ولقد وردت روايات متعددة فى تفسير هذه الآية ، وتحديد الفرقة التى تتفقه فى الدين وتنذر قومها إذا رجعت إليهم . . والذى يستقيم عندنا فى تفسير الآية: أن المؤمنين لا ينفرون كافة . ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة – على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون – لتتفقه هذه الطائفة فى الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة ؛ وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم ، بما رأته وما فقهته من هذا الدين فى أثناء الجهاد والحركة . . والوجه فى هذا الذى ذهبنا إليه – وله أصل من تأويل ابن عباس – رضى الله عنهما – ومن تفسير الحسن البصرى ، واختيار ابن جرير ، وقول لابن كثير – أن هذا الدين منهج حركى , لا يفقهه إلا من

يتحرك به ؛ فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه ؛ بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه ؛ وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية فى أثناء الحركة به . أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا, لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا ؛ ولا فقهوا فقههم ؛ ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله -] ص [- والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفهم والتفقه . ولعل هذا عكس ما يتبادر إلى الذهن ، من أن المتخلفين عن الغزو والجهاد والحركة ، هم الذين يتفرغون للتفقه فى الدين ! ولكن هذا وهم ، لا يتفق مع طبيعة هذا الدين . . إن الحركة هى قوام هذا الدين ؛ ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به ، ويجاهدون لتقريره فى واقع الناس ، وتغليبه على الجاهلية ، بالحركة العملية . والتجارب تجزم بأن الذين لا يندمجون فى الحركة بهذا الدين لا يفقهونه ؛ مهما تفرغوا لدراسته فى الكتب - دراسة باردة ! - وأن اللمحات الكاشفة فى هذا الدين إنما تتجلى للمتحركين به حركة جهادية لتقريره فى حياة الناس ؛ ولا تتجلى للمستغرقين فى الكتب العاكفين على الأوراق ! إن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا فى أرض الحركة . ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة . والذين يعكفون على الكتب والأوراق فى هذا الزمان لكى يستنبطوا منها أحكاماً فقهية "يجددون" بها الفقه الإسلامى أو "يطورونه" - كما يقول المستشرقون من الصليبيين - ! وهم بعيدون عن الحركة التى تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد ، وردهم إلى العبودية لله وحده ، بتحكيم شريعة الله وحدها وطرد شرائع الطواغيت . . هؤلاء لا يفقهون طبيعة هذا الدين ؛ ومن ثم لا يحسنون صياغة فقه هذا الدين ! فأما اليوم . . "فماذا" . . ؟ أين هو المجتمع المسلم الذى قرر أن تكون دينونته لله وحده ؛ والذى رفض بالفعل الدينونة لأحد من العبيد ؛ والذى قرر أن تكون شريعة الله شريعته ؛ والذى رفض بالفعل شرعية أى تشريع لا يجىء من هذا المصدر الشرعى الوحيد ؟ لا أحد يملك أن يزعم أن هذا المجتمع المسلم قائم موجود ! ومن ثم لا يتجه مسلم يعرف الإسلام ويفقه منهجه وتاريخه ، إلى محاولة تنمية الفقه الإسلامى أو "تجديده" أو" تطويره ! " فى ظل مجتمعات لا تعترف ابتداء بأن هذا الفقه هو شريعتها الوحيدة التى بها تعيش . ولكن المسلم الجاد يتجه ابتداء لتحقيق الدينونة لله وحده ؛ وتقرير مبدأ أن لا حاكمية إلا لله ، وأن لا تشريع ولا تقنين إلا مستمداً من شريعته وحدها تحقيقاً لتلك الدينونة . . إنه هزل فارغ لا يليق بجدية هذا الدين أن يشغل ناس أنفسهم بتنمية الفقه الإسلامي أو" تجديده" أوتطويره فى مجتمع لا يتعامل بهذا الفقه ولا يقيم عليه حياته . كما أنه جهل فاضح بطبيعة هذا الدين أن يفهم أحد أنه يستطيع التفقه فى هذا الدين وهو قاعد ، يتعامل مع الكتب والأوراق الباردة ، ويستنبط الفقه من قوالب الفقه الجامدة ! . . إن الفقه لا يستنبط من الشريعة إلا فى مجرى الحياة الدافق ؛ وإلا مع الحركة بهذا الدين فى عالم الواقع .

بعد ذلك ترد آية تضع خطة الحركة الجهادية ومداها كذلك . وهما الخطة والمدى اللذان سار عليهما رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده بصفة عامة ، فلم تشذ عنها إلا حالات كانت لها مقتضيات واقعة (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين) فأما خطة الحركة الجهادية التى تشير إليها الآية فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) فقد سارت عليها الفتوح الإسلامية ، تواجه من يلون "دار الإسلام" ويجاورونها ، مرحلة فمرحلة . فلما أسلمت الجزيرة العربية - أو كادت ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف قوة يخشى منها على دار الإسلام بعد فتح مكة - كانت غزوة تبوك على أطراف بلاد الروم . ثم كان انسياح الجيوش الإسلامية فى بلاد الروم وفى بلاد فارس ، فلم يتركوا وراءهم جيوبا ؛ ووحدت الرقعة الإسلامية ، ووصلت حدودها ، فإذا هى كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء , متماسكة الأطراف ؛ . . ثم لم يأتها الوهن فيما بعد إلا من تمزقها ، وإقامة الحدود المصطنعة فيما بينها على أساس ملك البيوت ، أو على أساس القوميات ! وهى خطة عمل أعداء هذا الدين على التمكين لها جهد طاقتهم وما يزالون يعملون . وستظل هذه الشعوب التى جعل منها الإسلام "أمة واحدة " فى "دار الإسلام" المتصلة الحدود - وراء فواصل الأجناس واللغات والأنساب والألوان - ستظل ضعيفة مهيضة إلا أن تثوب إلى دينها , وإلى رايته الواحدة ؛ وإلا أن تتبع خطى رسول الله ﷺ تدرك أسرار القيادة الربانية التى كفلت لها النصر والعز والتمكين . ونقف مرة أخرى أمام قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين) فنجد أمرا بقتال الذين يلون المسلمين من الكفار . لا يذكر فيه أن يكونوا معتدين على المسلمين ولا على ديارهم . . وندرك أن هذا هو الأمر الأخير ، الذى يجعل" الانطلاق" بهذا الدين هو الأصل الذى ينبثق منه مبدأ الجهاد ، وليس هو مجرد" الدفاع" كما كانت الأحكام المرحلية أول العهد بإقامة الدولة المسلمة فى المدينة . ويريد بعض الذين يتحدثون اليوم عن العلاقات الدولية فى الإسلام ، وعن أحكام الجهاد فى الإسلام ، وبعض الذين يتعرضون لتفسير آيات الجهاد فى القرآن . . أن يتلمسوا لهذا النص النهائى الأخير قيدا من النصوص المرحلية السابقة ؛ فيقيدوه بوقوع الاعتداء أو خوف الاعتداء ! والنص القرآنى بذاته

مطلق ، وهو النص الأخير ! وقد عودنا البيان القرآني عند إيراد الأحكام ، أن يكون دقيقا فى كل موضع ؛ وألا يحيل فى موضع على موضع ؛ بل يتخير اللفظ المحدد ؛ ويسجل التحفظات والاستثناءات والقيود والتخصيصات فى ذات النص . إن كان هناك تحفظ أو استثناء أو تقييد أو تخصيص . إلا أن الذين يكتبون اليوم عن العلاقات الدولية فى الإسلام ، وعن أحكام الجهاد فى الإسلام ، والذين يتصدون لتفسير الآيات المتضمنة لهذه الأحكام ، يتعاظمهم ويهولهم أن تكون هذه هى أحكام الإسلام ! وأن يكون الله – سبحانه – قد أمر الذين آمنوا أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار ، وأن يظلوا يقاتلون من يلونهم من الكفار , كلما وجد هناك من يلونهم من الكفار ! . . يتعاظمهم ويهولهم أن يكون الأمر الإلهى هكذا , فيروحون يتلمسون القيود للنصوص المطلقة ؛ ويجدون هذه القيود فى النصوص المرحلية السابقة إننا نعرف لماذا يهولهم هذا الأمر ويتعاظمهم على هذا النحو . إنهم ينسون أن الجهاد فى الإسلام جهاد فى "سبيل الله" . . جهاد لتقرير ألوهية الله فى الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لسلطان الله . . جهاد لتحرير "الإنسان" من العبودية لغير الله ، ومن فتنته بالقوة عن الدينونة لله وحده والانطلاق من العبودية للعباد) . . حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله). . وأنه ليس جهادا لتغليب مذهب بشرى على مذهب بشرى مثله . إنما هو جهاد لتغليب منهج الله على مناهج العبيد ! وليس جهادا لتغليب سلطان قوم على سلطان قوم ، إنما هو جهاد لتغليب سلطان الله على سلطان العبيد ! وليس جهادا لإقامة مملكة لعبد ، إنما هو جهاد لإقامة مملكة الله فى الأرض . . ومن ثم ينبغى له أن ينطلق فى "الأرض" كلها ، لتحرير "الإنسان" كله . بلا تفرقة بين ما هو داخل فى حدود الإسلام وبين ما هو خارج عنها . . فكلها "أرض" يسكنها" الإنسان" وكلها فيها طواغيت تعبد العباد للعباد ! وحين ينسون هذه الحقيقة يهولهم طبعا أن ينطلق منهج ليكتسح كل المناهج ، وأن تنطلق أمة لتخضع سائر الأمم . . إنها فى هذا الوضع لا تستساغ ! وهى فعلا لا تستساغ . . ! لولا أن الأمر ليس كذلك . وليس لهشبيه فيما بين أنظمة البشر اليوم من إمكان التعايش ! إنها كلها اليوم أنظمة بشرية . فليس لواحد منها أن يقول:إنه هو وحده صاحب الحق فى البقاء ! وليس الحال كذلك فى نظام إلهى يواجه أنظمة بشرية ؛ ليبطل هذه الأنظمة كلها ويدمرها كى يطلق البشر جميعا من ذلة العبودية للعباد ؛ ويرفع البشر جميعا إلى كرامة العبودية لله وحده بلا شريك ! ثم إنه يهولهم الأمر ويتعاظمهم لأنهم يواجهون هجوما صليبيا منظما لئيما ماكرا خبيثا يقول لهم: إن العقيدة الإسلامية قد انتشرت بالسيف ، وأن الجهاد كان لإكراه الآخرين على العقيدة الإسلامية ؛ وانتهاك حرمة حرية الاعتقاد ! والمسألة على هذا الوضع لا تكون مستساغة . . لولا أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق . . إن الإسلام يقوم على قاعدة (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى). . ولكن لماذا ينطلق إذن بالسيف مجاهدا ؛ ولماذا اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة (يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون)؟ . . إنه لأمر آخر غير الإكراه على العقيدة كان هذا الجهاد . . بل لأمر مناقض تماما للإكراه على العقيدة . . إنه لضمان حرية الاعتقاد كان هذا الجهاد ! . . لأن الإسلام كإعلان عام لتحرير" الإنسان" فى "الأرض" من العبودية للعباد ؛ يواجه دائما طواغيت فى الأرض يخضعون العباد للعباد . ويواجه دائما أنظمة تقوم على أساس دينونة العبيد للعبيد ؛ تحرس هذه الأنظمة قوة الدولة أو قوة تنظيمية فى صورة من الصور ؛ وتحول دون الناس فى داخلها ودون سماع الدعوة الإسلامية ؛ كما تحول دونهم ودون اعتناق العقيدة إذا ارتضتها نفوسهم , أو تفتنهم عنها بشتى الوسائل . . وفى هذا يتمثل انتهاك حرية الاعتقاد بأقبح أشكاله . . ومن هنا ينطلق الإسلام بالسيف ليحطم هذه الأنظمة ، ويدمر هذه القوى التى تحميها . . ثم ماذا ؟ . . ثم يترك الناس – بعد ذلك – أحرارا حقا فى اختيار العقيدة التى يريدونها . إن شاءوا دخلوا فى الإسلام ، فكان لهم ما للمسلمين من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات ، وكانوا إخوانا فى الدين للسابقين فى الإسلام ! وإن شاءوا بقوا على عقائدهم وأدوا الجزية ، إعلانا عن استسلامهم لانطلاق الدعوة الإسلامية بينهم بلا مقاومة ؛ ومشاركة منهم فى نفقات الدولة المسلمة التى تحميهم من اعتداء الذين لم يستسلموا بعد ، وتكفل العاجز منهم والضعيف والمريض كالمسلمين سواء بسواء . إن الإسلام لم يكره فردا على تغيير عقيدته ؛ كما انطلقت الصليبية على مدار التاريخ تذبح وتقتل وتبيد شعوبا بأسرها – كشعب الأندلس قديما وشعب زنجبار حديثا – لتكرههم على التنصر . وأحيانا لا تقبل منهم حتى التنصر ، فتبيدهم لمجرد أنهم مسلمون . . وأحيانا لمجرد أنهم يدينون بمذهب نصراني مخالف لمذهب الكنيسة الرسمية . . وقد ذهب مثلا اثنا عشر ألفا من نصارى مصر ضحايا بصور بشعة إذ أحرقوا أحياء على نار المشاعل لمجرد مخالفتهم لجزئية اعتقادية عن كنيسة روما تتعلق بإنبثاق الروح القدس من الآب فقط ، أو من الآب والابن معا ! أو يتعلق بما إذا كان للمسيح طبيعة واحدة لاهوتية , أو طبيعة لاهوتية ناسوتية . . . إلى آخر هذه الجزيئات الإعتقادية الجانبية ! وأخيرا فإن صورة الإنطلاق فى الأرض لمواجهة من يلون المسلمين من الكفار تهول المهزومين روحيا فى هذا الزمان وتتعاظمهم ؛ لأنهم يبصرون بالواقع من حولهم وبتكاليف هذا الإنطلاق فيهولهم الأمر . . وهو يهول فعلا ! . . فهل هؤلاء الذين يحملون أسماء المسلمين , وهم شعوب مغلوبة على أمرها ؛ أو قليلة الحيلة عموما ! هل

هؤلاء هم الذين سينطلقون فى الأرض يواجهون أمم الأرض جميعا بالقتال ، حتى لا تكون فتنة ويكونالدين كله لله ؟! إنه لأمر لا يتصور عقلا . . ولا يمكن أن يكون هذا هو أمر الله فعلا ! ولكن فات هؤلاء جميعا أن يروا متى كان هذا الأمر ؟ وفى أى ظرف ؟ لقد كان بعد أن قامت للإسلام دولة تحكم بحكم الله ؛ دانت لها الجزيرة العربية ودخلت فى هذا الدين ، ونظمت على أساسه . وقبل ذلك كله كانت هناك العصبة المسلمة التى باعت أنفسها لله بيعة صدق ، فنصرها الله يوما بعد يوم ، وغزوة بعد غزوة ، ومرحلة بعد مرحلة . . وأن الزمان قد إستدار اليوم كهيئته يوم بعث الله محمدا ﷺ ليدعو الناس – فى جاهليتهم – إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . فجاهد والقلة التى معه حتى قامت الدولة المسلمة فى المدينة . وأن الأمر بالقتال مر بمراحل وأحكام مترقية حتى انتهى إلى تلك الصورة الأخيرة . . وأن بين الناس اليوم وهذه الصورة أن يبدأوا من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول . . ثم يصلوا – يوم أن يصلوا – إلى هذه الصورة الأخيرة بإذن الله . . ويومئذ لن يكونوا هم هذا الغثاء الذى تتقاسمه المذاهب والمناهج والأهواء ؛ والذى تتقاسمه الرايات القومية والجنسية والعنصرية . ولكنهم سيكونون العصبة المسلمة الواحدة التى ترفع راية:لا إله إلا الله . ولا ترفع معها راية أخرى ولا شعارا ، ولا تتخذ لها مذهبا ولا منهجا من صنع العبيد فى الأرض ؛ إنما تنطلق بإسم الله وعلى بركة الله . . إن الناس لا يستطيعون أن يفقهوا أحكام هذا الدين ، وهم فى مثل ما هم فيه من الهزال ! إنه لن يفقه أحكام هذا الدين إلا الذين يجاهدون فى حركة تستهدف تقرير ألوهية الله وحده فى الأرض ومكافحة ألوهية الطواغيت ! إن فقه هذا الدين لا يجوز أن يؤخذ عن القاعدين ، الذين يتعاملون مع الكتب والأوراق الباردة ! إن فقه هذا الدين فقه حياة وحركة وانطلاق . وحفظ ما فى متون الكتب . والتعامل مع النصوص فى غير حركة ، لا يؤهل لفقه هذا الدين ، ولم يكن مؤهلا له فى يوم من الأيام ! وأخيرا فإن الظروف التى نزل فيها قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين) تشير إلى أن أول المقصودين به كانوا هم الروم . . وهم أهل كتاب . . ولكن لقد سبق فى السورة تقرير كفرهم الاعتقادى والعملى ، بما فى عقيدتهم من انحراف ، وبما فى واقعهم من تحكيم شرائع العبيد . . وهذه لفتة لا بد من الوقوف عندها لفقه منهج هذا الدين فى الحركة تجاه أهل الكتاب , المنحرفين عن كتابهم ، المحتكمين إلى شرائع من صنع رجال فيهم ! . وهى قاعدة تشمل كل أهل كتاب يتحاكمون – راضين – إلى شرائع من صنع الرجال وفيهم شريعة الله وكتابه , فى أى زمان وفى أى مكان ! ثم لقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار وليجدوا فيهم غلظة , وعقب على هذا الأمر بقوله (إن الله يحب المتقين) ولهذا التعقيب دلالته . . فالتقوى هنا . . التقوى التى يحب الله أهلها . . هى التقوى التى تنطلق فى الأرض تقاتل من يلون المسلمين من الكفار ؛ وتقاتلهم فى "غلظة " أى بلا هوادة ولا تميع ولا تراجع . . حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . ولكنه ينبغى أن نعرف وأن يعرف الناس جميعا أنها الغلظة على الذين من شأنهم أن يحاربوا وحدهم – وفى حدود الآداب العامة لهذا الدين – وليست هى الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب !

إنه قتال يسبقه إعلان ، وتخيير بين:قبول الإسلام ، أو أداء الجزية ، أو القتال . . ويسبقه نبذ العهد إن كان هناك عهد – فى حالة الخوف من الخيانة – [والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية ؛ ولا عهد فى غير هذه الحالة إلا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتعين فى حالتهم هذه هو الحكم المرحلى الذى كان فى حالة تشبه الحالة التى هم فيها] .

وهذه آداب المعركة كلها ، من وصية رسول الله ﷺ

عن بريدة – رضى الله عنه – قال:كان رسول الله ﷺ إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيرا ، ثم قال:" اغزوا باسم الله ، فى سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا . فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ادعهم إلى الإسلام . فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم , ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله تعالى الذى يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم من الغنيمة والفىء شىء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . وإن هم أبوا فسلهم الجزية . فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فإن أبوا فاستعن بالله تعالى عليهم وقاتلهم .] " . . أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى] وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال:وجدت امراة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان . . [أخرجه الشيخان] . وعن العرباض بن سارية قال:" نزلنا مع رسول الله قلعة خيبر ، ومعه من معه من

المسلمين . وكان صاحب خيبر رجلا ماردا متكبرا . فأقبل إلى النبى ﷺ فقال:يا محمد ! لكم أن تذبحوا حمرنا ، وتأكلوا ثمرنا ، وتضربوا نساءنا ؟ فغضب رسول الله ﷺ وقال يا ابن عوف اركب فرسك ، ثم نادى إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن وأن اجتمعوا للصلاة . فاجتمعوا ، ثم صلى بهم ، ثم قام فقال أيحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئا إلا ما فى القرآن ! ألا وإنى قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء , إنها لمثل القرآن أو أكثر . وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن , ولا ضرب نسائهم ، ولا أكل ثمارهم ، إذا أعطوا الذى عليهم " . ورفع إليه ﷺ بعد إحدى المواقع أن صبية قتلوا بين الصفوف ، فحزن حزنا شديدا ، فقال بعضهم:ما يحزنك يا رسول الله وهم صبية للمشركين ؛ فغضب النبى ﷺ وقال – ما معناه – إن هؤلاء خير منكم ، إنهم على الفطرة ، أو لستم أبناء المشركين . فإياكم وقتل الأولاد . إياكم وقتل الأولاد . وهذه التعليمات النبوية هى التى سار عليها الخلفاء بعده ،روى مالك عن أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – أنه قال: ستجدون قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، ولا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما وقال زيد بن وهب: أتانا كتاب عمر – رضى الله عنه – وفيه:"لا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليدا ، واتقوا الله فى الفلاحين ومن وصاياه ! " ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان , وعند شن الغارات " وهكذا تتواتر الأخبار بالخط العام الواضح لمستوى المنهج الإسلامى فى قتاله لأعدائه , وفى آدابه الرفيعة ، وفى الرعاية لكرامة الإنسان . وفى قصر القتال على القوى المادية التى تحول بين الناس وبين أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . وفى اليسر الذى يعامل به حتى أعداءه . أما الغلظة فهى الخشونة فى القتال والشدة ; وليست هى الوحشية مع الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة ، غير المحاربين أصلا ، وليست تمثيلا بالجثث والأشلاء على طريقة المتبربرين الذين يسمون أنفسهم متحضرين فى هذا الزمن ، وقبيل ختام السورة التى تكلمت طويلا عن المنافقين ، تجىء آيات تصور طريقة المنافقين فى تلقى آيات الله وفى استقبال تكاليف هذه العقيدة التى يتظاهرون بها كاذبين ; وإلى جانبها صورة الذين آمنوا وتلقيهم لهذا القرآن الكريم (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول:أيكم زادته هذه إيمانا ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ؛ وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون . أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ؟ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض:هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا . صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) والسؤال فى الآية الأولى (أيكم زادته هذه إيمانا ؟) سؤال مريب ، لا يقوله إلا الذى لم يستشعر وقع السورة المنزلة فى قلبه . وإلا لتحدث عن آثارها فى نفسه ، بدل التساؤل عن غيره . وهو فى الوقت ذاته يحمل رائحة التهوين من شأن السورة النازلة والتشكيك فى أثرها فى القلوب ! لذلك يجىء الجواب الحاسم ممن لا راد لما يقول(فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) فأما الذين آمنوا فقد أضيفت إلى دلائل الإيمان عندهم دلالة فزادتهم إيمانا ؛ وقد خفقت قلوبهم بذكر ربهم خفقة فزادتهم إيمانا ؛ وقد استشعروا عناية ربهم بهم فى إنزال آياته عليهم فزادتهم إيمانا . . وأما الذين فى قلوبهم مرض ، الذين فى قلوبهم رجس من النفاق , فزادتهم رجسا إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون . . وهو نبأ من الله صادق ، وقضاء منه سبحانه محقق . وقبل أن يعرض السياق الصورة الثانية لاستجابتهم يسأل مستنكرا حال هؤلاء المنافقين الذين لا يعظهم الابتلاء ، ولا يردهم الامتحان (أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ؟) والفتنة كانت تكون بكشف سترهم ، أو بنصر المسلمين بدونهم ، أو بغيرهما من الصور , وكانت دائمة الوقوع كثير التكرار فى عهد الرسول ﷺ وما يزال المنافقون يفتنون ولا يتوبون ! فأما الصورة الحية أو المشهد المتحرك فترسمه الآية الأخيرة ، فى شريط متحرك دقيق (وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض:هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا . صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون !) وإننا – حين نتلو الآية – لنستحضر مشهد هؤلاء المنافقين وقد نزلت سورة . فإذا بعضهم ينظر إلى بعض ويغمز غمزة المريب (هل يراكم من أحد ؟)ثم تلوح لهم غرة من المؤمنين وانشغال فإذا هم يتسللون على أطراف الأصابع فى حذر (ثم انصرفوا) تلاحقهم من العين التى لا تغفل ولا تنشغل دعوة قاصمة تناسب فعلتهم المريبة (صرف الله قلوبهم !) صرفها عن الهدى فإنهم يستحقون أن يظلوا فى ضلالهم يعمهون (بأنهم قوم لا يفقهون) عطلوا قلوبهم عن وظيفتها فهم يستحقون ! إنه مشهد كامل حافل بالحركة ترسمه بضع كلمات ، فإذا هو شاخص للعيون كأنها تراه ! وتختم السورة بآيتين ورد أنهما مكيتان ، وورد أنهما مدنيتان . ونحن نأخذ بهذا الأخير , ونلمح مناسبتهما فى مواضع متفرقة فى هذا الدرس وفى جو السورة على العموم . آيتين تتحدث إحداهما عن الصلة بين الرسول وقومه ، وعن حرصه عليهم ورحمته بهم . ومناسبتها حاضرة فى التكاليف التى كلفتها الأمة المؤمنة فى مناصرة الرسول ودعوته وقتال أعدائه واحتمال العسرة والضيق . والآية الثانية توجيه لهذا الرسول أن يعتمد على ربه وحده حين يتولى عنه من يتولى ، فهو وليه

وناصره وكافيه (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم , فإن تولوا فقل حسبى الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم) ولم يقل:جاءكم رسول منكم . ولكن قال (من أنفسكم) وهى أشد حساسية وأعمق صلة ، وأدل على نوع الوشيجة التى تربطهم به . فهو بضعة من أنفسهم ، تتصل بهم صلة النفس بالنفس , وهى أعمق وأحسن (عزيز عليه ما عنتم) يشق عليه عنتكم ومشقتكم (حريص عليكم) لا يلقى بكم فى المهالك ، ولا يدفع بكم إلى المهاوى ؛ فإذا هو كلفكم الجهاد ، وركوب الصعاب ، فما ذلك من هوان بكم عليه ، ولا بقسوة فى قلبه وغلظة ، إنما هى الرحمة فى صورة من صورها . الرحمة بكم من الذل والهوان ، والرحمة بكم من الذنب والخطيئة , والحرص عليكم أن يكون لكم شرف حمل الدعوة ، وحظ رضوان الله ، والجنة التى وعد المتقون . ثم ينتقل الخطاب إلى الرسول ﷺ يعرفه طريقه حين يتولى عنه من يتولى ، ويصله بالقوة التى تحميه وتكفيه (فإن تولوا فقل:حسبى الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم) فإليه تنتهى القوة والملك والعظمة والجاه ، وهو حسب من لاذ به وحسب من والاه . إنه ختام سورة القتال والجهاد الارتكان إلى الله وحده ، والاعتماد على الله وحده , واستمداد القوة من الله وحده (وهو رب العرش العظيم) وبعد فإن هذه السورة المحكمة تحتوى بيان الأحكام النهائية فى العلاقات الدائمة بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات حوله – كما بينا فى خلال عرضها وتقديمها – ومن ثم ينبغى أن يرجع إلى نصوصها الأخيرة بوصفها الكلمة الأخيرة فى تلك العلاقات ؛ وأن يرجع إلى أحكامها بوصفها الأحكام النهائية المطلقة ، حسبما تدل عليها نصوص السورة . كما ينبغى ألا تقيد هذه النصوص والأحكام النهائية بنصوص وأحكام وردت من قبل – وهى التى سميناها أحكاما مرحلية – مستندين فى هذه التسمية:أولا وبالذات إلى ترتيب نزول الآيات . ومستندين أخيرا إلى سير الأحداث فى الحركة الإسلامية ، وإدراك طبيعة المنهج الإسلامى فى هذه الحركة . . هذه الطبيعة التى بيناها في التقديم للسورة وفى ثناياها كذلك . وهذا هو المنهج الذى لا يدركه إلا الذين يتحركون بهذا الدين حركة جهادية لتقرير وجوده فى واقع الحياة ؛ برد الناس إلى ربوبية الله وحده ، وإخراجهم من عبادة العباد ! إن هنالك مسافة شاسعة بين فقه الحركة ، وفقه الأوراق ! إن فقه الأوراق يغفل الحركة ومقتضياتها من حسابه ، لأنه لا يزاولها ولا يتذوقها ! أما فقه الحركة فيرى هذا الدين وهو يواجه الجاهلية ، خطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ، وموقفا موقفا . ويراه وهو يشرع أحكامه فى مواجهة الواقع المتحرك ، بحيث تجيء مكافئة لهذا الواقع وحاكمة عليه ; ومتجددة بتجدده كذلك ! وأخيرا فإن تلك الأحكام النهائية الواردة فى السورة الأخيرة ؛ إنما جاءت وواقع المجتمع المسلم ، وواقع الجاهلية من حوله كذلك ، كلاهما يحتم اتخاذ تلك الإجراءات وتنفيذ تلك الأحكام . . فأما حين كان واقع المجتمع المسلم وواقع الجاهلية من حوله يقتضى أحكاما أخرى . . مرحلية . . فقد جاءت فى السور السابقة نصوص وأحكام مرحلية . وحين يوجد المجتمع المسلم مرة أخرى ويتحرك ؛ فإنه يكون فى حل من تطبيق الأحكام المرحلية فى حينها . ولكن عليه أن يعلم أنها أحكام مرحلية ، وأن عليه أن يجاهد ليصل فى النهاية إلى تطبيق الأحكام النهائية التى تحكم العلاقات النهائية بينه وبين سائر المجتمعات . . و الله الموفق ، و الله المعين

الفهـــرس

بقية سورة الأنعام: ص:٣

سورة الأعراف: ص:١٧

سورة الأنفال : ص:٨٦

سورة التوبة : ..... ص: ١٢٦

الفهرس : ..... ص: ١٨٦

الأستاذ : محمد رباعة من مواليد ٢١ أكتوبر ١٩٦٣ ب القراح (القرزى) بلدية أولاد رحمون ، ولاية قسنطينة ، (الجزائر) كاتب عصامى و صحفى مستقل ، مدير دار القبس للنشر الإلكترونى ، و رئيس تحرير مجلة القبس الشهرية السياسية الثقافية الإلكترونية ، الف العديد من الكتب أهمها: موسوعة النظام الجزائرى من سنة ١٩٦٢ الى سنة ٢٠١٢ التى تتكون من ستة (٦) أجزاء ، تقدم قراءة تحليلية موضوعية لأهم الأحداث و القرارات و المواقف و الإنجازات ، و كتب التصور الإسلامى لله و الحياة و الإنسان و هو معالجة عصرية لأهم عناصر العقيدة الإسلامية ، و مأزق الحداثة و مابعد الحداثة و موقف الإسلام منهما ، الذى عالج الموضوع بأسلوب بسيط قريب الى الأذهان و بعيد عن تعقيدات و غموض الكتابات الحداثية و العلمانية ، و الحراك الإسلامى فى الجزائر من سنة ١٩٦٢ الى سنة ٢٠١٢ ، و كتاب مختصر فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ، و كل كتبه مطبوعة بطريقة ألكترونية PDF طباعة راقية و أنيقة .